

خسري شلبي

وڪال عطاية

رواية



دار الاحمدى للنشر

وَالْعِطَّةُ
رواية

دار الأحمدي للنشر

القاهرة : ١٥ ش عبد الخالق ثروت - تليفاكس / ٥٧٥٨٠٩٨

المنيا : ٧٣ طه حسين - تليفاكس / ٣٤٧٨٠٢

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى : يناير ١٩٩٩

رقم الإيداع : ١٦٢٠ / ٩٩

الترقيم الدولي : 5 - 13 - 5887 - 977

طبع وفصل ألوان : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ - ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣

خیری شلبي

وڪالبر عظمیٰ

روایت



أغنية القمر

ياقمرنا يا هادي ..
يا لابس بغداددي ..
شيل حماتك وارقعها ..
حللي الدم يفرقعها ..
فرقعها لولي لولي ..
زي الشمع المحلول ..
حليته قبضه قبضه ..
زي الصندوق الفضة ..
حللي امي تطلع تغسل ..
تغسل لي ما تغسل لي ..
تغسل لي توين حرير ..
وتنشرهم ع المنديل ..
والمنديل مليون حنه ..
آخذ منه واتحنى ..
.. واطلع فوق العلوايه ..
وأقول : يا حدايه ..
ماتاحديش حناتي ..
لما ييجوا عماتي ..
عماتي خمس سنه ..
يلعبوا تحت الدكه ..
والدكه يا محلاها ..
شيخ العرب جوالها ..
حدث محمد في كمي ..

نط ورايا دار أمي ..
دار أمي كبيره كبيره ..
فيها عسكر كثيره ..
واحدہ تشن ..
واحدہ تزن ..
واحدہ ترن ..
واحدہ تقول : يا عسكر قوم اسكر .

" أغنية شعبية من ريف الدلتا "

ما كنت أحسب أن الحال يمكن أن يتدحدر بي إلى حد قبول السكنى في وكالة عطية . بل ما كنت أتصور أنني قد صرت صعلوكاً حقيقياً ومن زمرة الصبيّاع القراريين ، إلى حد أن أعرف مكاناً في مدينة دمنهور إسمه وكالة عطية . إذ هو مكان لم يكن ليخطر لمثلي على بال مطلقاً ، ولم تكن لتقودني قدماي إلى هذا المكان البعيد المتطرف ، الذي قد لا يعرفه أبناء المدينة أنفسهم ، الذين جابوها من أقصاها إلى أقصاها وعرفوا كل حرم إبرة فيها .. لولا أنني - فيما اتضح لي - قد ضربت الرقم القياسي في الصعلكة والصياغة واللف على غير هدى ..

المفروض أنني طالب بمعهد المعلمين العام ، أقصد كنت كذلك قبل ما يزيد على عامين . كنت على وشك أن أصير مدرساً بعد عام واحد ، حيث أظهرت تفوقاً في دروس التربية العملية وفي نظم التدريس ومناهج الحديثة ، إلا أنني رزئت بمدرس للرياضة كان سخيلاً وسمجاً وابن زانية : لم يعجبه أن أبناء الفلاحين للمعلمين القادمين من القرى والعزب أشبه بالجرابيع الحفاة ، يمكن أن يتفوقوا في التعليم على أبناء المدارس الأصلاء من أبناء الذوات والناس الطيبين ، فصار يتصدى لي في كل امتحان ، يتحداني بالنظرات الخشنة القاسية ، يحرر لي محضراً كلما اعتذلت في جلستي أو كححت أو تلفت حوالي طالباً من أحد الزملاء مسطرة أو فرجاراً أو أستيكة ، تلك الأشياء التي لا أذكر أنني اقتنيتها أبداً طوال أيام الدراسة . وكان هو ممروراً من هذه الناحية ، وممروراً أكثر من أنني لم أشتري أى كتاب طلبه أو كراسة مربعات أو صبي بضرورتها ، فما كان منه إلا أن منع الجميع من معاونتي بأي شيء ، بل عاقب بالطرد زميلاً سرب إلي فرجاراً ، ثم راح يتفنن في إهانتني، فرحت أوجه إليه النظرات حاقدة مكبوتة ، بدرجة أغاظته جداً ، فسحب ورقة الإجابة بيضاء ثم - بكل بساطة وصراف - طردني . وقفت مسروراً في مكاني أنتفض من الغيظ ، ولا بد أن عيني كانتا توجهان إليه سهماً حارقة ، إذ كشر عن أنيابه قائلاً:

- " بتبص لي كده ليه ياد أنت ؟ مش عاجبك ؟ "

جعلت أوائل النظر لا أدري ماذا أو ما أفعل . ضربني هو بالشلوط ضربة ألقت بي على عتبة باب الفصل فانطرحت على وجهي ، أنا الذي كنت منذ قليل أتخيل نفسي مدرساً محترماً مهيباً . فطار صوابي ؛ لممت نفسي بسرعة . مثل كلب

مسعور متوحش ، رميت بنفسي فى كرش وائل أفندي مدرس الرياضة بكل قوتي . صرت أنهش فى لحم وجهه بأسناني ، وأدق أنفه وأسنانه بمقدمة رأسي ، وأضرب بركبتي وقدمي فى محاشمه وقصبة ساقه، حتى تطوح منطرحاً على الأرض ، فبركت فوقه ممسكاً بتلابيبه وقد ماتت أصابعي الغاطسة فى لحم رقبته . هاجت اللجنة كلها. شعرت أن مدينة برمتها تنهال ضرباً على جسدي تحاول تخليصه مني دون جدوى ، ارتفع الصباح واشتغل الغش وظهر البرشام بالأكوام ، وجاء العميد يهرول فزعاً ، وجاء أكثر من شرطي وصارت الهراوة تنهال على ظهري ومؤخرتي ورأسي. كل ضربة أتلقاها أنفثها سماً فى وجه وائل أفندي ، بأن أرفع رأسه ثم أهبطه فى الأرض كأننى أريد تنفيضة من المخ . حتى إذا ما خيل لي أنه قد لفظ روحه وتهاوت كل أعضائه وأصفر لونه واختفى بريق عينيه ثمما تراخيت واستعجت للأيدي التي ترفعني عنه. فلما وقفت صرت أدبب بقدمي فى بطنه ، فى محاشمه ، فى وجهه ، حتى تركته كومة من الخرق الممزقة مبقعة بالدم ، دمي ودمه ..

نقلوه إلى المستشفى فى حالة خطيرة ؛ وسلموني إلى شرطة البندر فى حالة يرثى لها ، تشيعنى لعنات العميد ووصفه لأهلبي ولأمثالي بأنهم رعا ع سفلة حقراء ، ولطه حسين بأنه حرب التعليم ودنسه بأولاد السفلة من أمثالي . وكنت أعرف أنه سيقول هذا ، لكننى لم أعره انتباهاً ؛ إذ كنت واثقاً أنني قد شفيت غليلي وانتقمت لكرامتي المهذرة ، وأن الكثيرين من زملائي كانوا ينظرون يى بكثير من الأسف المشوب بشيء من الإعجاب ؛ ومع ذلك كنت أشعر أنني لم أكمل بولتي التي لا بد أن أبولها فى حنك وائل أفندي ، مادمت سأدخل السجن وأحرم من مستقبلتي على يديه ، وأننى سوف أقتله حتماً حالماً أتملك حريتي فى أية لحظة .

إلا أن المحكمة رافت بحالي فحكمت على بستة أشهر سجنًا مع إيقاف التنفيذ ، مع فصلي نهائياً من المعهد . ويوم ذهبت إلى المعهد بعد ذلك بعام ، بشجة سحب ورفي ، وبنية أن أغرز سكيناً فى كبد وائل أفندي ، فوجئت به قد بات مسخاً شائها أعور العين حيث تبين لي أنني فى جنوني فقأت إحدى عينيه ، وكانت أسناني لا تزال تحفر أماكنها فى جميع أنحاء وجهه ، وكان يمشى نحو الفصل فى انكسار ، متنازلاً عن عجزته وخطرسه وقد انخفض صوته الجمهورى الشاخط دائماً

بلسانه الذواتي الألدغ . أما أناقته التي كانت تميزه فقد بهتت تماماً . لحظتها تراحت يدي على قبضة السكين في جيبي ، وداخلني شيء من الإشفاق. علينا كلينا . ولقد نظرتني بطرف عينه السليمة لكنه لم يعرفني لأن شكلي كان قد طرأ عليه تغيير حاد، إذ طال شعري وتهوش بصورة لافتة ، ونبتت لحيتي ، وترهلت ملابسي ، وتراكم الصدا على وجهي وأطرافي وثيابي لدرجة أن الكثيرين من زملائي في الفصل لم يتعرفوا عليّ أثناء مرورهم بجواري في فناء المعهد أو حجرة السكرتير. والواقع لقد استرحت لذلك فلم أشأ تذكرهم بنفسي ، ولم أحرص على سحب الورق إلا لوضعه مطوياً في جيب الجلباب كبطاقة شخصية عند اللزوم.

ذلك الحدث كان معناه ألا أعود إلى قريتي مطلقاً ، وأن أجعل من شوارع المدينة موطني وسكنائي . صرت طول النهار والليل أذرع شوارعها وحواريها وأحياءها من شارع السوسى إلى شارع المديرية إلى كوبرى إفلاقة إلى شبرا إلى أبو الريش إلى شارع النادى . أقضي بعض الوقت فى مكتبة البلدية أقرأ القصص والروايات والأشعار أبحث عن عالم أفضل يأويني لساعات قليلة أستقبل بعدها شوارع دمنهور المسفلتة الناشفة الطبع لاتحن بقطرة خير على غريب ولاتأمن لعابر سبيل ، أحترق شارع السوسى من شارع الصاغة بعد أن أكون قد شبت من رائحة الفول المدمس المتصاعدة من مطعم العاصي ، أشهر صاحب فول مدمس فى مصر كلها ، إذ يقال إنه أهدى للملك فاروق قدرة من فوله المدمس ، فحين ذاق منها طبقاً فى فطوره أرسل له لقب البكوية فى برقية عاجلة ، ذلك اللقب الذى أصبح يمنحه له كل يوم عشرات بل مئات الزائرين لمطعمه من كل البلاد من أجل طبق فوله الشهير ..

حين أنعطف من شارع السوسى إلى شارع السوق تستقبلني فواكه الفخرانى بحديقة كاملة من الروائح الشهية المهيبة ، يطيب لي أن أغرق فى السوق ، لتختلط فى خياشيمي روائح التفاح والبلح والجوافة والليمون بروائح الأسماك واللحوم والخرجير وروث خيول عربات الكارو . يلفظنى الشارع المزدحم ذو البلاطات العريضة المتشققة بأحاديث المياه القذرة ، إلى الشارع العمومى البالغ قمة النظافة ، الباديء من محطة السكة الحديد حتى كوبرى إفلاقة على ترعة المحمودية . تكون روائح الفلافل المقلية قد أسكرتني وأدخلت فى روعي أنني أكلت حتى امتلأت مع

أن جوفي حارٍ تماماً . حتى إذا ما أقبل الليل احتواني الظلام فضغطني بين جنبيه فى قسوة شديدة إما بالبرد أو بالخوف أو بالضيق . عرفت النوم داخل المواسير وتحت الأشجار على الطرق الزراعية وبجوار الأفران الساخرة وعلى الأرصفة المتاخمة للمقاهى الشعبية . ورغم كل هذه البهيلة لم أكن عرفت بعد ، ذلك المكان المسمى بوكالة عطية .

الوسّاعةُ

ينعطف الصعلوك على الصعلوك انعطاف السائل اللزج على منحدر . هكذا محروس وأنا ؛ كلانا انعطف على الآخر . رأيته أول مرة على الطريق الزراعى فى مدخل المدينة يجلس أمام كومة من حزم الفجل والجرجير مفرودة فوق جوال ، ينادى الزبائن بالمواويل التى تتغزل فى فجله وجرجيره بجملة وحيوية تفوق غزل أبى نواس فى حمّره ؛ فالعيون الخضرة فى فجله ، أما الجرجير فهو رموش عين الحبيب ، وهو شراريب ستائر غرف نومها ، وهو الوشم المدقوق على صفحة قلبه باسم النبى محمد عليه الصلاة والسلام . جذبتنى حللوة مفرداته وما ثوبه من مشاعر حلابة صادقة ؛ فوقفت بجواره مدة طويلة ؛ فإذا هو لا يكرر مواويله أبداً ، بل يخرج من موال إلى موال ؛ فلا بد إذن أن فجله وجرجيره هما رمزان لأشياء كثيرة جميلة فى نفسه . فلما شعر بأننى أستمع إليه باستمتاع فى وقتى ، توهج حتى أمتعنى بحق ؛ فhezزت له رأسى إعجاباً ثم انصرفت ..

بعدها بأيام كنت أمشى هائماً على وجهى فى شارع الخوالقة قبل غروب الشمس بقليل ؛ فإذا بدراجة تتوقف أمامى ، وولد وسيم حلو التقاطيع حشن الملامح يقرب وجهه من وجهى فاشيحاً حنكه الواسع صائحاً بود وحرارة : " إزيك " . تذكرته فى الحال : " أهلاً أهلاً ! إزيك انت وازى فجلك وجرجيرك ! " قال بمكر عجيب : " مالك ! حاجة ضاعت منك ؟ " . ثم قال مشيراً برأسه إلى المقعد الخلفى للدراجة : " إركب ورائى ! " . تصنعت الدهشة لإزالة الفوارق هكذا ببساطة : " لم ؟ وكيف ؟ " . تجاهل جفائى : " أعزمك على واحد شاي فى قهوة الفرنين ! هنا قرية ! أنت تحب المواويل طبعاً ! تعال أسمعك حتى تشبع " . ركبته ورائه . صرنا فى دمنهور القديمة بجوار محطة السكك الحديدية ، حيث تبدو القضبان فى السطح العميق ، وحيث - كما قال لنا مدرس التاريخ - يقوم هذا الشارع المرتفع فوق هديم المدينة الفرعونية القديمة ، التى كانت تسمى " دمن حور " ، أى مدينة الإله حور ، ابن إيزيس وأوزوريس الذى كان من المفروض أن يثار لأبيه من

عمه " ست " إله الشر ، لكنه لأمر ما - إن لم تخفى الذاكرة - لم يستطع ، أو لعله لم يفلح . لقد نسيت التاريخ بل نسيت كل الدروس منذ ألقى بي في نهر الشارع دون زورق أو مجداف .

تبعادت المدينة الحديثة خلف ظهرنا . مررنا ببقايا هديم عتيق ، وجدران سائبة من الحجارة كجدران الحرم ، وجدران أخرى بأسقف جملون ، تمتد على مساحات كبيرة فلا بد أنها مصانع أو محالج قطن أو فابريكات . حدثتني نفسي بأن أجيء إلى هنا صباح الغد لأسأل فيها عن عمل بالشهادة الابتدائية . عند حارة نابئة من الفراغ المحيط توقفت الدراجة فأسندها محروس قائلاً :

- " دقيقة واحدة أرجع العجلة للعجلاتي ! "

وقفت في انتظاره دقائق معدودة . سحبنى من ذراعى نحو عشة بديعة التكوين جدرانها من الخشب والصفيح ، تبينت أنها مقهى وغرزة لشرب الحشيش ، وإذا بمحروس معروف فيها جيداً حتى لقد جاء الشاى فى براد نظيف دون طلب . ثم قام محروس فاحتفى لدقائق ثم عاد مبتسماً ، وفى أعقابها جاء رجل يحمل الحوزة . كانت هذه أول مرة أشرب فيها الحشيش ؛ وكنت جائعاً حتى العباء ، فدخمت بعد بضعة أنفاس وشعرت بالغثيان . مع ذلك استمتعت جيداً بالمواويل التى راح محروس يغنيها بتدفق هائل كأنه مخزن لا ينتهى . وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين فاجأنى محروس بمفاجأة أذهلتنى جعلت الأرض تدور بى ، إذ قال فجأة :

- " على فكرة ! أنا مرة شفتك نائماً فى عز الليل تحت شجرة ! ومرة ثانية شفتك نائماً على رصيف قهوة فى شبرا دمنهور ! فأين تنام الليلة ياترى !؟ "

لم أرد ، ظللت متحجر العينين متصلب اللسان لا أحد ما أرد به . أخيراً وجدتنى أقول :

- " أنام فى لوكاندة بعشرة قروش ! "

- " فى الشهر ؟ ! "

- " فى الليلة ! "

- " أنت إذن غنى ! موظف ؟ من الأعيان ؟ ! "

ضحكت . قال :

- " تعالى نم معنا بقرش واحد فى الليلة ! "

- " أين ؟ ! "

هكذا صحت بفرح شديد . قال :

- فى وكالة عطية ! يمكن أن تدفع قرشين لثنام فى حجرة ! أو تدفع قرشاً فتنام فى الحوش ! كلها نومة سواد الليل والسلام ! والدار أمان ! "

- " وأين وكالة عطية هذه ؟ ! "

- " قم بنا ! "

فقمتم فى الحال دون تردد ..

عواميد الكهرباء ممتدة إلى مسافات بعيدة على أرض مرصوفة ينعكس فيها خيال اللهب المضاء . على يميننا المزارع كبحر من الخضرة الرمادية لا حدود له . وعلى يسارنا بعض بنايات عتيقة كأنها مجرد طوب أحمر مرصوص فوق بعضه وملتحم بدفء الأخوة وطول العشرة ومقاومة الزمن ، وقد أربد لون الطوب وعلاه بعض الشيب وتسلفته الشيوخوخة المقيمة . من الواضح أنها يباب تصفر فيه الريح . بعد مسيرة حوالى ربع ساعة اختفت المزارع وحل محلها جبل مرتفع ومنطرح على مساحة كبيرة على مرمى البصر . بدأت تظهر فى سفحه بعض أبنيات صغيرة تطول قامتها كلما اقتربنا منها . إذا بنا فى قلب مدينة صغيرة محندقة وذات طابع ريفى . سرعان ما فطنت إلى أن الطريق إليها يمكن أن يكون قصيراً بل قصيراً جداً إذا جئتها من ناحية حى صلاح الدين الذى يربط بين أقصى المدينة ووسطها بتخريجات كثيرة عبر حوارى عمودية ضيقة ، مما يشير إلى أن دمنهور أقيمت أكثر من مرة على امتداد التاريخ ، أو لعلها مجموعة ضواحي صغيرة ترايدت مع الزمن وتمددت حتى تعاشقت فى بعضها بشكل سحرى عجيب ..

ساحة مربعة كالميدان الفسيح تحيط بها المباني من جميع النواحي . فى المواجهة مبنى عتيق جداً ، للمهابة القديمة تطرح عليه ثوباً من الهوان كعزير قوم ذل . جدران من الحجارة المربعة ونوافذ مستطيلة ذات مشربيات خشبية تراكم فوقها الصدا والظلام ، وحجارة الجدران تبدو بفعل الرطوبة كقطع من الهريسة ستفتت بمجرد الأمسك بها . لها بوابة كبيرة بصدغين دائريين كالبرج ؛ نفس الطراز المعماري

الذى رأيته كثيراً فى كتب التاريخ لوكالة الغورى والمساحد القديمة والمعابد
الفرعونية ..

- " دى ، هى وكالة عطية " . هكذا قال محروس وهو ينفذ من ذراعى نحو
فتحة البوابة . فى الحال تذكرت تراثاً كثيراً من الصور والذكريات يتناقله الناس فى
قرانا المتاخمة لمدينة دمنهور عن وكالة عطية . إنها فى الواقع ذات شهرة تفوق شهرة
أى معلم من معالم دمنهور بالنسبة لنا نحن الريفيين على وجه خاص . بل إن وكالة
عطية فى أذهان بعض أهل القرى تعنى مدينة دمنهور وإن كانت دمنهور لا تعنى
وكالة عطية . على أنها شهرة مقرونة بالتدنى وسوء المصير والغمز الخبيث . فأى
قتال قُتلى يهرب بعد عمله يتجه البحث عنه فوراً إلى وكالة عطية ؛ وأى فتاة
فلاحة سقطت فحدث لها أمر الله وهربت قبل ذبحها بسكين أهلها أو بالسنة أهل
البلد تلجأ الجواسيس فى الحال إلى وكالة عطية فلربما تكون البنت قد وقعت فى يد
محتال من الولدان الاشقياء المستوطنين فى وكالة عطية . وفى المقابل فإن الوكالة
محوطة فى الأذهان بنحو من السحر والفرشة وليالى الأتس ، إذ يشاع أن معظم
الغوازي والغواني والآلآتية وعوالم الفرع هم من خرجى وكالة عطية فى الزمن
القديم . هذا ما كنت أسمع وأعيه حتى قبل أن أصبح تلميذاً فى مدرسة من
مدارس مدينة دمنهور . وحين أخبرنى محروس أننا يمكن أن نبني وكالة عطية
نظير قرش واحد لم أكن لأتصور مطلقاً أنه يعنى تلك الوكالة الشهيرة ، ربما لأنها
كانت ذات وجود أسطورى فى داخلى يحول بينى وبين الإرتباط بها أو الإقتراب
من شفير هاويتها ؛ فإذا بى فجأة مساقاً إليها بإرادتى كأننى أسعى لشيء جديد لم
أكن أعرف عنه من قبل شيئاً ، أى شيء ، فما أن رأيتهما الآن رأى العين استوعبتنى
فى الحال كواقع قائم بذاته مثير للإنتباه . إستيقظت الأسطورة القديمة لتلتحم
بالواقع . خيل لى ان الوكالة على وضعها هذا أقل بكثير جداً من صورتها فى
الأسطورة ؛ أقل سحراً ربما ؛ لكننى مع ذلك شعرت برغبة عظيمة فى الإنغماس فيها
حتى النخاع . إن الأسطورة التى كان من المفترض أنها تمنعنى عن الوكالة
وتكرهنى فيها ، هى نفسها التى تكرهنى عليها ، تغرينى بالدخول فيها ، بل إنها
لتزرعنى فيها زرعاً ، بكل ما فى السحر من قوة ، وبكل ما فى نفسى من استجابة

ورغبة فى الرؤية والكشف والممارسة ..

كانت البوابة مغلقة بباب خيل لى أن عشرة رجال على الأقل يلزمون لدفع هذا الباب حتى يفتح . رفع محروس مطرقة نحاسية كبيرة معلقة فى الباب ، وطرق بها عدة طرقات خفيفة . ثم أشار برأسه نحو مبنى مجاور على مبعدة كبيرة يشبه مبنى الوكالة فى طرازه لكنه أجدد قليلا وأطول قامة وأكبر مساحة ، حافل بالشبائيك ونوع من الشرفات المستطيلة ، والبوابات، وعلى كل شباك وبوابة ثبت تمثال صخرى لرأس حصان شامخ . قال محروس :

- " الإسطليل الملكى ! هو الآن سوق للمواشى يقام كل يوم ثلاثاء ! تملئ هذه الرحبة بخلق الله من جميع الأصناف ! وهو اليوم الوحيد الذى أبيع فيه حزم البرسيم والحشيش الأخضر مع الفجل والبصل الأخضر والكرات ! يجيرنى الله فأتعشى على التمام "

ثم أشار إلى مبنى بعيد من ثلاث طوابق يشبه طراز الوكالة أيضا لكنه أحدث، تحته مقهى صغير كالبوفيه يسهر حتى الصباح ؛ وهمس بصوت راعش متهدج :
- " أما هذه فإنها - عدم المواجهة - الكرخانة ! تصور أن هذه كانت استراحة الملك ؟ هل تصدق ؟ صاحب الوكالة العجوز يصحو على تلك الأيام حيث كان للملك فواد أملاك هنا ! هى أملاك نسيبه شقيق زوجته التى اسمها شكار هائم ! هل الملك فواد كان له زوجه اسمها شكار هائم ؟ ألم يقولوا لكم هذا فى المدرسة ؟ يا أخى إن الرجل العجوز يقول أشياء غريبة ويحلف بالطلاق أنه شاهدها بنفسه !! آه ! تذكرت ! شقيق زوجة الملك فواد هذا كان اسمه : محى الدين شرف الدين سيف الدين حاجة كهذه ! سأجره فى الكلام أمامك مرة ليحكى ! يقول إن نسيبه هذا ضربه بالرصاص فى رقبته فخرمها فلحق به الحكماء وسدوا الحرم بجبلبة من الفضة كانت تصفر إذا ضحك أو زعق ! والمملك فواد أمر بتفسير نسيبه إلى مستشفى الجنانين فى بلاد بره !

معقول هذا ! لماذا لم يقتله ؟ ! المهم أنه استولى على أملاكه هنا ولعب القمار بنصف ثمنها وترك هذه الدار المحترمة لجارية كانت عنده ! وأخيراً جاء إبنة الملك فاروق وصرف ثمن بقية الضيعة على النسوان ! صدق ! إذا كان يغلي فى الحلة مائة

زوج من الحمام الزغاليل حتى تصير مرقاً فيشره قبل الأكل ثم يقوم فيرقع الواحد !
فمن أين يجيء بأبراج تكفيه ؟ رزق الهبل على المجانين ! الدار الآن أصبحت كرخانة
بها رخصة من الحكومة !! يوم السوق تزدهم هى الأخرى والواحد بعشرين قرشاً !
وفى الأيام العادية بعشرة ! فيها نسوان مثل القشطة والمهلبية لكن القروش هى
الأخرى فى حنك سبع !

طرق على الباب ثانية طرقة أشد قليلاً . للهشتى إنزاح الباب كورقة فى مهب
الريح . أطل من خلف الدرفة المغلقة ضوء كاب منبعث من فانوس . ثمة يد كبيرة
بأصابع كاللتعاين تمتد لتزع شريط لمبة الفانوس . عمّ الضوء برحاية مدخل البوابة ،
فإذا برحل يتمدد على مصطبة مبنية بالأسمنت لصق الحائط ، لا يقل طولها عن ثلاثة
أمتار ، يفترش ويتغطى بمجموعة من الأجولة المرقعة ببقايا بطاطين الجيش . شكله
يقطع بأن جسده لم يعرف الماء طول حياته وأنها قد لا تصله فى طعام أو شراب
حتى أن الحشف والقشيف جعلاه يبدو كجذع شجرة جزورين جافة أحرقتها شمس
لاهة . أصابع يديه وقدميه طويلة الأظافر كالمخالب المخيفة ، وجهه مثل قدر
فخارى أسود ، بلحية منتصبية الشعر كالأسلاك الشائكة . تطل منه عينان كعينية
الجمال العجوز ، يتطاير منهما الشرر الأحمر ، وفم واسع كفتحة المرحاض خال من
الأسنان ، وأنف مثل كوز الدرة المشوى ..

قال محروس :

- " مساء الخير يا عم شوادفى ! "

طلع علينا صوت كهزيم الرعد ، ناشف هو الآخر :

- " أهلاً محاريسة ! من معك ؟ ! "

قال مشيراً إلى شخصى :

- " واحد قريبي ! ابن ناس طيبين ومعه الشهادة الإبتدائية ! يبيت معنا الليلة

كلشنكان ! يفكر أن يقعد هنا على طول ! هو وظروفه ! "

قال هزيم الرعد كأنه لم يسمع حرفاً واحداً مما قيل :

- " بره ولا جوه ؟ ! "

قال محروس وهو يناوله قرشين :

- " الليلة برة ! وغداً يحلها ربنا ! "

غاب القرشان تحت مخدة صلبة لونها لون الأرض . وقال هزيم الرعد فيما يدفع الباب بشومة فيقلقه : " أنت تعرف السكة ! " . فدخلنا إلى فناء الوكالة ..
الفناء واسع جداً ، وبلا سقف ، منه للسماء مباشرة ، دائري ، تكومت على أرضه مئات الأجساد كجثث خلفتها حرب ضروس منذ قرون طويلة فتخشبت في أماكنها وأخذت لون الأرض ، مرتصة كيفما اتفق ، رأس الواحد فوق قدمي الآخر ، وأقدام غيره فوق رقاب وبطون البعض . آخرون متلاحمون كأنهم جسد واحد . ومع أن الفناء واسع فإن الجميع يتركون الساحة الوسطى ويتكلمون أمام البواكي يتحاضنون ..

الوكالة مكونة من طابقين اثنين رغم علو جدرانها ، حجرات صغيرة متلاصقة متداخلة ، كل حجرة يلتصق بها سلم حلزوني من الخارج متاكل الدرج يوصل إلى الحجرة العلوية . أمام كل حجرة مساحة يزيد عرضها عن المترين مسقوفة بالخشب الجملون فوق عمدان خشبية تأخذ شكل البواكي . معظم الحجرات مفتوحة في الطابقين ، يطل من بعضها ضوء خافت ، مع أصوات خافتة بلغط كالعراك ، كالمودة ، كالمزاح ، كالمناهدة ، كالمواقعة الجنسية ، كل ذلك يطن في الفناء الواسع . روائح تجثم على الأنف دفعة واحدة : عطانة ، عرق ، كحول محترق ، دخان محمص ، سردين ورنجة ، روث ، صنان ، لكن الهواء من حين لآخر يحمل لفحة عطر عابرة تلطش الأنف برخم ثقيل كربه . شعرت بالكآبة والقرف والخوان ؛ أكاد أتقيأ أمعائى ؛ أيقنت أنني وقعت في الخيبة وسأكون الليلة صيداً سهلاً لكل هؤلاء المتشردين والصباغ واللصوص والشحاذين . يبدو أن محروس شعر برعشتى وجفاف حلقى ، فأشار إلى أكوام الجثث كأنما ليطمئننى :

- " إياك تتصور أنهم جميعاً رجال ! إن فيهم نساء كثيرات من اللائى يقابلنك في الشارع ومعهن أطفال يطلبن منك المساعدة لله !! الأطفال لا يبيتون هنا ! بهذا يأمر عم شوادفى ! متعهد الأطفال هو الذى يبيت هنا فى حجرة من هذه الحجرات ! وهن يتسلمن منه الأطفال صباح كل يوم ! يخاسبه آخر النهار فتأخذ كل واحدة عمولتها وينهب الأطفال إلى مكان لا يعرفه غير المتعهد ! فى الصباح

يجيئون من تلقاء أنفسهم ليفطرون كل واحد شقة خبز فيها فلافل ! عمك شوادفى رجل يعجبك ! يحكم هذه الوكالة بالحديد والنار ! لا أحد يقدر يفتح فمه ! ما يريد يكون ! لولاه لباطت الدنيا هنا ولأغلقتها البوليس بالشمع الأحمر ! لو ضاع منك مليم واحد هنا فسيفتشت الجميع فى كل مكان ولا بد من كل بد يأتى بالسريقة، لكن عيبه أنه يأخذ نصفها كحلوان ! "

- " تقول إنها وكالة عطية ! فما شوادفى هذا ؟ ! "

- " شوادفى إستأجرها من عطية من حوالى عشر سنوات ! ولم يقدر على طرده منها حتى خسر الجلد والسقط ! فسقط مريضاً ! والمائة وستين قرشاً إيجار الوكالة فى الشهر لا تكفى دواء يومين ! وعطية لا يقدر على بيعها لأنه هو الآخر يستأجرها من الوقف من أيام زمان ! سوف أريه لك ! إنه كثيراً ما يجيء يتوكأ على العصا ليشرب الشاي مع عم شوادفى ! "

إختار محروس مكاناً فى الوسط وتوجه نحوه وأنا من ورائه أقدم رجلاً وأؤخر الأخرى ، أخوض فى صبر وأجولة وقف وأقف وأقفاص وعكاكيز وبراميل سوداء تترك فيها عيون ولها أيد تلف السجائر . بقدمه دفع محروس جسداً منطرحاً ممدد الأطراف عن آخرها فاثلاً بلغة فيها من العشم أكثر مما فيها من الخشونة : " إنزاج يا ابن القحبة ! " ، فاعتدل الشاب فى الحال دون أن ينطق ، فصارت المساحة تكفيها وتفيض . خلع محروس جلبابه وصديريه . كوّم الجلباب وقدمه لى قائلاً : على ظهري ، وبدأت عيني تعناد الظلمة المبرقشة ببطش من الأصفر الشاحب حدثت طويلاً فى السماء ؛ ثم بدأت تترأى لى حجرات الوكالة من حوالى فى لون رمادى ، وفجأة طلع القمر . بدا أن محروس استغرق فى النوم وراح أنفه يعزف شعيراً خافتاً لكنه تقلب مقرباً رأسه منى هامساً :

- ستحبها ! لو كنت جديداً بصحيح إحجز لنفسك حجرة بثلاثين قرشاً تدفعها أول الشهر ويبقى عليك ثلاثين قرشاً ، كل ليلة تدفع قرشاً عند دخولك من البوابة ! تأخذ مفتاحاً يساوى الدنيا كلها تضعه فى جيبيك وتغلق الحجرة على ثيابك وفلوسك ! ستون قرشاً فى الشهر وتأخذ مفتاحاً يا بلاش ، الودّ ودّى أن أفعل لكن الحشيش لا يوفر معنى ثلاثين قرشاً أبداً ، إنه مزاجى وموالى ولا أقدر على

الاستغناء عنه ، لا أرى النوم إن لم أضرب الحجرين آخر الليل كما رأيت ! واليوم الذي أوفر فيه عشرة قروش بعد حشيشي أقطع بها تذكرة لبلدتنا الطود لأرى أمي وأرجع ! والفجل لا يباع في بلدتنا وليس فيها حشيش فلماذا أقعد بجوار أمي ١٢" ثم قطع الكلام فجأة ورفع شخيره . بدأت الأصوات تتضح ، وكل شيء بدأ وفي أكثر من حجرة ناس يلعبون القمار وطرقعات الورق عالية . وفي أكثر من حجرة ناس يسكرون ويتعاطبون فيما يشبه العراك ، وفي أكثر من حجرة نساء تعلن عن لذتها بشكل واضح ومثير ، دونما حرج أو حياء . الأصوات مكتومة تحت ستار من الصمت الكاذب ، حتى تحيل لي أنني أتوهم ، خاصة أنني ألاحظ على نفسي فى عنفوان التعب أنني كلما لامست ظهرى صفحة الأرض تدب اللذة الجنسية فى أوصالى ؛ لولا أن صرخات ماحنة مقطوعة كانت تندلع من حين لآخر من حجرة لأخرى ، يعقبها سكون تام لبرهة

انطفأت كل الدبالات فى كل الحجرات واحدة وراء الأخرى ، حدثت كركبة استمرت بضع دقائق تعكس وقع أقدام تنزل من السلالم وتمضى هنا وهناك ؛ أعقبتهما حركة فتح أبواب وإغلاقها وصوت طقطقة عظام هشّة ثم مالبت السكون حتى عاد مرة أخرى مصحوباً بملاءة رمادية اللون منسوجة من خيوط القمر البارز كأصبع الموز فى طبق من الفضة . كان كل شيء يغرى بالإنصات والتأمل والاستغراق ، لكننى كمن عثر فجأة على لقية ثمينة فى الطريق العام فأخفها موجلا فحصها حتى يحين وقت فحصها بمزاج وفى نفس الوقت إمداد لخيوط الأمل الخفى ودرء للتشاؤم والخوف من محتوياتها . رأيتنى أستسلم لنوم عميق لم أعده فى حياتى من قبل حتى على الفراش الوثير . ثم رأيتنى أمشى متسكعاً بمزاج رائق وبلا أدنى خوف داخل غابة كثيفة الأشجار لأول لها ولا آخر ، مجرد كتل من السحب المتراكمة ، أغوص فيها فإذا هى مورقة مفرعة تتسرب من خلالها خيوط ضوء رمادى باهت ؛ وكانت الذئاب والثعالب والكلاب والسباع والنمور نائمة تحت جذوع الأشجار تتشاءب فى ملل غير عابئة بخطواتى النشوانة الحمقاء ، التى كثيراً ما لمست بعض أقدامها وفرائها ودست فى بطونها ؛ فلا يصدر عنها أكثر من زأرة أو هبة على سبيل المزاح ترتفع لها فروة رأس قليلا ؛ وكان يبدو أننى أعرف كل هذه الوحوش معرفة

شخصية وأنها هي الأخرى تعرفنى حق المعرفة وأن بيننا ودّاً قديماً لعله رابطة البحث عن لقمة فى النهار ومأوى فى آخر الليل ؛ بل خيل لى أن بعضها يكاد يعزم على بنظرة جانبية ، يكاد يترك العظمة التى ينهمك فى نهشها ليقول لى : تفضل والحس لك لحستين ؛ وكنت أكاد أفعل ، لأن رائحة مرق المواسير والكوارع العجالى الساخنة كانت تسكر أنفى قادمة من مكان ما ، حملة برائحة الثقيلة التى أسمعها تطشطش . ظللت أنفذ من سحب مضيفة رطبة إلى سحب مظلمة أكثر رطوبة حتى امتد الخلاء أمامى فجأة عارياً من كل شئ ، والشمس كانت تميل برأسها الذبيح على كتف السحاب تنضح فوقه دماً قانياً ، فصرت أشعر بحرارة الجو شيئاً فشيئاً ، ثم بدأت أنقصد عرقاً ، والثياب تلتصق بجسدى ، وئمة حركات عابئة لعلها أظلاف بعض حيوانات الغابة مشت خلقي وصارت تخمش ظهري وتتقافز على وجهى ، ولامس التراب شفتى فحاولت النهوض ، ففتحت عيني ... فإذا بى نائم وحدى فى قلب الفناء ، ويد شواندى الغليظة الخشنة تدفعنى بقوة تهزنى لكى أصبحو. فلما تخلصت حقونى بصعوبة من العماص المتكلس بينها وأيت وجهه الشبيه بوجه حيوان خرافى يتسم ويقول فى نبرة تشبه الود :

- " يا ه لم تنم منذ سنين ؟ لما كل هذا النوم يا ابن الحلال ؟ أليس وراك عمل ؟ " انتفضت قاعداً ، دعكت عيني. أشار بذراعه الشبيه بفرع شجرة جزورين نحو بقعة رطبية فى آخر الفناء قرب البوابة. قال :

- " قم طس وجهك بخفانين من المياه ! " ...

تمعنت حيث أشار ، فتبينت طللمبة مياه بحوض صغير من الأسمنت ، نفضت نفسى واقفاً ، مشيت نحو الطلمبة مترشحاً. أمسكت بيد الطلمبة ، حركتها إلى أعلى ثم إلى أسفل عدة مرات وفم الطلمبة يصدر فحيحاً وخرخشة هواء . تذكرت أننى يجب أن أضع فى فمها قليلاً من ماء الحوض لكى يستدر المياه من جوف الأرض تركت يد الطلمبة وكورت حفتى واغترفت بها الماء من الحوض ، فإذا هو رطب مريح مغر ، فضربت وجهى ويدي بحفنتين ثم حففتهمما بمنديل شبيه بالأرض يتكور دائماً فى جيب سروالى الجانبى ، وكانت رائحة العرق فيه أشد استنفار من رائحة عطن المياه. تأهبت للخروج من الوكالة.

البوابة

حدوت جانباً لأعبر البوابة ، رأيت شوادفى متربعاً على المصطبة وأمامه منقذ النار مشتعلًا بالقواخ وفوقها كوز من الصفيح اسود له يد من السلك ميرومة حوله بإحكام . أمسكها شوادفى وجعل يهز الكوز برفق ورائحة الشاي النفاذة تصعد إلى عياشيمى...

- " أفوتك بعافية يا عم شوادفى "

- " إقعد اشرب لك شفقة شاي ! "

- " تشكر ! كتر خيرك ! "

- " إقعد قلت لك ! "

قالها فى حسم وبساطة وأريحية ، وأشار إلى طرف المصطبة ، فجلست أراقب الضحى العالى ينحس فى قلب الفناء الكبير ويحتجزه عن الصباح المبكر الذى انضغط فى فتحة البوابة الرطبة ، التى كانت مفتوحة على الخلاء الرمادى. وفجأة دهمتنى رائحة المرق الساخن والكوارع والليمون البنزهير. تلمظ شوادفى قائلاً :
- " المرأة القرداتية هذى تطبخ كوارع من صبحية ربنا لما نشف ريقى ! ما أعرف ما الذى تضيفه إلى الشورية لتصير مسكرة الرائحة هكذا ! إن لم ترسل لى طبقاً على الغداء سأنكد عليها عيشتها طوال الليل ! " ...

ثم فشخ حنكه الواسع بابتسامة عريضة ، وراح يصب الشاي فى الكوب فوق السكر ثم يعود فيبدله فى الكوز ليصب من حديد فى الكوب الصغير الصاج ذى الأذن .. شاي أسود محمر القلب. وضع أمامى الكوبة : " إشرّب وهو ساخن ! ". باستمتاع شديد شفطت أول شفطة. لم أصبر على الشوق ، تابعت الشفط بصوت عال حتى أثبت على الكوبة وأعدتها إليه لكى يملأها لنفسه. شفط شفطة سطحية ثم وضع الكوبة وسحب كيساً كالخا أخرج منه دفتر البافرة فنخ فيه فارتفع طرف ورقة فأمسك به ونزع الورقة ووضع فوقها قدرًا من التبغ تبينت أنه أعقاب مفروطة. لف السيجارة ثم وضعها بين شفتيه ومال برأسه فوق المنقذ تاركاً إياها تلامس

القولج المشتعلة وهو يجذب الأنفاس باستمتاع هائل ، ورائحة التبغ الخمص يبعثرها
الدخان حول أنفى. شفت شفتة أخرى أتبعها بنفس أعمق ثم قال:

- " اعمل حسابك الليلة ؟ "

- " إن شاء الله ! "

- " فى الحوش أم فى حجرة ؟ ! .. "

- " أنا وظروفى ! ربنا يسهل ! .. "

- " تدفع عربونا ؟ ! .. "

- " سأدفع حين أجي ! .. "

- " تعال سواء كان معك أو ليس معك نقود ! "

- " يساويها ربنا ! "

- " تقول إنك من حملة الشهادة الابتدائية ؟ ! "

- " وكنت على وشك أن أخرج معلما لولا أننى فصلت من المعهد لكثرة

الغياب ! "

سدد إلى عيني نظرة خفيفة من عينين واسعتين محمرتين بلا رموش ولا بياض :

- " لا بد أنك ولد بايظ ! وذيلك نجس ! أهلك يجرمون أنفسهم من الفاكهة

والأكلة الحلوة ليصرفوا عليك فى مدارس البندر وأنت تتصرمح هنا ؟ ! لك عين

تقول : لكثرة الغياب ؟ ! لماذا الغياب بحق الشيطان ؟ ! أين تنهب ؟ ! .. "

ندمت على قولى ، خاصة أنه فعص رأس الدمل بقوله إن أهلى يجرمون أنفسهم

من أجلى وهذا حقيقى إلى حد كبير جدا . لقد تكلم بلسان أبى حرفيا. رحت

أبحث عن ذريعة أخرى ؛ لكنه عاجلنى :

- " أنت الآن صايغ رسمى ! عدم المواخلة ! فما الذى تفعله الآن ؟ ! كيف

تعيش ؟ ! هل تشتغل ؟ ! "

- " أبحث عن عمل ! "

- " تبحث ؟ ! "

ثم قدم لى قدحا آخر من شاي الدور الثانى الخفيف :

- " هذا أكبر دليل على بوظانك من غير مواخذة ! إن أحدا لا يبحث عن العمل ! إنه يجده ! يخلقه من الهواء الطائر ! العمل فى كل مكان على قفا من يشيل لكن مظل لا يراه لأنك بسلامتك تبحث . يا رجل أذهب إلى محلج بركات أو محلج داوود أو محلج القفاص فى دمنهور محالج قطن كثيرة لا يكفيها آلاف من أمثالك أذهب إلى فرن إلى مقهى إلى فابريكة إلى محل تجارى لاشتغل بائعاً سرشعاً أم أنك تريد مكتباً وجرناتا وفنجان قهوة وسيجارة ؟ إن عدوك أهبل الحكومة أفسدتكم وملأتكم بالنعرة الكذابة تربي لنا أفندية بجرائد وفناجين قهوة يعيشون على قفا الشعب المسكين ، عندى هنا فى هذه الوكالة جدعان يجلبون النقود من الهواء الطائر يلعبون باللعب لا شهادة ولا دياولو ، الحياة لا ينفع فيها غير الولد المفتوح أبو مخ منير ! إسمع يا أختانا مادمت تركت المدارس فانس المدارس وأمورها وخبش فى الجد ، تشرب دخانا ؟ طبعاً إن ذلك واضح على شفتيك وبين أصبعيك خذ لك نفسين من هذه "

سحبت نفساً فكانه سن المحراث يخترق صسدرى . زكمت أنفى رائحة " السبارس " العطنة ، فصرت أكح بشدة ، لكننى سحبت نفساً آخر ، أعدت اللفافة إليه واقفاً :

- " عندى موعد مع شخص من أهل الخير سيجد لى شغلأ "

- " إقعده خمس دقائق أخرى فرما احتجناك "

وقدم لى قدحاً من شاي الدور الثالث الأخف والأحلى . ماكدت أنهى آخر شغطة فيه حتى دخل علينا اثنان : رجل وامرأة . أما الرجل فطويل كعمود نور برأس كراس المهدد وجهه ممسوح برئ كوجه العصفور ، أهتم ، أبيض البشرة كخواجة أحنى عليه الدهر فمرغه فى الزراب والوحل ، يلبس جلباباً يمتلى بالرقع من كل ناحية تبدو كجيوب سحرية . وأما المرأة فسمينة إلى حد ما ، ربعة القامة ، مبطرحة من كل ناحية ، بصدر بارز مژهل كأنه يضم مع الثديين طفلين صغيرين رأسها مستطيل مبروم كنمس البطيخ ، تعصب رأسها بتريعة كالحة مبقعة بالزيت والوسخ ؛ من تحتها شعر اسود خشن مضفور ، منتفخة العينين ضبقتهما كأن جفونها مشغولة بإبرة التزى بعد أن طواهما إلى الداخل طوية عريضة كطوية رجل

السروال ، فبدت كأنها تتلقى الضرب المبرح على عينيها باستمرار. متهدلة الخدين ، تبدو بالقياس إلى الرجل في عمر أمه وإن كانت لاتزيد على الخمسين من العمر في حين لا يبلغها هو . كانا يتسمان في كثير من الغبطة والخجل وكثير من السذاجة .
هتف شوادفي بوجه باش :

- " أهلاً بالعريس ! وأهلين بالعروس ! جئتما في وقتكما ! هيه ! جبرما بإذن الله !؟ "

أقعى الرجل أمامنا على الأرض:
- " الحمد لله على كل حال ! "

وتدحرجت المرأة نحوى وانحطت بجوارى على المصطبة وهى تلهث . وضعت يديها على ركبتيها ناظرة لى فى تفحص من بين عينيها الضيقتين المزورتين :
- "إزيك يا جدع ! باين عليك ابن حلال ! "
صاح فيها شوادفي :

- " خلينا هنا ! تكلمى فى المهم ! بينك وبينه معرفة!؟ "

تبسمت المرأة فى شئ كالخياء المصطنع . دبت يدها فى سيالتها ثم أخرجتها قابضة على حشفة نقود. صارت تعد الشلنات والبرايز وأنصاف الفرنكات الفضية المضلعة والقروش الفضية المحرومة والبرونزية الحمراء المشرشرة وعشرينات الخردة والملاليم الحمراء. عدت حوالى ستين قرشاً قدمتها لشوادفي ، الذى كان يتابعها فى العد باهتمام. قبض شوادفي على النقود ودسها فى جيبه قائلاً:

- " هذا هو إيچار الحجر ! المهم عندى هو الأجر الذى اتفقنا عليه أين هو !؟
السكن عندى لن يتم لكما إلا على سنة الله ورسوله ! ... "

نظرت المرأة إليه بطرف عينيها كما لو كانت تريد أن تثبت لى وله أنها خبيرة بأمور الغزل والدلع والإغراء النسائى. والحق لقد ظهر فى هذه النظرة كثير من العهز الذى تتمتع به . ثم لعبت حاجبيها فى سرعة عجيبة ، وأبرزت طرف لسانها فمررتة على شفيتها بحركة ذات معنى. فغرز شوادفي نظرة مدببة فى عينيها كأنه يفرز سلاحه فى بطنها وقال من أنفه :

- " تحشمى يا امرأة ! أنا خلاص ! لم يعد فى ركبى حيل ! خلصتنى العاهرات من أمثالك ! من زمان ! الدور والباقي على الشباب ! "
- " وحق دى الليلة ومساها ما معنا ! هذا كل ما أكرمنا به الله طوال الجمعة الفاتنة بعد تعبنا وشقانا ! اعتقنا لله من خمسة قروش يتوبك ثواب ! من أجل خاطر هذا الضيف الكريم ! "
- " لا شأن لك بالضيف ! "

ثم قبض على القروش فصار يقلب فيها ، فانتخب نصف مليم أعطاه للرجل الأهم :

- " اشتري لنا فرخ ورق ! عريضة مسطرة ! من أى دكان ! "
نهض الرجل متناولاً نصف الملیم ومضى ، ودس شوادفى القروش فى جيبه ، وبحث عن كيسه التبغ حتى وجدها تحت وركه ، فتحها ولف سيجارة رماها بجواره ، ولف غيرها وقدمها لى : " عفر ! " ، ثم لف ثلاثة لنفسه أشعلها من بقايا الجمر ثم أشعل لى . جاء الرجل بالعريضة المسطرة فناولها لشوادفى فناوله السيجارة :
- " نريد أن نزوج هذه المرأة لهذا الرجل !! "
لم أفهم ، صرت أنقل البصر بينهم فى حيرة :
- " ماذا قلت ؟ ! "

شوح كأنه ضاق بغبائى :

- " نريد كتابة عقد زواج ! إيه؟ الا تفهم ؟ ! "
- " لكن هذا من عمل المأذون ! هل أنت مأذون شرعى ؟ ! "
سلقنى بنظرة جافة :
اختزعه حديثاً كسبوبة !! الزواج الشرعى هو موافقة الطرفين على النكاح !! "
لسعنتى السيجارة فرميتها بغیظ :
- " ولكن هذا عمل غير قانونى ياعم شوادفى ! "
شخر شجرة كبقلة المياه فى القلل :

- " كانون ١٩ شى الله ياكانون ! الكانون يطبخوا عليه فى البيت ياأخانا!
أنت تفعل ما أقوله لك على ضمانتى ! سأعطيك أجراً على ذلك هاك قرش صاغ
بحاله نظير كتابتك للعقد!.." ..

ورمى فى حجرى بقرش فضى غروم ، فأزحته بعصبية :

- " لست أفهم فى هذه المسألة ياغم شوادفى فاعفنى منها ! "...

قبض على ذراعى بأصبعين كالكماشة :

- " سأملك ما تكتب ! لاتكن غشياً ولا زعلت منك ! أنصحك بعدم
اللماسة معى ! حاول أن تكسبنى لمصلحتك ! هيا ! إكتب ! .."

عدلت الورقة على اللوحة :

- " أكتب ماذا ؟! "

إعتدل فى جلسته رافعاً ركبته اليمنى سائداً فوقها ذراعه ، وراح يملئني :

- " أقر وأعترف أنا عبد الفضيل بيومى الطودى من بلدة الطود بحيرة ومقيم
بو كالة عطية بآخر شبرا دمنهور القديمة وشغلتي حانوتي أى مغسل الموتى - أننى قد
نكحت أى تزوجت من صبيحة البرشومى حسنين وشغلتها ذاية أى مولدة ومقيمة
هى الأخرى بو كالة عطية ايضاً ، نكاحاً على سنة الله ورسوله بالمهر الشرعى
المسمى بيننا ومؤخر صداق قدره خمسة جنيهات أتعهد بدفعه على داير مليم فى
حالة انفصالنا بالمعروف . هل كتبت هذا؟ إذن فمن أول السطر : أقر وأعترف أنا
صبيحة البرشومى حسنين وشغلتي ذاية أى مولدة ومقيمة بو كالة عطية بآخر شبرا
دمنهور القديمة قد رضيت بهذا النكاح على سنة الله ورسوله وقبضت المهر المتفق
عليه وأصبحت ملك يمينه يفعل بى ما يشاء فى حدود الشرع ! ويتعهد الطرف
الأول عبد الفضيل أن ينفق على ويقوم بمطالبي من مسكن وملبس ومأكل وخلافه
... بخلافه دى حطها بين قوسين عشان معناها الواجبات الزوجية المعروفة - ويتعهد
الطرف الثانى صبيحة البرشومى حسنين بأن تكون زوجة مطبعة ! ويتعهد الطرفان
أن يكونا سمنا على غسل .. هل كتبت هذا ؟ عال عال ! هات أصبعك يارجل
وهات أصبعك يا امرأة .. إكتب فى وسط السطر : المقر بما فيه ، وتحتها عبد
الفضيل بيومى الطودى وقصاده فى آخر السطر صبيحة البرشومى حسنين!"

ثم نزع الورقة من يدي ؛ وأمسك بأصبع الرجل قبله بريقة وجرى بسن القلم الكويبا فوقه حتى صبغه ، وضغط به على الورقة ، فتزك بصمة واضحة . وهكذا فعل بإصبع المرأة . ثم طلب كتابة صورة من نفس الكلام على الطرف الآخر من العريضة ، ففعلت ، فاجرى عليها نفس البصمات ثم أعاد الورقتين لي :

- " اكتب هنا : تحريراً في يوم كذا ! " كتبت التاريخ ، فأخذ الورقة والقلم ، ويخط عاجز مرتعش رسم حروف اسمه ؛ ثم قدم لي الورقة ثانية :

- " اكتب نفسك شاهداً على العقد ! "

- " لا ! أعفني من هذه أرجوك ! "

إنذب شعاع عينيه في عيني بحدة :

- " يا حسارة الرجال ! إن لم توقع فأنت ولد تحول ! من غير مواخذة !

ولن أحترمك بعد الآن ! هيا ! كن رجلاً واشهد معي ! أنت لست أجده مني !! " ..

فأمسكت بالقلم وشخبطت شخبطة غامضة غير مفهومة . أخذ يتأملها بإمعان :

- " ولا توقيع رئيس المحكمة ! براوه عليك ! والآن ! سأخذ القرش منك

عربوناً للمبيت ! أنت بالطبع ستبيت هنا الليلة ! فلك عندي قرش ! إن أردت

المبيت في حجرة فجئ بقرش آخر أو فتنم كالأبوس في نفس المكان ! تستطيع الآن

أن تتكلم على الله ! ربنا يوقف لك أولاد الحلال في سكتك ! " ..

وقالت المرأة :

- " رح إلهي ربنا ينور لك سكتك ! "

وقال الرجل :

- " معرفة خير بإذن الله ! "

أما شوادفي فإنه أطبق الورقتين وسلم واحدة لعبد الفضيل وأخرى لصبيحة فرد

كل منهما ورقته إليه طالباً أن يحتفظ بها معه حتى لا تتعرض للفقْد معهما . ثم قال

لهما :

- " حجرتكما هي الحجرة التالية بعد حجرة القرادتي ! إغريا عن وجهي !!

أريد أن أسمع غنجك الآن يا امرأة ! وإن نحسَّع معك هذا العجوز فنادني أكن عند

حسن ظنك ولو اقتضى الأمر أن أعصر عليك ليمونة !! " ..

شخرت المرأة :

- " فشرت ! والنبي أشرف خلقه الله ما في أنصف منى فى الدنيا اللى ارتوت
بالنيل ! " ..

وحين خرجت من البوابة إلى الخلاء كان الحر قد اشتد ، واسفلت الطريق يسخ
اللهب فى قدمى ، فانطلقت فى ضحك أهتز له جسدى كله ، ولكن كلمات
شواذنى الخاصة بالعمل راحت تطن فى دماغى فتبدو منطقية إلى حد كبير .

حارة بنت عمي

شارع السوسى من أهم الشوارع التجارية فى دمنهور ومن أشدها زحاماً وحيوية . أستطيع أن أمشيهِ رائحاً غادياً طول النهار دون أن يلحظنى أحد . هو حميم جداً ، تفتننى زحمته الشديدة وروائح الفاكهة والمأكولات والأقمشة الجديدة، ومناظر الفلاحين المتقمشين القادمين من القرى المجاورة يتسوقون طلباتهم ويحضرون جلسات المحاكم فى قضايا لهم لاتنتهى ويعرضون أنفسهم على أطباء ومستشفيات المدينة ، وياكلون أم الفلافل التى تعتبر بالنسبة لهم فاكهة يتلذذونها باستمتاع كبير..

علاقته بهذا الشارع قديمة ، ففى الشارع الخلفى له مباشرة توجد مكتبة الحوفى التى توجر الكتب القديمة للقراءة مقابل خمسة مليمات ، وعلى مبهدة خطوات منه - فى الشارع الذى يقطنه محل العاصى المتخصص فى الفول المدمس - تسكن " وديدة " ابنة عمى ، المتزوجة من الحاج " مسعود القباني " ، الذى يعمل صرافاً فى مبنى المديرية . ربة القامة هو ، ضخمة الجثة ، واسع الفم غليظ الشفتين إلى حد لافت للنظر بصورة تبعث على الضحك والاشمئزاز أحياناً . يرتدى القطنية الشاهى وفوقها الجلباب الصوفى ذو الكم الواسع ، صيفاً وشتاءً ، والطربوش الطويل فوق رأسه المكبلط ، يزيحه دائماً إلى الخلف كى تظهر جبهته العريضة المنتفخة . يمشى نافخاً صدره مطوحاً ذراعيه كتجار القطن والباشوات . فإذا استدار ظهرت رقبته الغليظة من الخلف تتمدد فوقها بالعرض كتلة من اللحم الميت على شكل العرسة ؛ قيل إنها مرض جلدى وإنه صرف الكثير من الأموال على الأطباء وعلى الوصفات البلدى فلم يفلح فى إزالتها . إنه من أسرة كبيرة غنية بعض الغنى ؛ لكن مهنة الصرافة كانت فاتحة الثراء الحقيقى بالنسبة له فاشترى فى البلدة أفدنة كثيرة من الأرض الزراعية يفلحها أبناء إخوته الكثر ؛ واقتنى الكثير من قطعان الماشية والخراف ، ومد المحتاجين بأموال يقبضها بزيادة الربع والنصف أحياناً فى مواسم الحصاد ، واشترى ماكينات للرى تشفط المياه من أماكن شحيحة ، ووابورات للحرث وماكينات للتذرية وللدريس ، وابتنى سراية فى البلد ليقضى فيها

الإجازات؛ واشترى منزلاً فى هذا الشارع من قلب عاصمة البحيرة ، مكوناً من خمس طوابق كل طابق عبارة عن شقة واحدة مكونة من ثلاث غرف ؛ أقام فيه وأولاده البالغ عددهم أحد عشر شخصاً : سبع ذكور وأربع إناث : "حواس" الكبير فى نهائى كلية الحقوق ؛ و "بديع" فى نهائى كلية الهندسة ؛ و "مجيد" فى كلية التجارة ، و "كرم" فى معهد المعلمين ؛ ويعتبرونه قد باظ وفسد بدخوله معهد المعلمين الذى لا يدخله إلا الرعاع والفقراء الحفاة ، وكثيراً ما يعيرونه بفشله فى السلك الجامعى للوصول إلى المحاماة والطب والهندسة والمناصب العالية المرموقة . و "صفوت" فى التوجيهية ؛ و "شريف" فى الإعدادية و "ميمى" فى الابتدائية. أما الإناث فكبيرات مسنات ؛ "تهانى" متزوجة من ابن عمها فى البلدة وهو يقارب أباهما فى السن ؛ و "بدرية" التى قبل إنها ولدت ليلة ظهور البدر ؛ و "يسرية" و "شكرية" ؛ وهن عوانس بلغن سن اليأس ولم يشفع لهن ثراء أبيهن لأنهن يشبهنه تماماً فى غلظة الشفتين وتكرور الجبهة وانتفاخ الكرش وعدم اتساق الجسد فيما عدا بدرية التى ورثت جسد أمها ووجه أبيها . لكل من هؤلاء وأولئك غرفة خاصة بفرش وثير نظيف. وثمة غرفة للمسافرين ، أى الضيوف ، فى أعلى السطح مع عيش الدجاج والبط والإوز ..

كنت أسمع عن ابنة عمى وديدة هذه منذ طفولتى المبكرة حيث لم تكن سيرتها تنقطع من مندرتها العتيقة ذات الدكك الخشبية العارية بعد أن كانت - يقولون - حافلة بأطعم الكراسى المنجدة قبل أن تتدحدر الأحوال بأبى الموظف الحكومى الخال إلى المعاش من سنين طويلة والغشيم فى أمور الفلاحة إذ أخذ يبيع أرضه الموروثة قيراطاً وراء الآخر لينفق على أولاده الكثيرين من أربع زيجات . كان أبى يتوهج حينما تجى سيرة وديدة ابنة عمى ، ويقول وقد أشرق وجهه العجوز الأمل : - " إن شاء الله تكمل تعليمك فى دمنهور وتسكن عند ابنة عمك بالبحان وتبقى تحت إشرافها وإشراف أولادها !! "

وكان أولادها هؤلاء يزورون مندرتنا فى البلدة فى بعض الأعياد فإذا هم أفندية وبكوات وهوام يتأففون من تراب أرض اللندرة وخشونة دككها ومن شاي أبى الأسود ومن منظر القلل الجير وحوافها المكسورة دائماً. وكنا مع ذلك نختفى بهم -

وتحتشد مندرتنا بناس يسلمون عليهم ويتفرجون على ملابسهم الأنيقة ويكتمون الضحكات الخجلى لظهور عورات الرجال بحسدة مكورة فى حجر السروال كما أن للمؤخرات مفلوقة كل فلقة فى ناحية ، ناهيك عن المخنقة المتدلّية من أعناقهم ؛ أما العطور الفواحة فكانت تملأ حارتنا كلها بالبهجة والفرح . وكانت أمى وكل أقاربى يتمنون أن اصبح مثل حواس ابن بنت عمى أو أى واحد من إخوته . وأنا أيضاً كنت أتمنى ذلك ؛ إلى أن حصلت على الشهادة الابتدائية من مدرسة البلدة التى كانت تمنح هذه الشهادة لأول مرة فى حياتها ، وتقدم مدرّسنا الجليل بأوراقنا إلى معهد المعلمين فى دمنهور ، وتقدمنا للكشف الطبى ، الذى شرط قبولى بعد عمل نظارة طبية ؛ فلما تجمع ثمن المنظار بعد لآى شديد سلمنيه أبى قائلاً :

- " إذهب إلى حواس ابن بنت عمك ! وقل له جدك فلان يسلم عليك ويقول لك انزل معى إلى الطبيب للكشف وإلى محل النظاراتى لعمل النظارة ! وإن نقصت الفلوس قليلاً فيدفع ! "

فلبست جلبابى الزفير المقلّم الجديد ، المدخر من العيد الفائت لمثل هذه المناسبة ، والحداء الأسود والشراب الأبيض ، وسافرت إلى دمنهور بعنوان ابنة عمى . فإذا بى أمام امرأة كدلفين الماء ، برأس صغير جداً ورقبة طويلة جداً ، وجسم مبروم باللحم المكتنز ، تتلوى رقبتها عند الكلام فيتمايل رأسها الصغير كراس الثعبان ؛ ضيقة العينين مليئة الوجه بالتجاعيد ، فى عينيها نظرة تجمدت على شىء من الإشمئزاز والتأفف أو لعله القرف . نظرت لى من فوق لتحت وصارت تلوح بأصبعها فى تنديد وسخرية مريرة :

- " إيه ده !! معندكش جلابية أحسن من دى ؟! أو حتى حداء أنظف من هذه البرطوشة ؟! هل ينسوى عمى أن يفضحنى هنا وسط الجيران .؟! ماذا يقولون ؟! عائلتها شحاذين متسولين ؟! .. "

صارت الدموع تتجمع فى عينيّ وتتبخر صانعة ضباباً كثيفاً ينذر بالرعود والبروق . وكان أولادها قد انزوا فى أركان فوق الأسرة والكراسى واندبحوا فى القراءة وهم يختلسون النظر إلى من حين إلى حين فى كثير من الاستنكار الممزوج بالحيرة والحرج ؛ فيما كنت ما أزال واقفاً أمام ابنة عمى ممسكاً بحفنة النقود

المصرورة فى طرف منديل محلاوى ، بعد أن سلمتها خطاب أبى . أخيراً رمت
بالخطاب بجانبها وأشارت إلى ابنها حواس قائلة فى اشمئناط :

- " قم فاذهب معه ! "

فى صوتها نبرة تقول إن هذه ضريبة علينا لا بد منها وأمرنا الله ، وكان حواس
قصير القامة عريض الوجه والكنتين . وجهه ممسوح من أى ملامح ؛ والغلظ فى
شفته أقل بكثير جداً من أبيه وإخوته . فى عينيه بلادة كطبقة من التبن فوق مياة
أسنة ؛ وإذا يتكلم تنتقب البلادة لتنتظ من ثقبها ومضة حارقة شريرة جارحة . فى
لسانه عوج قليل جعلته اللهجة الهندية طابع حسن فى صوته المنطق المتدفق ولكن
بغير وضوح كامل ، حيث يثقل السين بالثاء والذال بالزين . من مكنمه خلف
مكتب صغير فوقه أباجورة تكب الضوء فى عز النهار ؛ قال :

- " ولماذا لم ينجى أبوك ؟ "

قلت مغالباً الدموع الحارقة :

- " هو متعب هذه الأيام ! " فزأمت وانكفأ على المكتب مفكراً

حولت ابنة عمى بصرها إلى ركن بعيد :

- " تروح معه يا بديع ؟ "

كان بديع مضطجعا على السرير ممسكاً بإحدى الجملات المصورة . ورغم أنه
الابن الثانى فى الذكور فإنه يبدو دائماً كأنه الأكبر ، لرصانة فى ملامحه المنضبطة
التي ورثها من عائلته ، واستقامة فى لسانه ومنطقه ، وصفاء فى عينيه الواسعتين
كعينى أبى طبق الأصل ، وقامته المستطيلة النحيفة كقامة خاله محمود ابن عمى
الذى يسكن فى جزء من دارنا فى البلد ، وبشترته البيضاء الحمرة كبشترتنا ؛ ثم
لكونه حصل على لقب الباشمهندس منذ ثلاثة أعوام مضت ولم يبق سوى شهور
قليلة ليصبح هكذا بالفعل . أراح الجملة عن وجهه ، وبجدية هائلة قال :

- " كان المفروض أن ينجى أبوك نظراً لاحتمالات كثيرة ! "

هنا ظهر الحاج مسعود هابطاً من سلم داخلى قرب الشرفة ، يرتدى جلباباً
منزلياً من البوبلين بياقة وأساور ، وفوق رأسه طاقية من نفس قماشة الثوب ، صار
يرطم فى صوت يشى بالطيبة ، ويغيب بلسانه الأكثر عوجاً من لسان ابنه حواس ،

ولا ينى يمسخ شفثفه الغلفظفنف بفظاهر فده ، ومع ذفك لا ففلح فى إقفاف اللعب والرذاذ الففنافر من بفنفهما . فهمف أفه فقول لإفنه فواس :

- " فافنف ففف ففف أفوه وهو رفل ففففف ؟ أفه فوق السبعفن من العمر ؟ أفه فافف فففف ؟ وأولاد فففف ؟ فم فاف ولدى ففرفك فواف ! لاففكسف الففدع ؟ "

نفف فواس بفصففة ، وأزاف الأوراق من أمامه فى فضب فم نهض فاففففى فى باب سحرى مغطى بورق الففكفور . كل ذفك وأنا واقف فى مكانى لا أرفم ، فون أف فقول لى أفف : لفلس ، وفف فافف الفففا فى وففى ملاءة سوافاء مبسوفة ففماوف . أففراً فرف فواس مرفففاً بفلة كاملة برفاف عنق ، وفففاء فلفم كالمرأة كعفره المصفف بفنافة فاففة ، والمفففل الملون بلون رفاف العنق عل شكل الأفراماف الفلافة فى ففب سرففه على الصدر. افشار لى فى وف ففففل : " فلاً فاففففى ! ". فمفداف له فدى بفرة الففوف ، فففاها فاففاً بففه : " فلففا معاك ! ". فوفعفرها فى سفالفى ، ومصفف وراه كالخافم الفرفوف . ولطفة أف شرعف أهبط السلم فلففه بفطواف مبطوفة ففعاة أفركة أف المسافة بففى وبفنه موفلة فى البعف ، وأففى لن أكون مثله أبداً ففى لو وفقف السماء كلفها فى صفى . لف العمر المقفل كله لفس فكفى للفاف بففله . فم كرففه ، وفلف فى نفسى لفنى لا فشرففى أف أكون مثله .

ها أفذا افوقف أمام فل العصفر الفافم على فاففة شارعفرم من لفففى الفوارى الموصلة فله. ملافن المراف فبط نفسى مفلبسا بالإنسفاق وراء فوافر فوعز لى بفأن أففلفها وأمرى لى الله : أزورهم مفاولا اقفراف فففه كامل أو فمففن قرفشا من افنة عمى أو ففى ربع فففه أو على الأقل ففففنى ففوة فمة فىها لحم وفضار وأرز ، وفف فشفف لى أفنى لم أرزهم منذ سنوات فوفلة ؛ فالأزعم فم مثلاً أفنى فافم من البلف أففل إلفهم سلام فافهم فمفوف وسفهم فففة ، أمكف عندهم ساعة أو ففوها فلرما فكونو قد فففروا فلال هفه السناف ودففل الفرافم لى قلوبهم . وملاففن المراف ففهمنى نفس المشفد برمفه ففكانى أفعشه لأول مرة : كان الفظارافى قد أعطانا موفداً بفف فمسة أيام لاسفلام الفظارة لأمفداف لى اسبوع فظرفاً لأنى فرفب ومسافر ؛ الفظارافى اسمه علس ، وففوفى ، وهو فى الأصل ساعافى ، ومفله أمام مبنى المففرفة مفاشرة فمفن صف من الففلاف الفافرة ذات البفارفن الففشفة بكف

مثير وغريب ولم يكن هذا بلعاً ، فجميع صانعي النظارات إذ ذاك هم فى الأصل ساعاتية ، والعدسات والشناير معروضة بين الساعات. انتقى لى حواس شنيئاً على ذوقه وصورة طبق الأصل من نظارة غاندى . اضطرت للبقاء هذا الأسبوع ضيفاً على ابنة عمى. السرير الوحيد الذى اتسع لى هو سرير الولد شريف لأنه ولد ضئيل الحجم. هو سرير بعمدان وناموسية تلفه من جميع الجهات ، فوقه حشيتان ووسادتان وملاءة وكوبرة ولحاف ملبس فى كسوة من الدبلان. قارنت ذلك بالحصيرة فوق أرض القاعة فى دارنا على المصطبة الجاورة لفرن الخبز؛ وتذكرت سهراتنا فى الجرن نستمع يلحان حقيقى لسرحات الولد جنوم الذى كان يؤكد لنا أن القمل شئ طبيعى فى جسم الإنسان كدود المش منه فيه ، وأن الملك فاروق نفسه لابد أن يكون فى جسمه قمل وبراغيث. فلما انزلت على الفراش الأملس تحت اللحاف الرطب الجميل وصافحت أنفى رائحة الصابون للمعطر أيقنت أن الدنيا أعمق وأدهى مما كنت أتصور ؛ ثم طرت على أحضنة النوم إلى مسافات بعيدة كنت أصحو خلالها على انتفاضة الولد شريف وهو يرمى بنفسه على الأرض صارخاً يغيظ شديد وحقد دفين : " مش معقول ! مش ممكن ! " . فلما صحت قرب الفجر على الاستغاثة لاحظت أنه ليس ينام بجوارى. وفى الليلة التالية ترك لى السرير وحدى . وفى أحد الأصباح أحاطونى بغمز ولمز وضحكات ماحنة مكتومة ومنفلتة ، وكلمات كثيرة فهمت منها أننى طول الليل أفسو وأملأ الحجرة كلها برائحة البكجورت ، ناهيك عن رائحة نتن الجورب فى قدمى ، والبراغيث التى جلبتها معى من حصيرة البلد وكيف أنها ستكونهم قلب البيت كله رأسهاً على عقب فى الشمس. وفى صبيحة اليوم الأخير اقتادنى الحاج مسعود إلى محل عدس فاستلمت النظارة وراجعها معى على لوحة الكشف فى المحل وتثبت من أننى رأيت بها العلامات الدقيقة. ثم اقتادنى إلى محل العصير هذا ، حيث سقانى كوباً من عصير القصب فاستطعمته لدرجة أن ثمنيت واحداً آخر فى الحال كأننى أشرب ماء الحياة الذى أسمع عنه فى الحواديت والأمثال. ثم مشينا إلى شارع المديرية ، حيث سلم على بيد غليظة كفردة البلغة ، قائلاً فى هلزمة :

- " مع السلامة يا بنى ! شلم على ابوك ! "

وتركنى ومضى نحو المديرية بخطوات سريعة. وحينما أوشك على الاختفاء تذكرت أن ماتبقى معى بعد ثمن النظارة حوالى أربعة قروش ونصف، فى حين أننى محتاج لسبع قروش أحرة العودة إلى بلدتنا. وكنت أهم بأن أجرى وراءه لأوضح له هذا الأمر، لكننى لم أستطع، فمضيت نحو المحطة ملتزماً بوصية عدس بألا أخلع النظارة أبداً حتى اعتادها، فكانت الأرض تبدو تحت قدمى كالمنبوعة ومائلة، مع أن الأشياء كلها مزهزة ومضيقية، والطرق بدت لها أعماق بعيدة لم أكن أراها من قبل. قطعت تذكرة إلى مدينة دسوق؛ ومن دسوق قطعت تذكرة إلى سنهاور المدينة. وكان فى مخططى أن أزور من الكمسارى فى المخططين الباقيتين لكننى لم أفعل، وأصر على تطويقي، لولا أن كرامة النظارة أتت بشمارها فى الحال، إذ تمنع فى منظرى رجل طيب وقال: "باين عليه ابن ناس طيبين! سيه ياعم وحد فلوسك!" .. فتركنى الكمسارى أنزل فى محطة البكاتوش لأمشى إلى قريتنا ثمانية كيلو مترات.

إلا أننى أحس الآن أن لى مارباً فى السير فى شارع السوسى غير مجرد تضييع الوقت والشعب من ريحة الطعام المجانية. سرعان ما تبينته. هاأنذا أحوم حوله، إنه محل "محمد أبو سن"، تاجر الأقمشة المتوسط الحال، لا هو بالثرى ولا بالفقر؛ يكفى أن محله فى شارع السوسى، على واجهة، ورفوفه مملأى بأثواب من جميع الأنواع والألوان لكنها ليست مكتظة وليست تنم عن مخازن خلفية أو راس مال كبير. غير أن المحل فى رواج مستمر، خاصة بالنسبة لزبائنه الفلاحين القادمين من القرى والعزب المجاورة؛ إذ أنهم يجدون فى المحل شخصاً قريب الشبه بهم، يفهمون عنه بسهولة وبساطة ومصادقية، ولذلك يستريحون له، وكلمته عندهم واحدة. هو شخصية منبسطة حبوبة؛ ضيق الجبهة والعينين قصير الأنف واسع المنخرين واسع الفم ينفرج دائماً عن أسنان مصفرة مفردة بين كل سنة والأخرى مسافة واضحة فكان كل سن يتسم وحده على طول الخط. غمازتان فى صدغيه، وعلى الوجه مسحة من الصفاء والطيبة والبراءة تجذبك إليه كأنه أحد أقاربك؛ لما فيه من الفة شديدة. يثق جميع زبائنه أن أسعاره أقل من سعر السوق بقرشين وربما عشرة قروش فى المتر الواحد؛ كما أن أقمشته مضمونة

الجودة . أما القياس بالمتر فيه فيه برحة ، قبل أن يقطع يتعد عن نقطة القياس بخمس قراريط . ولقد كون هذا المحل بعرقه وشقائه المتواصلين على امتداد عشرين عاماً منذ كان بائعاً سريحاً بعربة يد . ذلك هو محمد أبو سن ، عضو بجماعة الإخوان المسلمين ، زبينة الصلاة كالعصفور على جبهته . لم يتعرض لتجربة السجن رغم أن جميع أصدقاء عمره الأعزاء قد أمضوا نصف حياتهم فى السجن . السبب أنه ذكى جداً ، يتعد عن التظاهرات والعمل السياسى المباشر ، يلتزم بالفروض والواجبات والسنن ، يتطوع بالوعظ الهادئ النيرة الخالى من أى غمز أو إثارة سياسية ، بكلام شديد الخلاوة رسخ فى ذهنه من عتاة المتكلمين الذين كانوا ينفردون بنا فى مقر الجمعية فى شارع النادى فيقسمونا إلى فرق للكشافة والتمثيل والحرس الوطنى والمقاومة الشعبية . هو الذى اقتادنى إلى فرق للكشافة والتمثيل والحرس الوطنى والمقاومة الشعبية . هو الذى اقتادنى إلى هذه الجمعية بطريقة غاية فى اللطف والحميمية . فأنا وإن كرهت الحاج مسعود وبنت عمى وأولادها كرهاً حقيقياً . بإرادة وتصميم وبلدرة تكاد تصل حد النقمة والعدوان ، إلا أننى مع ذلك استفدت من قربتهم . فباسمهم تمكنت من التجوال فى هذه المنطقة بكل أمان وأريحية دون أن أتعرض لما يتعرض له الغريب فى مدينة كهذه ، يكفى أن يعرف أحد أبناء المنطقة أننى ابن عم الحاجة وديدة لزم ، حتى يتركنى جالساً فى مقهى فترة طويلة بطلب واحد بل وأحياناً دون أن أطلب شيئاً بل ربما جاءنى طلب على سبيل التحية ؛ أو أن يعطينى صاحب الدكان الأمان فيتركنى أسليه وقتاً فى انتظار الزبائن أو بين الزبون المنصرف والزبون القادم ، أو أن يسلم على بحرارة إذا قابلنى فى شارع آخر أو أن يدفع عنى عدواناً طارئاً .

بيت محمد أبو سن فى مواجهة بيت الحاج مسعود مباشرة ؛ والود العميق متبادل بين النسوان عبر الشرفات والمنازل ، وكلمات : ياطنط وياآيه وياآنسة تملأ الأصباح والأصائل بأصوات نسائية رخيمة بلهجات بندرية تشوبها لكنه فلاحية قاطعة . من حسن حظى أن محمد أبوسن رأتى فى الشرفة قبل أن ينزل إلى المحل بعد قيلولة جميلة ؛ ثم مررت عليه فى المحل مع حواس أكثر من مرة أثناء عمل النظارة لأنه فى طريقنا . ثم إننى أصبحت أمر عليه بعد أن انتظمت فى الدراسة وسكنت

مع ثلاثة من أبناء بلدتي في حجرة في كوبرى إفلاقة على الشاطئ الآخر لزرعة الحمودية حيث أن مقر المعهد فيها في بيت مستأجر من أحد المراكبية ، فكان أبو سن يلتقيني بحرارة شديدة ويقدمني لزبائنه وضيوفه بتفخيم كبير يخجل تواضعي ، وقد لاحظ أنسى أهوى القراءة وأحمل روايات ودواوين شعر وكتباً في الأدب ومجلات ثقافية ؛ فصار يناقشني فيها بشكل أذهلني ، مما أكد لي أنه قرأ كل هذه الكتب والمجلات وله رأى فيها، بل صار يزودني بكتب أسمع عنها ولا أجد لها، حتى روايات إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي التي يهاجمها خطباء المساجد كانت في مكتبته ويعيرني ما أطلبه منها شرط أن أردّه نظيفاً . هو الذي نهني إلى سلسلة شهرية اسمها الكتاب اللهي متخصصة في نشر القصص والروايات لكبار الكتاب ، وإلى سلسلة كتاب الهلال التي كانت عنده كلها ، كما نهني للجانب السياسي في مؤلفات العقاد ؛ وقد أشبعني بكل مؤلفاته ومؤلفات طه حسين والمازني ومصطفى صادق الرافعي وهيكل وأحمد حسن الزيات وأحمد زكي أبو شادي والمنفلوطي ومحمد فريد أبو حديد ومسرحيات أحمد شوقي. الأجل من كل ذلك أنه نقل لي خبراً أذهلني، أنباء أن في دمنهور جمعية للأدباء ومقرها مقهى المسيرى ورئيسها عبد المعطى المسيرى صاحب المقهى ، وأطلعني على بعض كتب هذا الأديب القهوجي الأعجوبة ، وكتب الأدباء الدمنهوريين من أمثال أمين يوسف غراب ومحمد عبد الحليم عبد الله وأحمد محرم وعلى الجارم . وهو الذي نصحني في النهاية أن أنسى عبد القدوس والسباعي وأمثالهما لأقرأ بانتباه كاتباً مجهولاً يدعى نجيب محفوظ يصور الحكاية على حقيقتها ، وكم كان جيبلاً أن يدعوني لزيارة قهوة المسيرى على مبعدة خطوات من دكانه ؛ حيث جلسنا على ترابيزة قريية ورحنا نحتسى الشاي ، ونراقب الأدباء وهم يضمون الترابيزات ويتناقشون ويقرأ بعضهم وينصت الباقيون بإمعان ؛ والمسيرى يتابع كل ذلك فيما يتابع سيل المراكات المنهال على منصته من يد الجرسون الذي هو ابن أخيه في نفس الوقت. في تلك الليلة اعترف لي محمد أبو سن أنه توقف في التعليم عند الشهادة الابتدائية وانتهى للقراءة منذ وقت مبكر ، فازداد نهمه للقراءة بحكم عشرته لمتقنين كبار من جماعة الإخوان المسلمين ..

كان محمد أبو سن يعطف على كثيراً ، ويصر على أن يعشيني أو يغديني،
وينفحني بعض القروش على سبيل السلفة الطويلة الأجل ، لكنني منذ فصلت من
المعهد لم أره ؛ أصبح الخجل من الفشل يمنعني من المرور عليه. ثم بات سوء المظهر
وشدة الهمك يحولان بيني وبين باب دكانه ؛ فأراني ألف من ورائه حتى لا يراني
مع أنني في الواقع كنت أتمنى أن يراني بشرط أن يبدو ذلك صدفة محضة. فما بالي
اليوم، مثل أيام كثيرة مضت ، أشعر أنني أدبر كي يراني دون أن يبدو على أنني
أتعمد ذلك ؟..

شارع الإخوان

مع أنني كنت بعيداً عن دكان أبي سن ، بمسافة كبيرة ؛ خلفه مباشرة ولكن من الحارة الملتفة حوله ، فإن قرينه قد التقاني . إذا بي أسمع صوتاً يهتف باسمي منادياً : يا فلان . ولأنني تذكرت الصوت في الحال فأنى قد أسرعت في خطوى . فلإذا بالصوت يناديني مرة أخرى من مسافة أقرب ، فضاغت سرعتي ، حاولت الدوبان في زحام حارة بنت عمى الواسعة الموصلة إلى شارع المديرية الكبير ؛ حيث يبدو مبنى المديرية أمامي ممتداً في مواجهة الحالة كلوحة جدارية كبيرة تجعل القادم نحوها من الحارة كأنه شرع يدخل قاعة في منزله . إلا أنني فوجئت بمن يقف أمامي قابضاً على ذراعي :

- " ماتريد أن ترد ياخسيس ياوغد ؟ "

رفعت رأسي كالمنفاجأ ؛ صافح عيني وجه أسمر مشطور ككسرة الفول والطعمية . كل شيء في وجهه مشطور أو مشطوف ، الأنف والخدين والذقن والجيبة ، كان كل ملمح من هذه الملامح تم شطفه قبل تركيبه ، مع أن خللاً دائرية تتماوج تحت الجلد المدهوغ بحرارة الشمس وفوقه ، حتى لحيته السوداء المطلوقة ، هي الأخرى مدببة بشكل هرمي مستفز . يرتدى بذلة فوق فائلة قطنية خفيفة ويضع حزمة من جرائد مطوية تحت إبطه ، واضعاً يسراه في جيب سرواله فيما قبضت يمينه على ذراعي . أخذني الروع لبرهة لكنني سرعان ماضحكت فيما اسلم عليه بحجارة ..

إنه عبد الله أبو حنطور ، الصديق الصدوق لحمد أبو سن . ذو مركز مهم جداً في شعبة الإخوان المسلمين ، ومن عتاة المتكلمين في أي مناسبة يشاء دون أن يبدو عليه أنه متطفل أو خارج عن الموضوع . تعرض للسجن أكثر من مرة منذ أيام إبراهيم عبد الهادي رئيس الوزراء زمن الملكية ، وشارك في المقاومة الشعبية في الإسماعيلية وبورسعيد والسويس . يعمل مفتشاً للغة العربية بوزارة التربية والتعليم . ذو سطوة رهيبية بين جميع معلمى اللغة العربية في مدارس المحافظة كلها ، لأنه رغم ما طبع عليه من روح بخيرة سمحة متواضعة إلى أقصى حد ، فإنه لا يقبل الترخص

فى شئون العلم مهما كانت الظروف والأسباب ، ولا يقبل الوساطة ، كما أنه ينفر كل النفور من التلاميذ البلقاء الأغبياء ويلعن معلميهـم قبل آباءهم. أغلظ لعنة عنده فى أقصى حالات غضبه هى : " جاك عمى فى عينك " ، أو : " الله يساعه بقى اللى علمك ". منذ أن عرف بأبنى طالب فى معهد المعلمين عاملنى باعتبارى معلماً وخاطبنى دائماً بالأستاذ. لم ييـخل على بكتب ثمينة . وكنت فى حضرته أشعر بأبنى شخص نجيب ذكى محترم وناجح ؛ أشعر بالخوف أن تهتز صورتى هذه فى نظره لسبب من الأسباب ..

أهلاً أهلاً الحمد لله بخير . وكنا قد استأنفنا السير فصرنا على بعد خطوتين من مبنى المديرية المستطيل اللامع ، فجدرانه بيضاء رصينة ونوافذه المستطيلة المهيبة مزركشة بكرانيش من اللون الكنارى ، ودرجاتها ملهونة بالبني المحروق ، وللنوافذ أفاريز بارزة من الرخام ، أما الباب الرئيسى فى وسط الجدار فيرتفع عن الأرض بدرجات رخامية ، وشكله مهيب يغرى بصعود الدرج والدخول ؛ وأنواع متعددة من الناس مابين أفندية بطرايش ومشايخ بعمائم وفلاحين بطواقى يصعدون الدرج أو يهبطون فى مهابة وأبهة ، فكاننا نتفرج عليهم فى مشهد سينمائى ، حيث تبدو هذه الصورة من بعيد كخلفية تسد الحارة ، تتباعد كلما اقتربنا منها ، لتظهر بعد قليل ناصية شارع المديرية المار من أمامها مباشرة. لم يبق أمامنا سوى أن نكسر يمينا فى شارع المديرية ، لنمر بمقهى المالية الكبير المزدان بالمرايا فى جميع الحوائط ، والزرايزرات ذات المفارش النظيفة ، والنوادل بأجنحة بيضاء كالملائكة ، ورائحة المياه المكررة والشاى والبن والقرفة وتبع النارجيلة تعطر الشارع بمزيج فريد من العطر. بانتهاء رصيف المقهى لا يبقى سوى خطوتين نكسرهما يمينا أيضاً فى شارع السوسى لنصير أمام دكان محمد أبو سن القمامشى..

عبد الله أبو حنطور ليس سهلاً ؛ كسر بى كسرة حادة إلى اليمين فإذا بنا فى قلب المقهى من الداخل . إختار ترابيزة مجاورة لشرفة مطلية على شارع المديرية ؛ فأشار لى على كرسى فجلست فى قدر كبير من الخجل على الكرسى الملائق للحائط ، ورميت ببصرى فى المرأة المواجهة لى ، رحت أتفرج على القادمين نحوى فى الشارع وهم فى الأصل قادمين من خلفى . صفق عبد الله فجاء النادل فطلب

إليه التكرم ببراد شاي ونارجيلة نادية. فكان المطلوب كان في انتظار تشريفنا . قال عبد الله ، وهو يقلب السكر في الشاي ناظراً في عيني نظرة ثاقبة قوية لن ترضى بغير الصديق المباشر دون لف أو دوران:

- " إيه ، ماذا حدث لك؟ ما هذه البهدلة ؟ "

كان منظرى في المرآة غير سار على الإطلاق : القميص يتكاثف عليه الوسخ عند الكتفين من أثر النوم به فوق الأرض ، والياقة متأكلة الأطراف، والسرور منبعج الركبتين منسول في الأطراف وتنتيه أيضاً متأكلة ؛ أما الحذاء فقد تكور وجهه وامتلأ بالتجاعيد والدمامل وتآكل كعبه تماماً . أما وجهى أنا ، فكان قريب الشبه منه إلى حد كبير. وحدتنى أخروط في البكاء ؛ نهر من الدموع انهمر تحت عدستي النظارة التي كانت ملحومة الإطار فوق الأنف لحاماً ظاهراً ؛ رمى عبد الله بمنديله نحوى فوق الترابيزة بحركة سريعة حاسمة ، وقد تقلصت عضلات وجهه بقسوة شديدة كأنها تشحط في صائحة : كف عن هذه المعيلة . فمسحت دموعى على الفور ، ثم صادرتها بقوة ..

الواضح أننى حكيت له الحكاية من أولها إلى آخرها ؛ إذ بدا عليه الحزن الشديد؛ ركبته الهم حتى صار يشد أنفاس النارجيلة ثم ينفخها بغیظ . بقى صامتاً لدقائق طويلة . نهض واقفاً وانتزع من جيبه ورقة مالية بعشرة قروش رمى بها فوق الصينية وجذبني من ذراعى ومضى ، واضعاً ذراعى تحت إبطه . تجاوزنا شارع السوسى ، فاسترحنا لذلك بعض الشيء ؛ لكنه حرم بنا من شارع السوق إلى شارع الخیری ، ثم إلى شارع السوق مرة أخرى . مررنا بمطبعة التوفيقية .. دهمننى ذكريات مفجعة مبهجة معاً تخرج من هذه المطبعة مع رائحة الورق والأخبار مختلطة برائحة زفارة السمك وعطن الجحارى : هذه المطبعة طبعت لى كتيباً يحمل قصة من تأليفى بعنوان : [الخلد الأسيل] جمعت ثمنها بإيصالات مطبوعة من زملائى ومعلمى فى المعهد ثم وزعتها عليهم ؛ وكانت أقرب إلى إمساكية شهر رمضان لكننى أحبيتها بعمق ؛ إذ كان لىسمى مطبوعاً فوقها بكليشيه كبير أسود ككبار الكتاب ، إلا أننى أصبحت أشعر بقلبى يهبط إلى ساقى كلما تذكرتها الآن ، إذ أن أهلى وأهل بلدتى كلهم وضعوها مع نسوان المدينة اللعوبات على رأس قائمة الأسباب

التي افسدتني وحولتني إلى ولد ساقط صايع. تذكرت أنها لم تعجب عبد الله أفندي أبو حنطور على الرغم من أنه شجعني على طبعها بأن دفع لي جنيهاً كاملاً مقابل إيصال فارغ من أى بيانات ، مثلما فعل جميع معلمي في المعهد. وحين قرأها في ربيع ساعة ونحن جلوس في دكان محمد أبوسن لامننى بشدة على أنني لم أعرضها عليه قبل طبعها لكنه قرص أذننى على الفقرات الإنشائية اللامعة الكثيرة التي نقلتها من المنفلوطي ونحمد عبد الحليم عبد الله وأمين يوسف غراب ويوسف السباعي ثم حشرتها حشراً في السياق، اذ كلما اردت وصف الحبيبة ذات الخلد الأسيل إستعرت فقرة كاملة من أحد هؤلاء الكتاب قالمها في وصف حبيبة أخرى، والأمانة تقتضى الا أفعل شيئاً من هذا ؛ وإذا لزم الأمر فكان يجب أن أضع هذه الفقرات بين مزدوجتين وعلامة تنصيص تثبت في الهامش بأنها مأخوذة من الكتاب الفلاني في الصفحة الفلانية من الطبعة الفلانية؛ هذا إن جاز أن يحدث ذلك في القصص والروايات. إضافة إلى هذا الدرس القارص لم يعجبه أى شئ في القصة سوى حماسي إلا أنها زادت عن حدها فجراتني على الطبع والنشر بغير تبصر..

توقف بنا عبد الله عند محل كبير لبيع الأسماك والفسیخ ، حافل بالبراميل والطاولات والزبائن . في ركن قصي منه يجلس رجل مربع الوجه ابيض البشرة كالشجع طويل اللحية في جبهته زبيبة الصلاة كالثمرة الأبرمى ، غمزني عبد الله بأن أبقى واقفاً في مكاني ، ثم اخترق المحل . نهض الرجل المربع الوجه واقفاً في تبجيل شديد ؛ فانحنى عبد الله على أذنه واندمج في حديث هامس ولاحظت أن الرجل يختلس نحوى نظرات خاطفة مليئة بالحياء والتلقائية ؛ فابتعدت عن الباب معطيلاً ظهري للباب . بعد برهة طويلة خرج عبد الله فتأبط ذراعي ومضى. دخلنا شارع الخيري ، حيث شرمنا نحو حارات جانبية ، توقف فيها عبد الله عند محلات ومناجر ثم اختفى قليلاً وعاد ؛ ليمضي بنا إلى ميدان الساعة. كان الميدان جميلاً بمحى ؛ أسوار مدارس معيطى ، وسينما البلدية ، وخلفها مكتبة البلدية ، الشبيهة بكل المباني الرسمية في كل العواصم تقول أنا مبنی حكومي ؛ وقهوة الطلبة ذات الجدران الزجاجية والردهة المستطيلة كالسامر والرصيف العريض المرتفع عن الأرض، حافلة دائماً أبدا بالرواد معظمهم من الطلبة والمعلمين وبعض الموظفين ورجال الأعمال ،

أجسام فتية مفتولة وأنسات ذوات مرايل زرقاء وطاقيّة بيضاء وحقائب تختنضنها الصدور الناهدة ، صخبها لطيف يجيل إلى الأنس والبهجة ، اصوات زهر الطاولة وقشاط النرد وتقنيط الورق وكركرة النراجيل وضحكات الإناث الرنانة ؛ والأكواب والبراريد والصواني براقّة لامعة ، وكذلك الأرض ، ومفارش المناضد ، وزجاج الجدران ، حتى لتبدو المقهى فى الليل كحمام سباحة تحدد جدرانه لمبات النيون المتألّكة . أمامها شارع النادى ، مفخرة المدينة بنظافته وحديقته الممتدة الوارفة ، ونادى الموظفين ، وقطار الدلتا الذى يخرق جزءاً منه قادماً من قرى مجاورة ذاهباً إلى قرى أخرى أو ضواحي متاخمة ، يطلق صراخه الشبيه بصراخ الفكالى ، وعرباته شبه الفارغة إلا من بعض الفلاحين والأفندية والطلبة والمواشى المساقة إلى السوق أو إلى المذبح ..

كان عبد الله يتوقف عند بعض المحلات ثم يهيم بالدخول ثم ينصرف فى آخر لحظة. إلى أن فوجئت به يتجه إلى مبنى شركة بيع المصنوعات المصرية ، يسحبني داخلاً ، ليتوقف لحظات قليلة عند بعض الأركان والبنوك ، فيشتري لى سروالاً من قماش " الووتر بروف " الجميل الأزرق ، وآخر من صوف الفانلة الرمادى وقميصين بياقة عريضة ، وغيارين داخليين ، وجلباب للنوم ، وحناء شبانى بدون رباط ، وجوريين ، ومنديلين . قاس كل ذلك على حسدى بإحكام وتدقيق فى مسألة اللون والذوق والخامة . ثم دفع مبلغاً كبيراً أذهلنى وأغرقنى فى بحار من الخجل والعرق على ارض خفية من الغبطة والسرور . حمل شيئاً وحملت أشياء ؛ ثم استوقف عربة حنطور ، دفعنى إليها ثم ركب بجوارى هاتفاً الحوذى :

- " صلاح الدين يا أسطى "

فشد الحوذى اللحام ؛ وانتظمى قرع سنابك الخيل على أسفلت الشارع ، ثم على البلاطات العريضة فى حوارى حى صلاح الدين المقلقلة كجزر متلاحمة بين أبحار من مياه المجارى والصرف . نزلنا أمام بيت عتيق ذى ثلاث طوابق بثلاث شرفات فوق بعضها متشابهة .. تقدمنى داخلاً ، صعدنا سلماً رخامياً متأكلاً الدرجات متعرجاً فى الطابق الثالث توقفنا أمام باب ذى درفتين يقابله باب آخر ؛ طرق هو على باب ، ثم استدار ووقف أمام الباب المقابل ، الذى انفتح بعد برهة

وظهر منه طفل صغير سرعان ما تركنا واندفع يجرى فى الداخل . الكنب البلدى فى المواجهة منجد ومكسو بالقטיפه . فى مقابله طاقم من المقاعد الصالونيه المنهبة ، وعلى الأرض قطعة من السجاد الثمين مزهرة اللون . على الحائط فى المواجهة صورة للشيخ حسن البنا ، بوجهه الوديع السمع وطربوشه القصير ولحيته القصيرة المتسقة كأنها مجرد دهان بالفرشاة خطته يد منضبطة. وعلى الحائط الجانبي صورة للميكاشى جمال عبد الناصر يلعب الشطرنج فى استغراق شديد. وعلى الحائط المقابل صورة عتيقة جداً لشيخ طاعن يرتدى العباءة والطاقيه الصوف المبطوشة على شكل الطربوش المغربى ؛ تقول ملاحظه إنه مغربى الأصل ، وأنه جد عبد الله أبو حنطور ..

أغلق الباب ووضع الأشياء على الكنية ثم استأذن فدخل ؛ شد الستار على ممر مكشوف. جلست ، رأيت على الترابيزة الرخامية ذات الشكل البيضاوى أعداداً كثيرة من مجلات : الدعوة ومنبر الإسلام والرسالة والثقافة، وبعض مسرحيات إسلامية مدرسية من تأليف الشيخ عبد الرحمن البنا ، ومصحف كبير بتفسير الجلالين ، ومختار الصحاح ؛ ومن خلفى مباشرة دولاب كبير عريض بأبواب زجاجية مغلقة تظهر فيها صفوف المجلدات الثمينة مكتوب على كعوبها بماء الذهب أسماءها. ماكدت أقلب فى أعداد مجلة الرسالة حتى انزاح الستار وظهر عبد الله افندى مرتدياً الجلباب والطاقيه الدبلان ؛ قال : تعال. فقمتم ، مضيت خلفه فى الممر المستطيل ، مررنا بمطبخ مفتوح تظهر منه صفوف الحلل والأطباق وثلاجة وبوتاجاز ، وروائح سمن مقدوح وشواء شهى. عند الباب المجاور توقفنا ؛ إنه دورة المياه. أشار لى أن أدخل ، ثم أتى بيديه حركة دائرية حول رأسه وصدره وجسده. فدخلت ، رأيت الدش والليفة والصابونة المعطرة فوقها ، والبشكير الكبير معلقاً على مشجب فى ظهر الباب ، الذى انسحب بيد عبد الله من الخارج حتى طرقت الترابس فى بجراه . خلعت ملابسى كلها ، فتحت الدش ، صرت أدعك جسدى بالليفة والصابونة فى نشوة هائلة تحت وابل من المطر والوشيش ، الذى اختلط بصوت المذياع فى الردهة المجاورة ميزت فيه صوت محمود الشريف فى برنامج : " قِسَم " وهو يغنى طرباً : ياخال أنا خالى رَوَّقْتُ لك بالى ! واللقمة تهناى بين

أهلى وعيالى . ماكدت أغلق اللش فينقطع صوت الرشيش حتى علا صوت المذياع
فجأة بصوت الناي المكثف بالزفرات الحارقة وفى أعقابه صوت رقيقة الشال يزفر :
ياترى أنت فين يامرزوق. فى أعقابه صورة أمى وهى متربعة على عتبة دارنا فى
البلد تيكى إذ تسمع هذه الجملة نفسها خلف هذا الناي مباشرة ، فكانها لها هى
الأخرى مرزوق غائب يأكلها الحنين للقباه.. شعرت بخطوات أمام الباب ، ونخنة،
وصوت نقرات خفيفة . لففت نفسى بالبشكير ، واربت الباب ، تلقت الغيار
الداخلى والجلباب الأبيض ، فأسكرت أنفى رائحة القماش الجديد. ثم خرجت من
الحمام شخصاً آخر تماماً ، حتى أن عبد الله أفندى نظر فى وهز رأسه فى رضاء تام
وهو يتقدمنى نحو الردهة التى بها المذياع ، لأجلها محتلة بترابيزة السفره بكراسيها
ودواليها الزجاجية الحافلة بأطعم الأطباق الصينى والأكواب والفناجين والفضيات.
كانت أطباق الطعام مرتصة فوق الترابيزة كالوليمة الحافلة يتصاعد منها البخار
والأريج الشهى الحريف . جلس قبالتى مقدماً لى فوطة صغيرة مربعة فردتها تحت
كوعى . بسمل ثم شرع يأكل ؛ فتبعتة : أرز وفاصوليا وملوخية باللحم ؛ ودجاج
حمر وسلطات وخللات ، وموز وكشرى وجوافه ، وأطباق مهلبية..

فى حجرة الجلوس أشعل سيجارة له وأخرى لى ثم قال:

- "قم جرب هذه الهدوم !"

إرتديت قميصاً مع السروال الأزرق الخفيف الرطب ، والجورب ، ثم الحذاء
الجديد . رأيته غارقاً فى رائحة عطرة جميلة كأننى فى يوم العيد أتأهب لقبض
العيدية من أبى وللنزول للطبعة فى الشوارع حيث أركب الأراجيح وأشتري
الحلاوة الشعر والبخت وأعواد القصب والهريسة . إختفى عبد الله أفندى ، لم أدر
إلا وهو داخل وقد ارتدى ثياب خروج غير التى كانت عليه عندما قابلته . كان
ممسكاً بحقيبة ملابس قديمة مفشخة مزهلة لكنها سليمة الأقفال واليد على كل
حال. أسندها على الكنبه وفتحها ، فرأيت فيها ثيابى القديمة. قال وهو يشير إليها
بلحيته :

- "يمكن أن ترميها فى أى مكان أو تتصدق بها!"

تم فرد فوقها جريده نفس اليوم ، ووضع بقية تبايى الجديدة ، بعناية ؛ ثم أغلق الأفقال وأعطاها لى فأمسكتها فشعرت رغم رثاثة منظرها أننى قد صرت أفندياً بحق وحقيق. تقدمنى فسحب الباب فنزل وأنا فى أعقابه ..

عربة حنطور أخرى أسقطتنا فى أول شارع السوسى ، حيث حودنا على دكان محمد أبو سن مباشرة . كان جالساً كالعادة خلف البنك بجوار الباب، تاركاً أمر البيع لولدين كبيرين فى مثل سننى لكنهما مدرّبين تدريباً هائلاً ، الولد منهما عفى بمسك بثوب القماش على كف يسراه ، وينطقه كالكرة ليفك ثنياته قبل أن يشرع فى القياس بالمتر الذى هو مجرد علامتين بالحفر الخفيف على خشب البنك نفسه ؛ لديه صبر طويل مستمد من إيجاءات معلمه أبو سن ، يتمشى مع الزبائن خاصة النساء الفلاحات اللاتى جئن يقطعن كسوة للعروس ؛ لامانع أن يصعد السلم بدرجة ورشاقة عشرات المرات لينزع بعضد الأتواب من بين كتل الرصبات المتجاورة ، ثم ينزل فيفرده على البنك ، ممسكاً بطرفه فيفركه بأطراف أصابعه بحركة ذات معنى ليثبت للزبون أن القماش سخي ولا يتكرمش متين النسيج ولا ينسل ؛ ربما أشاح الزبون بوجه فى الحال وطلب ذلك الثوب البنفسجى الذى قرب السقف ؛ ففي الحال - دون أدنى غضاظة - يصعد فيأتى به وبشبيه له بالمرّة ؛ إلا أن الزوج أو الحماة قد ترفضه قبل لمسة مشيرة إلى ثوب فى ركن بعيد ؛ فيسحب السلم الخشبي النقالى ويمضى به إلى ذلك الركن البعيد فيأتى بالثوب . المهم أن يرضى الزبون على البضاعة ؛ أما الخلافات حول الأسعار فإنها لاشك محلوكة بمجرد أن يتدخل أبو سن فى الحوار بالكلمة النهائية ، لينصرف الزبون شارباً مرضياً أربعة وعشرين قيراطاً .. نهض محمد أبو سن منتفضاً ، أخذنى بالخصن فى تهليل كبير :

" يا ...يا...يا عكروت ! وهل هذا ينفع ؟ أنت كنت ؟! ما الذى لمّكما على بعضكما ؟! كنا فى سيرتك بالأمس ! عبد الله افندى هو الذى تذكرك وهو اللى التتاك فلا إله إلا الله !! "

رفعت غطاء الممر النافذ فى البنك وعبرته إلى الداخل أما عبد الله افندى فقد اقتعد البنك ولعب بساقبه قليلاً فى مرح الأطفال ثم برم جسده إلى الداخل ونزل. لحظتها مر القهوجى الجوال حاملاً الصينية عليها الأكواب والبراد الكبير الساخن ؛

صب لنا الأكواب الصغيرة المخلقة . شاي أميز من شاي المقاهي بنكهة عجيبة طازجة ذات طابع بيتي حميم ...

فى بضع رشفات موجزة ، وبلغة فائقة لخص عبد الله أفندى مشكلتى بكل حذافيرها ، - كأنها شىء لم يكن - غطاها بقوله:

- " المهم الآن أن نبحث له عن عمل يستند عليه ربما تمكن من تغيير سلك تعليمه أو يفعل الله به ما يشاء! "...

حيثل كانت عينا محمد أبو سن قد سافرتا إلى مجاهل بعيدة ، فبدا مثقلاً إلى حد الرهق ، حتى لقد شعرت أن أبى نفسه لم يحزن لأجلنى كل هذا الحزن. ثم إنه تنهد من أعماقه ، واستل صورته من جراب صدى

- " والحاج مسعود ؟! ما موقفه ؟! هل علم بما حدث ؟! "

نكست رأسى بحثاً عن جواب مناسب ؛ لكن عبد الله أفندى عاجلة بذكاء حمدته له :

- " حاج مسعود من ياعم ؟! خليها على الله! أنت تعرف الأمر ومافيه! الحاج مسعود يستطيع التبرؤ من جلده! أنسيت كيف اشترى هذا البيت الذى يسكنه ؟! كيف تنس هذه المأساة البشعة وأنت جاره وشاهدتها بعينيك وأنت طفل ؟! .. "

ثم وجه الحديث إلى ، لثقته اننى ربما لم أعرف شيئاً عن قصة هذا البيت الذى امتلكه زوج ابنة عمى فى أهم وأخصب منطقة فى هذه المدينة التجارية الكبيرة:

- " هذا البيت ورثة رجل غلبان حرمه الله من الخلفة ! كان مصاباً بداء القمار! وكان مديناً للحكومة بسلفية من البنك بضمان حجة البيت ! خسرت السلفية فى صفقة تجارية مغامرة خائبة! حجرت الحكومة على البيت! وكان الحاج قرد هو المنوط بمهمة التحصيل خاصة أنه يسكن فى نفس البيت! قام بلعبة جعلت الميزاد يرسو عليه فاشترى البيت كله بثمن غرفة واحدة منه! بعدها مباشرة مات الرجل! وقيل إن الحاج قرد قد دس له السم البطي فى كتوس من الخمر! والله أعلم لكن الحاج قرد لاتواحدنى ليس رجلاً !! .. "

كان الحرج الشديد ظاهراً بوضوح على وجه محمد أبو سن ، بعد أن رفع يده عده مرات لإسكات عبد الله أفندى مشيراً بذقنه نحوى إشارة إلى أن هذا الطعن

يسئى إلى لأن الحاج فرد هذا هو فى النهاية زوج لابنة عمى التى هى فى مقام شقيقتى. إلا أن عبد الله أفندى كان مروراً من هذا الرجل، ليس فحسب لأنه لص ضلال مستتر فى ثياب الحاج ، إنما ، بالأخص ، لأنه : " معندوش أى وفاء لقرايه! " .. وأضاف باشمزاز :

- " شف كيف تعامل مع ولد غلبان كهذا !! اليس هذا فى مقام شقيق زوجته؟! شف كيف احتقره واشتمأز منه ! لو كان عنده ذرة دم واحدة لأسكنه فى أى حجرة فوق السطح !! " ..

تذكرت أننى لابد قد حكيت لهما طرفاً من المعاملة التى عوملت بها يوم جئت لعمل النظارة الطبية وكيف استقبلونى على مضض ، كما حكيت لهما اطرافاً كثيرة عن ابى المسن وماضيه الحافل فى الشراء والسياسة وحزب الوفد ، وكيف كان يفصل من عمله، مجرد سقوط الوزارة الوفدية . نعم لابد أننى قد حكيت ذلك دون أن أدرى ثم نسيت أننى حكيت ؛ ولابد أن هذا هو سر تعاطفهما معى . قال عبد الله أفندى بحسم :

- " مهمتنا الآن أن نشوف له شغلة عاجلة ! "

قال محمد ابو سن وهو يزفر مفكراً :

- " المحل عندى لا يهتمل ثلاثة ! لكننى سأكلم خالى أمين صقر ليلحقه بمحلاته الكبيرة تحت رعاية أخى ! إن خالى رجل طيب ! وأخى الصغير محمود يعمل عنده على بنك الأززار! المحلات كبيرة تبيع جميع أصناف الخردوات! قسم الأززار وحده يحتاج لكثيرين من نوع خاص ! لبائع رقيق الطبع هادئ الأعصاب عطر الأنفاس مودب حلو اللسان لأن معظم زبائن هذا البنك من النساء ! أرى أنك تصلح لهذا البنك وسأكلم أخى محمود لياخذك معه ! المهم الآن أين تسكن ؟! كيف تبيت واين ؟! " ..

غمز له عبد الله أفندى بشفتيه غمزة ذات معنى ، إضطر إلى توضيحه قائلاً :

- " إنه يامولاي كما خلقتنى ! وقد أكرم الله الإخوان فجددنا له الثياب !

فعسى ان نجد رزقاً آخر للمبيت ! وهذه مهمتك! " ..

قال أبو سن :

- " هل تركت الحجرة التى كنت تسكنها مع زملائك ؟! "

- " من زمان ! "

- " فأين كنت تبيت ؟! "

- " فى لوكاندة الفردوس خلف المحطة ! "

لوى الإثنين شفتهما الشترازا ؛ وقال أبو سن :

- " ألم تجد غيرها ؟ مرتع الصياع واللصوص والنصايين والمختالين والشواذ جنسياً والقمل والبراغيث والبق !! عمرها لا يقل عن مائة عام ! فرشها لم يتغير منذ افتتاحها ! وزبائن القرى الطيبين يتعرفون على البق بحكم العشرة الطويلة !! من يبيت فيها لا يحزمه أحد! الحكومة تهاجمها باستمرار لتأخذ منها النزلاء بالجملة " .. شعرت برعشة الخوف ؛ فإذا كان هذا الكلام يقال عن لوكاندة مرخصة وذات إسم براق ، فما الذى يمكن أن يقال عن وكالة عطية؟ بل ما الذى يمكن أن يقوله لو علم أننى فى أعماقى أميل إلى وكالة عطية. فإذا كانت لوكاندة الفردوس التى تعمل برخصة رسمية وتتقاضى عشرة قروش فى الليلة عن أحقر سرير ، وتطالب النزول بهطاقة شخصية وبيانات دقيقة ، لها مثل هذه السمعة التى يذكرها أبو سن ، فإن وكالة عطية لا تمثل مستوى أدنى .

فجأة قال محمد أبو سن :

- " ما رأيكما فى عشاء ؟! "

نظرت حولى فوجدت الليل قد احتاط بنا منذ وقت طويل ، وأننا قضينا وقتاً طيباً فى كلام لم اسمع ثلاثة ارباعه على الاقل. وقال عبد الله أفندى :

- " تغدينا عندى ولكن الله ليس ضد العشاء! خاصة عشاءك الذى تتفنن فى

صنعه !

- " ورقة اللحمه هى الوصفة الناجعة ! "

وأشار للولد حندوقة على البنك المواجه ، فقفز عابراً البنك كالبهلوان ثم اختفى فى شارع السوسي . وبعد حوالى ربع ساعة عاد يحمل على صدره جعبة كبيرة فيها لحم وبصل وليمون وطماطم وثوم وجرجير. خرط كل ذلك إلى قطع صغيرة وضعها فوق بعضها فى مستطيل لفه بورقة سلوفان ثم لفه ثانية فى ورق اللحم التخين ثم

ذهب بها إلى القرن البلدى حيث دفع بها الفران إلى جوف اللهب لمدة ساعة ؛ ثم عاد بها محمولة على كومة من الأرغفة الساخنة. فوق فرشاة من الجرائد انفتحت اللفة فإذا سمفونية من روائع عبقرية تنبعث فتبعث الشوق والطرب والإنسانية. فليات شارع السوسى برمته اصحاب دكاكين وزبائن لكي يشاركونا الوليمة فحتما سوف تكفيينا وتفيض ، لكن آه من وسع البطون ؛ إنخرطنا فى الأكل حتى أتينا على كافته فى دقائق معدودة . مر بائع الشاي وبائع الفانلات والسراويل الواقف بعربة يد بجوار محل ابي سن ، وصبي محل العصير الذى ما إن رأنا وهو يمر حتى طاف بلهنة أربعة زجاجات اسباتس يمكن أن تطلب منه الآن ، فتلكأ حتى أكل نصيبه هو الآخر وجاء الولد الذى يشحم بجارى الأبواب فوجد الورقة ماتزال تحفل باللبن وفتافيت اللحم وكلاكيص البصل والطماطم والجرجير وبقايا أرغفة ، فأكل بشهية ، ولم ينس إزاء كل لقمة أن يرسل الدعوات لنا بالستر وعمار البيت ، ثم تكفل بجمع الورق والبقايا واحتجازها معه ليرميها في علبه القمامة المعلقة فى عمود النور فى الشارع العمومي ؛ وتطوع فمسح البنك بكم قميصه . إنبسط منه محمد أبو سن فأمر له بزجاجة اسباتس هو الآخر حتى لا نكون قد أحجفناه بأخذ دعوات اقل مما أعطينا ؛ وفوق ذلك غمزه بالحسنة المعتادة مقابل تشجيع الباب..

بعد هذه العشوة الدسمة مضينا نحو حي أبو الريش ، لكننا لم نكد نبتعد حتى توقفنا أمام مبنى مضاء من الخارج بلافتة مكتوب عليها : لوكاندة الأمراء . دخلنا . إستقبلنا رجل بلحية طويلة وزبينة صلاة بارزة على الجبين كحبة التين ، يمسك بيده مسبحة . تقدم منه محمد أبو سن ممسكاً بكتفي :

- " إزريك يا حاج صلاح ! الراحل ده يهمننا أمره ! دعه يبيت عندك مدة من الأيام ! خل بالك منه ! إحتز له سريراً فى حجرة مستقلة تليق بشخصه ! هاك أجرة اسبوع كامل ! بعد ذلك يحاسبك هو يوماً بيوم أو ربما شهراً بشهر ! "

بسمل الحاج صلاح وحوقل ثم فتح الدفتر الطويل السميك المبطش بالوسخ وزيت العرق . طلب بياناتى . أملتيتها عليه ..

- " معك أمانات ؟! "

- " معى حقيرة هدموى ! "

- " خلها معك فالدار أمان ! إنما قصدت بالأمانات أشياء ثمينة مثل النقود الكبيرة أو المسبوكات الذهبية أو خلافه مما يغري بالسرقة لكي نضعها لك هنا فى دولاى الأمانات لتأخذها وقتما تريد ! " ..

- " تشكر يا حاج صلاح ! أنا على فيض الكريم ! "

نادى : باريس . فخف إلينا شاب أسود خفيف الظل مفلوج السن . قال الحاج صلاح وهو ينزع من لوحة خلف راسه على الحائط مفتاحاً ملحقاً برقعة نحاسية عليها رقم محفور :

- " إذهب بالأستاذ إلى ثمرة خمسة وأربعين ! " ..

الحجرة كانت محنكة ، فيها سرير جميل بعمدان نحاسية ، مع دولاى مستطيل بدرفتين ، وترابيزة خشبية صغيرة ، وكرسى من الخيزران . فوق الترابيزة جرنال مفروش قديم ، وطفاية سجاير ، وكوب ماء . دفعنى أبوسن إلى الداخل واضعاً يده فى يدى فلذا بجنيه كامل يستقر فيها ؛ فافشعر بدنى من الغبطة والشعور بالعرفان . ثم وضعته فى حبيبى . قال :

- " دعنى أراك باستمرار ! أعطنى نصف شهر لتدبير العمل مع خالى ! تصبح على خير ! "

ودعتهما حتى باب اللوكاندة. عدت إلى الحجرة. تذكرت أننى طوال النهار اشتاق لسيجارة ؛ فقفلت عائداً إلى الشارع لأشترى سيجارتين ماركة هوليود. فلما نزلت شعرت بمدى لذة أن يمضى الإنسان ليلاً فى شوارع المدينة وهو موقن من أن له مأوى فى المدينة سيعود إليه وقتما يشاء ؛ فمضيت أجتول شاعراً بلذة فائقة .

يا عليشى يا واكل عيشى

واظبت على زيارة محمد أبو سن فى دكانه كل مساء ، فأمكنك معه حتى تبدأ السهرة فى بيت صديق يدعى " سيد عليشى " . هو طالب فى السنة الثالثة بكلية الحقوق ، وعضو بارز فى جمعية الإخوان المسلمين ، وله نشاط حافل فى الشعبة ، إذ يحبه الشبان يلتفون حوله للبحث فى مشاريع فنية ورياضية وكثفية كثيرة . كان يغرم بالرحلات ، خاصة إلى الأماكن البعيدة كالوادي الجديد والفيوم وسفاجة والغردقة للتعرف على شباب القطر من إخواننا الكثيرين . مبدؤه أن كل شخص جديد تعرفه إنما هو كتاب قرأته وتعلمت منه ، فضلاً عن العزوة التى تشعر بها كلما كبرت عائلتك من الأصدقاء والمعارف . يتميز باللطف الشديد . ربعة القوام ، مدكوك الجسد جالس الملامح ، كل ملمح فيه مستقر فى مكانه راسخ ؛ كبير الرأس والوجه ، حليق الشعر على طريقة الأفندية المحترمين ، حليق اللحية أيضاً أحمر الوجه كقرص الشمس ساعة الغسق ، باسم على الدوام متأهب لإطلاق ضحكة جزلة حبورة بصوت لاذع كدق الهاون . منضبط السلوك مهذب الحديث على قدر هائل من الأدب والنجل . محتشم فى ملبسه واختيار الوانه . متحفظ فى مشيته ونظراته . بما يليق بوكيل للنائب العام أو محام كبير بعد شهور معدودة . أبوه تاجر غلال كبير عتيق ، ورث هذه المهنة أبا عن جد ، لدرجة أن المسنين من أهل حي صلاح الدين يقولون إن المحل الذى يتمركز فيه الحاج سالم العليشى الآن هو نفس الدكان الذى تمركز فيه جده وجد جده من قرون طويلة مضت ؛ كل ما طرأ عليه من تغيير هو تجديد طلابه وإضافة بعض المقاعد الحديثة الطراز ، حتى الدكة الخشبية العتيقة المثبتة فى مكانها بجوار الباب يقال إنها من عمر الدكان . يقولون إنه من عصر المماليك إلى عصر الحرب العالمية الثانية تكررت الهتافات أمام باب هذا الدكان ، يقوم بها الفقراء وجوع الناس الجوعى ، يهتفون فى تنديد :

- " يا عليشى يا واكل عيشى !! " .

ذلك أن الجد عليشى الأكبر كان متكفلاً بمحاصيل المديرية يجمعها للسلطان من الفلاحين ؛ فكان يتفق مع السلطان على كمية معينة من المحاصيل يدفعها من مخازنه

ليتصرف هو مع الفلاحين ، على أن يتكفل السلطان بدعمه بالحراسة والشرطة التى تساعده فى التحصيل باستخدام القوة إن لزمست أو نزع الملكية إن اقتضى الامر. ورغم أن هذا النظام قد بطل مع الزمن فإن العليشى الثالث أو الرابع أو الخامس كل منهم فى عصره كان خبيراً بأمور السياسة فى البلاد يدرس أحوال الإقتصاد وأحوال المحاصيل الزراعية فيقوم بتخزينها وقتاً طويلاً لبيعها وقت التسعة بأضعاف اضعاف ثمنها ، خاصة فى أوقات الحرب أو الجفاف ؛ مما جعل الناس كلما تأزم وضع الخبز تنصرف أذهانهم إلى العليشى الذى بات رمزاً لشحة الخبز ، فيتجمعون أمام هذا الدكان العتيق وينددون به فى ثورة غاضبة : يا عليشى يا واكل عيشى ..

سيد عليشى نفسه هو الذى يحكى هذا التاريخ فى كثير من المرح والسخرية بأهله تجار الحبوب والمحاصيل الذين أصبحوا يملكون نصف عمائر حى صلاح الدين الجديدة والقديمة ، وأرضاً زراعية فى زمامات كوم حمادة وإيتاى البارود وغيرها ؛ ومعظم أراضيهم حثائن تنتج العنب والبرتقال والجوافة والمango والكمثرى والموز ؛ يقوم على حراستها ورعايتها نفر من أبناء العليشيين الجدد الذين تزوجوا واستوطنوا حيث توجد هذه الحدائق . هدايا العليشى لأصدقائه وزملائه تتراوح بين أقفاص العنب وصناديق mango وسلال البرتقال واليوسفى وسباط البلح بجميع أنواعه . ورغم أن الأكل فى بيوتهم بغير حساب فإنه يعيش العشاء ليلاً فى مطعم ختعن الشهير النظيف ، حيث يلقى فيه عناية كبيرة تليق بمقام أهله المادى ، فتجى له أطباق الكباب والخضراوات بالموزة والأرانب والحمام المحشو بالفريك . فى أربع ليال فى الأسبوع يعزم شلته المفضلة التى منها أبو سن وأبو حنطور ، وحمام عتيق يدعى محمود أبو طور ، وحمام شاب يدعى سليمان بلبع ، ومدرس لغة إنجليزية فى المدارس الثانوية يدعى صلاح العسكرية ، وطالب فى كلية الآداب اسمه عمر اللقاني. هؤلاء لم تكن صلتى بهم تتجاوز معرفة الإسم والعمل واللقاءات التى تجمعنا بسيد عليشى ، حيث يغلق أبو سن دكانه فى حوالى العاشرة مساء ، أو ينصرف فى التاسعة تاركا ابن شقيقته الذى كثيراً ما يخرج من المدرسة الثانوية ويحجى لكي يساعد خاله فيجلس على " الكيس " يقبض ثمن المبيعات بدلاً منه فى لحظات غيابه ؛ وهو ولد مؤدب ذكي اسمه فكري فايد ويشبه خاله فى كل شئ ..

عبد الله افندى حنطور ومحمد أبو سن وأنا نتوجه إلى مقهى فى شارع الخيري ، حيث يتجمع الأصدقاء . يتوجه الركب إلى مطاعم ختعن لتناول العشاء ، أو عند سليمان بلبع أو عمر اللقاني فى منازلهم فى الليالي الثلاث الباقية من الأسبوع ، فيقل مستوى العشاء بكثير جداً ، وربما يتم بشكل تلفيقى مشير للرشاء خاصة عند عمر اللقاني نظراً لظروف أمه المريضة لأنه مضرب عن الزواج مؤقتاً احتجاجاً على موجة التهنك والإباحية التى أحدثتها ثورة يوليو بين الفتيات المصريات باسم التحرر والشفور وما إلى ذلك من تحلل ييشر بقيام الساعة . بعد العشاء نتوجه إلى بيت العليشى فى شارع صلاح الدين ، فى سيارة أبيه ماركة البويك ، التى يستخدمها فى الليل فحسب كانت تستوعبنا جميعاً بكل راحة ؛ فيتركنا ويرتد عائداً فى لمح البصر ليأتى بأبيه الذى يكون قد شطب العمل فى المحل ومكث فى انتظاره والباب نصف مغلق .. البيت مهيب ، مبنى على مساحة كبيرة تحتل ناصيتين ، بأربع طوابق ، وشرفات دائرية واسعة مزركشة بأفاريز ودرايزينات من حديد مخروطى ملون. الغرف واسعة، حتى السلم درجاته عريضة جداً وطويلة من الرخام النقى الحر. نصعد الطوابق كلها حتى السطح . أرضية السطح مغطاه بالبلاطات العريضة الملونة . أصص الزرع مرتصة فى حلقة دائرية على حوامل حديدية مثل حوامل الأزيار . أما السور الدائري السميك ففي جوفه أحواض مستطيلة مبنية بالآجر ومزودة بترية سمراء تنبت فيها ورود وزهور عطرية . فى المواجهة فى ركن كبير من السور بناء جميل تظله أشجار اللبلاب وعناقيد العنب وحيوط من زهور الفل والياسمين ؛ تلك هى الحجرة الخاصة التى كانت فى الأصل معدة لغسيل الثياب ولكن سيد استولى عليها منذ امتحان الشهادة الابتدائية وجعل منها محرابه الخاص للمذاكرة والقراءة واستقبال الأصدقاء . هى تحفة حقيقية ، على مساحة تصلح لإقامة شقة كاملة . ما أن تدخلها حتى تفاجأ بمكتبة كبيرة حافلة ؛ الحوائط كلها أرفف أنيقة ملهونة بالألوان ، تمتلى بعشرات من المجلدات الكبيرة والصغيرة لكتب ومجلات وصحف ، وثمانيل من النحاس والبرونز والرخام ؛ الأرض مفروشة بسجاد ثمين ؛ فوقها عدد كبير من المقاعد من طراز فرنسى ، وكتب بلدي . ثمة درايزين صغير يلتحق به مايشبه الباب على يمين الداخل . تفاجأ بأن سلماً خشبياً شديد

الأناقة والنظافة يهبط إلى أسفل ، إلى الشقة التي تسكنها أم سيد وإخوته ، فى حين تسكن الشقة المقابلة زوجة أبيه الأقدم من أمه . وفى بقية الطوابق يسكن أعمام سيد وأولادهم المتزوجون . كثيراً ما يتركنا سيد ويهبط هذا السلم الداخلي ، ليعود بعد قليل حاملاً الشاي أو القهوة أو عصير البرتقال والليمون وأطباق الفاكهة النادرة فى غير مواسمها ، مثلجة شهية ثم تبدأ السهرة بقراءة عبقریات العقاد ، أو الفتنة الكبرى لطف حسين ، أو : من هنا نعلم ومحمد والمسيح وإنه الإنسان والوصايا العشر لخالد محمد خالد . كل واحد يقرأ حتى يحف ريقه فيترك الكتاب لغيره . وبين كل بضع صفحات ترتفع الأصوات كلها دفعة واحدة فى مناقشة غوغائية بعض الشئ ، سرعان ماتنظم قليلاً ليقطعها القارئ مستأنفاً الإسترسال طالباً تأجيل النقاش حتى ينتهى هذا الفصل على الأقل ..

تنبهت فى الأيام الأخيرة إلى سيد العليشى ؛ إنهشت كيف كان غائباً عن فطنتى منذ بدأت عصر التشرذم الأليم ؛ ما بالي لا أكلمه الآن عن ظروفى الشخصية عسى أن يجد لي عملاً فى مخازنهم العامرة العتيقة ، أو على الأقل يتوسط لى لدى واحد من طبقة كبار التجار فى المدينة أولئك الذين تتكرم البضائع أمام محلاتهم بغير حساب كما يكثر عندهم عدد العاملين . إن مدينة دمنهور حافلة بالمحلات ذوات البنوك الكبيرة الممتدة على مساحات عميقة ، مثل محلات محمود الخوالقة تاجر الصبني ، تحتوى محلاته على كل ما يخطر أو لا يخطر على البال من أشياء تخص مطابخ المنازل وجهاز العرائس حتى لقد يحتاج الزائر لمحلاته إلى يوم بليلة لكي ينتهى من المرور على جميع بنوكه وأركانه . ومثل محلات المسيرى تاجر الفانلات والسرراويل والمنسوجات القطنية ولوازم الفرش والحمامات ، يملك مصانع كبيرة ويصدر للخارج . ومثل محلات غراب تاجر الخردوات الذى تعلن لافتات محلاته عن وجود مائة ألف صنف بدون مبالغة . كل واحد من هؤلاء له حياة هى العجب العجائب ؛ وأعجب ما فيها أن أهل المدينة كلهم يرونها رؤية العين ولمسونها لمس اليد ويصيبهم من جرائها بعض الخير أو بعض الشر ومع ذلك لا يصدقونها إن هى حكيت لهم ؛ فليس يصدق أحدهم إذا قيل له إن تاجر الصبني أو أنداده لديه محل خاص بالجزارة مهمته بالدرجة الأولى تمويل البيت باللحوم الطازجة المضمونة ، أما

البيع فغناوة على الهامش ؛ أو أن أحدهم لديه شقة ليس فى الإسكندرية فحسب بل وفى لندن وباريس وفرانكفورت وسويسرا ؛ فضلاً عن محلات جانبية للحضراوات والفاكهة والدواجن . كل هذه المحلات الفرعية ليست تعاني من أى نقص فى المواد، لأنها تمول من مزارع وحدائق يملكها الواحد منهم فى ريف البحيرة الخصب . وليس ثمة من مشاكل بين هؤلاء القوم وبين مصلحة الضرائب ، لأن الجميع يبيت متعشياً أربعة وعشرين قيراطاً .. فكم يكون جميلاً ورائعاً لو أن سيد العليشى - وهو أخ فى الله كما نأثرنا دائماً - استطاع أن يلحقنى بمعية واحد من هؤلاء الأباطرة ككاتب للحسابات أو بائعاً على بنك . وكم يكون أروع وأجمل لو أنه تأثر بظروفي النفسية والسكنية فأذن لى بالسكنى أو حتى بالمبيت معه مؤقتاً فى هذه الغرفة البديعة النظيفة ..

وهكذا استقرت نيتى على اختيار لحظة مناسبة لأكلمه فى أمرى ؛ ولكن خاطراً طاف بذهنى : إذا كان ذلك ممكناً بالنسبة لسيد العليشى فلماذا لم يطف بلهن محمد أبو سن وهو يفكر فى كيفية تقديم المساعدة لى ؟ .. خفت ؛ إن أنا كلمت العليشى فى موضوعي أن يغضب أبو سن .. رأيت تأجيل ذلك حتى يبلغني أبو سن أنه قد يؤس من محلات حاله . وفى الليلة التى اقتنعت فيها بأننى يجب أن أعطي العليشى مجرد فكرة عن ظروفى أمهد بها لما سوف اطلبه صراحة ؛ حدث ما لم أكن أتوقعه على الإطلاق : كنا قد تعشينا على حسابه حماماً مشوياً عند ختعلن ، فتخلدت أجسادنا من الإفراط فى الشبع ، وفترت حماستنا للقراءة خاصة أننا انتهينا بالأمس من كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق فى طبعة نادرة مهربة ، ولم نستقر بعد على الكتاب الجديد الذى نبدأ فى قراءته . ثمطرنا فوق الشلت على السجادة ندخن بشرهة ونرشف الشاى الثقيل . حينئذ قال اللقاني فجأة للعليشى :

- " الأخ عبد الحميد مهينة سأل عنك مرتين فى الشعبة بالتليفون وبشكل ملح "

تكرشم أنف سيد العليشى ، وشوح بذراعه علامة القرف والإشمزاز ؛ مما حدا بعمر اللقاني أن يستدرك : " أوشكت أن أجيء به معي "

فانتفض سيد العليشى جالساً يلوح بأصبعه فى تهديد جاد :

- " إياك إياك إلا إذا كنت تريد أن تخسرنى "

فاحمر وجه اللقاني كقلب البطيخة الشيليان من شدة الحرج وعدم التوقع :
- " لِمَ ؟ إنه ولد غلبان ومكافح قلبه أبيض يحبك حباً صادقاً لا رية فيه . ثم
إنه مؤدب وملتزم بفروضة وقرآنه ومشاعر اصدقائه وحسب علمي أنك تحبه " .
عقد سيد العليشي ما بين حاجبيه ولوى عنقه إلى بعيد علامة الضجر ؛ ثم كأنه
يتلذذ بالهدوء :

- " كل هذا أعرفه ! وهو صحيح وإلا ما كنت ساعدته ، أنت تعرف أنني
أنفقت عليه مئات الجنيهات ومستعد لمواصلة الاتفاق مئات أخرى ، مستعد لدفع
مصاريف دراسته في الأزهر حتى يتخرج وشراء كسوته وكسوة أهله من جعل
الزكاة الذي يخصصه أبي كل عام وهو كثير والحمد لله . لكنني غير مستعد لأن
أجالسه أو أعطيه فرصة لأن يكون صديقي يجالسني نداءً لنشد ، إنه من بيئة وضيفة
جداً فأبوه من قبائل الفجر الرُّحَل ثم إنه حسود وأنا أكره الحسود ، إنك إن جالسته
انكسرت هيبتك في نظره وإذا انكسرت هيبتك تجرأ عليك وهزأ بك واستحالت
الصدقة التي تمن عليه بها إلى شبه إتاوة ، إنني أعرف هذا الصنف من الناس ، دكان
أبي معرض كبير أوراني الكثير منهم وأوقفني على طبائعهم . وعلى كل حال دعنا
منه الآن نريد أن نصفى أذهاننا لنقرأ كتاب " إبليس " للعقاد .. فصمت اللقاني
صمتاً كظيماً كأنه قد أهين . الغريب أن أبا حنطور وأبا سن كلاهما لم يراجعه في
كلامه ؛ لكن شيئاً من الإمتعاض ظهرت آثاره على وجهيهما بوضوح . بعد هنيهة
مد أبو حنطور رقبتة الطويلة بوجهه المشطوف الذي بدا في انعكاس الأضواء
الركنية كمجموعة من المثلثات متداخلة في بعضها ؛ وقال بخبث جميل شديد العمق
والتورية في صيغة نكتة مرحة :

- " وما الداعي لإبليس الليلة ؟ إننا محتاجين الآن لطرده بدلاً من استحضاره ..
فتبسم أبو سن عن أسنان كبيرة ، بسمه تنضح بالذكاء والغباء ؛ أسقط فكه
الأسفل بحركة ذات معنى كأنه يخشى مغبة هذه الغمرة القارصة . وهكذا أيقنت في
الحال أن عشمي في سيد العليشي مساو لعشم إبليس في اللجنة . كما أيقنت أنه لو
علم بأي شوهة خلقة مدرس الرياضة وانقضضت عليه فانفصلت من المعهد
وصرت متشرداً إضافة إلى أنني في الاصل ابن ناس فقراء معدمين فلسوف يحتقرني

أشد الإحتقار ، وربما أوصى بعدم اصطحابهم لي عند الحجى إليه ، فاستغفرتني ضميري أن أبالغ في احتقاره ، أن أمتنع عن الحجى من تلقاء نفسي ، أن أشعره بعدم الاهتمام إذا لقيته صدفه ؛ ذلك أنني لن أذهب إلى شعبة الإخوان بعد الآن مطلقاً ، فلست عضواً بعد في الجماعة ، كما أنني لم أعد أنبهر بمواعظهم كلما تقدمت في القراءة معهم أو مع نفسي ، وإن كنت أحب الكثيرين منهم حباً عميقاً وأحترمهم أشد الإحترام .. ولقد حدث . فأما الشعبة فلم أكن في الأصل متعلقاً بها منذ أن وجدت ضالتي في مقر الحرس الوطني بخديقة نادي الموظفين الحافلة بملاعب للكرة بجميع أنواعها ومنصات للملاكمة والمصارعة الحرة بل وساحات للجرى وللقفز على الحواجز العالية ورمي الجلة والتدريبات العسكرية وما إلى ذلك . صلتني كانت بفريق التمثيل ، الذي يضم نخبة من شباب المدارس والجامعات من أبناء دمنهور الذين يتعلمون في الإسكندرية ويسافرون إليها كل يوم في القطار ، ونخبة أخرى من راسي الشهادات مثلي ومثل وأهل أبو النصر أحد راسي التوجيهية الذي يجيد العزف على العود والساكسفون والأوركورديون ويموت عشقاً في التمثيل نظراً لإتساق شكله ووسامة ملامحه ؛ إذ هو مديد القامة ، ممشوق القوام ، غزير الشعر مصففه بخصل تنحدر قليلاً نحو الجبين مفروقة من الوسط . هو ممثل جيد بالفعل بل لا يمكن إلا أن يكون ممثلاً من حصلة شعره هذه إلى حذائه اللميع الأنيق . وقد أصاب شهرة كبيرة في المجتمع الدمنهوري من الساحة الشعبية إلى نادي الموظفين إلى حفلات المدارس الكبيرة إلى الحفلات الرسمية التي تقيمها المحافظة أو هيئة التحرير في المناسبات الوطنية كعيد الجلاء أو عيد الثورة ؛ بل إنه كان يظهر في الأفراح العائلية سواء في مسرح سينما البلدية أو منصة في الشارع يؤدي بعض منولوجات من تأليفه وتلحينه أو تأليف أحد رجالي دمنهور كحامد الأطمس أو حمدي النعناعي أو عبد المطلب منجي ، يتخلل المنولوج مشاهد تمثيلية على درجة كبيرة من الإتيقان في الأداء إذ هي نكات أو نواذر مروّبة حول أنماط شعبية ملموسة لكافة المجتمع الدمنهوري . كان يقوم ببطولة مسرحية (الشرف الرفيع) التي ألفها ويقوم بإخراجها لفرقة تمثيل الحرس الوطني ، ودوره هو دور الشاب الجامعي الذي يتميز غيظاً من الإحتلال الإنجليزي وحقداً عليه فيتطوع للقتال في مدينة الإسماعيلية مردداً

بيتاً شهيراً من قصيدة لأمير الشعراء : " لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق
على جوانبه الدم " ؛ إذ أن للحرية الحمراء باب بكل يد مضرحة يدق . وكنت قد
أعجبته ، وتأكد من صدق ميولي نحو التأليف والتمثيل ومن وعى ملاحظاتي الفنية
على بناء مسرحيته وعلى تمثيل الإخوة ؛ فوضعني في دور الباشا كبديل لإحتياطي
لصديقنا مأمون فريد غانم الطالب بآداب الإسكندرية الذي قد تمنعه ظروف المرض
المفاجئة من الحضور ، فحفظت الدور عن ظهر قلب وصرت أؤديه في التدريبات
الليلية في الأوقات التي يغيب فيها صديقنا كان ذلك مما يسعدني غاية السعادة
يجعلني أمشي في شوارع المدينة آخر الليل وأنا شاعر بأن لي بعض كيان ، على
الأقل لساعات معدودة ينهار كل شيء بعدها على رصيف النوم . وإذا تذكرت أنسني
انقطعت عن التدريبات لبعض الوقت داخلني شعور عميق بالإبتهاج كأنني
اكتشفت برأياً جديداً في سجن الليل . في الحال فتشت في ذاكرتي عن السبب
الحقيقي الغامض الذي منعي من حضور التدريبات في الليالي الكبيرة الماضية ، فتبين
لي أن الثياب الرثة والمظهر البائس هما اللذان أحجلاوني من الظهور في ساحة
النادي أو حتى المرور من أمامه . فلما رأيته متقمشاً بالجديد الذي لم يفقد نكهته
بعد ؛ وجدته أمضي في حماسة إلى النادي في خطوة شبه عسكرية حاولت دائماً
أن أقلد بها مشية الأفندية من أولاد المدينة . غير أنني في الغالب كنت أصل إلى
هناك بعد التاسعة مساءً إذ أنني أمر على دكان محمد أبو سن لأمكث معه ريثما
أشرب كوبة شاي في انتظار أن أسمع خيراً عن الشغل الذي يحاول تدبيره لي في
محلات خاله . إلا أنني مالبت حتى سئمت من المرور اليومي عليه بدون جدوى ؛
فصرت أذهب يوماً وأفوت يوماً . وكانت مدة الإقامة في اللوكائنة قد انتهت
لكنني مستمر في المبيت على حساب أبي سن . إستمز ذلك شهوراً طويلة ؛ حتى
فوجئت ذات صباح بالرجل السنّي يوصيني - بكل أدب جم - ان أخذ معي حقيبة
ملايسى ، ففهمت تلقائياً أنني لا ينبغي أن أعود إلا وفي يدي نقود . تقبض قلبي ،
هاهي ذي الثياب النظيفة ستووب إلى الروسخ من جديد باستئناف التشرد في
وساحة الليل وتراب ارضفته وبلبل طله .

بدرية

لم يكن معي أى نقود على الإطلاق ، وقد بدت الحقيبة كعبء ثقيل كمشكلة عويصة ، فأنا لا يمكن أن أظل ماضياً بها فى الطريق إلى مالا نهاية . كان لابد من التخلص منها فى مكان أمين . ألهمنى الله بالمرور من أمام دكان صديقى حمدي الزواوي بائع السجائر والدخان المعسل وبعض أنواع الحلوى . كثيراً ما كنت أقف معه ساعات طويلة نتحدث فى أى حديث ، فلن طال الحديث وندرت الزبائن جلست فوق البنك مدلداً ساقي فى عتبة الدكان وكوب الشاي فى يدي ، وحمدي الزواوي بجوارى من الداخل يميل مرتفعاً البنك ينهني إلى أجساد النساء اللاتي يراهن تحفاً فنية صورها جل جلاله تبارك الخلاق فيما خلق . كنا فى الظهيرة والشمس تضرب خيامها أمام دكانه توقد ركية نار فى أبقها ؛ مما اضطره إلى فرد التندة الكتانية ، ووقف خلف البنك منهمكاً فى عصر ليمونة فوق طبق الفول الذى تهتف رائحته قائلة : يحيا فول العاصى ..

حودت ، فامتد ظلي المبطوط فغطى طبق الفول والرغيفين والبصلتين وطبق السلطة بالطرشي . رفع قامته ، جحظت عيناه فيما يقرب من زهول المفاجأة . لم يكن رأني منذ وقت طويل جداً ، فأنحنى فardاً ذراعيه عبر البنك ، مبرشاً بعينه الأيمن ذات الغشاوة الخفيفة ، ماداً أنه المستطيل الرفيع كقلم مبطط ، وحاجبيه الرفيعين الثقيلين بظلال سوداء ، وفمه الدقيق ينوء بشارب كثيف سوى بعناية الملقاط والفتلة ، حتى أن بقايا التفت واضحة وضوح الشارب . ملت عبر البنك فحضنته بادلته القبل فى خديه ، ثم ركنت الحقيبة على سطح البنك بطريقة فهم منها أننى أحملها وألف بها فى الشوارع منذ شهور طويلة مضت . قفزت حالساً بجوار طبق الفول مباشرة . مد رقبته الطويلة المبرومة نحو الشارع صائحاً : ياد يافهمي . فجاء صبي فى العاشرة من عمره مثل رجل صغير القوام يرتدي بذلة كاملة محندة برباط عنق ، يقابله قدر كبير من اللباقة واللياقة معاً ، ذلك هو فهمي الناظر ابن أخت حمدي الزواوي من الصائغ الجاور لدكانه مباشرة ، وهو تلميذ فى الابتدائية وعضو فى فريق تمثيل الحرس الوطنى ويمثل دور ابن الباشا اللبيب المتكلم

بكفاءة ملهشة حقاً . سلم فهمي على بحرارة الرجال ، باعتبارنا زملاء فى فريق واحد ونمثل معاً فى مشاهد عديدة نداءً لند . صاح فيه خاله : " طبق فول واربع أرغفة بسرعة " . ففي الحال لم نره ، وفي الحال ظهر من جديد ملوحاً بذراعيه للخلف في حركة رشيقة تعني القول : جاي حالاً . وبالفعل ، ماكدنا نأتي على الطبق حتى دخل علينا شاب يرتدي المريلة البيضاء مكتوب على صدرها اسم العاصي بفرز التريكو الأحمر ويجواره رسم لقدر فول تطل من فوهتها يد الكبشة الأنيقة . وضع صينية الطعام بأطباقها الثمينة وانصرف ..

ماكل هذه الشهية ؟ كان حمدي الزواوي قد انسحب فى هدوء فأشعل وابور السرتو تحت البنك ووضع فوقه براد الشاي الذى راح يغلي ويرسل عطر الشاي النفاذ ، فيما أنا مستمر فى فرد اللقيمات ومسح أطراف الطبق بها فى لذة هائلة . وحين أمسكت بكوبة الشاي الزجاجية الصغيرة المخملية المرغبة كان فمي يلوك آخر لقمة طوحتها فيه . فبلذة فاتقة رشفت رشفة شاي لتختلط ببقايا الطعام ، إلا وحمدي الزواوي يغمزني بسيجارة هوليود طازجة النكهة ، ورص الأطباق وازاحها إلى بعيد وارتفق مكانها بجواري كعهده دائماً صار يجذب أنفاساً من السيجارة فتضغط أصداعه غائصة فى فراغ حنكه فيما تتكرمش شفثاه كأنه يرشف القبل العميقة من ثغر بنت من بنات الحور ، ففى كل حركاته وسكناته وكلماته كثير من الشهوانية الغريزية البقطة ، والشبق العميق الدفين ، راح يرسل سحب الدخان الغزيرة ، وصوته يعثرها فى حلقة :

- " يبدو أنك لا تعاشر ! أين كنت ؟ هل هذا ينفع !؟ "

لكزته بأطراف اصابعي في شعر رأسه المجدد :

- " الحياة لهو وقرف وطينة ! هكذا اتفقنا دائماً ! "

كعادته لم يسألني عن تفاصيل أى شئ ، رغم استعداده الدائم للإستماع إلى مالا نهاية ، ولأنني كنت موقناً من ثقته التامة في وفي كل ما أقول ، وإحساسي بأنه لن يتورع عن إفراغ درج البنك في جيبي إذا طلبته على سبيل السلفة أو على أى سبيل ، لذلك كنت دائماً أبدا أحجم عن محاولة الإفتراس منه ، إذ تتجلى الطيبة في عينيه ، فاتخيله - لا أدري لماذا - باتساً مضحوكاً عليه فى نصبة كبيرة أودت

برأسمال دكانه وهو واقف حائر وديع لا يدري ماذا يفعل سوى أن الدمع ييكى من عينيه إذ يتلقى تقرير أهله المسبطين وتعبيرهم له بأنه الوحيد الذى خاب فى إخوته لشدة طيبته وغفلته ، فكل إخوته بين محام وطبيب وضابط شرطة ومدرس وناظر مدرسة وصاحب مانيفاتورة ، إلا هو ، حصل على الابتدائية بشق النفس وشطر على نفسه الطريق المدرسي حتى بات معرة أبيه وإخوته لبضع سنوات ، إلى أن ساعدته أمه الميسورة باستئجار هذا الدكان وملء رفوفه بالبضاعة تاركة إياه يسبح فى بحر الحياة مستولاً عن نفسه ، فكان ان تعب أشد التعب لكي يقف على قدميه ، ولولا أن الشقة التى يقيم فيها من ملك أبيه في يبتهم لضوعف تعبهم . وقد نوى حمدي ألا يتزوج حتى يستريح تماماً ..

شكله دائماً فى نظرى مثير للشفقة خاصة حين يستعد لمجيئ "التروسيكل" بالسجائر ، فيروح يدبر قيمة الفاتورة ، فيبدو فى غاية من الارتباك والتعاسة ، مع أنه يكون قد تبرع منذ قليل بجنه كامل لعمل خيري لو احتفظ به لأكملت قيمة الفاتورة على التمام . الوحيد الذى يمكن أن يقرضني أى مبلغ دون تلك أو سؤال عن أى تفاصيل ، أحذني غير متحمس على الإطلاق للإقراض منه ، مكتفياً بتدخين السجائر التى يقدفها على بغير حساب طوال وقفتي معه ، مع الشاى أكثر من مرة .. كان ثمة طنين يملأ سماء المدينة يصنع أرضية كثيفة لأصوات السيارات وآلات التنبيه ونداءات الباعة فى سوق الخضار وسوق السمك وشارع السوسى خلفنا مباشرة . سرعان ماراح الطنين يقترب شيئاً فشيئاً يتجسد فى موسيقى القرب والطربيت والبروجي والآلات النحاسية ، إنها فرقة موسيقى الشرطة ، مالبثت حتى ظهرت طاغية مدوية زاحفة على أرض الشارع تجر خلفها أرتالا من العماليق لابسى الأصفر فى اصفر متقمطين بالأحزمة والأشرطة الحمراء ، خلف الفرقة طوائف من عساكر الشرطة يمتد موكبهم الطويل على مدى البصر يمشون فى خطو عسكري مبهج على إيقاع الطربيت ، بعض السيدات فى الشرفات يتطوعن لتحياتها بالزغاريد ترفرف فوقها رانة ريانة تدفع حمدي الزواوي إلى المتناف بهمس مبجوح متهدج بنار الوجد :

- " ياو ١... ١... ١... آدي الجدد ولا بلاش ، هذه هي الشرطة الحقيقية فى البلاد ، الشرطة تستعرض قوتها براحتها كما تريد إنما شرطة الزغاريد هى الأنقى والأقوى " .

مع ذلك يحلو لنا أن نخرج مثل كل الناس لنقف على الباب نتفرج على استعراض الشرطة الذى تقيمه مديرية الأمن بشكل منتظم كل أسبوع تقريباً كل طائفة وراء الأخرى بلباسها المميز : شرطة المرور ، شرطة الأمن العام ، شرطة المطافئ ، شرطة المرافق ، شرطة التموين ، فى ذيلهم طلبة المدارس يحملون الأعلام واللافتات بأسماء مدارسهم أو معاهدهم بموسيقاهم الخاصة على قههم يلبسون لبس الكشافة بأشرطة خضراء وحول الرقبة وسراويل قصيرة وقمصان من الكاكي الأصفر . بقليل من الإنقباض تذكرت أننى كان من المفروض أن أكون بينهم الآن لولا أننى بسوء مسلكي طردت من حنة الأفندية وأصبحت شريداً أو مندساً فيه بغير رخصة شرعية ..

وكانت أذيان الموكب الصغيرة القصيرة القائمة تنسحب بطينيتها الشديد وتتباعد حينما سلمت على حمدي الزواوي ورجوته أن يحتفظ بحقيبتى عنده لحين عودتي لاستلامها بعد وقت قد يقصر أو يطول حسب التساهيل . ماكدت أخطو حتى ناداني وهز علة هولبود كانت فى يده ونظر فى جوفها مضيقاً عينيه فوجد بها ست سجاجير ، طوح بها نحوي ، تلقفتها دون كلمة شكر ومضيت مسرعاً كأن ورائي مسئولية الدواوين . رحت أتسكع فى شارع الصاغة بغير هدف وقلبي يحدثنى بأن أتوجه إلى وكالة عطية لكن كيف أذهب بغير نقود؟ إمتلأ عقلي بالضباب فرحت أمشى على غير هدى أتفرج على الفئارين كأنى أخطط لسرقتها أو احتلالها .

مرق من حوارى طيف يطرُق الأسفلت بكعوب ثقال منغمرة فى رشاقة موقعة : تك .. تراك .. تك تراك . تأملت الجسد من ظهره . إنه ليس غريباً على ، هذا الظهر القائم فى رسوخ واضح الفلقتين من الكتفين العريضين حتى الخصر الرفيع ثم العجيزة الكبيرة المستديرة كالقبة . هيكل ينضج بالأنوثة والشهوة ، عملاق يوحى بأنه غير قابل للشبع إلا من إله الجنس ذاته . ساقان مبرومان ، سماتان فى بياض وسخاء الرخام . كعبان فوق كعبي الصندل اعتقلت فيهما الدماء الغضة القمرية .

كانت فرجة ، خاصة أن الثوب الذي ترتديه ضيق يبرز كل تنوء خفى في جسد لها بوضوح تام ، وشفاف ، تظهر من تحتها حمالة القميص الداخلي ذي اللون البمبي المتسق مع لون الجسد نفسه ، الذي تظهر منه جزر صغيرة بين الكفين والذراعين والعنق المتخفي تحت شعر أسود غزير لامع، معتقل على الجبين بشرط أحمر منطرح على الظهر على هيئة المقشة ، كل من كان يمشي وراءها أسرع فى خطوه حتى حاذها ليهمس فى أذنيها بشئ فيما هى مارقة كالسهم المنطلق لا تلوي على شئ وإن بدا عليها أنها سعيدة مبتهجة مختالة بما تحدثه من ربكة فى الشارع ، لكن المار بحاذاتها ما أن يقع بصره على وجهها حتى يتقهقر منسلخاً عنها لاوياً وجهه ، وربما أطلق صيحة استنكار مصدومة وربما غتم فى غير حجل ولا حياء بـ : " أعوذ بالله - سبحان الله اللهم لا اعتراض " ذلك أن الفرق شاسع وهائل بين وجهها الخلفى ووجهها الأمامي ، لكن الأمر مع ذلك لا يعلم ناساً ثقلاء بمعنون فى التعرض لها ومضايقتها ، فحينئذ تتوقف هى لبرهة ، ناظرة إليه فى غضب جنوني وتأييب حاد ، وربما بصفعة على وجه أحدهم بجرأة خفيفة رادعة ، وربما طلبت له الشرطة ..

أسرعت بدوري خلفها كأننى غير متنبه إليها . وكانت قد توقفت وراحت تهدر بكلمات غاضبة فى صوت خفيض متوعد ، فى وجوه بعض الشبان الواقفين على إحدى النواصي ، تجاوزتها قليلاً ثم استدردت عائداً كأنما بطريقة عفوية ، لأصير فى مواجهتها تماماً . ياللحرج ، إنها بدرية القباني ، ابنة بنت عمي ، التى شارفت سن الأربعين ولم تتزوج بعد ، نظراً لغلظ شفيتها فحسب ، إذ كانت سبحان الله كالقمر المنير حقاً ، يتفجر وجهها بالضوء والحيوية والجاذبية ، لولا أن غلظ شفيتها بهذه الصورة المدهشة غير الطبيعية كان يصدم الرائي على الفور ، ولا بد من عملية جراحية تختصر هذين الكيسين الدهنيين ؛ لعله يتصور نفسه وهو يقبلها ليغيب برأسه كله بين شفيتها اللتين تبدوان كزلومة الفيل أو كحنك جوال مربوط بحبال متينة . قلت لها :

- " مالك يا بدرية ؟ ماذا حدث ؟ "

تدفق الدم فى وجهها واتسعت عيونها فوق اتساع حتى شعرت أننى غرقت فى عينيها السوداوتين ، قالت بترحاب حقيقي حار : " أهلاً أهلاً " وسلمت على

بحرارة ، فغابت يدي النحيلة فى قبضة يد رخوة ندية ناعمة بذراع بضة ورسغ ملىء
بالأساور الذهبية .

ثم قالت :

- " لا شئ ، عيال صباغ يقفون على النواصي "

وكان الأولاد قد انزروا فى ركن بعيد وتصنعوا الإنشغال فى خجل وحرص
شديدين . قلت لها : " لا يهمك أى خدمة ؟ "

قالت : " شكراً " واستأنفت السير بحركة رأسها حركة تعني : تفضل وامشي
معي . فسرت بخداها . قالت بعد برهة :

- " كيف حالك ؟ لم نرك منذ مدة طويلة عامل إيه فى المعهد ؟ "

قل لي ما هذا الخير السع الذي نقله أخى كرم من المعهد ؟ هل صحيح أنك
أردت قبل مدرس الرياضة ففصلوك من المعهد ؟

شعرت كأن الأرض تميد بي . قلت : " نعم حدث " نظرت لي باستنكار غير
مصدقة :

- " كيف ؟ لماذا هل هذا فعل تفعله يا راجل ياطيب ؟ منذ متى كان فى أسرتنا
قتالين أنا لا أصدق أنك فعلت هذا ؟ "

حكيت لها بسرعة وإيجاز حقيقة المسألة ، فبدأ عليها التأثر والأسف الشديدين .
قالت :

- " حرام ضيعت مستقبلك فى شربة ماء وماذا تفعل الان ياترى ؟ لقد زعلتني
والله يا شيخ "

- " سوف أسافر إلى الإسكندرية للعمل فى مصانع كبريت البنا - إنه كما
تعرفين من أعز أصدقاء أبى قبل أن يغتني أيام كان فقيراً معدماً فى بلدنا "

تدلت شفتها السفلى عن أسنان متسقة جميلة ، قالت :

" وهل يفتكر البنا أيام فقره ؟ وكيف يتأتى لك أن تقابله ؟ هل عندك
واسطة ؟ "

لم يكن قد خطر فى بالي هذا الموضوع من قبل على الإطلاق ، ولا بد أنه كان مدخراً فى باطني ولم يظهر سوى الآن بهذه العفوية .. وجدتي أقول ما افكر أن أفعله :

- " معي جواب من أبي وجواب من عم البنا فى البلد سأبعث بهما من بوابة المصنع وأنتظر الإذن بالدخول "
- " إه .. ربنا معاك "

فوجدت بأننا صرنا أمام بيتهم ، فتوقفت أنا فيما واصلت هى . وإذا بها ترتد نحوي خطوتين :

- " لماذا وقفت ؟ "

- " أدعك فى رعاية الله "

نظرت فى وجهي باستنكار لا يتفق مع برود أهلها :

- " وهل هذا يصح ؟ هيا ادخل "

ووضعت يدها على كتفي ودفعتي برفق لأعبر الباب إلى السلم مباشرة . قلبي بين الضلوع ينتفض فى رقصة غامضة سريعة الإيقاع تفح فى داخلي مزيجاً من مشاعر الخوف والبهجة والإغتراب والقلق ..

حركة البيت على غير العادة ساكنة سكون الموت . درجات السلم نظيفة مغسولة بالمياه حديثاً . باب الطابق الأول مغلق ، وكذلك الثاني ، والثالث . عند الطابق الرابع توقفت بدرية على البسطة فيما توقفت أنا أسفلها ببضع درجات مستنداً على درابزين السلم ، فكان أنفي يكاد يغوص بين الإليتين الضحمتين القويتين ، ورائحة عطر أنثوى فياض تسكرني تطير لي . فتحت حافظتها فأخرجت المفتاح وفتحت الباب ثم دخلت ، فدخلت ورائها . فى هذا الطابق تنام كل من بدرية ويسرية وشكيرة ، فى شقة مكونة من أربع غرف ودرجة مربعة مفروشة بمقاعد على الطراز الأسبوطي . من هذه الردهة ينزل سلم حلزوني رفيع إلى الطابق الثالث المكون هو الآخر من أربع غرف ودرجة حيث ينام الحاج مسعود والحاجة وديدة ، ومن ردهتها ينزل سلم إلى الطابق الثاني حيث ينام كل من ميمي وشريف

وصفوت وكرم . أما الطابق الأول - فوق الأرضي المشغول بدكانين لبيع الأثاث -
فيفيم الثلاثة الكبار : حواس وبديع ومجيد ، وفيه تستقبل ضيوف الأسرة كلها ..
جلست فى الردهة على المقعد فميا اختفت بديرية فى غرفتها ، وبعد برهة قصيرة
خرجت من غرفتها ترتدي قميصاً منزلياً واسعاً بغير أكمام ، هفهاف من الحرير
الشفيف ، وقد عقدت شعرها فى ربطة واحدة كالقبعة ، ثم سلطت عينيها فى
عيني :

- " أحبيب لك جلابية ؟ "

ودون أن تنتظر جوابي اختفت فى السلم الخلزوني فأخذت الدرجات تكن
وتصدر صريراً. اخذت أجيل البصر حولي مندهشاً : أين ذهب القوم؟ إن البيت
خال تماماً إلا منها ومني . بدأ صرير الدرجات الخشبية ، ظهرت بديرية حاملة إحدى
جلابيب أحبيها كرم الذى يماثلني فى السن لكنه اضخم بعض الشيء. رمت الجلاب
بحر تحاهي متعمدة أن يسقط مفرداً فوقى ، ثم أطلقت ضحكة رنانة وهى تتفرج
على إذ أخلص رأسي من الثوب. قالت :

- " هيا خفف نفسك من الثياب وقم لتساعدني فى المطبخ "

ثم مضت نحو المطبخ الذى لا يبعد أكثر من خطوتين . قمت واقفاً فككت
حزام السروال تركت السروال يسقط ثم خلصت قدمي منه ، خلعت القميص .
طويتهما فوق ظهر المقعد وارتديت الجلاب ودست على الأرض حافياً :

- " أنت وحدك هنا يا بديرية ؟ أين ذهب الناس ؟ "

- " سافروا كلهم بربطة المعلم إلى البلد العقبى لك لحضور فرح سمير ابن أخي
تهاني تركوني فى حراسة البيت لأن أعداء الحاج كثيرين والجميع طامع فينا لسوف
ألحق بهم بعد أسبوع يكون الحاج انتهى من محاسبة الناس هناك بشأن محاصيله
الزراعية فيجئ مع أخي شكرية لأسافر أنا أعمل لك شاي ؟ أم تشرب كازوزة
مثلجة؟ سنتغدى معاً بعد وقت قصير "

كان الغول متكلساً فى بطني :

- " اشرب كازوزة "

فأشارت بذقنها نحو الثلاثة فيما راحت تغسل بعض الأواني على الحوض كانت هذه أول مرة فى حياتى أفتح فيها ثلاثة وأراها من الداخل ، فإذا هى طاقات من الضوء الملون حافلة بالرفوف والأركان والأدراج الممتلئة بلحوم وأسماك ودجاج وأطباق فاكهة وزجاجات مياه وكازوزة . تفرجت على ذلك بلذة وسحبت زجاجة كازوزة ثم أغلقت باب الثلاثة ، ورأيت فاتح الزجاجات متديلاً فى جبل من مسمار فى الحائط . فتحت الزجاجاة وصرت أرشف السائل الغازى اللازخ فى استمتاع كبير. صارت بدرية تتحرك أمامى بكل حرية ، تميل لتفتح عزازة ، فينحسر طوق القميص عن صدرها فيندلق الثديان نافران طليقان بينهما برزخ لا يبغيان وتزفنى موعرتها فى وقفتى فأتصب عرقاً . رمت لى بشرش البصل: - " قشر هذا البصل سأغديك حماماً محشواً بالفريك الصعدي تراك لم تدق طعم الحمام منذ مدة "

- " أكلته منذ أيام قليلة فى مطعم نختن "

- " أكلت عصافير ناحلة الحمام الحقيقى ستأكله الآن ونختن لا يحشو بالفريك الصعدي ونختن ليس بدرية طيبخ بدرية ليس له مثيل فى دمنهور ولا فى البر المصرى كله ، سئ الحظ من لم يتزوجنى لأنه يحرم من أحلى طعام فى حياته " - " هذا من حسن حظي يا بدرية "

وصرت أقشر البصل وعينى تهطل بالدمع وبدرية منغمسة فى الضحك على منظرى. كنت أحاول طرد مخاطر خبيث يتسلط على خيالى . يجعلنى أمعن فى مراقبة جسد بدرية وهو يتلعبط تحت القميص الحريري كبلطية فى قلب الموج ، يكاد يحصرها الرفيع يتلاشى تماماً من فرط رفته حتى لتبدو كأن نصفها الأعلى بصدرة البارز وكتفيه العريضين يرتبط بصفها الأسفل باليتيه البارزتين القويتين بواسطة جاذبية خفية وما بينهما بمجرد هيكل يمثل من الأمام بطناً ضامراً أن ينحدر فى تكور وانسياب مخروطى كالقرطاس ، وتحت القميص الشف سروال كرقعة صغيرة كورقة الثوت التى قيل إنها كانت تغطى عورة أمنا حواء . رغم رغبتى القوية فى طرد المخاطر الخبيثة ، ومحاولة كف البصر عن هذا الجسد العبقري ، وتركيز الانتباه، فحسب ، على تلك اللمعة الخفية بين الملامح تذكرنى بهيكل أمها ولمعة

ظللتها لابد أنها شفرة الدم التي ارى لمعتها الخفية في جميع وجوه عائلتي وإن تغيرت ملاحظهم وتباينت رغم ذلك شعرت بأننى فى حقيقة الأمر أشتهيها حقاً أم أنها نار الكبت والحرمان تضطرم بأعماق فيرتفع لظاها ليحرق أذنى؟ ..

أسرعت فغسلت يدى وعينى وجففتها ، ثم خرجت الى الردهة . انتبهت إلى وجود راديو كبير ماركة فيليبس موضوع على خزانة فى الممر بجوار باب المطبخ . فتحته بلدى ، فانبعث صوت عبد الحليم حافظ مدندناً بهدوء متسلل بالشجن : ظلموه ظلموه القلب الخالى ظلموه وعدوه . صاحبت بدرية من المطبخ فى طرب : إرفع الصوت شوية . طغى صوت بدرية على الصوت رغم ارتفاعه مصاحبة لعبد الحليم فى الغناء بشكل مؤثر جداً ، وصوت أرق من صوت عبد الحليم كثير جداً بل أشد حساسية لإلتقاط الأنغام الدقيقة الزخرفية . وقع بصرى على الغرفة المواجهة ، من الواضح أنها غرفة شكرية ، فيها هى ذى صورتها فى برواز على الكومدينو بجوار السرير ، وبعض ثيابها وقمصانها متدلّية من مشجب خشبى واقف بجدار الدولاب ، أما السرير فخشبى حديث الطراز غراق فى الفرش الوثير الملئ بالزخارف . إقتحمت الغرفة بلذة راضية ، تمددت على السرير ، صرت أتمرغ فيما لم يكن مباحاً لى ، كأننى أتمرغ فوق جسد شكرية لأسحق كبرياؤها الزائف ، صغرلها من هى وأحلاها ، ها أنذا أضغط نفسى فى السرير . ثم اتناهى شعور غامض باللذة والعدوان معاً ، فنهضت واقفاً صرت أمسك بالقمصان والثياب أشمها امررها على وجهى وشفتى ثم أعيدتها حيث كانت . ثم رأيتنى أنتقل إلى الغرفة المجاورة ، أنها غرفة يسرية ، بنفس النظام وإن كانت أكثر انضباطاً وأميل إلى الحشمة ، تمددت على سريرها أتمرغ أدفن رأسى بين الوسائد ، انتقلت الى غرفة بدرية أكبر الغرف وأوسعها ، تطل على المنور وعلى الشارع الخلفى بشباكين يحاصران الشمس والقمر فى زوايتين يستبقيانهما مدة طويلة فى الحجرة أما السرير فمن النحاس اللامع بعواميد مضلعة وتاموسية وردية اللون مفتوحة كباب الخيمة ، دخلت فيها ، صرت أتمرغ فوق السرير أتذكر أن لو كان الحاج أو الحاجة أو أحد الإخوة هاهنا الآن لما قدرت على دخول البيت بل أن أتمرغ فى أسرة البنات هكذا بكل حرية . إرتعشت أوصالى قليلاً ، لكننى بكل لذة صرت أمتعن التمرغ كأننى - بكل لذة

أيضاً - أهزأ بالحاج والحاجة وبكل أنوف أبنائها المتعجرفة الثقيلة الظل . ساءلت
نفسى بجمرة : كيف جرؤت بدرية أن تدعونى للدخول فى عرينها وهى لاشك
تعرف مشاعر النفور المتوفرة فى أهلها تجاهى ؟ ماذا لو طب علينا الآن أحلهم ؟ إنه
الدمار لاشك ، لى ولبدرية ، لابد أنها واثقة تمام الثقة من أن سفرهم سيطول كن
كيف تحدث مشاعر أهلها ودعتنى هكذا بكل بساطة وتشحرك أمامى بكل حرية
شبه عارية ، صحيح أننى - فى العرف العائلى المنقرض - أكاد أكون فى مقام خالها
إذ أن أمها بنت عمى لزم ، ولكنها لم تكن لتسلك معى هذا السلوك لو أن أحداً من
أهلها هنا ، فى الأسبوع الذى مكثته هنا ذات يوم لم يكن يسمح لى بالصعود إلى
الطابق الرابع بالذات وكن هن ينزلن إلى الطابق الثالث للغداء الجماعى حيث ترابيزة
السفرة الكبيرة التابعة لجهاز أمهن العتيق متمركزة فى ردهة هذا الطابق منذ أن
دخلت فيه عروسة بالإيجار قبل أن يصبح البيت كله ملكاً لهم . كن ينزلن بملايس
رسمية محتشمة ولايضحك بمرح . فما الذى - ياترى - حدا بدرية أن تتحرر معى
هكذا ؟ أتكون الأسرة كلها قد تغيرت فى غيبتى فرقت مشاعرها ؟ أم أن بدرية
مختلفة عنهم جميعاً ؟ ..

سرعان ما صار قلبى يذق بعنف ؟ إذ تذكرت فجأة كثيراً من الأخبار المقلقة
كانت تتردد فى محيط أسرتى فى سنوات طفولتى وصباى حول بدرية هذه بالذات
فمرات كثيرة تناهى إلى علمنا أن البنت ليست طبيعية وأن عقلها ممسوس بعشرة
خفيفة بعض رجال أسرتى أرجعوها الى عقدة نفسية ألت بالبنت نتيجة بوار سرقها
وعدم تقدم أحد للزواج منها رغم ثراء أبيها وما قد ترثه منه فيعلق سعد ابن عمى ،
الذى يكبر أبى فى العمر ومع ذلك يقول له بكل توقير : يا عم ، يعلق قائلاً إن
الحاج مسعود لا يعاشر وأن البنت حتى لو كانت سنيرة ملكة جمال ، حتى لو
كانت بلا شفايف على الإطلاق فإن أحداً لم يكن ليتزوجها منعاً للإحتكاك بأبيها
ذى الطابع الحيوانى المادى الفظيع ، الدليل على ذلك أن البنات كلهن فاتهن قطار
الزواج ، ولو لم يكن أبناء عم يتزوجنهن كأختهن تهانى فسوف لن يتزوجن بالمرّة ،
وحتى ابناء أعمامهن لا يفكرون فيهن . بعد صمت طويل يعلق أبى فيقول إن بنات
الحاج مسعود كلهن غليظات الإحساس من المستبعد أن يصبن بأية عقد ، إنما لا

تنس أن اختلال العقل ظاهرة منكسرة فى عائلة القباني ، بسبب زواج الأقارب
أنسيتم أن أم الحاج نفسه وهى بنت عم أبيه قد ماتت فى مستشفى العباسية ؟
أنسيتم أم العز العبيطة التى كانت تمشى مع الدراويش لابسـة حرق الصوفية؟ إنها
بنت عم الحاج لزم ، ولماذا تذهب بعيداً ؟ الحاج نفسه كثيراً ما يخرج عن طوره لأقل
الأسباب فلا يرى ما حوله وتتقطع الأسباب كلها بينه وبين كل شئ فى الحال ، فى
مرة أطلق الرصاص على حصيرة مبرومة مستندة على الحائط نسيها نسوان عمه
وكان هو مقبلاً آخر الليل من سهرة مفى سقى الأرض ، فأخترقت الرصاصـة الجدار
واستقرت فى رأس ثور مسكين فى الزريبة ، ومن شدة خلله واستعباطه رفض أن
يلفع لعمه نصف ثمن الثور كما حكم بذلك كبراء العائلة ، واشتبط فشنع على عمه
تشنيعات كثيرة مدعيـاً أنه كان يربص به لقتله وأنه كان ملتفاً بالحصيرة ...

عطولات الشبشب الحريمى تزحف مقربة مع صوت بدوية: "هو راح فين ؟!"..
دخلت الغرفة فتشت ، لمحتنى ممدداً خلف الناموسية، تبسمت رغماً عنها ، صاحت
بلهجة لم أدر إن كانت تستنكر ما فعلت أم تغريبنى بالإستمرار :

- "عيني ياعيني !! فرصة !! إياك أن تنام ! الغداء يجهز بعد دقائق !"

وترددت فى وقفـتها قليلاً كأنها تفكر فى ماذا تفعل ، كلنها اتجهت إلى مرآة
التسريحة وأخذت تنظر فى وجهها وتمر بالمشط على جوانب شعرها ، وكنت أرى
نفسى بالسريـر فى مواجهتها فى المرآة ، وكنت فى وضع يمكننى من رؤية ظهرها
كاملاً ووجهها كاملاً ، فلم أستطع السيطرة على نفسى ، شعرت بدبيب نمل فى
عروقى ، ثم صرت أمدد شيئاً فشيئاً حتى أرتفع الثوب فوق ساقى ، فشعرت
بالخرج الشديد فدفت نفسى بين الساقين بقوة لكننى انتفضت متمرداً بقوة أكبر ،
لحظة وقع بصرها فى عيني فى برهة خاطئة ، فتبسمت بسمة ذات معنى ، ثم
أردفت فى نبرة تحاول الإلتصار على شعور داخلى بالحسرة :

- " بذمتك ودينك يافلان هل أنا دميمة ؟! هل فى أى عيب حقيقى ؟!

صارحنى بدون أى محجل !"

لاحظت أنها تحاول تقليص شفتيها قدر الإمكان بحركة تلقائية . فوجدتني أنتفض قاعداً ، ثم أهبط عن السرير وأمضى نحوها فأقف خلف ظهرها واضعاً ذقني على كتفها بجوار رأسها ، هكذا مباشرة ، لأقول :

- "جمالك أمر لاشك فيه ! لا ينكره سوى أعمى أو غشيم لا يتذوق النساء !" وكنت أتوقع أن تصفني أو تدفعني عنها وتعطيني رداً في الأدب ، لكنها سلطت عينيها في عيني بلهشة تنم عن رضاء ، بل إنها مالت بصدغها فوق رأسي هامس بصوت متهدج :

- "تجاملني يا عكروت !؟"

قربت نفسي من ظهرها بأن صلبت قامتي :

- "أنت وأبي تتفقان في هذا الرأي ! هو دائماً يقول لي مثل هذا الكلام حتى لا يكسر حاطري ! يحس دائماً بالذنب نحوى ! يقول إن غلط شفتيه هو المسئول عن عدم زواجي ! هلى شفتي غليظة بشكل منفر ؟! أشعر بهذا من وجوه الناس وكلامهم حين ينظرون في وجهي ! حتى البنات يبدو عليهن النفور من وجهي !!"

ألصقت نفسي بظهرها حتى اختفيت تماماً بين الإلبيتين ، ومددت ذراعي فطوقت صدرها متلقفاً كل ثدى بيد ، صر أضغط عليهما برقة مرتعشة مضطربة باللهفة الساخنة ، أقو بصوت متهدج :

- "أرني هاتين الشفتين حتى أحترهما !؟"

شبتت على أطراف أصابع قدمي حتى اقتربت بشفتي من شفتيها ، ثم عوجتها قليلاً فانطورت ، كالخيزرانة ، فانقضضت على شفتيها لثماً وتقبيلاً ، فوجئت لدهشتي باختفائهما تحت شفتي وتحولهما إلى شفرة شديدة الحرارة . إذا بها تتراسخي وتنهارى فوجئت بأنني قد سحبتها نحو السرير ، طرحتها ، نزعنت قميصها فإذا هي لوحة حية كالتي أراها لكبار الرسامين بمفاتن قاتلة ، أصابني الجنون غبت في حلم سرمدى لا أدرى كم مر من الساعات لكننى كنت أرى خلال الغيبوبة النشوانة وجوه الحاج مسعود والحاجة وديدة وحواس وبدعي وكرم وتهاني ويسرية وشكرية تطوف بلهني أثناء الفوران ، فلا تزيدني إلا حماساً واندفاعاً وانخراطاً ولذة فائقة كأنني أعجنهم جميعاً اطحنهم تحت سيفي البتار ، مما كان يضاعف لذتى يعمها

يمنحني الراحة الشاملة والفرحة الغامرة ، أما هي فكانت امرأة أخرى تماماً ، كانت كتلة من اللهب تتلظى وتقطع وتصدر عشرات الأصوات والفحيح بصورة طيرت كل أبراج عقلى ، إلا أنها انتفضت فجأة تصيح وقد أفاق :
- " الطعام على النار ! زمانه احترق ! "

أفلتها ، فاندفعت تهوول نحو المطبخ فاندفعت خلفها أطفأت النار ثم مضت عارية كالفهد فدخلت الحمام فدخلت ورائها هطل المطر فوقنا تبادلنا الدعك بالليفة نشفتنى بالبشكير كأننى طفلها ..

تناولت أشهى طعام فى حياتى أيقنت أن من ينس شكل هاتين الشفتين سيطفر بامرأة لا مثيل لها فى الوجود ، شربنا الكازوزة وأكلنا الفاكهة المثلجة وقمنا إلى جولة أخرى كنا فيها أكثر جنوناً أشد قوة أطول مدى بعدها استغرقت فى نوم عميق ، رأيت نفسى خلاله أقوم بنفس الفعل مع الحاج وديدة نفسها أمام الحاج نفسه وجميع أبنائها وكانوا جميعاً راضعين بأنف كسير ، حين فتحت عينى كان القمر قد نزل ضيفاً على الغرفة وكانت بدرية جالسة أمام المرأة تسرح شعرها انتفضت جالساً قالت بدرية :

- " على فكرة ! يمكن أن تبتي هنا الليلة ! وفى هذه الحالة تنزل لتبتي فى حجرة الصبيان فى الطابق التحتانى ! "

- " لماذا ؟! "

- " تحسباً للمفاجآت ! فرمما طب علينا أحدهم فيراك فى الموضع الطبيعى ! "

ثم وجهت لى نظرة ساحرة :

- " تتمعنى ؟! "

- " لا بأس ! "

أحدث ترابيزة المطبخ " الإيديال " فردت عليها بعض أرغفة مغ اطباق من انواع مختلفة من الجبن والعسل النحل والزبادى والبيض المسلوق .. اثناء الطعام وجدتنى أقول :

- " هناك سؤال يحيرنى ! "

- " أعرفه !! "

- " إذن فما جوابه ١٩ "

- " إنه صاحب هذا البيت لا تجوز عليه إلا الرحمة ! إغتنبني في بئر السلم وهو سكران ! كنت صبية صغيرة ! بعدها عرض أن يتزوجني ! أبى لم يوافق ! جاء أولاد عمى فاعتقلوه في مكان بعيد وهددوه بالقتل ! في النهاية تنازل لي عن هذا البيت كنمن لغلطته بشرط الا يشتكوه أو يثيروا فضيحة ! بعد التنازل دسوا له السم في زجاجة خمر فمات حتى يظل الخبر سراً ! ! كان ذلك منذ عشرين عاماً ! وقتها كنت عبيطة وكنت مريضة بالأعصاب ! ولكن قل لي أنت : اين تبيت ١٩ "

قلت لها إنني قد استأجرت بالأمس حجرة في حى إفلاقة كمسكن رخيص وأننى محتاج لبعض نقود كي اشتري بعض الفرش . قالت :

- " لا تحمل همّاً ! جهازها مؤقتاً حتى نستأجر لك شقة في مكان نظيف لكي أجي لك فيها ! ! "

- " ما رأيك لو تزوجنا ١٩ "

ضحكت بمرح :

- " سنفكر في هذا الأمر من عدة نواح "

بعد العشاء توجهنا تلقائياً الى الغرفة من جديد . ثم ادركنا ضحى اليوم التالي ، فالثالث فالرابع فالخامس ، على نفس الوتيرة بنفس الجنون الشرس الأعمى ، فى ضحى اليوم السادس كنت أهبط السلم وحدى ، أحمل على كتفى لفة تحتوى على بطانية ولحافة ووسادة من مخلفات الأسرة دبرتها لي على مسئوليتها ، وفى جيبي ثلاث جينها كاملة ، ورقم تليفون منزلهم على قصاصة من الورقة لكي أطلبها حينما أريدها باسم محسن الكوافير ..

فى الشارع توقفت لبرهة . إستوقفت عربية حنطور . مررت على حمدي الزواوى فاستعدت الحقيبة ، ووجهت الحوذى نحو وكالة عطية . وقد ادهشنى وسرنى فى نفس الوقت أنه لم يعرفها ولم يسمع بها ، فشعرت بزهو كبير وأنا أشير له أن يحود شمالاً أو يمينا ، وهو من حين لحين يرسل لي مبن فوق كتفه نظرة فيها الكثير الكثير من الدهشة والإستراية .

حجرة بمصطبة

وقع حوافر الحصان على اسفلت الشوارع ، وقعقة عجلات الخنطور ، لها صوت يسكرنى يشعرنى بالتدلل والغندرة ، تلقائياً أجد جسدى يتمايل مع حركة العجل ، ليس لأن الحركة تدفعنى إلى التمايل والتملل فحسب ، بل لأننى كنت ارى فى طفولتى مفتش الوسية وأبناء البكوات أصحاب الضياع فى بلدتنا يتمايلون فى طرب ونشوة مع حركة " الكارثة " التى يجرها الحصان فى شوارع البلدة ، حتى ليترنج شعر النساء على وجوههن فى نشوة هو الآخر ..

حركة الخنطور ليست سريعة لأن الشوارع مازال حافلة بالمارة والباعة والمركبات . عيني على الشارع وفى أعماقي أمنية بأن يرانى على هذا النحو بعض الذين سبق لهم رؤيتى على نحو بائس ، علمهم يتأكدوا بأننى لست فى كل الأحوال بائساً ، لكن أحداً لم يرنى مع الأسف ، مع أننى رجوت الحوذى أن يطوى سقف الخنطور إلى الخلف حتى أظهر بكامل هياتى منجصاً ، ولفة البطانية واللحاف والوسادة تحت قدمى ، وفى فمى سيجارة مشتعلة . شيئاً فشيئاً بدأت الحركة تقل والزحام يخف . فطنت إلى أن الخنطور يخترق الشارع الموازى لمحلة السكك الحديدية ، فيدخل إلى الحى الهادئ القابع فى بطن المدينة القديمة والذى بدا كمنشأة جديدة تميل إلى الطابع الشعبى . هو عبارة عن شارع طويل ممتد إلى تخوم اراض زراعية بعيدة تبدو عند انطباق الأفق شريحة خضراء مرملة . ها هو ذا الحوذى يخترقه لكى يطيل المشوار . تلك حيلة فطر عليها ، إذ أن كل من يركب الخنطور اليوم إنما يركبه للنزهة أساساً ومن ثم فعلى الحوذى أن يفرجه على أماكن كثيرة طمعاً فى بقشيش إضافى كبير . إلا أنه توقف عند إحدى النواصى ، واستأذن فى أن يشتري بعض العلف للحصان ، ففهمت أنه جاء بنا من هنا لهذا الغرض على وجه التحديد منتهزاً فرصة سكوتى عن توجيهه . صرت أتأمل فى الشارع ؛ إحتدبنى منظر امرأة تشبه بلدتنا تمام الشبه ، تجلس على الرصيف مرتدية جلباباً من الشيت الرمادى وعلى كتفها ملاءة سوداء تغطى رأسها حتى الرقبة والصدر ؛ يمكن أن تكون أما لبضعة رجال محترمين ؛ بوجه بيضاوى دقيق الملامح وإن امتلأ

بالتجاعيد والأخاديد والكرمشات ؛ وفمها أهتم ومطبق يشبه حافظة نقود النساء الصغيرة ؛ لكن عينها واسعتان جداً بصورة لافتة للنظر قوية الإشعاع تبعثهما هنا وهاهنا فى شبه تلصص خفى كالستريب من شئ غامض . أمامها قفص من الجريد كبير ، وضعت فوقه لوحاً مسطحاً من الخشب ذا حواف بارزة ؛ نثرت فوقه ألواناً من الحلوى الساذجة : نيوت الغفير، موز من عجينة سكرية هشّة ، عسلية ، كقوف حلالة سمسمية ؛ لعلها هى نفس المرأة التى تجلس فى مدخل بلدتنا على الطريق ، تصيد الأطفال القادمين من الحقول لتبيعهم هذه الحلوى بأى ثمن ، بكوز من الذرة، حفنة قمح ، حزمة برسيم ، حزمة حشيش أخضر للأرانب ، رغيف وقطعة جبن . عجبت حقاً أن توجد مثل هذه المرأة فى المدينة البندر ؛ وراق لى أن أعرف بأى مقابل تبيع هى الأخرى ، بأشياء أم بنقود ؟ لكننى خمنت أنها تبيع بالنقود لأن بجوارها مقطف من الخوص مقلوب على فمه . وقد وقعت عينى فى عينيها عدة مرات فخيّل لى أنها تعرفنى ؛ حيث كانت هوايتى وأنا صغير أن أتسلل فى الضحى والناس نيام لدى القيلولة ، فأعبر سطح بيتنا إلى سطح منزل عمى ، لأحشو جيوبى بكيزان الذرة التى ينشرونها فوق السطح لتحمصها الشمس فتصبح قابلة للطحن أو التدشيش بالرحاية ؛ ثم أنطلق من فورى إلى تخوم الغيطان فى مدخل البلد ؛ أو ربما صادفتنى فى الطريق أكثر من امرأة أخرى فأشترى من كل واحدة منهن شيئاً أكله فى الطريق إلى الأخرى . هممت بالنزول إلى هذه المرأة لأكلمها ، والواقع أن لعابى سال على موزها الذى كنت أضبع الأصبع منه فى فمى فأقرشه فلذا به قد ذاب فى الحال كأنه هواء متجمد لا يبقى منه شئ أبتلعه ؛ لكن الخوذى عاد ، فاهتزت العربّة هزة شديدة فيما هو يقفز عليها متحذاً وضعه . شد السُرْع فاستأنف الحصان المرولة . وفيما كان مبنى الوكالة يقترّب ، كنت من مكاني فرق عربة الحنطور أتكشف أبعاداً لم أرها من قبل ، مثل المنزل العتيق المكون من طابقين خلف الوكالة مباشرة تفصل بينهما حارة ضيقة ؛ ينحدر بجذائه صف من المنازل المتهالكة يتضاءل حجمها إلى أن يصير مجرد عشب من البوص والطين والجريد . كان باب الوكالة موارباً . فبدفعه يسيرة إنزاح . إصطدمت بعينين صقريتين يطق فيهما الشرر ؛ فما أن خطوت نحو شوادفى المضطجع على المصطبة يسلفنى بنظرات حادة لا يلدو فيها

أدنى معرفة بشخصى . قالت السلام عليكم . فمن ضجعتنه رفع ذراعه مشيراً لى نحو الباب فى نبرة خشنة حادة : " إخرج فى الحال كما كنت ! " . فتسمرت فى وقتى متأبطا اللغة التى تضم البطانية واللحاف والوسادة ؛ وقد اضطربت مفاصلى من شدة الذعر . إن الذى أراه الآن ليس شوادفى الذى شربت معه الشاى والسبارس فى ود عميق وشاركته فى كتابة عقد النكاح لمخبولين من نزلاء وكالته . ليس أمامى الآن سوى وحش حقيقى إن لم أمتثل لأمره فى الحال فربما انقض على وغيبنى فى جوفه . شعرت بكثير من التشاؤم فيما أستدير ببطء ذليل لكى أخرج . إلا أننى فوجئت بوجهه ينبسط قليلاً كأنه تذكرنى ودخله الأسف على سوء استقباله لى ؛ ثم أردف مع مشروع ابتسامة :

- " أخرج ثم اطرق الباب أولاً فأقول لك ادخل أو لا تدخل "

فعلت ذلك بشكل مسرحى ساخر . فاعتدل فى جلسته وسلم على بحرارة حقيقية . وسع لى مكاناً بجانبه ، مال نحوى قائلاً فى ود عميق : " اعمل لك شاى ؟ " . شكرته ، عزمت عليه بسيجارة بلمونت من علبة كانت معى . فتأمل العلبة بغبطة وأتى بأصابعه حركة ذات معنى كأنه يقول بها : " دهده دهده ! إيه العز المفاجئ ده ؟ " . ثم سحب سيجارة ؛ وبسرعة أشعل لى ثم له ؛ ثم سحب منقذ النار ، وكسر فيه بعض القوالب المتفحمة ، ونفخ فى الرماد حتى كشف بصيص اللهب فأوصله بالقوالب الجديدة فشبطت فيها النار ؛ وأمسك القلة بيميناه والكوز الصفيح الصدىء بيسراه فدلق فيه بعض الماء ثم هزه ومصمصه وألقى بالتفل فى عتبة البوابة الرطبة ، ودلق ماءً جديداً فى الكوز ووضع وسط اللهب الهادئ الرزين ثم مدد ساقيه بعرض المصطبة فطقطقت ركبه ومفاصله برنين كثيف :

- " أين أنت من زمان ؟ " -

- " كنت فى البلد طوال الأيام الفائتة ! " -

- " وازى الجماعة ؟ بخير والحمد لله ؟ " -

- " يسلمون عليك ! " -

- " الله يسلمك ويسلمهم ! " -

ثم راح يطوف بنظراته فى ملبسى وشكلى النظيف المستحم ، ويقف عند حقيبة ملابسى ، واللفة الموضوعة فوقها تحت المصطبة . رفع ذراعه باسطاً كفه العريضة الطويلة الأصابع كالسماير الحدادى ؛ فارتسمت على صفحة وجهه عبارة : " آخر شياكة ونظاكة " ، أما فمه فقد نطق عبارة أخرى تكمل العبارة غير المنطوقة :
- " أنت الآن تصلح عدة !! "

تمايلت على المصطبة وتقبضت كل عضلاتى استياءً من هذه العبارة السيئة السمعة فى بلدنا . فلفظة " عدة " تطلق على الولدان الشواذ جنسياً ؛ أشاعها فى بلدنا التلاميذ الذين يتعلمون فى المدينة مقلدين بها لهجة أبناء البندر ؛ وهى من العادات القبيحة الكثيرة التى لحقت ببلدنا من جراء اتصال أبناءهم بالبندر الفاجر القبيح . على أن شوادفى لم يكن فى وجهه أى بارقة تشير إلى هذا المعنى ، بل إنه فى الحال إستدرك : " لو رآك سيد زتاتى لضمك إلى فريقه ! " وانحنى يتابع غليان الشاى ، يمسك باليد السلوكية للكوز فيهزه ليخترط الشاى ويختلط ببعضه فيما يقول :

- " على فكرة ! إياك أن تكون أخذت على خاطرك من شعطتى فيك ! أنت فجعتنى بدخلتك وبهدلت أعصابى ! ظننتك منهم ! إخواننا البعداء ! المخبرين السريين الذين يرمون بلاعهم علينا وعلى الناس كل ساعة ! تصورت أنك مندوب المباحث أو بوليس الآداب جاء يتسلى بإثارة أعصابى حتى أغمره فى النهاية برشوة مقدارها مقدار ما بهته فى قلبى من رعب ! لكن على من ؟! إننى أعاملهم مثلما رأيت ! بنفس الطريقة ! فحينما يكشف لى عن شخصيته فراننى أبالغ فى تطليب خاطره بكلمتين أو كله الأرنطة أشعره بأننى عبده وهو سيدى ولكن بالذوق ! أخيفه قبل أن يخيفنى ! لابد أن يعرف أن لحمى زفر وهو على البرابرة حتى إذا ما أعطيته شيئاً قليلاً بدوت فى نظره كأننى أتعطف عليه إذ أننى فى النهاية قادر على شلفطة وجهه !! "

يصب الشاى فى لدة فائقة . قلت ساعراً :

- " ياعم شوادفى وهل يعقل أن ضابط سيجيئك حاملاً لفة كهذه وحقيبة كهذه ؟! "

ركز عينيه فى عينى كأنه يدق مسمارين ملتهبين فى محجرى ؛ ثم سحب شجرة
رنانة كصوت الرعد :

- "إنهم يجيئون فى ثياب النساء صابغين وجوهمهم بالبودرة والأحمر واللبان
يطرق تحت أشداقهم ! أنت عدوك أهبل أم ماذا ؟!"

وقدم لى كوبة الشاي ، وتناول كيس تبغه ليلف سيجارة ، فقدمت علبتى ، فمد
أصبعيه ليسحب واحدة لكنه تردد ثم شوح بيده :

- " لا ياعم ! هذا دخان رهيف لا يكيفنى ! إنما يكيفنى هذا الدخان الخشن !"
وجعل يلف سيجارة على مهل :

- " نويت الإقامة عندنا إن شاء الله ؟!"

- " نعم ! "

- " إذن فهى حجرة بقفل ومفتاح ! "

- " يستحسن ! "

- " ما رأيك فى هذه الحجرة ؟!"

وأشار إلى حجرة تجاور الحجرة الملاصقة للبوابة :

- "إنها من نصيبك ! يبدو أنك ابن حلال فهى تنتظرك ! هى الوحيدة التى بها
مصطبة كهذه ! كانت موجرة لولد أفندى مثلك وابن حلال أيضاً لكننى لا أدرى
ما عمله بالضبط سوى أنه يجى ليملكث بها أسبوعاً أو عشرة أيام على الأكثر
ليختفى شهوراً طويلة حاملاً مفتاحها فى جيبه دافعاً أجرتها على طول المدة ! يدفع
شهرين ثلاثاً مقدماً ! فإن طالت غيبته فإن طواف البوستة يجى لحد عندى
بحوالة بريدية أرسلها لى من المكان الذى هو فيه ! فأخطف رجلى لأصرفها من
مكتب البوستة ! إنما هو فى هذه المرة طالت غيبته ! دخلنا الآن فى سنة لم يصلنى
منه أى مكتوب ! وأنا أشعر أن هذا الولد وقع فى شر أعماله فقفشته الحكومة
متلبساً بشئ فسجنته ! أقطع ذراعى إن ما كانت نظرتى سليمة ! شف يا أحنانا !
خلها من فمى ! الشخص منا إذا لم يكن صريحاً صادقاً فى كل شئ فإنه يكون
لثيماً خبيثاً خسيساً بمقدار مافيه من قلة صراحة وصدق ! تعرف ؟! إننى لا أخاف
من الكذابين الصرحاء ! يعنى الذى يعرفون أنك تعرف أنهم كذابين !! يكذبون

بوضوح دونما أى حرج ! هؤلاء لا يعمل لهم حساباً بل أعطيتهم موخرتى لا ليعيشوا بها بل لتشبع وجوههم الكريمة ضراطاً وروائح زكية !! إنما الخوف كله من الذى يدعى الصراحة ويلبس قناع الصدق متسقاً عليه ! أعرفه فى الحال ! أكرفه ! إن القناع سيضغط على وجهه لابد ! وسيتألم فيبدو الألم على وجهه ! سيحاول تريح عضلات وجهه من ضغط القناع ولو لبرهة ! حينئذ يقع بين يدى ! فأتلقاه قائلاً : تعال على حجر أخيك الشرعان الشقيان التعبان ! ياويله منى !! إنما هناك عيالاً تكذب بخفة دم وقلب أبيض لكى تمشى حالها وهى فى العادة لاتضر كثيراً وشرها قليل !! إلا صاحبنا مستأجر هذه الحجرة ! كنت أحبه وأقدره وفى نفس الوقت أرى أن وراءه أمور وأمور ! لأنه لم يحدثنى عن نفسه أبداً ! ولا عن أى شئ سوى الكلام فى الأمور العامة ! فإن سألته شيئاً عن نفسه عن عمله عن أهله عن بلده عن أرضاعه زورغ منى بصنعة لطافة وقال عبارة غامضة تفهم منها ماتفهم ! وآخر فهم وافقنى عليه أن شغلته مفتش فى البلدية !! ههأوأوأ !! مفتش من هذا الذى يجى ليسكن هنا ؟! صحيح إنه نظيف الملبس لا يرتدى إلا المكوى المنضبط ! وكلامه حلو ! ومودب ! لكنه فى النهاية بائس من جواه ! المهم أننى يمست من عودته ! فتحت القفل جمعت كراكيهه التى هى عبارة عن حقيبة قديمة وبعض مجلات وجرائد وورق يحوى عناوين وأرقام تليفونات وأسماء بلدان ! وبعض ملابس بالية وأحذية مبرطشة ولحافاً مثقوباً من كل ناحية وحصيراً منسولاً ! عبأت كل ذلك فى حوال رميت به فى مخزن المهجورات حتى يبين صاحبنا ! للحجرة شبك على الشارع له أرضية عريضة تتسع لهذه الحقيبة ولصفوف من الكتب !! إن فتحت درفته العليا وواربت باب الحجرة تصادم الهواء واجتمع عليك كأنك على شاطئ الإسكندرية !! والآن كم شهراً ستدفع ؟! ..

فوجئت بالسؤال. تدبرت أمرى قليلاً ثم اندفعت قائلاً :

- " شهرين ! أو قل ثلاثة ! "

- " قبضنى ! "

قبضته مائة وثمانين قرشاً ، نزعته مغمض العينين بسرعة ، كالذى يغمض عينيه ويسد أنفه وهو يجرع الدواء المر . كنت أخشى التردد والرجوع فى كلامى

لضخامة المبلغ ضخامة تهز ميزانيتي هزا عنيفاً ؛ لكننى سرعان ما استرحت ؛ إذ ضمنت أننى وجدت مكاناً يأوينى لثلاثة أشهر كاملة قادمة ؛ أستريح فيها من العذاب اليومي بحثاً عن مأوى حتى لقد أصبحت أمنية كبيرة أن أستقبل الليل يوماً واحداً بدون رعب أو قلق أو كآبة . إن ليل دمنهور جميل خفيف الظل نعم ؛ لكننى مع ذلك لا أحبه لأنه فى النهاية ليل يلبسنى فلا ألبسه . كم تمنيت الجلوس ليلاً فى مقهى المسيرى لأستمع إلى مناقشت الأدباء بدماع صافية، أو السهر مع محمود نعينع تاجر الخردوات ومولف الأغنيات الطريفة التى يسميها بالـ " مودرن " ؛ أو السهر فى نادى الموظفين مع الفرقة المسرحية ؛ أو التمشية على ترعة المحمودية فى الشارع المرصوف مروراً بمدرسة الصنایع ومدرسة الزراعة حتى قرية شرنوب نتكلم فى الفن والأدب؛ كم تمنيت أن أفعل هذا دون أن يخفق قلبى مع كل خطوة يزحف بها كلل الليل فوق يافوخي . الآن فحسب أستطيع أن أفعل ذلك لمدة ثلاثة أشهر بمائة وثمانين قرشاً لاخى ر . أما الأكل فمقدور عليه ؛ لقد اكتسبت قدرة هائلة على احتمال الجوع أياماً طويلة؛ كما أن أكثر من صديق أو غير صديق فى دمنهور يمكن أن يغديك أو يعشيك لأكثر من مرة ولكن ليس من صديق واحد يستطيع أن يأويك فى بيته ليلة واحدة ..

قال شوادفى وهو يسحب مفتاحاً صغيراً من تحت مخدته :

- " معرفة خير بإذن الله ! إطمأن قلبى إليك لأنك صريح لا تعرف اللف والدوران ! وطالما أنت هكذا تكسبني على طول الخط تجددنى فى صفك على الدوام ! وأما مسألة الشغل هذه فلا تحمل همها ! ربنا يقدرنا ونحلها لك ! "

تذكرت كلمته التى أوجعتنى ، قلت بابتسامة مرتعشة:

- " ما معنى قولك أننى أصلبح عدة ؟! أنت قلت هذا منذ قليل ولم تشرح لى قولك !! " ضحك بخشونة ضحكاً مكتوماً :

- " عدة شغل يعنى ! سوف تفهمها بحكم العشرة ! لا تتعجل فستفهم وترى أشياء كثيرة ! عندى هنا سيلما وأفلام فشر أفلام جميع السيليمات ! ولكن أنا لم أقصد إلهائك بأى معنى يخطر على بالك ! أعرف أن هذه الكلمة عندكم فى

الفلاحين لها معنى معين لكننى لم أقصده ولم أنتبه إلا بعدما رأيت الإنفعال على وجهك منها ! والآن قم ضع أشياءك فى الحجرة وعائنها واسترح قليلاً ! "

قمت إلى الحجرة ففتحت قفلها الحديدى الغليظ المشبوك فى رزة تقززت فى خشب الباب عشرات المرات فانتخلعت وأعيد تركيبها عشرات المرات بمسامير معوجة . نويت أن أعيد تثبيتها جيداً وربما تغييرها وتغيير القفل نفسه فى فرصة مناسبة . إندفع الباب متقهقراً . تقدمت ففتحت درفة الشباك العلوية المطللة على الشارع العريض الواسع كالليدان اللامع بالأسفلت ؛ فتدفق الضوء الجميل فغمر الحجرة بلون السماء التى لم يكن يظهر سواها . المصطبة جميلة جداً ، ممتدة خلف الباب بطول الحائط ، ويستطيع التمدد فوقها أن يتكى بمرفقه على أرضية الشباك ليقرأ وينظر فى فناء الوكالة . الحجرة جميلة بالفعل وأرضها مستوية . رأيت على أرضية الشباك بقايااً جرائد ففتحتها فإذا هى بضعة أعداد من جريدة الأهرام تحمل صفحاتها أخبار القرار الجمهورى بحل الأحزاب . كانت أوراق الصفحات الأولى مصفرة شائطة أما الصفحات الداخلية فما تزال جديدة بيضاء . فرشتها على طول المصطبة وعرضها الذى يتسع لجسدين . فرشت البطانية مطوية بالطول . وضعت المخذة لصق الحائط فوصل طرفها إلى حافة أرضية الشباك . طويت اللحاف أربع طيات ووضعتها فى نهاية المصطبة ، ثم وطنت النفس على شراء إبرة وخيط لكى أخط هذه الخروق القليلة التى تطل منها نتف القطن . وضعت الحقيبة على أرضية الشباك . طوفت ببصرى فى فراغ الحجرة بنظرة استطلاعية أخيرة ، فلاحظت وجود مسامير كبيرة معقوفة مدقوقة فى الحائط كمشاجب لتعليق الثياب عليها ؛ ففرحت بها فرحاً شديداً ؛ وباستمتاع كبير خرجت ساحباً الباب خلفى ، حشرت نتاية الرزة فى ذكرها وشبكت القفل ضاغطاً عليه حتى تك منغلقة فشددته بيدي بقوة لأختبر انغلاقه فوجدته متيناً فاطمأن بالى ففتحته ثانية ودخلت الحجرة وقد خطر لى خاطر نفذته فى الحال : أخرجت النقود المثبقة معى وحشرتها فى قاع الحقيبة بعد أن لففتها فى ورقة وبعد أن احتفظت بعشرة قروش فقط للصرف منها على القوت الضرورى ؛ ثم خرجت فأغلقت القفل ، وانطلقت إلى شوارع المدينة حراً رائق المزاج كأننى أتعرف على دمنهور لأول مرة .

شوادفى

كنت جالساً مع شوادفى جلستى المفضلة عصر كل يوم أرقب الشمس أثناء انسحابها من فناء الوكالة ، لتبدو الحجرات تتحلق الفناء يغمرها لون رمادى ، وكبقايا أطلال من العصور الوسطى يدهشك أن أنفاس الحياة مازالت تنبعث من ثناياها . وفجأة رأيته تدخل من البوابة ، تلك المرأة التى رأيته ذات يوم تبيع الحلوى على الرصيف . هاهى ذى تحمل القفص الجريد وقد امتلأ بالدجاج المستكن يطلق قافاة هزيلة خافته كشفت عن وجوده إذ أن القفص كان ملفوفاً بخرقة ، ومن فوقه القفة ملآة هي الأخرى . قالت :

- " سالخير ياشوادفى ! "

- " ما أخبار الفراخ ؟ "

توقفت . همت بالجلوس وكشف بضاعتها . اكتفت بالقول :

- " فل بالصلاة على الحبيب ! لكنك لا تشترى ! "

مضت إلى حجرة فى مواجهة حجرتى تماماً على الصف المقابل . هى إذن تسكن هنا . كان فى وجهها شئ قريب جداً لى ، أكاد أجزم أنها هى بنفسها التى تجلس فى مدخل بلدتى وكل القرى ، بنفس الملامح الطفلية الودودة التى كانت تنادىنى بها طفلاً لكى أشتري منها ، وهى ذى الآن تنادىنى لكى أتحدث معها ، متوقفاً أن تسألنى عن صحة الجماعة أهلى . لكنها مدت ذراعها خلف ظهرها عبر كتفها فسحبت ضفيرة من الخيوط الصناعية مضمفورة ببقايا حصل من شعرها الأحمر المضمحل . فى فتلة من شراية الضفيرة مفتاح قفل مربوط ؛ أمسكته بأصبعيها ، بحركة مدربة غرزته فى أسفل القفل وحركته فانزاج قوس القفل منطوفاً لأعلى فعوجته وخلصته من ذكر الرزة . بركبته دفعت الباب ؛ هبطت بقامتة قليلاً حتى تمكنت من الدخول ثم تربعت فأنزلت القفص ؛ فهاجت الفراخ وقافأت فى ذعر بشكل جماعى فوضوى ..

حينئذ رأيت على سلم الحجرة التى فى مواجهة بوابة الوكالة تماماً ، رجلاً ربة القوام متين البنيان ، أحمر الوجه كخواجة متنكر ، كالبرنس ، وجهه كالقطيرة ممتلى

الحدود يتسلقها شارب شامخ الجناحين يكاد شعرهما المبروم الواقف يتصل برموش عينيّ صغيرتين لكنهما جوهرتان ثمّنتان تبرقان برقاً يخطف البصار يجذبها بقوة ، فإذا الأبصار المنجذبة تبحث لنفسها عن خلاص بعد برهة وجيزة من فرط الرعب وربما الربكة التي تثيرها نظراته القوية الثاقبة المقتحمة لا تعرف حياءً ولا خشاً . عريض الصدر ممتلئ الكتفين واليدين بعضلات بارزة مثل كتل من الصخر تتحرك تحت جلد صدره وسمانتى ذراعيه المشمر عنهما كم جلبابة الفلاحى الواسع ، ذى اللون السمى من الحرير الذى يسمى بالسكروته والذى لا يلبسه سوى أبناء الذوات والعمد . يتنعل خفاً منزلياً من الجلد الرقيق قوامه نعل وشرخية على هيئة مثلث يحشر فيها أصبعى القدمين . ولد عايق حقاً ، تفوح منه رائحة عطر صابون الوجه المختزن ..

نزل الدرج فى غبطة طفولية ورشاقة كراقص الباليه لا صوت لوقع خطواته . إقترب ؛ عمره لا يزيد عن منتصف الثلاثينيات أو أقل قليلاً . بحركة مؤدبة جداً رفع يده نحو رأسه بالتحية العابرة على طريقة العياق فيما هو يتنحّر نحو حجرة المرأة حاوية الدجاج ، وقد أزاح طاقيته الدبلان البيضاء عن مقدمة رأسه الملئ بشعر غزير حشن . قلت من ربكتى رداً على تحيته : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فمن وراء ظهره العريض الصلب حيائى بيده مرة أخرى ؛ وساقاه يبرزان من شفافية الجلباب فى ضوء الشمس كفرعين من السنط أحسن تشدييهما وإن بقيت كتل الشعر المتكورة عليهما كنتوءات استعصت على سلاح التشذيب . قال بلهجة ممطوطة قصد بها أن يقلد لهجة البنديرين وفى نفس الوقت يسخر منها :

- " سالخير يا قطيب .. ي .. طه ! "

- " تعال يا معلم سيد ! فضلة خورك اليوم حظك من السما ! فراخ برابر هندى ! "

وأمسكت إحداها من أسفل جناحيها لتعرضها عليه مبرزة انتفاخ وركيها وصدرها باللحم المكتنز :

- " ستلافى فى بطنها عنقود بيض طرى ! "

شوح بأصابعه الطويلة الخافلة بخواتم ذهبية:

- "على البركة ! نقى سبعة !"

ثم ارتد خارجاً :

- " تعالى ورايا هاتي واحدة واحدة !"

تقرفص فى الفناء ، أخرج من جيبه مطواة قرن غزال فتحها بسرعة فتدريج صوتها إلى التكة الأخيرة فاستوى النصل حاداً لامعاً . جاءت قطيطة بالدحاجة ممسكة بها فى وضع الذبح مقربة رقبته من . فمد أصابع يسراه فأمسك الرقبة متمتماً فى خشوع حقيقى :

- "باسم الله الله أكب را اللهم صبرك على ما بلاكى ويجعل موتك أفضل من حياكى !".

ونحرها بحزتين فرمى بها فى الفناء فاندفعت تجرى بسرعة ورقبتها منكسرة تبخ الدم ..

صار الفناء يشغى بدجاج يجرى مكسور الرقاب يخطط الأرض بالدم ويتهاوى هنا وهناك . كان كثيرون من سكان الوكالة قد جاعوا لا أدرى متى فاشترؤا فراحاً من قطيطة هذه لكى يلذجها لهم سيد فى وقفته هذه بالمرّة . أخيراً مسح سيد نصل المطواة فى خرقه قدمتها له قطيطة ثم اعتدل فأنجه إلى الركن الذى رمى فيه بفراخه فجمعها ؛ وأخرج من سيالته ورقات مالية كورها وغمز بها يد قطيطة فوضعتها فى سيالته دون أن تعلها . وهكذا فعل الآخرون ، وكأنهم متفقين على سعر معين ليس من حقها أن تناقشه . راح سيد زناتى يصعد السلم حاملاً على يديه الاثنتين كومة هائلة من الدجاج المذبوح ؛ فيما رحت أتابعه من جلستى على المصطبة بجوار شوادفى ، وكوبة شاي الدور الثالث فى يدي ..

هذا إذن هو سيد زناتى . هكذا قالت عين شوادفى وهو يشير بأصبعه نحو السلم فى حركة من يتغزل فى فتاة عذراء هو شديد الوله بها . قلت :

- " ما شغلته !؟ "

قال بغبطة وحسد مبطين بالإعجاب :

- " عنده علة !! "

شعرت بهذيب الخجل يسرى فى قدمي :

- " العدة مرة أخرى ١٩ "

- " ولد عزة يستاهل السلامة ! ولد يعجبك ! مع الرجل أرجل ! مع الد
أندل ! مع الحريم كورقة البافرة !! فى نعومة شفرة الموس !! إذا استشعر خشونة
إحداهن كشطها لكى ينعمها ! إنه فنان فى كشط الخشونة من طباع البنى آدم د
أن يريق قطرة دم واحدة ! وإنى لأحسده على هذه الموهبة ! إن أتخن ضابط بوليه
لا يحتمل فى يديه غلوة ! فنان فى أكلهم والمزمرة بعظامهم وهم مع ذلك يقدم
أنفسهم له طوعية لكى يسكر ويمز بلحومهم !! لولاه لأغلقت وكالتى هذه بالضد
والفتاح ! إنما هو يعرف الخروم التى فى شخصيات البوليس فيسدها بطريقتهالفنى
مرة بالفلوس ومرة بالكلام الخلو ومرة بتسليم رؤسائهم قضايا كبيرة لم يكون
يحملون بإمساكها لو ضاحعوا أنفسهم وهو مع ذلك لا يغدر بأحد أبداً !! فكيف
يعرف القضايا ؟! لن تصدق ! إنه يقلب الجرائد كلمة كلمة ويدرس الحواد
المنشورة فيعرف مداخلها ومخارجها ويكشف عن شخصيات المتهمين فيها ؛
يلهب إلى المسئول فيقدم له أوراقاً مكتوبة بخطه يقول فيها بما أن كذا كان كـ
وحدث كذا بسبب كذا فإن الجريمة تكون كذا وكذا ودوافعها كذا وكذا وأصله
وفصلها وبناء عليه يكون الفاعل هو الشخص الفلانى أو عليكم يا حكومة الإتح
إلى الشخص الفلانى ففيه مفتاح القضية أو إلى المكان الفلانى فتعثرون على دليل
ولد مخه جوهرة يا أخانا ! لو تعلم لصار الان وزيراً للداخلية !! "

إزداد أمره غموضاً فى نظرى :

- " لكنك لم تقل لى ما شغلته بالضبط ؟ وهذه العدة ما تكون ١٩ " -

باستمتاع شديد المخروط فى لف سيجارة من كيس السبارس :

- " اللقمة التى تفتش لا توكل !! والبسوت أسرار يا أخانا !! إن طاب لد
العيش هاهنا فسوف تعرف كل شئ من تلقاء نفسك ! أما أنا فلا أقول شيئاً ؛
إننى فى قعدتى هذه أرى كل شئ يدور فى كل هذه الحجرات حتى وهى مغلقة
الأبواب ! لكننى الباب الأكبر الذى يقفل فى النهاية على أسرارهم ويسـ
عورتهم !! هم يعرفون أننى أعرف ولذلك لا أحد يخفى عنى شيئاً ! هم يعتقدون أ
أى مشكلة يقع فيها أحدهم أو تقع بينهم وبين بعضهم البعض فإننى يحلها فى

النهاية ! يعنى لابد أن تعرض علىّ فى نهاية المطاف !! هم يتكتمون على بعض المشاكل والخلافات ظناً منهم أنّى لست على علم بها ! وأنا لا أسألهم ماذا فعلتم فى الشئ الفلانى لأننى واثق أن الواحد منهم لابد أن يجيى من تلقاء نفسه فيجلس فى مطرحك هذا قائلاً : بأقول لك أيه ياعم شوادفى ! فلا أفتح فمى تاركاً حنفيته تسرب كل ما فيها من مياه مخزونة عطنة !! يقول ما كنت أعرفه قبل أن يقوله !! أنا لست أضرب الرمل طبعاً يا أبحانا لكننى تبحنى الأخبار كلها وأنا فى قعدتى هذه دون أن أطلبها ! تبحنى من خلل العراق ! من العتاب ! من لوى البوز من تجاهل العين للعين ! من ناس يتطوعون بتفسير مايرون ! يحكى مادار فى بلاد الهند والسند وبلاد تركب الأفيال !! عمرى فى حياتى ما قلت لواحد عبارة : إيه الحكاية ؟ أو ماذا حدث ؟ أو حتى مالك يا فلان !! هذه عبارات لم يعرفها لسانى أبداً !! ولماذا أحتاجها ؟! إننا يا أولاد العرب نحب دائماً أن نفتح الخُرج خاصة عندما يجلس للراحة !! نحن أبناء الفضفضة والبهجة !! مغزى كلامى كله : إياك إياك أن تستغفلنى أو عدم المواظدة تستلطعنى فى أى شئ !! هذا إن كنت تريد أن تكسبنى وفى نفس الوقت تكسب الراحة والأمان !! ..

مرت قطيطة أماناً ممسكة بزحاجة فارغة متجهة صوب البوابة :

- " سالخير ! "

رشقها شوادفى بنظرة :

- " السيرتو ؟! "

- " نعم! "

زام زومة عميقة ذات معنى . وضح أنها فهمت معناها ، إذ شرحت بالزحاجة فاشحة حنكها الأهتمام بما يشبه الابتسام :

- " تعرف أنّى لا أحب سوى شأى السيرتو على السيراتية ! "

قال بخبث شديد :

- " طبعاً طبعاً يا قطيطة ! مرادى أن تذيقينا هذا الشأى مرة واحدة ! ولو

شفطة ! ..

أشارت إلى عينيها :

- "من دى شفطة ! ومن دى شفطة ! يا رجل يا أبو شفطة !"

شوح بذراعه :

- " طب روحى يا قطيطة ! .."

مشت خارجة ..

- " قطيطة هذه ما حكايتها يا عم شوادفى ؟ !"

- " أظنك رأيت بنفسك !"

- " لكننى رأيتها تبيع الحلوى للأطفال !"

- " فهذه شغلها الأصلية !"

- " ولكن ! الدجاج ؟ !"

- " فهذه شغلها الجانبية !! الإنسان الجدد يقلب عيشه ! تجده فى كل مصيبة !

يفوز باللذات كل مغامر ! ويموت بالحسرات من يدري العواقب ! ألم تأخذ هذا

الشعر فى المدرسة ؟ ! إذا لم تكن أعدته فخذة الآن منى بالجان ! إسمع كلام شوادفى !

إذا كنت تريد أن تفعل شيئاً ففعله حتى لو عحرت الدنيا !! أما إن رحى تفكر

وتفكر فإن الوقت يفوتك وأنت لم تنته من التفكير بعد ! يكون كل من هب ودب

ركب البولمان وأنت فى السبنسة ! أنت مثلاً ! تجى لتسكن فى الوكالة مع أنك

متعلم فلا بد أن لك هدفاً معيناً ! وهنا أنصحك بالمشاورة ! المشاورة مهمة أيضاً

خصوصاً لمن هم فى مثل سنك ! النصيحة غالية حتى لو لم تفدك فى الحال ! إنها

رصيد سوف تجده فى اللحظة التى هى !! الدنيا ملائنة بأولاد الحلال يمكنك أن

تبحث عن رجل محرب مثلى فتعرض عليه مشروعك حكايتك نيتك !! أوصانا

سيدنا النبى أن نخلص النصيحة لمن يطلبها منا ! الولد عبد العزيز مثلاً ! عبد العزيز

القصاب ! الذى كان يسكن حجرتك قبلك ! لم يطلب النصيحة أبداً !! كان طالعاً

فيها ! يظن نفسه سليمان الحكيم ! وكنت أراقبه الليالى الطويلة وأنا متأكد أنه

جوعان عطشان عريان بردان واقع فى ألف مشكلة تشتت دماغه تصادم فى بريق

عينيه ! وكنت أتمنى أن يجلس مكانك ليحدثنى عما يوجعه لكى أساعده ! لكنه أبداً

لا يرينى وجهه ! يعوى من الألم وحده ! أنا الآخر صرت أتلهذ بعذابه تاركاً إياه

فى حالة لعل حاله تنفعه !! هاهوذا قد اختفى حسه وانمحي اسمه ! والله كان بودى

أساعده بشرط أن يتكلم ! كنت أحب الإبقاء عليه لأنه زبون هادئ فى حاله لا تأتى من ورائه المشاكل ! نهايته ! الله يكرمه مطرح ماهو الآن !! .."

وعادت قطيطة بالزجاجة ممتلئة بالكحول الأحمر ذى الرائحة القوية النفاذة ، وفى يدها الأخرى لفة فيها شاي وسكر وورقة دخان مضغعة وعلبة نشوق ؛ وتحت إبطيها رغفين وحزمة فجل وقرطاس طعمية . صاح فيها شواذفى مشيراً إلى الطعمية والفجل :

- " يا وليه برى نفسك ! أنت تقبضين الشئ الفلانى كل يوم ! هات لك بيضتين اسلقيهما أو نصف كيلو لحمة أو حتى علبة سلمون !"
توقفت رافعة حاجبيها :

- " فشرت ! وشرفك عندى ستشم رائحة الفراخ المحمرة بعد قليل ! هذه تصبيرة حتى أطبخ الطبخة ! "
- " طبعاً سأشم رائحة الفراخ المحمرة ولكن ليس من عندك يا قطيطة ! بل من عند الذين استأهلوها بالهناء والشفاء ! أهم شئ عندنا الآن هو انتظار شاي السيرتو!!"
- " عيني ! "

ومضت تهزول نحو حجرتها . بعوجة يسيرة من رقبتي كشفت نظرتى عمق حجرتها فى الركن . لا حظت أنها اندفعت بسرعة فسحبت شكاراة صغيرة ، أمالت فتحتها فوق حلة صغيرة ، رفعتها ؛ فاندلق فى الحلة سرسوب من حبات اللرة الشامى ، كادت الحلة تمتلئ ؛ فأمسكت بخناق الشكاراة وأعادتها إلى القفة . ثم أمسكت بزجاجة الكحول ، صبت منها فوق الذرة حتى غطته بالكحول ، واستبقت مقدار عقله أصبح من سائل الكحول فى الزجاج صبهته فى وابور السيرتو . وأمسكت بالقلة فصبت منها بعض الماء فوق الذرة . وبسراها أمسكت بالككة الصدئة فدلقت فيها قليلاً من الماء وهزتها بنشاط ثم دلقتها على الأرض ثم ملأت الككة بالماء ووضعتها فوق وابور السيرتو ثم أشعلته بعود من الكيريت ، وقلبت فى اللفة حتى أمسكت بقرطاس الشاي ففكته ودلقتة كله فى قلب الككة ثم فنتشت فى اللفة حتى أمسكت بقرطاس السكر ففكته ودلقتة هو الآخر فى قلب

الكنكة فوق الشاي ثم سحبت كوبة من الصاج صغيرة وكوزاً من الصفيح كان فى الأصل علبة سلمون فغسلتهما وأعدتهما بجوار الوابور . أخيراً استدارت وراحت تقلب بكنها فى حلة الذرة ثم غطتها بغطاء محكم وجلست ساحبة الرغيفين وقرطاس الطعمية وحزمة الفجل وجعلت تلوك الطعام فى صبر شديد ..

رائحة الكحول كانت فاقعة ، بشكل غير طبيعى ، تفوح به كل أركان الوكالة كأننا فى مصنع خمور بدائى . جاءت قطيطة بالشاي ممسكة بالكوبة والكوز بيديها . قاربتنا . شوحت بلقنها فى وجه شوادفى مبرطمة بحنكها الأهمم :

- " الكوبة الراقية ذى اسم الله على مقام أمه ! أصلك لا تعرف تمسكها يا شوادفى ! الشرب منها لا يَكَيِّفُك ! "

وقدمتهالى، والكوز لشوادفى . رشفت رشفة ، كاد صوابى يطير من لذة الشاي ونكهته الدسمة الشهية . لاحظ شوادفى تلذذى ، فأوماً بحاجبيه فى تأييد وأضاف : آه ؛ وواصل الشفط بصوت علا :

- " الله يعمر بيتك يا قطيطة ! ويوقف لك فراخ الحلال فى كل ناصية ! أقصد ولاد الحلال ! أقصد العمال الذين يشترون منك الحلوة ! إنهم فراخ أيضاً ! " ..

واستأنف الشفط؛ فبدت على وجه قطيطة وفى عينيها نظرة بليغة تقول دون أن تنطق بحرف : آه يانا منك آه ؛ ثم شوحت تستحثه على الإسراع : " لاشرب وهات الكوز " . قدمت لها كويتي : " كتر خيرك يا خالة قطيطة ! " . سطع وجهها بالبشر : " صحتين وعافية ياخوية ! كل ما تحب تشرب شاي نادنى ! فى أى وقت يعجبك ! لو جعان أغديك ! لو عريان أكسيك ! " ..

ونظرت إلى شوادفى وأكملت بلهجة ذات معنى : " .. ولو مبحتر أملك ! ! " حدجها بنظرة داعرة ؛ سحب النظرة ووضعها بين ركبتيه فوق تكة السروال ثم أرسل خيطاً من النظرة إلى عينيها قائلاً :

- " إتلّمي يا مرة ! يا عجوزة يا هتمة ! هو الداء فيكم فيكم من المهد إلى اللحد ؟! خذى ! إمسكيه جيداً ! ! " ..

كان يقصد الكوز بالطبع ، لكن لهجته الداعرة كانت ترمى إلى شئ آخر . فشدت منه الكوز بعنف مصطنع ، ومضت سعيدة بخيائها الأثوى المفاجئ .

قطيطة

- " الفاضى يعمل قاضى ! " ..

رَنَ هذا المثل فى أذنى فيما كنت مضطجعاً على مصطبة حجرتى وقد شبت نوماً لكننى لا أجد مكانا أذهب إليه . كانت قطيطة هى صاحبة الصوت ، فعرفت أنها تشاكس شوادفى وهى خارجة لتبدأ يومها الجديد ، فكأننى اكتشفت اكتشافاً ملهلاً ؛ إذ نفضت نفسى بسرعة عن المصطبة واقفاً فى الأرض . خلعت الجلباب وارتديت القميص فالسروال فالخذاء ، وانطلقت خارجاً . صُبَّحت على شوادفى ، لاحظت أنه مندمج فى قتل حبال من ليف النخيل بمهارة فائقة ..

احتفظت بمسافة طويلة بينى وبين قطيطة . تركتها تقودنى حيث تشاء . خطر لى أننى يمكن أن أقضى صبحية جميلة بقروش معدودة بين كسرة فول ساخن ما أحلاها وكوبة شاي بالحليب على مقهى ما أروعها ، وأتفرج على الناس وهى تتدافع مذعورة ملهومة ملهوجة فى الطريق إلى مكاتبها مصانعها محلاتها مدارسها قطاراتها ؛ كأننى أريد أن أقول لنفسى : ها أنذا أستمتع بجمال الصبح فى المدينة دون أن يدفعنى اللعز والخوف إلى اللهاث وراء موعد رسمى لا مفر من الوفاء به ؛ أغلب الظن أن وجود ثمن الكسرة وكوب الشاي واللفافة هو الذى يعطينى هذه الروح المفعمة بالسعادة المطلقة . متعتى الوحيدة الآن هى قطيطة ، وكيف تسوى حياتها ، كيف تخرج من منزلها صباح كل يوم كالموظفين لتودى عملها فى مكان ما من المدينة ، لتعود عقب النهار كسبانة رجحانة ما تشتري به رغيف وحزمة الفجل وقرص الطعمية . ومن المؤكد أنها تدخر الكثير ؛ أما لمن تدخره أو لماذا أو لأى زمن تدخره فلمع هذا عند الله ، وربما عند شوادفى كذلك ..

دوختنى من السير ؛ شحططت قلبى ، أكثر من مرة نظرت فلم أجدها تحت بصرى مخفية بين الزحام أو داخل بعض المحلات لتشتري منها بضاعتها التى ستفرش بها على ناصية حارة ما من هذه الحوارى . أيتها الملعونة اللطيفة لكأنك تقودينى بقصد ووعى لكى تفرجيننى على الحوارى الدمنهورية الحقيقة العتيقة ، التى كم تمنيت رؤيتها ، والتى لم يكن يدور بخلدى أن أستطيع الوصو إليها بغير دليل مثلك ..

أما الحى الذى صرنا فيه فإنه حى أبو الريش . أعرفه ومشيت فيه كثيراً وطويلاً ؛ لكن ما كان يبدو لى سابقاً أنه مدخل بيت عتيق إذا به الآن يتضح أنه مدخل حارة شديدة العمق والعجب . كأننى دخلت مدينة مسحورة ، بمعنى الكلمة ؛ إذا بى فجأة داخل سرداب ممتد كالشرح فى قلب المدينة بل فى أحد أركان أمعائها الخفية : صفان من البيوت العتيقة على الطراز المملوكى ، كلها متشابهة من الخارج ، وكلها من ثلاث أو أربع طوابق - الطابق الأول بالطوب ، بقية الطوابق من خشب البغدادى المغفق بالجير بعد لباسه الطين ؛ الشبابيك مستطيلة كنزة ، بمشربيات علاها الصدا الرامدى الكاخ لكن الزمان رطبها بزخم جذاب حلو التقاطيع ؛ الأبواب بوابات تشبه إلى حد كبير بوابة الوكالة ؛ تظن وأنت فى مواجهة الحارة من بعيد أنك داخل إلى بيت مستقل ينتهى عمقه بعد مسيرة قصيرة عند هذه الشرفة الخشبية ذات الإفريز الحديدى التى تبدو من بعيد كأنها تسد الفراغ النهائى المواجه لك ؛ وتشعر كلما مشيت تجاهها أنك قاصدها إذ عندما سيتم استقبالك كضيف سمح له بالتوغل فى أحشاء البيت ؛ لكنك بعد قليل تتجاوزها دون أن تدري ؛ تشغلك عنها شرفات ثابتة وثالثة ورابعة بنفس الشكل ونفس الموضع المائل الذى يحتل فراغ ناصية الهواء من اليمين أو الشمال فتبدو وكأنها فى الصدارة ؛ تشغلك أيضاً عن العمائر الحديثة العالية التى تواكب امتداد الحارة على الجانبين كأنها ديكور كونى أعد خصيصاً لاحتواء هذا العالم القديم فى شرخ طويل متعرج . يدهشك أيضاً وجود محلات بقالية محنقة وترزية وقماشين وورش نجارة أبرز مافيها عدة وبنك ، وورش بلاط بأبواب قزمية ضيقة وأعماق ممتدة كالسرداب ؛ ومقاه على غاية من خفة الدم ؛ عبارة عن رصيف ضيق تحت باب كان فى الأصل شبكاً وعليت أمامه الأرض فحولته إلى باب ، تهبط منه إلى مندرة رطبية حميمة يتصاعد من أرضها بخار ورائحة مياه الجوز والشيش التى تندلق باستمرار ، ورائحة جاز الوابور الذى يوش تحت الرماله وشيشا عذبا مؤنسا ، ورائحة احتراق الشاى المطبوخ النفاذة ، ورائحة الفول المدمس الطازج من المحل المجاور أو القدر فى عربة يد مارة أو فى الطبق أمام العيال الصنائية إذ يفطرون فيقرشون البصل فى شهية فاتحة للشهية . ورائحة مياه الحوم المندلقة لتوها فى البالوعة أمامك بشكلها القريب جداً من لون الدخان ؛

دلقتها كاعب حسناء ناهده الصدر بسيطة اللباس يكشف عن جسدها بقاع ضوء
كهرماني لامع شهى ، ومضت تتبحر عجيزتها المبرومة تحت جذع سمهرى وفوق
ساقين عبلاوتين حاملة " البستلة " الفارغة تحت لإبطها المكتنز السخى ؛ ثم تختفى
فى عطفة جانبية أو داخل بيت أو ربما اتجهت إلى حنفية " الصدقة " المنتصبة على
مقربة فى ساحة ضيقة مليئة أرضها بالبلاطات العريضة المتشققة ومن حولها المياه غير
مقطوعة ولا ممنوعة ومن فوقها دكة خشبية صغيرة يقتعلها خفير معجباني لعل اسمه
الأسطى حسن يفتح الصنبور بالعدل والقسطاس لسرب من الصبايا تحلقنه بمضغن
اللاذن ويسرسعن بكلام غير واضح ويضحكن فى مجون مفاجئ بصوت تنفتت فى
رنينه كل الأسرة والأخفة والحشايا واللون الوردى الشهى الراعش من أنظافر القدم
إلى شعر الرأس ؛ يرد عليهن نداء الباعة كأنما الحوار قائم ومرسوم سلفاً : " باسم الله
عليك يا حلو ! " ، والخلو عنب وتين ورماني وبصل وطماطم وسمك وبطيخ سارح فى
الحارة . النسوان ينادين من الشبايبك من خلل المشريبات يستمهلن البائع يسألنه عن
أسعار يفاصلنه بصبر جميل قبل أن ينزلن للشراء فإن نزلن فرمما صدمهن مستوى
البضاعة فيرتدن على أعقابهن كالفهود المملوكة يتبخزن بمقصان البيت بكعوب
حمرء مكتنزة حافية لكنها تبدو مع ذلك كأنها لم تطأ الأرض من قبل ..

أوشكت أن أنسى قطيطة . فمنذ أن شفطنى فى الحارة شفاط سحرى دفع بى
إلى قاعها البعيد المسلود بعمارة هائلة لعلها محلج قطن أو فابريكة تبغ ؛ رحت أبديى
وأعبد رائحاً غادياً إلى أن اجتذبتنى هذه المقهى فارميت عليها لا من التعب بل من
شوق عارم كما يرمى طفل على ثدى أمه بعد اغتراب طويل مع بزاة اللبن
الصناعى . الكراسى مصنوعة من القش المضفور على قوائم من الخشب ، بعضها
بمسند وبعضها بغير مسند ، قريبة إلى الأرض ؛ وثمة ما يشبه المناضد أو الطقاطيق
مصنوعة من أعواد حديد التسليح بسطح من الصفيح المشعث بطول الزمن
والإستعمال . جلست فى الداخل قليلاً ، فشعرت بمتمعة لا حدود لها ، إذ أرى الناس
فى الحارة مجرد سيقان وأقدام متعلة أو حافية تتهادى أو تهوول تبطئ أو تسرع
تتعثر أو تسلك فى انسياب بين عربات يد وحراجات وزحافات تحمل زجاجات
الكوكاكولا . كان الصنایعية قد شرعوا يفطرون ، فوحياة دين النبى محمد لا بد أن

أن أجابر الزاد . أفطرت معهم بالبحان ؛ كنت أطلب كسرة فإذا بى أطوح فى جوفى رغيين ونصف دون أن أرى من حلاوة الفول والبصل والجرجير والليمون واللفت المحدث والباذيجان المتبل . بالهناء والشاء، هكذا قال الولد القزم وهو يتسم فيما يرانى أملس بكفى على بطنى علامة أنها امتلأت ؛ ثم هتف فى صوت خافت وأخوى : " شأى ؟ " . قلت : " نعم " ، ثم أضفت : " هى الشيشة عندكم بكام ؟ " فقال : " ما يهكمش ! " ؛ وهرول بنشاط نحو النصبه البدائية البديعة ، فسكب الشأى فى الكوب الزجاجى الكبير الشديد النظافة واللمعان ، فوق ثلاث قوالب من السكر كحجر الدومينو ، وملاً كوباً أكبر منه بالماء ، وسحب صينية صفراء لامعة بحجم الكراسى ؛ وضع فوقها الكوبين وجاء نحوى . بخرقه مشبوكة فى ثوبه بدبوس أعاد مسح الطبقوقة ووضع الصينية ثم استدار فسحب الشيشة ونفخ فى ليها مفرغاً ماءها ؛ ثم نزع قلبها فملأها بالماء فأعاد تركيب القلب ثم أعاد النفخ حتى ضبط صوت الكركرة تماماً ثم جاء فوضعها أمامى أتيقة شائعة مزركشة تتدلى من حرف طاستها ماشة نحاسية صغيرة مشبوكة فى سلسلة . ما أن جربت صوتها حتى جاء الولد القزم بالحجر الكبير فوقه نار ، ألبسه فى قلب الشيشة ضاغطاً عليه لضبطه ؛ ثم وضع فوقه الكسوة النحاسية المخرمة التى تقهه هبوب الهواء والمطر حتى لا يشيط التبغ أو ينطفئ قبل شربه ؛ ثم نظرتى قائلاً : " أي خدمة " . أحببته حباً عميقاً عبرت عنه بشكرى الحار ؛ إذ رفعت كف يمينى مفروداً بحذاء أذنى على الطريقة العسكرية لا هازءاً بل جاداً بكل القصد والنية . فلما شعرت باطمئنان عظيم شعرت أيضاً بحالة لذيدة جداً كأننى قد توافقت أخيراً مع نفسى . صوت أستشعر بكل لذة طعم الصباح وهو ينضج على مهل تحت حرارة الضحى ؛ وصوت جلال معوض العميق الذرة يقرأ نشرة الأخبار كأنه يحدث نفسه بغير انفعال . فى عمق الشعور باللذة والراحة النفسية الخالية من كل أنواع الهموم تذكرت قطيطة . إنتفضت واقفاً ، حاربت نفسى ؛ تذكرت القعدة على الرصيف ، طلبت شيئاً جديداً واقتعدت ركناً بديعاً قائماً بين جدار المقهى وجدار المنزل الجاور البارز عنه فى الشارع بمقدار عرض الرصيف ، كأنه معد لى وحدى وفى انتظارى منذ زمن بعيد..

وهكذا ركنت الكرسي الصغير فى تجويف الركن وجلست فى شبه خلوة واستقلال . أول خاطر استهوانى لحظتئذ هو كتاب حميم أمسك به فى جلستى هذه على وجه التحديد لأسير غوره على النحو المرجو . شعرت أننى سأجلس هذه الجلسة مرات قادمة لا حصر لها ، ففرحت لذلك فرحاً يفوق الوصف . ..

هذه هى ، قطيطة ، متربعة على الأرض على ناصية عطفة بعيدة تملأ تماماً من المارة ، هى على وجه التحديد كما هو واضح عبارة عن منور مستطيل كحارة سد . كانت قطيطة فارشة حلواها على لوح فوق القفص ؛ ممسكة بيدها مدببة تنش بها الذباب عن الحلوى ؛ وعينها لا تستقر على حال ، تتلفت يمنة ويسرة فى تلصص طفول ؛ ثم ترمى بالمذبة وتسرب يدها فى حجرها وتخرجها قابضة على حفنة من الذرة ثم تميل بجنبها وتشرها فى الحارة بدرية هائلة ثم تعود إلى الإمساك بالمذبة ؛ وبعد برهة وجيزة تواصل نثر الذرة مرات متوالية حتى نفضت حجرها . هاهى ذى تعتدل فى جلستها محاولة نسيان الأمر تماماً ؛ راحت تطلق بعض نداءات ساذجة الصوت نبرات بعيدة عن الحرفة وإن كانت الكلمات مصكوكة بعناية تستحث الأطفال على الجمع لتذوق موز الملوك وبرايث الست وتبوت الغفير . يتضح من صورتها أنها تتمنى ألا يسمعها أحد أو يستجيب لها أى طفل . جاعنى القزم بالشأى فرضعه أمامى قائلاً وهو يدارى عينيه عن وجهى :

- "الشأى الأولانى علينا ! هذا نظامنا عدم المواجهة ! مع كل وجه جديد على رأى بتوع السيما ! أولنا هذا الشأى مع هذه الشيشة ! أجهز لك حجراً حديداً ؟"

- " كل شئ منك حلو !"

- " كسبنا صلاة النبى !"

إستدار ومضى . فما إن انتهيت من تقليب الشأى حتى رأيت مبسم الشيشة يمتد نحوى ، فعلدت قعدتى تبعاً لراحة الشيشة ؛ إلتجعت مستنداً للحائط ورميت بصرى فى نهر الشارع الذى امتلاً فجأة برجال شيوخ مكحكين ، وبعض رجال أشداء ، وبعض فتية ، يهرولون ممسكين بالمسابع ، تابعتهم ، رايتهم يدخلون بابا بعيداً على اليمين بحماسة مندفعة . بعد برهة سمعت أذان العصر ينبعث من هذا الباب من رجل واقف على عتبه . ثم شاهدت التزى وهو ينحى الثوب عن

ركبتيه وينهض ؛ والبقال المسن يعبر البنك ويمضى تاركاً الدكان مفتوحاً لطفل يجرسه ؛ وسمعت أكثر من صوت يردد فى أماكن مجهولة : الله أعظم والعزة لله . شعرت باهتمام مفاجئ يغمر الجو كله ، مناخ متهدج حتى خيل لى أننى تخلفت عن شئ شديد الأهمية وأننى يجب أن أمضى مهرولاً فأنضم إلى هؤلاء ؛ لولا أننى كنت فى تهجد آخر وصلاة أخرى ؛ أجذب أنفاس الشيشة وأنفاس العصرية الطرية . أرى شباناً يرتدون القمصان الأنيقة والسرراويل المحزقة على أحدث طراز والأحذية بكعوب عالية مدقوق فيها وفى نعلها فصوص من الحديد ويصدر عن بعض الأحذية أزيز رتيب من ضغط الهواء يسمى بالمزيكة يضبط إيقاع المشية ؛ وفتيات ناهدات عائدات من المدارس يحتضنّ الحقائق ؛ ونساء خارجات على سبعة عشرة لابد أن وراءهن مواعيد عند سينما الأهلى أو سينما البلدية أو حديقة نادى الموظفين أو ترعة الحمودية أو قهوة الطلبة ..

تذكرت قطيطة مرة أخرى ؛ رميت بصرى إلى الناصية . لم أجدها . شعرت بقليل من اللحر ، داخلنى شعور طفل تاهت منه أمه فى الزحام ، كدت أصرخ من خوف ومن فزع فى طلبها . ضحككت ؛ وقفت ؛ ناديت القزم . طلب ثلاثة قروش ، يابلش . أعطيته ثلاثة قروش ونصف . رد لى النصف شاكراً :

" لمواخذة ! لا نأخذ بقشيشاً ! نحن أصحاب المحل !"

ربت على كتفه فى امتنان ، مضيت عجلاً ملهوفاً إلى تلك الناصية . رايت أرض الممر مبذورة بعدد كبير جداً من الدجاج منطرح على الأرض فاقد الوعى سكران بفعل الكحول الذى شربه الذرة بالأمس وألقى إليه منذ قليل . كانت قطيطة مندجحة فى الإمساك بها من أرجلها ثلاثاً ثلاثاً أربعاً أربعاً ؛ لترمى بها فى القفص حتى امتلأ فصارت تحشر فى القفة ، وطرحت فوق القفص جلاباً قديماً وطرحت آخر فوق القفة وثبتت القفة فوق القفص ، وركست بركبتها على الأرض ، بدربة هائلة رفعت الحمولة بيد من أعلى ويد من أسفل ثم أسندتها على ركبتيها واستعدلتها ثم رفعتها على رأسها ثم نهضت كما ينهض الجمل واستدارت لتمضى ؛ فأدبرت وجهى بسرعة ومضيت نحو المقهى . بعد قليل نظرت إليها فرأيتها تمضى بخطوات واثقة راسخة لا تلوى على شئ .

تعارف

أدمنت زيارة هذه الحارة الشبيهة بجيب سحرى فى بدن المدينة المنتفخ المليء بالكروش . وذات عصرية فيما أنا أتسكع تمهيداً لمغادرة الحارة رأيته مقبلاً من نهاية الحارة مركزاً بصره على بشكل أرابنى ؛ فرأيت ان أتحداه أنا الآخر بتركيز البصر فيه، لكنه ابتسم فيما يقبل نحوى قاصداً إياى . كان شكله مألوفاً لى ..

- " مساء الخير يا سيدنا لفندى ! "

- " مساء النور ياخويه أهلاً وسهلاً ! "

- " يلزم أى خدمة من هنا ؟! "

قالها بغمزة خفية أنبأتنى بأن هاهنا أشياء خفية يمكن أن يطلبها الزوار . لكننى نظرت فيه بمزيد من الإستراية . فأتسعت ابتسامته :

- " إنت لمواخذة مش فاكرنى ولا إيه ؟! "

رحت أتأمله ؛ عجوز أهتم رفيع كالزعزوعة ، يرتدى ثوباً من الكتان الزرق ملطخ الجنين بتراب الفحم ووسخ العرق . أخرج من جيبه على صدره سيجارتين ملويتين ؛ قدم لى واحدة ووضع الخرى فى فمه ..

- " شكراً شكراً ! "

- " على الطلاق لازم تولعها ! ما تكسفينش ! "

- " ماشى ! "

أشعلها لى . فى عشم كبير سحبنى من إبطى :

- " تعال اشرب شاي ! فرصة سعيدة أن أراك هنا ! "

ولما رآنى متردداً ومندهشاً توقف صائحاً بلهجة احتجاج :

- " يا سيدنا لفندى ! لحقت تنسى ؟! لم يمض وقت طويل على كتب كتابى

الذى كتبت لى بخط يدك الكريمة ! مع شوادفى فى الوكالة ! "

لم أتمالك نفسى من الصياح :

- " أهلاً .. ا.. ن ! إزيك يا عريس ! ما حال الزواج ؟! "

- " عال العال ! نحمده ونشكر فضله ! ربنا أعطاني بنت الحلال بحق ! ونعم الأخلاق التعاونية على المعاش !! زى بركة ورثى وبركة ورثها أيضاً ! فانا ولد أعجبك !! "

مشيت معه بقليل من الحرج . قال بشئ من الصراحة :
- " خلنتك تريد حاجة من هنا قلت احلمك قبلما تقع فى يد العيال التى لا ترحم ! "

- " حاجة مثل ماذا ؟! "

- " أن تشرب لك حجرين ! "

- " حجرين معسل ؟! "

- " حجرين حشيش ! هذه الحارة منبع الحشيش والأفيون فى العبّ كله ! فيها عيال كالعشاش وعيال كالعسل وأنت ونصيبك حسب ضميرك ! "

وخلص ذراعه من إبطى ؛ أشار لى وهو ينعطف إلى مدخل بيت متهدم الأطراف يبدو من الخارج كأنه بقايا هديم . إذا بالهديم هو بيت كان مجاورا وقد تخلفت عن سقوطه باحة صغيرة وارتفعت أكوام الهديم حتى غطت الطريق إلى البيت المجاور فحجبت مدخله ؛ فمضينا فى باحة داخلية عريضة تطل عليها مجموعة حجرات كلها مغلقة البواب فيما عدا حجرة واحدة على اليسار يتصاعد منها لغط ووشيش وكركرة وكحة وضحكات ، وأنفاس عطرة . مال على أذنى هامساً :
- " أنا أشتغل عند الرجل صاحب هذه الغرزة ! نسقى بالمصفاة ! سأسقيك حجرين فى التمام !! "

تطلعت إليه فى دهشة :

- " أنت قلت فى عقد القران إن شغلتك حانوتى !! "

إنفشخ حنكه الخرب عن ضحكة شحشة تزئق أصدائها فى صدره كصهيل الخيل :

- " الطب تقدم يا سيدنا لفندى ! أصابنا بوقف الحال ! أصبح الموت نادرا !! نحن الآن فى موسم الولية امرأتى !! سوقها رائجة على الآخر !! تولد فى اليوم الواحد خمس نساء ! الواحدة منهن تلد اليوم وبعد تسعة أشهر تلد مرة أخرى !

نسوان مصر باسم الله ماشاء الله يجبلن على الأربعين !! الله طارح فيهن البركة
بصورة مدهشة !! " وتقدمنى داخلاً :

- " سالخير عليهم !"

تطلع إليه الجالسون كلهم بنظرة استزابة . كفت الكركرة لرهة وجيزة مشحونة
بتوتر خفى دفين ؛ ثم مالبت الكركرة حتى عادت متباطئة حينما سحبنى الرجل
إلى حوار النصبه فأجلسنى على دكة خشبية ترقص وتجمع بمجرد اللمس . قال
لواقف خلف النصبه :

- " عشرة حجارة هنا يا معلم وواحد شأى على حسابى ! البيه تبعى !"

ثم استدار ساحباً حوزة من برميل المياه فصار ينفخ فى حوف البوصة طارداً
بعض المياه ليضبطها ؛ ركنها على الحائط بجوارى وراح الى الراحاق الكبير المشتعل
فانتخب جمرة كبيرة أخذ يطحنها فى المصفاة . أمامى ثلاثة رجال من الواضح أنهم
سماسرة فى سوق الخضار يتكلمون عما فعلوه اليوم كأنهم يحكون لشخص مجهول
معنى معرفة التفاصيل وتفاصيل التفاصيل مع أن ماحدث حدث لهم هم ، وشافوه
بأعينهم بل عاشوه . بجوارهم شاب فى حوالى العشرين من العمر ، أمامه حجارة
موضاة بالحشيش فى انتظار الصبى الذى راح يغير ماء الحوزة . بجوار الباب رجل
مصوص شارد لا يطرف له جفن وليس أمامه شيئاً ..

أزاح المعلم كوب الشأى على رخامة النصبه بجوار كفتى قائلاً بشئ من الخشونة
وعدم الصفاء : " الشأى !". هززت رأسى أن شكرأ ؛ وجعلت أقلب سكره
بالمعلقة . جاء الرجل الحانوتى فألقى أمامى على الأرض ، فنزع من خلف أذنه قطعة
حشيش فى حجم حبة الفول السودانى ، صار يقطع منها تنفاً كقشر اللب يضعها
فوق الحجارة . قدم لى البوصة : " مساء الخير !". أمسكت طرفها بأطراف أصابعى
وسحبت نفساً خفيفاً فاستحسنتى بأن بحبط بحافة المصفاة على البوصة فعمقت النفس
فضرب البوصة ثانية فسحبت النفس بكل قوة ثم تركت البوصة لتندفع من فمى
ومنخارى سحب الدخان الأزرق كثيفة ذات نكهة منعشة . التعميرة فعلاً نقية
وجيدة . شعرت بالمعلم ينظر لى من تحت لتحت فى شئ من الإندهاش والحسد ، لم
يكن يظننى حشاشاً قرارياً ، هكذا تقول صفحة وجهه حينما رفعت عينى إليها

مستطلعاً سر نظراته . البوصة دخلت عليه ، أمسك بها وسحب أنفاساً متمهلة
وقعتها ككرة الجوزة فى ترتيل متصاعد كصوت محرك السيارة حين يدوس السائق
على البنزين ، ثم أسار إلى قائلاً للخانوتى :

- " آمال اللفندى يبقى مين ؟! مين ؟! "

تردد الخانوتى وتحير . أسرع قائلاً :

- " تعرف صراف المديرية ؟! "

تفكر قائلاً :

- " أظن اسمه الحاج مسعود ؟! "

- " بالضبط ! الحاج مسعود القبانى ! "

- " ماله ؟! "

- " إنه زوج أختى ! وأنا محسوبك فلان ! طالب ! "

- " أهلاً بيك ! باين عليك حشاش جامد ! "

ذُوعب غرورى :

- " إن بجوار بلدتنا قرية صغيرة معظم أهلها يتاجرون فى الحشيش ! وهو تقريباً

بلا سعر فى نواحيها !! كل الناس تشربه ولا تشربه فى نفس الوقت لأنه إن لم يجى

فلا احد يسأل عنه !! "

- " بكم القرش عندكم ؟! "

- " بحوالى عشرة قروش ! "

- " يا بلاش !! "

هكذا قالوا معاً ، وأضاف المعلم :

- " هنا بخمس وعشرين للبريمو ! "

واستدرك الخانوتى :

- " خذنى إلى بلدتكم مرة أو مرتين ! "

- " يساويها ربنا ! "

وقال المعلم :

" على فكرة ! أنا أعرف هذه البلدة ولى فيها أقارب فى عائلة الجعيدية ، هل تعرفها ؟ "

قلت مشوحياناً يعنى أنهم نار على علم :
- " مصباح الجعيدى والحاج مسلم الجعيدى وشعبان الجعيدى وعلى الجعيدى ! "
أشرق وجهه فهتف :

- " آ.. يوه ! شعبان الجعيدى هذا ! أمه تقول لأمى يابنت خالتى ! "
- " نحن أصهار إذن ! "

- " وأنا أى خدمة فى أى وقت ! المحل محلك ! "
كانت الحجارة العشر قد انتهت ، فتأهبت للقيام فاستبقانى المعلم بحركة من يده :
- " عشرة من عندى سأمضيها أنا ببصمتى ! تعميرة أحلى ! "
- " يكفى هذا فقد انبسط ! "

شوح بذراعه ، لعب ملامح وجهه المكبظة الشبيهة بوجه الممثل حسن فايق :
- " مادمت من نواحي بلدة الغلاوشة فأنت لا تشبع ولا تنسطل ! إسألنى عنكم ! ! "

ثم إنه استدرك بسرعة فيما يقضم تعميرة الحشيش يبطئها بأصبعيه ليفردها فوق التبن المعسل :

- " لكن من أين عرفت هذا الجدع ؟ "
وأشار إلى الحانوتى . قال الحانوتى :

- " البيه أصله صاحب شوادفى بتاع وكالة عطية ! ! صاحبه الروح بالروح ! ! "
برقت الدهشة المنهلة فى عيني المعلم ، فشعرت بخجل شديد :
- " إنها صدفة والله ! عرفته قريباً جداً بواسطة صديق ! أقصد بواسطة واحد أعرفه ! "

- " ظننته من نواحيكم ! هو على فكرة حريف كبير فى التخزين ! ! "
إنزعجت :

- " تخزين ماذا ؟ "

- " الحشيش ! لكن ! يظهر أنه الآن خفف من هذه العملية ! لكنه منذ مدة
كان خبيراً فى إخفاء البضاعة للتجار الكبار ! ولو فتشت الحكومة وكالته شقاً شقاً
فلن تجد أى شئ ، مع أن الحشيش ربما تحت أقدامهم وعيونهم لكنهم لا يروه !!
يأما فتشوا عنده لدرجة الفحت فى الأرض ! وفى الآخر يشسوا منه فتركوه فى حاله
يخزن كيفما شاء !! إنه جبار ! كفاك الله شره ! يخرج من المصيبة كالشعرة من
العجين !! "

كان الخانوتى قد جعل يرتعش من الحرج والتوجس ناظراً للمعلم محاولاً تخديره
من الإستمرار فى الكلام . فلما لم يستطع قال لى هاتفاً :
- " أنا لم أقل لك شيئاً مما سمعت ! ولم أسمع أحداً قال لك شيئاً !! إعمل
معروفاً أنا لست جميل شوادفى !! "
إنفجر المعلم ضاحكاً فى مرح كبير ، وغرق الخانوتى فى ضحك طفولى مضحك
وهو يقول :

- " لا داعى يا معلم نُنْ ! "
لكن المعلم النُنْ حدّجه بنظرة مأكرة :
- " يا جبان ! إحك للأفندى كيف كان يخفى البضاعة ! "
ثم وجه الكلام لى مشيراً إلى الخانوتى بيده :
- " صاحبك هذا كان يشتغل صبيّاً لتاجر كبير ربنا يغنمه السلامة فى سجنه !
كانت مهمته الجحى بالبضاعة من مخزن شوادفى إلى مكان التسليم ! قل له يا جدع
ليعرف فجر هذا الرجل ! لا تخف ! إن شوكنه انكسرت الآن فلم يعد يخيف !! "
حينئذ اتفشخ حنك الخانوتى وبدأ كطفل شقى عابث قليل العقل :
- " أتعرف كيف كان يخفى البضاعة ؟ فى جوف بالوعة الجارى فى عتبة
البوابة الثابتة للوكالة ! التى كانت تفتح على زريبة المواشى ! فلو وكالة زريبة جنب
الطللمبة لنتام فيها ركائب السكان والمواشى التى سيطلعون بها السوق فى الصباح !
وفى مكان آخر من الوكالة أيضاً كان يخبئ للمسروقات !! كان لابد أن أدخل فى
صورة شخص جاء يكسح مجرور الوكالة أو يسلكه ! لم تكن الجارى دخلت بعد !
فألبس الخرق القديمة ! أجبى بالجردين والشومة لأعلق كل جردل فى طرف منها

أجعلها نيراً أحمله على كتفى ! جردل ورائى وجرذل قدامى ! أعرف الغائط من البالوعة وأمضى به بعيداً لكى أدلقه فى حقل بعيد أو منطقة مهجورة حيث ينتظرنى طفل أو شحاذ أو بائعة فجّل أسرب لها أكياس البضاعة الملفوفة فى قماش وورق لاصق ومعبأة فى أكياس من الجلد !! البضاعة تكون موزعة فى عيون مبنية فى جدران البالوعة من الداخل ليضع النازل قدميه فيها عند النزول إلى عمقها لتسليكها أو كسح قاعها !! فضونا من سيرته عليه اللعنة !!

ووقف متناولاً السيخ فراح يسيخ الجوزة بعناية فائقة وبنشاط يحسد عليه من هو فى مثل سنه وشكله الصحى ، فيما راح يواصل الحديث بصوت مغلّق خشن بسبب الأفيون الذى ينشف الريق ويذبذب الحبال الصوتية كما قرأت ذات يوم فى إحدى مقالات مجلة المختار من الريدرز دايجست فى مكتبة الخوفى . كان الحانوتى يبدو وكأنه وجد موضوعاً يعشق الحديث فيه :

- " يوه يا سيدنا لفندى ! هذه الوكالة أكلت عمري ! كرهتها ألف مرة ! لكننى لم أسلها أبداً ! ياما جاءتنى الفرص للسكنى فى بيوت محترمة بإيجار رخيص وأصحابها يصيرون عليك فى مسألة الدفع شهراً وشهرين وثلاثة ! لكن هذه المخروبة بنت المخروب تسلبنى عقلى ! معمول لى فيها عمل !! وكل من يسكنها لأكثر من شهر توقعه فى هواها فلا يسلوها حتى لو أسكنوه فى قصر المنتزه !! فيها ناس يسكنون منذ أربعين سنة ! لا يخرج الساكن منها إلا مطروداً أو ميتاً !! تسألنى ماذا فيها يجعلها هكذا ؟ أقول لك لا أعرف ! يمكن أن يكون لأنها مثل صندوق الدنيا ! ويمكن أن يكون لأنها مثل السيلما ! ولكن عقلى يقول لى أن الحياة فيها لها طعم مختلف ! إن الواحد فيها يستطيع أن يفعل كل مشتهاه ! كل مالا يستطيع فعله فى سكن غيرها ! فلا أحد فيها يتتقذك أو يتدخل فى شعونك أو له أى دعوى بك ! إن عرف أنك عدم المواعظة لصاً أو قتال قتلى أو قاطع طريق أو حتى معرّساً فإنه لا يحتقرك ولا يخاف منك ولا يضايقك !! "

وانتهى من غسل الجوزة وتغيير مائها ، فركنها بجوارى ، وجعل يطحن النار فى المصفاة بقوة ، ويحرك ذراعه بالمصفاة كالمرجيحة فى سرعة هائلة دون أن تسقط جمرة واحدة . ثم ألقى أمامى ومد البوصة نحوى :

- " الوكالة يا سيدنا لفندى دولة وحلها !! ملكها ورئيسها هو شوادفى ! هو جمال عبد الناصر بتاعها ! إنتزعها من صاحبها عطية ومن وزارة الأوقاف كما انتزع عبد الناصر حكم البلاد من الملك فاروق إلا أنه كان أبرع من عبد الناصر لأنه أدخلها بدون جيش أو ثورة مباركة ! بصراحة ربنا يا سيدنا لفندى هو أجدع من عبد الناصر فى حكم الوكالة !! ناب أزرق لا تعرف له ملة ! قالوا إنه فى الأصل قبطى من أسويط ! وقالوا بل يهودى بدليل طباعه ! وقالوا إنه مسلم موحد با لله ! أما هو نفسه فيقول إن أجداده خليط من الترك والعرب وإن جده الكبير البعيد كان من حصيان السلطان عبد الحميد القديم !! لا يارى ! هذه الإشاعة الأخيرة أطلقها عليه عطية صاحب الوكالة !! وحينما سأل الخبثاء شوادفى عن حقيقة هذا النسب شخر لهم قائلاً : مالى أنا ولجدى إن كان حصياً للمهم أن لى طرفاً أدكه فى عشرة نسوان يقفن وراء بعضهن لينفذ من مؤخرة الواحدة إلى فرج الأخرى وأستطيع به رفعهن جميعهن ومرحchten كيفما أشاء وهن مشكوكات فيه !! إنه تحفة نادرة يا سيدنا لفندى ! إنه متعة لمن يفهمه ويحبه ! من يحبه هو الوحيد الذى يستطيع احتماله ليستمتع بنوادره واطواره . يكفى يا سيدنا لفندى أنه يحكم فى الوكالة مللاً وأجناساً !! .."

سحب البوصة منى ليسحب الأنفاس المتبقية ؛ كتسم الدخان فى أنفه فأحدث زعيقاً كصوت فرملة السيارة المفاجئة . ثم استطرد من خلال سحب الدخان المتدفقة من فمه وأنفه :

- " شف يا سيدنا لفندى ! فى الوكالة غجر وحلب وتتر ونور !! "

- " فما الغجر وما الحلب وما التتر وما النور ؟! "

- " المرأة الغجرية مثلاً تلف الغيطان كغازية ترقص لتخدع عصابتها ! تبيع جسدها بالشير والبوصة لتعود آخر الليل متعشية أربعاً وعشرين قيراطاً ! هكذا الغجر ! "

- " فما الحلب ؟! "

- " هم أعف الناس من ناحية العرض والجسد ! لكن نساءهن يسلبن الرجال أموالهم الكبيرة بحيل جهنمية !! "

- " والتتر ؟!"

- " أتئن الخلق ! نساؤهم يتخصصن فى سرقة النسوان الهواتم بحيل جهنمية !
ورجالهم يتخصصون فى سرقة حبال الغسيل ! وجمع السبارس !"
- " ييقى النور !"

- " أبارك الله منهم !! أوطى طائفة ! رجالهم ونساؤهم يبيعون شرفهم !
الصراحة هم بلا شرف ! لكنهم يقدره قادر رائجون ! يستأجرهم الناس للكيد
والتطيش والتفضيح والقتل والشهادة الزور فى المحاكم وخطف النسوان الغريبة
وتقديم نسوانهم للزبائن الغرباء كله ماشى عندهم !!"
سحب نفساً عميقاً من الجوزة ، واستدرك :

- الله لا يكتبها عليك يا سيدنا لفندي ! يدو عليك أنك ابن ناس طيبين ! فما
الذى رماك فى طريق شوادفى ؟ إنه لا يقع فى يديه سوى الضائعين المشردين من
أمثالنا والهاربين من الحكومة والقانون والجمع !! ..

لم أتبين ما إذا كان هذا الحانوتى اللطيف قد كرهنى فى الوكالة أم أغرائى بها ؛
إذ راح قلبى يرتجف لدى استماعى لهذه الأساطير لكن خيالى فى نفس الوقت قد
اتقد وشبعت فيه نار حامية تدفعنى إلى الجرى نحو الوكالة لا خارجها ، كأنها
المكان الوحيد الذى يستطيع إطفاء هذه النار ..

وراح المعلم النن يواصل إمضاء الحجارة بتعميرة سخنة ؛ وراح المساء يطل من
ناروزة فى السقف ضيقة . ومن نافذة أمامى بدت العمائر الشاهقة بظهرها العارى
من الطلاء على الطوب الحمر كعضلات بطن قوية سوف تهضمنا إن عاجلاً أو
آجلاً . ثم إنها اختفت فاستقر بصرى فى داخل القاعة مستتماً إلى الضوء الشاحب
المنبعث من كلوب معلق فى السقف لا أدرى متى اشتعل . وحين كان الحانوتى
يوصلنى إلى منتصف الحارة ثم إلى نهايتها كنت كأئننى أخرج من أعماق زمن
سحيق انقطع فيه التاريخ تماماً . ولم أكن أشعر أننى قد صرت فى دمنهور مرة
أخرى إلا حين رأيتنى أتطوح ذائبا فى الهواء ؛ بينما أعبر الجسر المرتفع المخاذى لمحلة
السكك الحديدية ، فى طريقي إلى الوكالة .

دُمَيَانَةُ وَالْقَرْد

كنت موقناً أنني لن أستطيع النوم بسهولة هذه الليلة ؛ لأننى نمت طول النهار فوق هذه المصطبة الجميلة نوماً عميقاً لم أشهد خلاله أية أحلام على الإطلاق كأننى فى موت مؤقت . وهاهى ذى الساعة قد جاوزت منتصف الليل بكثي ر ، وأطفأ شواذفى لمبته الصاروخ وسحب البطانية الكالحة فوق رأسه واستغرق فى النوم . كان باب حجرتى نصف موارب ؛ وكنت فى ضجعتى على المصطبة أستطيع رؤية الجزء الداخلى كله من الفناء الواسع ، وزاوية من أبواب بعض الحجرات العلوية التى كان معظمها مفتوحاً ومضاء تسمع منه أصوات ساهرة من الواضح أنها تلعب القمار أو تسكر أو تتضاجع أو تتعاتب أو تخطط لأعمال وربما لمصائب وكوارث ستحل بأبرياء مجهولين غداً أو بعد غد . يبدو أننى قد أدمنت هذه الضجعة على هذه المصطبة فى مثل هذا الوقت من كل ليلة ، وأننى أصبحت أميل إلى النوم مبكراً لكى أتمكن من الصحو للفرجة على هذه الحجرات وما تحويه من أسرار يشعر منها البدن . ورغم مرور عدة ليال على هذا النحو فإننى مازلت فى حيرة كالواقف على شاطئ بحر عريض عميق لا يعرف من أى بقعة آمنة ينزل إلى عبابه ، حيث كل البقاع تبدو آمنة وسطح الموج يبدو ساكناً .. إلا أنني واثق أن الخطر كل الخطر إنما يكمن تحت هذا السطح الساكن الهادئ . إن كل الحجرات تستثيرنى فأرانى أتقبل بسرعة خاطفة كالطائر المذعور من باب إلى آخر دون أن أستقر على حجرة أبداً بتركيز الإلتباه عليها ..

على أن الجدار المواجه لنومتى على المصطبة راح يسخر من هذه اللحظة الهادئة ، إذ ينبعث من خلفه هدير وهبذ ورزق وقلقلة مفرجة لا يمكن أن تعطى النائم على هذه المصطبة فرصة للنوم . رأيت أن لا مفر من القيام وإيقاظ شواذفى من النوم فربما استطاع إسكات هذه الزلزلة التى تهدر بجوار أذنى مباشرة . وعندى مبرر قوى للشكوى ؛ فهذه الظاهرة تتكرر كل ليلة أو كل ليلة والتى تليها . وكنت أتصور أنها مجرد شئ عارض فإذا هى طقس متكامل يستغرق زمناً طويلاً ربما امتد إلى ساعتين أو ثلاثة ؛ فلا بد أن جارتى دميانة لا تدرب قروحها الأربعة إلا فى عز الليل

هكذا . ثم قفرت واقفاً فى غضب ؛ خطوت خارجاً فى الاتجاه إلى مصطبة شوادفى . ناديته فى همس رفيق :

- " عم شوادفى ! يا عم شوادفى ! "

دفع الغطاء واعتدل جالساً تاركاً ساقيه ممددين :

- " من ؟ ماذا ؟ "

- " أنا فلان ؟ .. "

- " خير يا فلان ؟ "

جلست على حافة المصطبة ، ملت نحوه مدمماً بصوت واطلى فى غضب مكثوم :

- " ما أنا بقادر على النوم يا عم شوادفى ! هناك زلزال فى حجرة دميانة القرداتية ! كأنها فوق راسى ! الجدران تهتز ودرف الشباك تصطك فى بعضها ! .. زام بلهجة فهمت منها أنه كان واثقاً من أننى سأقدم بهذه الشكوى ذات يوم . ورغم أن عتبة البوابة كانت ظلماء تماماً فإننى شعرت بابتسامة صفراء تنضج خبثاً فى الكلام :

- " هذه المرأة المجنونة لا تنوى أن تجى البر !! الذى فيها فيها !! لا فائدة من الكلام أو حتى الضرب !! إننى والله مبق على العشرة فحسب !! يصعب على منظرها ساحة قرودها باحثة عمن يقبل أن يسكنها فى بيته ووراءها أربع قروود أشقياء !! .. "

وسحب كيس السبارس ، وجعل يلف سيحارة لم يستغرق لفها أكثر من ثانية ؛ فجأة رأيتها مشتعلة بين أصبعيه ، ولا يضعها بين شفثيه ليسحب النفس ، إنما يكور قبضته ويضع بوزة على حافة القبضة ويشفط ، فتتوهج السيحارة فيخرج الدخان من منخريه مبعقاً الجو برائحة حريفة فى العطن . واصل كلامه بهدوء دون أن يرفع صوته :

- " إنه القرد العجوز عليه اللعنة ! يدوخها ! لأنها تدوخه ! إنه معذور يا أخانا ! ليس يكفيه أنه شقيان طول النهار مع من يستأجره ؟ هو الوحيد الآن الذى يجرى عليها ليطعمها ويكسوها ويسكنها !! مع ذلك تقسو عليه بنت القحبة هذه !! ما

أدرى والله كيف يحتملها ؟! مصيره أن يخرج عن طوره ذات لحظة فيمزق لحمها!!..

أصابني الخرم ودب الصحو المستثار في عروقي، فاشعلت نصف السجارة الذي كنت حفظته في جيبى منذ حوالى ساعتين ، حاولت التأثير عليه :

- " أنت يجب أن تنذرها بشدة ! تحتم عليها أن تدرب القروء في النهار وتترك الليل لنا نرتاح فيه ! فأنا بصراحة لا أستطيع أن أفهم أى تدريب هذا الذى يزلزل الأرض ويحدث أصواتاً كزعد السحب حين تتلاطم ؟!.."

قال كأنه يتضامن معي :

- " تدريب مهيب بهباب الفرن !! القرد العجوز دائماً أبداً يحزن ! يتمرد على أوامرها ! تسوية بالخيزرانة على الجنين ! يقفز من ركن إلى ركن فى عنف واندفاع وخوف كأنه صخرة تقع من قمة الجبل إلى الأرض !! أعرف هذا يا أختنا بل سمعته بنفسى ! الجنزير مع ذلك فى يدها ترخيه وتشدّه ! فمن عنف اندفاع القرد المكمم ينشد الجنزير من قبضة يدها فيكر على الأرض خلف القرد فتظل هى تحاول الهجوم عليه من ركن إلى ركن تصطدم بالقروء الصغيرة المربوطة من أعناقها فى أوتاد متينة فى الأرض ! ولا بد أن تمسك به فى النهاية ! إنها امرأة حجارة حقاً يا أختنا ! ذوبت فى حياتها خمسة أزواج كأنهم أزواج من الأحذية السوقي !! شاهدت منهم ثلاثة ماتوا فى وكالتى فى حجرتها هذه واحداً بعد الآخر ! آخرهم كان رجلاً حكيماً طيباً وعجوزاً قال لى إن لحمها زفر !! ليلة ينام فى حضنها لاصقاً بطنه ببطنها يصبح شاعراً أن لحم بطنه قد ساح وصار مثل الرقاقة ! أصبح واحد فيهم وكان شاباً استهلكته فى سنتين اثنتين ! إنها فى الأصل من النور أباً عن جد ! النور كلهم من نواحي سيناء !! طولها ثلاثة أمتار وعرضها عرض الباب وموخرتها تملأ زكية وكل ورك من وركيها كورك الجمل !! حين تتخاقق تستطيع أن تهزم بلداً بحالها دون أن ترفع سلاحاً أقوى من لسانها وإن اضطرت للضرب فيالنبوت كالرجال وبالركبة والفأس والدماغ وكل ما يقع فى يدها !! وجهها دائماً منفخ كالكرة لا يتثنى ولا يتكرمش لأنها كما صرح لى زوجها الأخير تدعك لحم وجهها بمنى الثور ولست أعرف يا أختنا كيف تحصيل هذه الشيطانة على منى الثور!! وفى صباحها وشبابها

تربت على أطعمة غريبة يا أحنانا ، وحتى الان تذهب إلى السواق في آخر الدنيا
لتشتريها بغالى الأثمان : كبد الذئب وقلبه ! بيض نسر ! أحليل الحصان ! ثم إنها
طباخة ماهرة مع ذلك يا أحنانا لا يسكرنى طبيخ كطبخيها ! وهى كريمة أيضاً !
كلما طبخت شيئاً نادراً أرسلت لى طبقاً وربما فرقته على بعض خلصائها فى
الوكالة ! لا تعرف الأكل إلا بالمخلاب ولا اللحم إلا هيراً هيراً !! يكفيك الله
شرها يا أحنانا فحاول أن تكسبها فى صفك أحسن لك !! إنها مفيدة ويمكن إذا
وثقت فيك أن تقرضك مالا لحين ميسرة !!".

وسحب الغطاء فوق ساقيه ، إشارة إلى إنتهاء المقابلة ؛ فلما لم أقم تمدد من
جديد ساحباً الغطاء نحو رأسه . ثم قال كانه ينهى المقابلة بالفعل :
- " وعلى كل حال فإن الأمر على وشك النهاية ! فما تكاد تصل إلى حجرتك
وتتمدد حتى يكون القرد قد همد من شدة التعب واستكان وامتنل لها !!".

وأكمل سحب الغطاء فوق راسه فغطاه تماماً ؛ ثم سرعان ما انتظم تنفسه .
قمت متجهاً إلى حجرتى بخطوات لا صوت لها . فلما دلفت إلى الفناء جابهنى على
الأرض منظر فى غاية من الجمال والإبداع : خريطة مبهرة مرسومة على أرض الفناء
بخيوط الضوء المنساب من خصائص الأبواب المواربة والمفتوحة والمقفلة فى الطابقين ،
تتداخل فى بعضها كخيوط النسيج صانعة دوائر وقباب ومآذن وأسهماً وأشكالاً
غريبة كعرائس الخيال كالجنيات المحلولات الشعر ؛ تصنع بطانية ثمينة الشكل فوق
جانب كبير من الأحساد المتمددة فى الفناء أمام البواكى وتمتد بقيتها إلى مسافات
كبيرة لترق كلما تباعدت فتلتحم خيوط الضوء بجسد الظلمة الغامرة لكن شبح
الظلمة بجوضها الأسمتى المستطيل تبدو كشاهد قبر موحش . أخذت أتمشى فوق
هذه الخريطة مخترقاً رسومها وأشكالها بجذء أقدام النائمى ن ؛ فإذا هى تتسلقنى قبل
أن أدوسها ، فتظل عالقة بقدمى وصدري ورأسى حتى أجتازها إلى الهامش المظلم .
وهكذا راحاً جاثياً عدة مرات مشبكاً ذراعى خلف ظهري كمدرس اللغة العربية
وهو يمضى بين صفوف التخت فى الفصل أثناء قراءتنا فى حصص المطالعة ليتوقف
من برهة لأخرى مستديراً إلى الإتجاه المعاكس ، فى رجعة من الرجعات سلطت
عينى على باب حجرة دميانة ؛ فلاحظت ماسورة من الضوء رفيعة جداً تنبعث من

حرم فيه رجحت أن يكون خرم كالون تم نزره لتركيب رزه قفل بلا منه ؛ وهو أمر يحدث لكل هذه البواب لضياح المفاتيح من أصحابها أو حلول سكان جدد ينشون من الأعياب السكان القدامى الذين يحتمل وجود مفاتيح معهم . تتبعث ماسورة الضوء حتى الباب ، فإذا الحرم في حجم المليم البيرونى الأحمر ؛ لكننى انعطفت على باب حجرتى فدللت داخلاً ؛ فما كدت أدخل حتى جابهنى صوت المهد والرزع ولكن مكتوماً هذه المرة . وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة : دبدبة سريعة ثم تخاذل مفاجئ ثم نفضة مفاجئة قوية أهدت فى الحال . ظللت واقفاً فى مكاتى لاصفاً أذنى بالجدار لدقائق طويلة شملها السكون المزيف حتى وضحت من خلاله أصوات نقيق الضفادع فى الغيطان البعيدة ، وأصوات ورق اللعب وهو تطرقع فى بعض الحجرات ، وطشات عيدان الكريت وهى تشعل السجائر ، وصوت سائل يصب فى الأكواب مقرقراً . ثم مالبت أن تسلل صوت جديد سرعان ما راح يعلو ويتضح ويسيطر ، صوت فحيح نشوان قوى يخرج من الحلق ولكثافته الشديدة يضيق به الحلق فيخرج من الأنف مجلجلاً فى هدير أو مكتوماً فى غنج . إنسابت مفاصلى ؛ تكورت أصابع قدمى فى الشبشب الزنوبة ، صرت أرتعش ، تتلاحق أنفاسى بشدة ؛ أسمع دقات قلبى . إندفعت خارجاً ، على أطراف أصابع قدمى تسللت بجنبى خطوتين حتى صرت أمام باب دميانة . وضعت عينى على الحرم ؛ هالنى ما رأيت ؛ كتمت صرختى بقوة كادت توقف قلبى عن الخفقان ، بل كدت أتهاوى على الأرض من فرط النفضة المذهلة ، إلا أننى سرعان ما التصقت بالباب متناسياً كل شئ وقد أغرق الليل ساقى : دميانة كالذبيحة الفطسى، منجضعة على ظهرها، رقبتهя معوجة إلى الأمام ، كجذع شجرة حمير عتيقة ، فاشخة وركيها كاسرة ساقيها فوقهما بلياقة بدنية مذهلة ، والقرد العجوز مغرور بين ساقيهما تعلو مؤخرته الحمراء وتهبط ، بنفس الطريقة التى يقلد بها عمجين الفلاحة ؛ فيما هي بمسكة بخاصرتيه لتتمكن من تحريكه ؛ تدفع نفسها نحوه لتطوله ، وتجذبه نحوها ليطولها . دقائق طويلة هكذا ؛ والقرد مغلوب على أمره مذعور مندهش متألم ، يطلق سرسعة تتبعها زومة فحممة فلهات ؛ يفرك ذيله الطويل فى الأرض ينتفض.

فما أن فكت ذراعيها عنه حتى انسلت منهاوياً برجليه الأماميتين على الأرض
موجهاً إليها نظرة ارتياح مدعورة ؛ ثم قفز ناجحاً ، لينكمش في ركن قصي ..
إنسحبت بظهرى إلى حجرتى ؛ فارتميت على المصطبة متمدداً على ظهرى
أحاول ضبط دقات قلبي المتسارعة العنيفة ، فيما أشعر بغثيان شديد .

على ريق الصُّبح

بزغت خيوط الشمس فامتلاً فناء الوكالة بالخلق من مختلف الأشكال والألوان .
إرتفع ضجيج هائل ، أبرز ما فيه صوت الطلمبة وهي تدور ليغسل الناس وجوههم
وأرجلهم ؛ كل واحد يدير للأخر يد الطلمبة . معظمهم يجفف وجهه ويديه فى
ذيل جلبابه ، أو يترك الماء على وجهه ويديه حتى يجففه الهواء. ثم بدأ الزحام فى
الفناء يخف تدريجياً . فى ظرف دقائق معدودة كان آخرهم يخرج وهو ينفذ الماء
عن يديه . أولئك كانوا الذين ينامون فى الفناء على الأرض مقابل قرش واحد .
وحل بالفناء هدوء صباحى رطب انبعثت خلاله روائح طازجة . لم يستمر سوى
دقائق معدودة ، بعدها انفرطت الحياة فى الفناء ..

صارت المشاهد ترى أمامى عبر فتحة الباب : هذا أفندى محترم جداً ، سعادة
الباشا يرتدى بذلة أنيقة على أحدث طراز ، فوقها المعطف الجبردين المعتمر ، ينتعل
حذاء شديد اللمعان ، يمسك بيده حقيبة جلدية لامعة الأزوار كحقيبة القاضى أو
الوزير ؛ إنه من عليه القوم ، حليق الذقن مصفف الشعر تفوح منه رائحة كولونيا
الباسمين ؛ إلى جواره ، متأخرة عنه قليلاً ، سيدة كهند رستم الممثلة بل أجمل منها
وأوزن ، محتشمة فى لبسها بعض الشئ ، الفستان الحريري المقور الصدر لا يظهر منه
سوى النحر يجذعه المضى تشف عنه الطرحة الحريرية من الحيرة ، الكم حاك على
الرسغين ؛ الصندل اللميع يكشف عن كعبين كريالين من الفضة ؛ قوام لا يتمتع به
إلا بنات الحور اللآلى نسمع الكثير عن أو صافهن ؛ فى المعصمين البضين أساور
وفى الأصابع خواتم وعلى الصدر عقود وفى الأذنين قرط كل ذلك ذهب فيما يبدو
؛ وكأى سيدة بالغة الإحترام تتأبط حافظة يد سوداء . أفى الوكالة مثل هؤلاء الناس
من ذوى المهابة والأبهة ؟! هذا بك آخر يمضى وبجواره سيدة أنقح من السابقة .
وهذا حضرة العبد ، يرتدى الجلباب الكشمير وعلى كتفيه العباءة الجوخ السوداء
وفى قدميه مركوب من الجلد الطبيعى وعلى رأسه طربوش أحمر زاهى اللون أسود
الزر ، والعصا البنوس فى يده يوقع بها خطوة الوثيد المتزن . بجواره السيدة حرمه
المصون بحق وحقيق كما تبدو ، إذ تلف نفسها بالملس الأسمر الملئ بدروب من

الكشكشات والبروزات ولكن لفة الجسد المحكمة تشير إلى أنها سيدة بكل معنى الكلمة ، إضافة إلى الوجه البارز من تحت المطرحة بعلامح مضيقه بأنف مستطيل ورموش مشرعة كأعواد الحلفاء . بحق الله ما كل هذه ؟. هذا شاب أشقر سمهري القوام يرتدى سروالاً من صوف القائلة وقميصاً وشرزا من الصوف المضفور باليد بدون أكمام فلايد أنه من طلبة الجامعة بدليل حافظة الورق الجلدية الأنيقة التى يتأبطها . وهذه أمه بلاشك ، تمشى بجواره ملفوفة فى الملاء بطريقة محتشمة غير حابكة على تفاصيل الجسد فلايد أنها ست الحاجة متوجهة فى صحبة ابنها إلى سفر أو زيارة أضرحة لتشتري له شيئاً ..

جعلت الحجرات تسرب إلى فناء الوكالة أشكالاً وألواناً من البشر يمضون فى احترام ووقار شديدين ؛ حتى ليصعب التصديق بأن هذه الوكالة فيها كل هذه المستويات المهيبة ؛ فلو قابلك أحدهم فى أى مكان لأعطيته حقه الواجب من التقدير والإحترام . كنت قميناً بأن أهتز من مناظرهم وأرتج رهباً ؛ لولا شواذفى كان يشيع كل عمدة أو باشا أو بك أو شهيندر تجار باللقب الذى يستحقه عند الوداع : "مع السلامة ياد يا ملعب ا.." "نهارك فل يا زقلط ا.." "ربنا معاك يا زعبلة ا.." "قلبي معك يا ابن القحبة ا.." إلخ.. إلخ.. مما أدخل فى روعى أن حجرات الوكالة هذه ليست إلا كواليس مسرح وهاهم الممثلون يخرجون إلى خشبة المسرح مرتدين ثياب ادوارهم ، فدأخلنى شعور بأننى يجب أن أقوم أنا الآخر لأرتدى ملابس دور ينبغى أن أخرج لأؤديه . لحظتند جوبهت بحقيقة تقبض لها قلبى بشكل قارص حاد ، حتى كدت أطلق آهة عميقة ضجرة ، تلك هى أننى ليس لى أى دور على خشبة أى مسرح ، ولا حتى دور الكومبارس . رأيتنى المخرط فى بكاء عفيف مكتوم أحاهد حتى لا يصل صوته إلى خارج الحجرة . لقد تنبهت إلى أننى أصبحت خاوى الجيب تماماً . كما أننى خاوى البطن منذ ليال طويلة ماضية . رأيت فى الضباب أبى الكهل يتوكأ على عصاه عند القيام وعند الجلوس ومع ذلك يسعى إلى الرزق فى مدينة البندر كل يوم ؛ تنطق عيناه اللوزيتان الكليتان بالصدمة الأسيفة كلما رأتى . رأيت أمى تحوش بيض الدجاج كى تبعيه لتغمرنى عند السفر بعشرة قروش زيادة على المصروف ؛ هاهى ذى قد تفرحت جفونها من البكاء حزناً

على ما حدث لى . رأيت كذلك جدتى - أم أمى - تتكفل بملبسى وإيجار مسكنى فى هذه المدينة ترسل كل شهر من بلدة بعيدة تعيش هى فيها ؛ هاهى ذى فى ناظرى لم تعرف خبر طردى من التعليم حيث أشفقنا عليها من الصدمة فلم نبلغها ، وماتزال تعتقد أننى على وشك التخرج . رأيت زملائى الذين أصبحوا الآن مدرسين فى وزارة التربية والتعليم يقبضون راتباً شهرياً ويجلهم القوم فى الرواح وفى الحى ؛ وفى حين أرانى بلا راتب بلا مركز بلا مسكن بلا كيان ؛ حتى وكالة عطية التى يأنف الناس من ذكرها سأعجز عن الإستمرار فيها وربما طردت منها بعد أيام قليلة ؛ وصديقى محمد ابو سن ، بمست من المرور عليه بين ليلة وأخرى .. فماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ لماذا أظل متراخياً دائماً حتى أجد نفسى ذات لحظة مفاجئة مضطراً إلى البحث عن حل سريع مؤقت ؟! ..

طرات بدرية على بالى ؛ إستحسننت فكرة الإتصال بها : أنا محسن الكوافير أعطنى الآنسة بدرية من فضلك . بحثت عن رقم الهاتف ، وجدته ؛ تقبض قلبى ثانية بنفس القرصة الملوثة ، إذ تبينت أننى لا أملك القرش الذى يجب أن أدفعه ثمناً للمكاملة . ضاق صدرى ؛ كورت الورقة ورميتها فى حيبى ؛ تهاويت جالساً على المصطبة فكأننى أجلس بعد عام كامل من الوقوف على قدمى ..

يزحف ظل تخين جداً على الأرض فى بحر الصفرة الساخنة الذى ذقعت الشمس فوق حوض الفناء . بعد برهة مرت الداية . فى أعقابها زحف ظل آخر ولكن بشكل عمودى متجه نحوى : الخانوتى يقف أمامى وجهاً لوجه ، على وجهه بسمه طفولية لطيفة ينفرج منها حنكه الأهم . هتف بنبرة أسيفة أليمة :

- " وقعت فى الحية يا ابن الناس ؟! لا عليك ! كنت أعرف أنك لابد ستقع فى هوى الوكالة ! الآن لا أقول ربنا يتوب عليك منها فهذا لن يكون أبداً عدم المواخذه !! هذا هو الدعاء الوحيد الذى لا يستجيب له الله سبحانه وتعالى ! كل ما أدعو به ينحيك من شرها !! " ..

لم تكن دموعى قد جفت بعد ؛ لكن الخانوتى رآها شيئاً آخر ، إذ بخلق فجأة فى عيني متسائلاً :

- " أنت لتتوك صاح من النوم ! يظهر من عينيك أنك نمت نوما عميقا لمدة طويلة ! " ..

صفعنى الشطر الخير من العبارة :

- " نعم ! ومازلت نائما ! " ..

- " أليس ورائك مدرسة ؟ " ..

- " عندي إجازة مذاكرة ! " ..

حلو ! أنا أيضا عندي اليوم إجازة ! شغلى يبدأ بعد المغرب فأنا جمعة بالنهار وجمعة بالليل ! الولية امرأتى ذهبت فى مشوار إذا وفقها الله لك الحلاوة ! ستوفق رأسين فى الحلال ! العروس غنية والعريس أغنى ! " ..

- " سوف يوفقها الله بالتأكيد ! إنها ولية واعية ! " ..

- " إدع لها يا سيدنا لفندى ! إن المسألة ليست سهلة كما تتصور ! العروس غنية أى نعم ! وسوف تنغم عريسها بالعفش والمفروشات والأطعمة والمدخرات ! لكن منظرها أستغفر الله العظيم ياجدع ! صراحة ربنا هى جسمها حلو مفيش كده ! يوقع اجعص جعيص ! لكن وجهها أستغفر الله ! " ..

وجدتني أقول على سبيل المزاح والتداعى :

- " شفتها غليظتان ! " ..

- " عليك نور ! بالضبط كذا ! " ..

ثم استدرك وقد تضاعف ذهوله :

- " الله ؟ أنت تعرفها ؟ كيف ؟ " ..

استرسلت فى المزاح المرتجل :

- " ولابد أن بيتها فى شارع الصاغة ! أمام محل الفول المدمس الشهير ؟ " ..

بدا عليه التشكك والحيرة ؛ صاح :

- " أنت تكلمت مع الولية امرأتى ؟ كلمتك عنها ؟ ! إن هذا الموضوع سر لا

يعرفه أحد سواها وأنا ! " ..

ذهولى كان أشد من ذهوله . أردت أن أقطع الشك باليقين ، وقد داخلنى شئ كاليقين أن النكتة لابد أن تكتمل نهايتها بالتطابق المثل . قلت :

- " .. وبالأمانة اسمها بدرية ؟! " ..

فتح الحانوتى فمه وبقي صامتا يهز يديه ورأسه فى حركات موتورة ، وبدأ عليه أنه يتخيلنى عفريتاً أو ساحراً يضرب الرمل . ثم زاد التوتر فى ملامح وجهه المضطربة بين الشعور بالحرج والخوف والمرح ، فشعرت أنه يستريب فى أمرى الآن بصورة جدية، وثمة مخاطر يحول بذهنه ويجد حرجاً فى مجابهتى به . شجعتة :

- " تريد قول شئ ! قل ! "

ففسلح بابتسامه خجولة لطيفة والقى بالقنبلة فى وجهى :

- " الخوف يا سيدنا لفندى أن تكون مخيراً أو ضابطاً !! أنا على كل حال لم أقل لك شيئاً واضمن أن الولية امرأتى لم تقل لك شيئاً هى الأخرى فكيف بحق من جمعنا على غير موعد عرفت هذا الموضوع ؟! على فكرة ! أنا شخصياً لم أر العروس إلا مرة واحدة ! الصلة كلها بأمها ! إنها والحق يقال لمرأتى سحبة اليد ! إننا نعيش على حسابها شهوراً وأعواماً ! نأكل من طبيخهم ونلبس من خلعهم ونصرف من هباتهم ! هذا الجلباب الذى ألبسه الآن فى يوم احازتى جلباب زوجها الحاج ! " ..

قاطعتة:

- " الحاج مسعود ! والحاجة وديده ؟! " ..

وقف فزعاً :

- " شف يا سيدنا لفندى ! هذه المرأة بنت أصل ! ما أستطيع أن أنكر ! لكنها مسكينة ! تريد أن تزوج ابنتها المسكينة هى الأخرى بأى شكل !! والولية امرأتى لم تغرها بشئ ولم تشجعها على شئ لكنها تعرفها من زمان إذ كانت تخدم فى منزل مجاور لمنزلهم والست دائماً أبدا هى التى تغرى الولية امرأتى بأن تبحث لابنتها عن عريس لقطة !! وامراتى لا تتوصى فى هذه المسألة ! تعمل بكل وسيلة لاصطياد عريس محترم !! أنها تتعشم فى مكافأة كبيرة وتتعشم فى توفيق رأسين فى الحلال !! إننى وامراتى يا سيدنا لفندى جدعان نعجبك ! وليس فى طبعنا أن ننصب على أحد ! عمرنا ما فعلناها ؟! " ..

وقدم لى سيجارة هوليود ، فاعتذرت قائلاً إننى لم أفطر بعد . فرمى بها فى حجرى : " سنفطر سويا بعد قليل ! . وأشعل العود وقربه منى ؛ فأشعلت السيجارة فجذبت نفساً شعرت على أثره بدوخه لذيدة . قال وهو يكاد يضل ويتلاشى :
- " لكن حضرتك فى الآداب ؟ قصدى بوليس الآداب أم فى المباحث العامة ؟ " ..

ضحكت رغماً عنى :
- " يا عم وحد الله أنا ماقلته لك يوم التقينا فى تلك المقهى ! طالب ! وبصراحة لكى أطمئنك : المعهد رقدنى بسبب الغياب ! وأنا الآن أبحث عن عمل ! " ..

نظر لى بطرف عينه نظرة ارتباب صارخة بالمرح والسخرية والتوجس :
- " آ.. آ.. آ.. ها أنت ذا تثبت لى أنك فعلاً فى المباحث ! على كل حال لا يهم ! أنا يمكن أن أساعدك فيما تود معرفته عن سكان هذه الوكالة فرداً فرداً بشرط أن تراعىنى ! أنا رجل غلبان وأريد أكل عيش بعرق جبينى ! لا يغرنك شغلى فى الغرزة ! إننى مجرد صبى باليومية ! وأنا أقطع ذراعى إن ما كنت تعرف كل هذا حق المعرفة ! " ..

جال بذهنى خاطر محبب يوحى لى بأن أترك الخانوتى على عماء فيعتقد أننى ضابط مباحث ؛ فربما استفدت من هذه الرتبة التى لاشك سيمنحها لى على نطاق واسع ، فتكون لى هيبة ؛ لكننى سرعان ما رأيت الجميع كأنهم حضور فى حالة سحرية منى حينما أقع فى يد البوليس مثل بسا بتهمة انتحال شخصية ليست لى . رأيت أن حجابها حاجزاً قد قام بينى وبين الجميع ؛ يعاملوننى بخوف أو بحذر أو بكذب ، وحتى إذا أمكن لواحد كشودافى أن يصدق هذه الإشاعة الكاذبة فإننى لا يجب أن أقبل هذا الوضع الذى يصر الخانوتى على وضعى فيه . فجأة قال كأنه يبادر بتقديم الرشوة لى :

- " ماذا تحب أن تفطر ؟ على حسابى ! أنت اليوم ضيفى من طقطق لسلام عليكم ! على فكرة ! إذا نحن أفطرننا هنا فإن شوادفى لا بد أن يشاركنا ! فالأحسن أن تقوم فتلبس هدموك لنفطر فى البلد على كيفنا ! دعنى أفطرك على مزاجى ! " ..

- " أشكرك على هذه اللعنة الكريمة ، ولكننى أحب أن تكون واثقا من شخصيتى الحقيقية التى عرفتكم بها اليوم التقينا فى قهوتك ! " ..

إلتفص كالملدوغ بالسهم :

- " يقول قهوتك ! يا سيدنا لفندى قلت لحضرتك أننى مجرد رجل على باب الله ! " ..

- " أقصد القهوة التى تشتغل فيها ! " ..

- " إذا أردت أن أتركها ! بل أضربها بالجزمة !! أشوف لنفسى شغلة أخرى ! أزور عجلات الحانوتية التى كنت أتعامل معها وهى ستكون سعيدة بعودتى ! الأرزاق على الله والرجل المجدع مثل حالاتى لا يقلب ! الكريم لا يضام يا سيدنا لفندى ! " ..

إننى أعترف لنفسى بأنه رجل جدع ، وصاحب واجب ، ومن الخطأ أن أحسره وأنا فى احتياج لكل من هب ودب . قمت إليه مبتسما ، وضعت يدى على كتفه فى ود شديد :

- " يا رجل يا طيب ! هل تظن أن ضابطا أو حتى مخبرا كحيانا يمكن أن يكون فى وضع كوضعى هذا ليس معه سيجارة ولا يجدهم فطوره ؟ " ..

رفع وجهه مركزا بصره فى عيني بنظرة ناقبة متشككة فيها مع ذلك عشم كبير :
- " يعملونها كثيرا يا سيدنا لفندى ! هذه هى شغلهم وأنت سيد العارفين ! يا سيدنا لفندى أنت قلت لى عن شىء لا يعرفه مخلوق فمن أدراك بكل هذه المعلومات التى قلتها لى ؟ " ..

- " يا راجل يا طيب ! إلا تذكر يوم سألنى معلمك عن بلدتى وأصلى وفصلى ؟ " ..

- " نعم أذكر يا سيدنا لفندى ! " ..

- " ألا تذكر أننى قلت له إن الحاج مسعود القباني صراف المديرية هو زوج لابه عمى ! بل قلت إنها أختى ! حاول أن تتذكر هذا " ..

برقت لمعة الفرح فى عينيه فأخذت تتسع شيئا فشيئا ثم صاح :

- " أى نعم ! صحيح ! أى والله صحيح هذا حدث ! أنت قلت هذا فعلا " ..

- " والحاجة وديدة إذن هي بنت عمى لزم ! وبدرية العروسة تقول لى : يا
بحال ! يعنى أنا فى مقام خالها " ..
إنطفأت لمعة الشك فى عينيه تماما ، ويظهر عليه الهدوء والإطمئنان ؛ وحلف
بالطلاق أن أقوم فأرتدى ملابسى لنفطر فى أحسن المطاعم ، على حسابه . رغم
عدم ثقتى - وعدم ثقته أيضا - فى جدية يمين الطلاق هذا فإننى طاوعتنه ؛ فتناولنا
وجبة الفول المدمس فى المطعم المتاحم لبيت ابنة عمى ؛ وزرنا الغرزة التى يشتغل
فيها صبيبا ، حيث جلس بجوارى كزبون هذه المرة من حقه أن يخدمه صبي مثله ،
وأن يتأمر عليه ، ويلفت نظره إلى نواقص الخدمة وأصول إكتمالها . قضينا يوما لا
بأس به ، ثم تواعدنا على اللقاء بحجرتى فى مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل إن
عشنا وكان لنا عمرا ، أو كما قال .

القرء يحسب غلته

أصبحت مفتونا بالأصبحة فى فناء الوكالة أترفج عليها من ضجعتى فوق المصطبة فى حجرتى . أصبحة فاتنة ، تغير ألوانها فى بطاء جميل ساحر ، من الإردوازى إلى الطباشيرى إلى الوردى إلى الذهبى ، عابقة بروائع طازجة . وفى مرحلة الإردوازية من هذا الصباح كنت مندجما فى قراءة ديوان بيرم التونسي تستلبنى حواريه المصرية العتيقة بناسها ولبطها ووحلها وتسوانها الشبهات السليطات ؛ حينما سمعت صوت شواذفى يخاطب شخصا على البوابة بقوله :

- "إنها هناك فى ثانى حجرة على يمينك وأنت داخل .."

ثم هتف بجعر حشن :

- "واحد يسأل عنك يا دميانة .."

إنفتح باب دميانة وخرجت هى صابحة :

- "يا مرحبا .."

وأقبلت حتى باب حجرتى ، ليلحق بها الرجل . نظرت فى حجرتى قائلة بوجه زعزعت الإبتسامة هضابه وتضاريسه المكتنزة السمراء :

- "صباح الخير يا جدد .."

إعتدلت مجالسا :

- "صباح النور يا حائلة دميانة .."

دخل الرجل فى الصورة أمامى : شاب فى حوالى الثلاثين من العمر، صدىء الوجه حشن الملامح رث الثياب ، يلبس فوق رأسه طاقية من الصوف تنسدل تحتها حصل من شعره كالأنثى ؛ يلف رقبته بثلثيه حائلة منسولة الأطراف ، ينتحل بلغة فلاحية لكنها بيضاء كأبناء سوق المدينة ؛ يمسك بيده عيزرانة رفيعة . كان طويلًا بعض الشيء ، نحيفًا ، ناشفا . صار هو ودميانة فى فتحة بابى كعامود يلتصق بصخرة جبلىة رمادية اللون . قال لها :

- "أنا محسوبك عبد الحسيب الشبشيرى .."

بشت فى وجهه :

- "عارفاك يا حبة عيني ومرياك ! إزى أبوك وأخواتك ؟!" ..

- "أنا من طرف عم حسن زررور ! اليوم هو بعافية ! ما يقدر يقوم من الفرشة فبعثنى أسرح بالقرود بدلا منه ! بأمانة ما عندك رهينة القرد ساعة جيب ماركة الترمای وخاتم ذهب " ..

- " يادار ما دخلك شر ! إدخل فخذ ! لكن الشمس لا تغرب عليك إلا هنا !

أتسمع كلامي ؟!" ..

- " ياذن واحد أحد ! " ..

تركها ومضى إلى حجرتها . بعد برهة قصيرة خرج صاحب القرد العجوز ، الذى راح يتبحر فى رهق شديد ومزاج منحرف ولا مبالاه ؛ وقد أضيف إلى عبد الحسيب رق صغير بلا شخايل . شيعتهما دميانة .

- " ربنا يسهل لكما ويفتحها فى وجهكما يا كريم يارب ! إلآهى يرجعكما مجبورى الخاطر بحق جاه النبى ! " ..

وقال شوادفى من فوق مصطبته بلهجة مسموعة :

- " ياولية غذى هذا الشقيان ! إذبحى له أرنا أو دجاجة ! حرام عليك هذا !

ها هوذا يجر ساقيه مهدود الحيل ! " ..

صار القرد أمامه ، فشيعه بنظرة إشفاق :

- " ربنا يقويك يا بطل ! يا عائل اليتامى والأرامل يا قائماً بالواجب كأحسن الرجال ! روح العب عجين الفلاحة وعروس ابن العمدة وارقص ما شئت ! والله لك الجنة ! " ..

- " بطل نق ياخويه ! أحسن أخليه يرجع ياخذك قلمين " ..

ومضت ترفع إليه وتحفض أخرى ، ليميل جنبها اليسر مع ارتفاع إليتها اليمنى ، وجنبا الأيمن مع ارتفاع إليتها اليسرى . ثم اختفت فى حجرتها ..

وصل الصباح إلى المرحلة الطباشيرية حيث ألقت السماء على أرض الفناء بصمة سحبها الشبيهة باللبن المتخثر . لحظتها كنت أفكر بأننى ربما أكون قد رأيت دميانة هذه فى غير هذا المكان من قبل ؛ وحين أمسكت بديوان بيرم التونسي تذكرت قصيدة أم خليل فجعلت أبحث عنها بين صفحات باشتياق شديد ..

- " السلام عليكم ! " ..

رفعت رأسي كان الخانوتي قد دخل حاملاً على صدره لفة كبيرة فى جعبة ورقية ، وضعها على المصطبة . إعتدلت جالساً ، يضمخنى شعور فارط بالخلجل وربما الأسف . وخرج الخانوتي فى اتجاه حجرته ؛ فسمعتة يتبادل مع شوادفى كلمات غامضة لم أتبين منطوقها جيداً لكننى لم أهتم بها . فبعد دقائق معدودة دخل ممسكاً بعدة اشياء ، واهور سرتو ، وعلبة من الصفيح كانت فى الأصل علبة سمن هولندى ، ونارجيله من النحاس من النوع المسمى بالبورى أقرب إلى الجوزة لكنها بمقعد يثبت على الأرض ، بدلاً من البوصة أو اللى خرطوم من البلاستيك المزرق بخطوط حمراء وخضراء . هبط على الأرض بكل ذلك ؛ فوضع كل شئ بجوار الآخر ثم وقف مشمراً ذراعيه وراح يتكلم فى غبطة كبيرة وصدغاة ينصفطان ويتنفخان مع حركة شفثيه الضامرتين بحنكه الأهتمام الضيق :

- " نفطر اليوم فطور الناس الذوات أصحاب الميسرة الشبعانين ! كل يوم نفطر الفول والفلافل ! فلنفعل اليوم مثل الأغنياء من نفسنا !! هم ليسوا أجدع منا ! نحن أيضاً نستطيع إقامة سفرة كسفرتهم !! " ..

فرط اللفة : ورقة ملفوفة على قطعة من الجبن الأبيض ، وأخرى من الجبن الرومى ، وثالثة على حفنة من قطع البسطرمة ، مع بيضتين ، وعلبة بولوييف صغيرة، وستة أرغفة ساخنة من الخبز البلدى ، وباكو من التبغ المعسل ماركة الغزالة، وكيس صغير من الفحم المفتت ، وجريدة الأهرام . فرد كل ذلك على المصطبة بعناية ثم تراجع قليلاً ونظر إليه نظرة شمولية متمنعة كفنان يلقى نظرة أحيرة على اللوحة بعد انتهائه من رسمها :

- " منه فطور ومنه غداء ! " ..

ونزع المفتاح الملتصق بعلبة البولوييف ، شبكه فى ذيل بارز فى حافة العلبة ، لفه حول نفسه مع دوران العلبة فأزال غطاءها ثم دلقها فى الطاسة ، كسر البيضتين فوقها ؛ وضع الطاسة فوق واهور السيرتون أشعله وصار يقلب فى الطاسة بعود نظيف من الحطب ، فإن هى إلا ثوان حتى ارتفعت رائحة شهية ؛ تركها تطشطش وخرج صائحاً : " يلا يا عم شوادفى ! " . دخل حجرته ثم عاد يحمل البراد وكوبتين

من الصاج وعلبتين من البلاستيك فى إحديهما شاي وفى الأخرى سكر . رفع الطاسة عن الوابور وركنه فى ركن ووضع البراد فوقه ؛ ثم وضع الطاسة على المصطبة ..

جلس الحانوتى على الحافة المتاخمة للباب ، وبقيت فى قعدتى ، واقعى شوادفى على الأرض مبسماً . على عكس ما توقعت كان شوادفى أول من شبع ؛ لم يكمل الرغيف . أما الحانوتى فقد أكل رغيفين ، وأكلت أنا رغيفين واللقمة المتبقية من شوادفى ..

مع الشاي كان الفحم قد اشتعل ؛ وخرج شوادفى إلى البوابة متعجلاً ليستأنف شغلته الإضافية التى يجنى من ورائها ربها كبيراً : قتل حبال من ليف النخيل لحساب بعض المراكبية ومقاولى البناء والصيادين . قدم لى الحانوتى مبسم النارجيلة بيد ، وجريدة الأهرام باليد الأخرى هاتفا :

- " شف لنا ماذا فى الجرنان ؟! يظهر أن فى الأمور أمور خطيرة الشأن ! رأيت الناس يتزاحمون على باعة الجرائد بلهفة يتضاربون كأنهم يطلبون خبزا ! والبلد ليست على بعضها ! شكلها لم يعجبني ! الناس تترطم بكلام لم أفهمه ! وبعض التجار شاردين يبيعون بنصف انتباه !! شف لنا ما الحكاية ؟! " ..

سحبت الجريدة ففردتها . فى الصفحة صف من الصور لوجوه بعضها ملتح وبعضها حليق ؛ تحت عنوان كبير : القبض على مجموعة من أعضاء الجهاز السرى للإخوان المسلمين .. العثور على أسلحة ومتفجرات بكميات كبيرة فى حوزتهم .. العثور على أوراق ومستندات وكشوف تضم أسماء شخصيات عامة كبيرة من المرحح أنها مرشحة للإغتيال . قرأت ذلك بصوت علا فيما الحانوتى يستمع فى اهتمام شديد ويعلق من حين لآخر تعليقات سريعة تدل على أنه يفهم ما معنى الجهاز السرى للإخوان بل ويفهم طبيعة العلاقة بين الأعضاء ، وبينهم وبين الحكومة الثورية الناصرية كما أسمها . قرأت عليه أيضا كل أخبار الصفحة الأولى . ثم باعدت بين ذراعى فاتحا الجرنان ؛ فاقتربت الصفحة الأولى مفرودة أمام وجه الحانوتى ؛ فإذا به يصرخ كالملسوع بالنار :

- " هو ! هذه صورته ! أسرع يا معلم شوادفى ! تعال شف صاحبك ! " ..

ونهبز مهرولا ینادی شوادفی بحماسه ورعب . قفز هذا عن المصطبة وحاء
یهرول :

أسرع الحاتوتی فاختطف الجرنان ، فأشار باصبهه إلى صورة فی الوسط هاتفا :
- " آهو ! عبد العزیز افندی ! " ..

صاح شوادفی کمن أفاق من خدیعة محكمة :

- " یا بن الکا .. اا .. لب . فعلا هو ! نظرتی فیہ جاءت سلمیة ! نظرتی لا
تقع الأرض أبدا ! " ..

راح یتأمل الصورة بإمعان ؛ ثم قدم لی الجریدة طالبا أن أقرأ علیه ما فیها ؛
وجلس علی حافة المصطبة منکسا راسه فی تمنع وإنصات . طلب أن أعید القراءة
ثانیة ؛ ثم : معلش ، مرة ثالثة . أخیرا رفع ذراعه کأنه یرى ذمته أمام تحقیقات
النیاة :

- " یعنی لاسم الوكالة لم یجى فی الخب ر! هل تعتقد یا أحنانا أن سیرة الوكالة
یمکن أن یجى فی التحقیق مع هذا الجدع ؟! وعلى فرض أنها ستجى ! مالی أنا ؟!
أذكر یا أحنانا ما قلته لك ؟! لم أکن مطمئنا لهذا الجدع ! كنت أشعر أن وراءه
شیء! بموت المعلم وهو بعد لم یعلم ! هذا ولد استطاع أن یخدعنى ! یوکلنى
الأونطه ! الله أعلم کم من أمثاله سیضحکون علی ذقنى !! " ..

ووجه لی نصف عین ، فأحسست أن الغمزة قد أوجعتنى . مع ذلك ابتسمت
وقلت له علی سبیل المزاح :

- " ربنا یستر یا عم شوادفی ! دعها علی جناب الله ! " ..

حینئذ شرع فی النهوض واقفا ، لكنه استدرك فجلس ثانیة :

- " قلبی یحدثنى بأن أقوم الآن فأحرق متروکاته التى جمعتها فی حوال فی
المخزن ! أم أنکر معرفته من الأساس ؟! بما ذا تشير أنت یا أحنانا ؟! " ..
قلت محذراً !:

- " أیاك أن تفعل هذا ؟! إن الحكومة التى قبضت علیه علی علم بأنه كان
یسکن عندك ما فی ذلك شک ! فإن حاولت أنت أن تنکر معرفته من الأساس
فإنك تضع الشك فی نفوسهم من ناحیتك ! ستجعلهم یفتشون عن السبب الذى

دفعك لذلك ! وأنت فى غنى عن التفتيش ووجع الدماغ ! لقد قلتها كلمة حكمة : مالى أنا ؟ نعم ! مالك أنت ؟ هذه وكالة وكل الناس من كل لون تسكن فيها ! فهل أنت مسئول عمن يسكن عندك ؟ هذه واحدة ! الثانية هى الأشياء التى تركها عندك ! تستطيع أن تكسب بها ود الحكومة إذا جاءت تسألك ما الذى تعرفه عن هذا الشخص باعتبارك عاشرتة فترة طويلة عن قرب ؟ فتقول لهم : والله يأسعاده الله ما كنت أعرف عنه أى شئ لأنه لم يكن يتكلم مع أحد وأنه اختفى دون أن يدفع الحساب وهذه هى كل متروكاته خلوها فرما تنفعكم ! سيذكرونك فى هذه الحالة بدلا من ضربك أو تشميع الوكالة !..

وكان قد راح يرقبني بعينه الإثنتين فى ترقب شديد كأنه يشرب كل حرف أقوله لعله يعرف منه حقيقة أمرى وشخصيتى . لحظتُ كانت تدور بخلدى نية أبيتها على أن أغريه بعد أيام بأن يعرض على هذه المتروكات لأتفحصها جيدا فلربما أفادتني فى معرفة شئ من تفاصيل هذا العالم المثير الذى يلعب دائما بخيالى : عالم التنظيمات السرية المناهضة للحكومة واقتناء الممنوعات من منشورات وأسلحة ، والتدريب على الإختيالات السياسية التى كثيراً ما حلقتني منذ رأيت صورة العيسوى قاتل أحمد ماهر باشا فى الجرنال واقفا كالفراس الأسد وكل الناس تنظر إليه بهدشة وإعجاب . لهذا فضلت أن أترك شوافى حائراً فى تفسير شخصيتى ، فلا داعى للمبالغة فى طمأنته بخصوصى ، دعه يفكر ، يتصورنى ما يتصورنى ؛ فلعلنى على هذه الأرضية النفسية الممهدة أستطيع التأثير عليه فلا يتردد فى إطلاعى على متروكات عهد العزيز ؛ ولا يمزق عندما أتأخر فى دفع الإيجار . وحدثنى أقول له فيما يشبه الأمر بلهجة واثقة :

- " إفعل ما قلته لك ؟ وانس الموضوع تماما حتى يطلبوك للتحقيق ! وعموما فربنا معك ! لا تخف !..

واكتشفت أننى نطقت : لا تخف ، هذه ، بلهجة من يقول : أنا معك أسانذك وأنجيك من أى مأزق ؛ الأمر الذى جعل شوافى يحملى فى وجهى وقد خفقت الدماء تحت جلد وجهه الصدىء ، فبدا على وشك الإرتعاش ، وبدا كأنه يتضاءل حجما ، كالقط الشرس الذى يتوتر من الخوف والغضب معا . هز راسه فى امتثال ،

وكان واضعا يديه على ركبتيه كتلميذ مذنب ، فرفعهما فى تلوينة هزيلة قائلًا فى تسليم :

- " خلاص ! أمرك ! لن نخسر شيئا على كل حال ! " ..

ثم نظر متوترا إلى النارجيلة وصار يتشمم رائحة الخشيش مصطنعا الدهشة كأنه لم يكن يعرف أننا نفعل ذلك . وصار ينظر إليها فيما يشبه الإحتجاج ، ويتمتم على مضض :

- " أظن أن هذا ليس وقته الآن ! فربما يهبط إخواننا علينا الآن ! إنهم كالقضا المستعجل كما تعرفون ! " ..

خطر لى أن أصيبه بالضربة القاضية ، خاصة بعد أن لاحظت استعداد الخانوتى للخوف وشروعه فى لم عدته وإيقاف الشرب ، مددت ذراعى بحركة واثقة معناها: دع كل شئ كما هو . ثم قلت لشوادفى :

- " أنا المسئول ! هذه حجرتى ! وإذا هاجمنى فيها فأنا المسئول عما يدور فيها لا أنت ! " ..

بصوت خافت قال :

- " الشرارة تصيبنا جميعا يا أخانا " ..

- " لى كلام معهم ! " ..

رشقنى الخانوتى بنظرة استدراك على مافات من حديث بيننا ، كأنه يقول : ألم أقل لك إنك من أخواننا البعداء ؟ .. تبسمت وكنمت ضحكة عالية ، لأننى كنت على شئ من الثقة بأن أحدا لن يجرئ ولن يسأل . مع ذلك ظل شوادفى جالسا معنا يشاركنا شد الأنفاس فى شهية مفتوحة ، كأنما يخاف أن ينتقل إلى مصطبه فى البوابة وحده . ظللنا طول الوقت نتكلم فى عبد العزيز نفس الكلام بخدافيره نعيده مثنى وثلاث ورباع ، نتوقف عند نفس الصفات ، ندلى بنفس التعليقات والتعقيبات، يحكى الخانوتى حكاياته وملاحظاته عن عبد العزيز للمرة المائة دون أن يضيف شيئا . وشوادفى الذى كان يعترض على الشرب صار على امتداد الجلسة ينسى فيسأل الخانوتى ، لماذا توقفت عن الرص فيقول الخانوتى : نفذ المعسل ؛ فيقوم شوادفى فيأتى له بورقة معسل ؛ ثم يعود فيسأل مرة أخرى بعد حين : لماذا

توقفت عن الرص ؟ فيقول الحانوتى : نفذ الحشيش ؛ فيقوم شوادفى فيختفى فى مكان مجهول ثم يعود بعد دقائق فيرمى فى حجر الحانوتى بقطعة حشيش تزن درهمين . لحفلتها تبادلنا أنا والحانوتى نظرة هلعة ، فقال شوادفى : " الباقى ترده لى ! " ، فرد الحانوتى وهو يغمز بعينه وخديه غمزات مرنة : " طبعا طبعا ! " . ثم هير منها هيرة ملء أصبعيه دون أن يشعر شوادفى فسر بها تحت مخدتي بحركة من يبحث عن شيء ؛ ثم أخذ يواصل الرص بإخلاص وإتقان شديدين ؛ فتمتد إلينا عدوى الحماسة للشرب فمنعنا فى جذب الأنفاس بشغف واستمتاع .

فرغ النهار ، ونامت الشمس فى الفناء تحت ملاءة رمادية رقيقة . وإذا بمطرقة الباب تدق على البوابة ؛ فانتفضنا جميعا فى رعب حقيقى . تحامل شوادفى على نفسه واقفا ثم خرج إلى البوابة ؛ فخرجنا فى أثره واقفين على الباب نتابع الطارق . فلما فتح شوادفى باب البوابة إندفع القرد العجوز داخلًا يتبختر تهتز مؤخرته الحمراء العالية ، ومن خلفه ذلك الذى أحذه فى الصباح ..

- " إتقوه عليك وعلى أصحابك ومن اقتنوك ومن سرح بك ! " ..

فتوقف عبد الحسيب محتجا . فصرخ فيه شوادفى : بحش ، فانتفض عبد الحسيب واهمر وجهه لكنه مضى خلف القرد ..

وكانت دميانة قد سمعت فخرجت من حجرتها والتقت بغائبها فى منتصف الطريق حيث مالت لتتلقى القرد فى أحضانها بشوق ولهفة . القرد العجوز الخبيث يستكن فى حضنها وتلقائيا يهز مؤخرته رائحة جاثية ، مما جعلنا نضحك دفعة واحدة . تناولت دميانة مقود القرد ، فشدهته قليلا فانسلخ القرد ولف حولها . قالت لعبد الحسيب :

- " حاسبنى ! " ..

مدَّ عبد الحسيب يده فى سيالته ثم أخرجها مطبقة على حفنة من البرايز والشلنات وأنصاف الفرنكات الفضية والقروش والتعاريف والعشرينات الخردة . تلقتها دميانة فى راحة يدها ؛ بدربة شديدة فنطت القطع كما تنط ورق اللعب ، إذ جعلت البرايز متجاورة ومن بعدها الشلنات فالقروش المخرومة فالقروش المصمتة فالتعاريف فأنصاف الفرنكات فالعشرينات الخردة ؛ حتى تكون من ذلك جسر

إسطوانتي يبدأ من فوق الرسغ بدائرة متسعة وينتهي عند أطراف الأصابع وقد ضاقت الدائرة كمجرد ظل ، بنظرة سريعة جمعت قيمتها ؛ رفعت عينيها إلى وجه عبد الحسيب بنظرة استنكار يشع منها نذير غاضب بالقضيحة :

- "إيه دول ياروح امك ؟!" ..

هكذا دفعة واحدة ؛ مما جعل عبد الحسيب يدارى حرجه وخوفه قائلاً بود مفتعل :

- "إيه دخل أمى هنا بقى ؟ تعالى نخش جوه تفاهم !" فإذا بدميانة تسحب شجرة رانة هادرة ثم تلكره برفق فى كتفه . تطوح ثم اعتدل .. فواصلت :

- "مفيش دخول جوه ! نخش جوه بتاع إيه ؟ دى غرفة وليه ! يدخلها راحل ازاي ؟ حاسبني هنا قدام الكل عيني عينك ؟!" ..

فك عبد الحسيب تلفيعته وأعاد لفها :

- "وكيلك ربنا ! هذا ما رزقنى به الله !" ..

وكان القرد العجوز قد أخذ لفته حول ساقيه ووقف بينهما كأنه يستعد للحجز بينهما إذا نشبت المعركة ؛ وراح يتابع الموقف فى ترقب ذكى خفيف الظل جدا . قالت دميانة مشوكة بذراعها نحو القرد :

- "سرحته تعمل جنهين فى اليوم ! ويوم السوق تعمل خمسة !" ..

- "فتشبنى يا خالة !" ..

وأمسك بسيالته وراح يهزها وينفضها ؛ فإذا بالقرد البارع يقفز جأة على صدر عبد الحسيب ؛ يضع يده فى قلب طوقه نحو جيب الصدري ؛ هل - يا للشئ الملهل - يفرجها ممسكة بجنيه كامل ، ثم يقفز من صدره إلى صدر دميانة ..

أذهلتنا المفاجأة . قالت دميانة فى تشف :

- "شفت ياللى ؟! إن القرد يعد عليك قرشا قرشا ! هكذا علمته بتربية يدي هاتين !! رآك وأنت تفك الفلوس لأحدهم من إيراده وتضع الجنيه فى جيب آخر فلم ينس ! والآن أرني جيوبك كلها !" ..

إستسلم عبد الحسيب ليديها الغليظتين اللتين راحتا تخترقان صدره وجنبه بقسوة حتى خرجت إحداهما ممسكة بورقة من فئة الخمسين قرشا ، راحت ترفرف بها فى وجهه وهو صامت على شفتيه ابتسامة شاحبة ولهنة ..

- " إياك أن تتبجح وتقول إنها كانت معك من الأصل ! أنا أعرفك وأعرف أباك ! طول عمركم شحاذين لا يحتكم الواحد منكم على ملهم أحمر ! بفضل هذا القرد الشقيان أمسكت خمسين قرشا لأول مرة فى حياتك! خنّها ! هى أجرك وأنا ساعتك فيها ! إتكل على الله وأرنى عرض أكتافك من هنا ليوم القيامة ! أما الذى بعثك إلى فلى معه كلام ثان!!" ..

وحشرت الورقة المالية فى طوق جلبابه واستدارت ساحة القرد إلى حجرتها . وكان شوادفى متكئا على المخلدة القش الصلبة بكوعه الأيمن يتابع الموقف بغاية من الإستمعاع ؛ فما أن انصرف عبد الحسيب منكس الرأس حتى صاح فى صوت غليظ بهيج متحشرج بالإنفعال:

- " شفت يا حانوتى ؟! لو أن أحدهم سرح بك أنت نفسك لاستغفلك بهسامة!" ..

صاح الحانوتى من حنكه الأهنم اللطيف:

- " وهل أنا تربيت على الغالى مثله ؟!" ..

ثم دخل فى أعقابى ضاحكا يقول : " القرد فوقنى !"، وكأنه قدم مبررات كافية لإشعال الفحم ، لنستأنف الشرب من جديد .

الداية والханوتى

قال الخانوتى :

- " أظنك ياسيدنا لفندى زمانك الآن تقول فى نفسك : هذا الرجل الأهل فى يده صنعة أصلية هى صنعة الخانوتية . فلماذا يتركها ويشغل صبى غرزة يعرض نفسه للمخاطر ؟! "

قلت له إننى فى الواقع لم أفكر هذا ولكننى حتما كنت سأفكر فيه ذات لحظة، وإن كان فى حقيقة الأمر لا يعينى كثيرا أن أعرف السبب ، فكل واحد يشغل ما يحلو له من الأشغال طالما يكسب رزقه بعرق جبينه . إلا أنه حقد فى تحديقنا لم أفهم له معنى ؛ ثم استطرده :

- " أصل الحكاية أن الواحد منا يحب الفضفضة ! الفضفضة حاجة مهمة ياسيدنا لفندى ! أنت تفضفض لى وأنا أفضفض لك يستريح كلانا من عمله الثقيل!! أم تراك تحب الكتمة ؟! أنا لا أظن هذا فى شخص مجذع مثل حالاتك ! أنت عدم المواخذه رجل مفتوح ودائير وما دمت وصلت إلى وكالة عطية فأنت ولد دقلم !! "

كان من الواضح أنه يريد استدراجى لكى أحكى له قصة حياتى . هكذا نحن المصريين نعتاد هذه الطريقة الجهنمية فى الكشف عن غموض بعضنا البعض ؛ فأسلم طريقة لاستدراجك للحكى عن نفسك وفصلك هى أن أبدأ فأحكى لك مقتطفات من حياتى ، لا يهم إن كانت صادقة أم كاذبة ؛ كلما كانت متقنة مستوية أوسحت بالصدق ؛ وياحبذا لو كنت صادقا تماما فى الحكى عن نفسك ؛ لابد أن تنتقل العدوى إلى جليفسك فيبدأ فى الحال دون أن يدري فيحكى لك ربما أدق التفاصيل فى أسرار حياته خاصة إذا أشعرته أنت بشئ من الإطمئنان والسرية والندية ..

تبسمت قائلا :

- " طبعا طبعا ! لولا الفضفضة لطق الإنسان ومات ! " ..

- " تعجبني ياسيدنا لفندى ! عليك نور ! الحكاية وما فيها ياسيدنا لفندى أننى لم أكن فى الأصل حانوتيا ! كنت فلاحا أسرح فى الغيطان بالأجرة على ذراعى عدتى ، فأُس أحمِلها على كَتفى للعزيق لتطهير المصارف لحفر الترع والقنوات ! وكنت ولدا على كيفك أعول أبى العجوز المريض بالطحال وأمى الكسيحة ! أمى هذه ياسيدنا لفندى كانت ملكة جمال أيامها ! من سوء حظها أنها ولدت وعندها ذلك المسمى بشلل الأطفال ؟ تراها وهى جالسة صبية ولاكل الصبايا ! أما حين تقف لتمشى فقلبك لابد أن يتفرع من منظرها !! فلكى تخطر خطوة عليها أن تبرز صدرها وهى تدفع ذراعيها بكل قوتها فترتج بقية جسدها فيحيل إليك أن كل أعضاء جسمها ملتصقة فى بعضها البعض بالغراء وأنها ستطير فى الهواء ذراعها فى ناحية ورأسها فى ناحية وبقية جسمها فى ناحية !! نصفها الأعلى يتفصص حتى تنقل قدمها اليمنى خطوة لتجر خلفها اليسرى بسهولة !! الكل يطرى جمالها والكل يظن عليها بالزواج ! إلا أبى فقد كان رجلا بمعنى الكلمة يفهم جمال خلقة ربنا حتى لو بعاهة مستديمة ! قال الله ولا تزوجن بها ورزقها ورزقى على الله ! شغلة أبى خفير على الأجران فى مواسم الحصاد نظير جعل من المحصول يُكال له ! أمى أنجبت له أربع صبايا يقطن للقمر قم لنقعد مطر حرك ! لكن سوقهن بار فى البلدة لخوف العرسان من أن ينجبن لهم عيالا مصابين بشلل الأطفال !! فكانت أمى تستلم ببصرها قمة معذنة المسجد فجرا وظهرها وعصرا ومغربا وعشاءً تتلقف كل كلمة من الكلمات الأذان والإستغاثات لتضع فوق جناحيها دعوات وابتهاالات لاحصر لها ! تعتقد أن كلمات الأذان والإستغاثاة تطير فى الفضاء إلى بارئ السموات والأرض فهى إذن كساحى البريد يمكن أن يحمل رسائل أمى إلى الله !! كل طلبها أن يستر الله عرضها فى بناتها فيرزقهن بأولاد الحلال المؤمنين بقضاء الله وصنعه ! طب ما قولك ياسيدنا لفندى أن الله لم يكسفها ؟ رزق إخواتى البنات بأربع عرسان مؤمنين مصلين صالحين : واحد معلم فى مدرسة وواحد فراه فى نفس المدرسة وواحد يقال على قد حاله والرابع أسطى فى ما كينة الطحين فى بلدة مجاورة ! بقيت أنا وأمى وأبى وأخ صغير هو الآن عامل فى كفر الدوار مبسوطا ! أصيب أبى بمرض الطحال من كثرة الشرب من المصارف الراكدة والبرك فكانت

بطنه فى أواخر أيامه مثل فنتاس له رأس وذراعين وقدمين ! وعمرى وقتها على وشك أن أختم فى القرعة لأدخل التجنيد وكنت سأدخله فرحاً لولا أنهم أعفوني لإعالة أبى وأمى ! الشغل عندنا مواسم مواسم ! ما بين المواسم جدد وقحط وصرحة ! أصبحت رجلاً شديد البنية كبيراً حينما حل بالبلدة فجأة ذلك الوباء المدعو بالكوليرا ! حكمة ربنا أن أول واحد يموت فيه من البلدة كان الحانوتى مغسل الموتى ومكفنههم ! وكان قريباً لنا إذ أن زوج أختى البقال كان ابن أخيه ! الناس كشتت منه ! دخلت أنا بقلب جامد نزع ثيابه غسلته مرشته مرشاً بالليفة والصابونة وكفنته وبالسلاطة سلم لنا على الملايكة ! فى نفس اليوم مات شخص ثان كشتت الناس منه هو الآخر فقلت يا ولد أكمل جميلك فدخلت عليه بنفس الشجاعة التى لا أعرف من أين جاءتني ! ثانى يوم مات خمس رجال فقال الناس فى الحال : هاتوا فلان ! فجاءوني يستنجدون بى فرأيتهما كبيرتا فقلت يا ولد أهى ميتة أم أكثر ؟ خلعت ثيابهم وغسلتهم وبالسلاطة أنتم أيضاً !! أبى وبعض الناس يزحروننى كى أكف عن هذه الشملة الخطرة لكن أمى تقول لا تخف يا ولدى فالكريم لا يضام وما عند الله لا يضيع ! ضع فى ذمة الله كل ما عندك من فعل الخير لا يخرىك أبدا ! خلصت الكوليرا على البلد وجاءت بعدها كوليرا من نوع جديد ! قالوا المحور وموسولبنى وهتلر والعلمين ! قل إن الجثث كانت لا تكف عن الجحى كل يوم من هنا وهناك مقتولة فى الحرب فلا تجد آباءها أو أمهاتها أو أعمامها !! تعال يا عبدالفضيل ! تعال يا عبدالفضيل ! تعال يا عبدالفضيل صرت حانوتياً بالأمر الواقع ! صرت أقبض أجراً من اهل الله ! حسنت سمعتى فى الجراءة وحلاوة النفس لا أحد يضارعنى فى تغسيل جثث القتلى ! بيدى الخنونة أجمعهم فوق الضرابية الخشبية فأغسل كل قطعة من الأشياء على حدة أتشهد عليها عشرات المرات ثم أضممها بحرفنة ومزاج أكاد أضغ بينها تخشينات من القطن حتى يلتصق اللحم تصير كأنها لم تنقطع من قبل !! ألفها فى كفن عم كالجيرة الصلبة يحفظها هيكلها متكاملات لتقابل الجثة الله بكاملها !! طلبنى معلم كبير شهير فى هذه المدينة لأشتغل فى محله المفتوح برخصة ولافتة وموظفى حسابات ! يملك ثلاث سيارات لنقل الموتى ولديه محل للفراشة ولديه مقرئين للقرآن الكريم على مستويات عديدة

يعنى ياخذ الميت مقاوله بمبلغ كبير ، أى نعم لكنه يريحك من متاعب كثيرة ألقها أن يتكفل نيابة عنك باستخراج شهادة الوفاة وهى أمر صعب عليك سهل عليه لاتساع علاقاته وعمقها بموظفى الصحة ولذا فإن الموتى الذين يأخذ هو مقاولتهم لا تقف أمام شهادة وفاتهم عقبة ولا شبه جنائية ولا طيبب !! هذا غير الأبهة والفخامة يحاط بها ميتك كأنه عريس يزف إلى عروسه !! المعلم كان مدمنا للحشيش والأفيون ! إنبسط منى فاتخذنى صبيا لسقيه ولشراء الصنف الجيد ! نغغنى فى العز بصراحة ربنا ! لكنه مات ! بعد أن تغفل الأفيون فى عظمى ! أولاده كانوا متعلمين فى الكليات دكاترة ومهندسين ومحامين لهم إخوة ورثوا مهنة أبيهم غير أنهم تشاءموا من المهنة بسبب نق إخوانهم المستوظفين الذين استعروا من هذه المهنة! تخصصوا فى الفراشة وحلها أما أنا فاتكلت على الله! محل يقبلنى ومحل يطردنى! أشتغل يوما وأبتطل عشرة ! والأفيون يزرق فى عروقى يطلب المدد كل يوم ! لجأت إلى التجار الذين كنت أشتري منهم لمعلمى أصبحوا يعطفون على من حين بلحسة أو بورق اللف أغليه فى الشاى !! شيئا فشيئا صاروا يكلفوننى بمشاوير تقل وتوصيل نظير عمولة طيبة ! أسنانى لم تقع من الأفيون وحده ياسيدنا للفندى ! إنما وقعت من الخوف والرعب ! لكن الحمد لله ربنا نجانى من قبضة البوليس فى كل مرة بعدما تكاد رقبتى تقع فى حية المشنقة !! إلى أن تعرفت على صبيحة! الولية إمرأتى ! هذه الداية ! امرأة جدعة تساوى ثقلها ذهباً أجدع من قبيلة رجال ! كانت متزوجة من شحاذ مريض ومات . فجاءت تجرى لمعلمى تستنجد به لتغسيله وتكفيه فطردها شر طردة وقال لها إن محلى للآدميين وليس للحيوانات !! ربك والحق كرهته فى هذه اللحظة وتميت له الموت فى الصحراء تنهش لحمه الصقور والذئاب ! وصعبت على الولية ! فتسللت حريا فلحقت بها وذهبت معها فقمت بالواجب كله ودفعت ثمن الكفن من جيبي ثم جمعته فى السر من أهل الدين حضروا الجنائزة !! لكن الولية لم تنسنى صارت تعزمنى على الغداء مرة ! والفقور مرة والشاى مرات ! فلما علمت أننى أسكن وحدى فى عشة فوق سطح فى شبرا منهور انتقلت وسكنت معى !! صرنا نعيش معا كزوجين دون أن نتزوج عند مأذون يسألنا عن شهادة ميلاد ووجع دماغ !! هذه الولية قوتنى على منع المشاوير

ثم ألحقتنى بغرزة صاحبنا التى رأيتنى فيها ذات يوم ! كان ذلك من سنوات طويلة مضت ! جاءت الثورة بالعمران وعلى أمشالى بالخراب ! مر البلدوزر فاكتمسح المنطقة التى فيها العشش والبيوت لأنها أرض الحكومة ستقسمها وتبيعها للقادرين على بناء حى جديد !! لم نجد أماننا غير الوكالة فلجأنا إليها فأوتنا فى أمان الله إلى أن زار الوكالة ولد صايح مخربش يعرفنى ويعرف صبيحة ! بات ليلته فى حوش الوكالة وفى الصباح رأيت وجه شوادفى يتغير ويطالبنى بقسيمة زواج تثبت أننى وصبيحة زوجين على سنة الله ورسوله !! القسيمة أو بيت كل منا فى الحوش فى مكان بعيد عن الآخر !! قرط علينا فاعترفنا بحقيقة أمرنا فتكفل بحل المشكلة كما حدث على يدك !! يرجع مرجوعنا لأبى ! جاءنى تليفراف يقول إحضر حالا! سافرت ! وجدت أن الله هيا له من أكرمه بدفنة كريمة ، بعدها بحوالى جمعيتين سافرت صدقة لأجل النصيب كى أدفن أمى بنفسى دفنة على مزاجى !! من يومها انصدمت نفسى عن مهنة الخانوية صرت أقرف من جنث الموتى ! ورائحتهم التى ماكنت أشمها أبداً أيام كانت تجيئنى تننة ممزقة أصبحت أشمها والميت صاغ سليم !! مع كل ياسيدنا لفندى ! وحق من جمعنا على غير ميعاد أنا ما عندى مانع من الرجوع إلى المهنة فى أى وقت ! إنها كلها مكسب ياسيدنا لفندى !! هذه قصتى من يوم ولدتنى أمى إلى الآن فما هى قصتك ياسيدنا لفندى ؟! إنى مصغ إليك!!.. هكذا تركنى مبعر الأتلاء فى كل موضع ذهبت بهى حكايته ؛ فجعلت أشد أنفاس النارجيلة بعمق شديد كأننى أستلهمها الرد المناسب . ولحظة أن اندفعت جحافل الدخان من فمى وأنفى بغزارة رطبية تكاد تذوب إلى قطرات سائلة ؛ إقتنعت بأننى يجب أن أبادهل الحكى ؛ فالشئ الوحيد - عند أمثاله من أبناء شعبنا الطيبين - الذى يثبت للواحد منهم أنك صرت صديقاً جديراً بالمصادقة والعشرة هو أن تحكى عن نفسك مثلما حكوا لك عن أنفسهم ، أليست هذه حيلتنا ؟ أن أى واحد فى أى جلسة جماعية يحكى موقفاً أو نادرة حدثت له أو مأزقاً وقع فيه لا بد فى العادة أن يتلقف الخيط منه واحد آخر فيحكى موقفاً مشابهاً ؛ ربما أنتح ، حدث له . ومن المرجح أن الوقت إذا اتسع فلا بد أن يحكى الجميع مواقف مشابهاً تؤدى نفس المعنى وتصل إلى نفس الغرض . فالخانوتى إذن لا يتطفل على حياتها

الشخصية ، لا يحاول التجسس على ؛ إنه فحسب يريد أن أفتح له صدرى فاطمئنه من جهتى ؛ إذا أننى سأعطى له حرية رؤيتى كما ينبغى من خلال ما أحكيه عن نفسى كما فعل هو ..

و كنت قد نجحت فى تجميع أطراف بعض وقائع من حياتى و شرعت أفكر فى المدخل المناسب والصيغة الملائمة التى تجعله لا يخطئ فهمى ؛ لكننى سرعان ما اعتقت من هذه المهمة ؛ إذ فجأة رأيناها أمامنا فى قلب الحجرة ؛ صبيحة الداية زوجة الخانوتى بموجب الورقة التى أملاها على شوادفى و كتبتها ذات يوم بعيد على مصطبة البوابة ..

- " سالخير عليهم ! " ..

ودون إحم أو دستور حطت عن رأسها سلة كبيرة كسلال باعة الفاكهة ؛ ثم حطت مؤخرتها الأكبر على حافة المصطبة بجوارى ؛ ثم مالت على بوجهها المضميم الضاحك :

- " سالخير يا جدع ! والنبي قلبى حبك يا ذا الجدع ! من يوم ما كتبت لنا الكتاب ! " ..

تذكرت تلك المهمة التى قال الخانوتى ذات يوم أنها مضت إليها ، ومرت شهور طويلة دون أن أعنى بالسؤال عن نتيجة المشوار والخانوتى بدوره لم يأت بسيرته رغم أن يوم إجازته النهارية السبوعية أصبح يقضيه كله فى حجرتى . إرتجف قلبى إرتجافا مدويا حتى خيل لى أنهما رأياه رأى العين . على أننى ابتسمت رغما عنى ؛ إذ رأيت الخانوتى قد اتكمش قليلا على نفسه وبدأ كصبى جالس أمام معلمه . كان منظره طريفا وهو يولى الحجر الذى بين يديه عناية خاصة بإضافة " زنبه " فى حجم الحمصة فوق التعميرة ثم يرص النار حولها بإتقان كعقد لولو منظوم ؛ ثم يدخل بمسبم النارجيلة إلى صبيحة الداية هاتفا فى جدية ودون أن يتسم أو يبدو عليه الحرج :

- " مساء الخير يا معلمى ! " ..

رشقته صبيحة بنظرة جانبية تطفح بالأنوثة الساخرة الخشنة ، الماحنة ، فى طيبة مزوجة بشقاوة تاريخية :

- " مساء الفل ياروح مامتك أنت يا صغفنن يا شقى ! " ..

ثم قهقهت كأعشى الحشاشين الرجال مصعرة خلدنا نحوى منخرطة فى القهقهة يتقلص كل شئ فى وجهها ؛ أمسكت بالمبسم مسكة حريف قرارى ؛ راحت تشد الأنفاس على مهل شديد ، حتى إذا ما سحبت السحبة الأخيرة فطنت إلى المغزى الجنسى الذى رسمته هى بإيقاع السحب وطقطقة النار وصوت بقللة المياه فى النارجيلة . فعل ، هى من حقها أن تُنادى بالمعلم . نفثت الدخان الغزير وعوجت رأسها ناحيتى وأخذت تحدد فى وجهى بعينين شبه فاجرتين ؛ فأيقنت ان كل امرأة لا بد فيها شئ جذاب له متدوقه ؛ وهذه المرأة جاذبيتها فى عينيها بصفة خاصة ، وفى خفة دمها بشكل عام . ولا بد أن الأنوثة الطافحة فى هاتين العينين تعرض من يعاشرها عن شكلها المكبلط الملخبط كجاموسة تمشى على قدمين ؛ ولكن لأنك تتوقع منها أن تكون مجرد جاموسة فإنك تندهش ويتعاطم اندهاشك بما يفجوك فيها من خفة ظل وحلاوة لسان وحكمة قول ؛ فيقلب موقفك منها من النقيض إلى النقيض ، تصير شديد الإعجاب بها . ثم إن ما فى عينيها ليس أنوثة فحسب ، بل يكمن فيها ذكاء بارق حارق لماح كذكاء العاقرة الأفذاذ ؛ ولا بد أن لها لعبقريه فى جانب ما . هاهى ذى تحدد فى ملايحى . مازحتها بما يقول الناس فى بلدتنا عادة إزاء مثل هذا التحديق :

- " تفصيلين منى حلالية ؟ " ..

تراجعت بلقنها ألصقته فى نحرها التخنين ، لعبت حاجبها :

- " فشر ! أفصل منك بدلة ملوكى ! " ..

ومدت كفها مفرودة لألمسها بكفى المفرودة كما يفعل رجلان منبسطان يلتقيان على غمرة أو نكتة . قالت بجديّة :

- " أنت فيك شبه من ناس أعرفهم وبالأسارة كنت عندهم الان ! سبحاتك يارب ! نفس الدم ! نفس تدويره المناخير وفتحة العين ! لولا غلظة الشفتين هناك لقلت إنك واحد منهم !! " ..

خفق قلبى خفقة مزدوجة ، من ذكاء هذه المرأة وفراستها ودقة ملاحظتها ، ومن عودة الموضوع الذى أود أعرف نهايته . أحسست بنظرات الحانوتى منلهة

تدور بينى وبينها ؛ فلما التقيتها قرأت فيها عبارة : آمنت بك يارب . أفقت على صوتى يقول لها :

- " بالمناسبة ما أخبرهم ؟! ماذا فعلت عندهم ؟! "

- " ربنا ما حرمننا جميعا من الأفراح والليالي الملاح !! "

لم يطلق الحانوتى صبرا؛ هتف بفرح عظيم :

- " تأكدت والله من أول ما شفتك ، بصرف النظر عن هذه الشيلة التى معك

تبشر بالخير ! لأن منظرك يقول إن الله وفقك !! "

حبطت بكفها على صدرها فى زهو كبير:

- " عيب ! أنا صبيحة والأجر على الله ! دخلت قدمى دخلة الخير دائما! أحمد

الله وأشكر فضله عمري ما دخلت دارا إلا وقام فيها الفرح بعريس أو عروس ييدى

هاتين جئت بهما من مكان بعيد لياثقيا على القسمة والنصيب فى مكان بعيد!!

والله ياذا الجدع مالك علىّ يمين هناك عرسان وعرايس سحبتهم ييدى هذه من

فروج أمهاتهم وتلف الأيام ويتم زواجهما على يدي !! أنا التى أجيء لكل منهما

بعدله ! لم يعطنى الله حق الخلفة لكننى أم العيال كلهم !! اللهم لك ألف حمد

وألف شكر ! رضى لمن يرضى ! اللقمة والخدمة والنومة المستورة هي كل حاجتى

من الله سبحانه لم يحوجنى لأن أطلبها منه أبدا !! دائما يعطيها لى قبل أن أرفع

وجهى إليه ! تعرف ياذا جدع ؟ أنا والله مكسوفة من ربنا ولا أقدر على رفع عيني

فى وجهه لأننى لا أداوم على الصلاة ولا أعرف متى يهدينى فأداوم عليها الفرض

بفرضه ! إهدنى يارب بحق حبيبك النبى محمد !! "

أرسل الحانوتى إلى نظرة ذات معنى يفصح قائلا إنها ولية فيها شئ لله ، وقال

لها :

- " اللهم ! أوقعت بالعريس ؟! "

بلهجة تهكمية تأنيبية قالت :

- فشر! اعطيته هدية واعطيته هدية ! أوقعت كل واحد منهما فى بحر العسل!

عريس لقطعة لعروس لقطتي ن! "

- " ما شغلته ؟! "

هكذا سألت أنا فى لفة . فقال :

- " متوكل وزارة الوقف !! " ..

بشيء من حرج التلميذ يضطر لمراجعة أستاذه الكبير فى هفوة عابرة :

- تقصد وكيل وزارة الأوقاف ! إذن فهى طلعت من نصيبه ! فرحت والله له

ولها ! إنه رجل طيب ! " ..

قلت: " هل تعرفه ؟ " ..

لوح بأصابعه نحو صدره هاتفا بزهو:

- " حق المعرفة ! خدمت عليه ! نسيت أن أقول لك إننى اشتغلت مدة صبيبا فى
بوفيه وزارة الأوقاف ! أدخل بالشاى والقهوة للموظفين ! وأنا الذى عرفته بامرأتى !
طلب منى مرة إن كنت أعرف سيدة تنظف له منزله وتغسل ثيابه إذ هو أعزب !
فقلت : أعرف وبعثت له بالولية ثانى يوم لتقتى بأنه رجل كمل ! وبتاع ربنا !
تصور ياسيدنا لفندى انه ظل أعزبا حتى ترقى إلى وكيل وزارة ؟ أصله بصراحة
شكله هو الآخر لا يسر ! له ساقان مقوسان طويلان فيمشى مفرشاً كالصبي
المطاهر ! وله وجه كشر يقطع الحميرة من البيت ! كل صاحب مصلحة يراه أول مرة
يقول لنفسه فى الحال لن تقضى مصلحتنا طالما هذا الوجه الكشر فيها ! فما يكاد
صاحب المصلحة يكلمه حتى يكتشف رجلا سكرة يوضع الجرح فيطيب ! ربما قام
من على كرسيه وذهب معك إلى المكتب الذى يعاكسك فيهزىء الموظف ويونخه
ويربت على كتفك : معلش يا ابنى امسحها فى ! مرتبه كله يدفعه ثمنا لتحية
ضيوفه الكثار ! ويشرب فى اليوم مائة سيجارة بحارى وأزياراً من القهوة لو
طالها ! " ..

أضافت الداية بحماسة شديدة :

- " .. وفى بيته ياذا الجدع ! يكون مسرورا إن أنا طبخت له الطبخ وأكلته
معه كله ! وفى غاية الأدب والكمال ياذا الجدع ! يتنحنج وهو داخل ! وينخط على
أى باب قبل أن يفتحه ولا يفتحه إلا إن تأكد أن أحداً ليس بالدخل ! سوف
يسعد الصبية ! أنا أيضا قتلها بصراحة للصبية ولأمها كما أمرنى ونه على بنفسه :
هو باق له ثلاث سنوات فى الخدمة أى نعم لكن صحته بم ! تعرف ياذا الجدع ؟

والله أنا وقرت هذا الرجل وتأكدت انه ابن ناس بحق وحقيق ، تتصور إن الحاجة أم العروسة كانت موافقة على أن تذهب هي في السر وتشتري الشبكة من حر مالها وتعطيها له ليتقدم بها إذ هي فرحانة به ، فسيقول الناس إن العريس في وظيفة كبيرة في الوزارة ! ولما قلت للرجل عن هذا الموضوع تبسم وضحك بكل طيبة قلب وقال: لا إن اب العروسة صديق في الشغل ولا أحب الدخول عليه بالكذب من أولها وأنا لست فقيراً والحمد لله والكلام الأسلم ان أشتري الشبكة من حر مالى في حضور العروس وامها ، وبعد شراء الشبكة تشتري لها امها ما تحب ان تشتريه ويكون معروفا ان شبكتي هي كذا وكذا !! وقال ايضا إنه من أحل مخاطر عيون البنية سيقم لها فرحا كبيرا في نادى الموظفين وسيسافر بها إلى مرسى مطروح أو رأس البر لقضاء شهر العسل !! الحمد لله !! تعرف ياذا الجدع ؟ وحق ذى الليلة ومساها اننى أشتغل على هذا الموضوع وحده ثلاثة سنوات ويمكن أكثر !! إنما لا نأكلها بالساهل ياذا الجدع ! لكن مهما أجدت ومهما شقيت فإن فرحتي الكبيرة هي لحظة اندلاع الزغرودة في بداية الفرح !! اليوم كانت أحلى عصرية شفتها من أكثر من سنتين !..

أسرعت قائلاً :

- " وتمت الخطوبة بالفعل !؟ " ..

شوحت بعينيها كأنها تقول لى هل انت حمار؟ ثم أضافت بكثير من الغبطة:
- " وكتبنا الكتاب ! سأذيقك الحلاوة الان ! معى أكثر من عشرين علبة حلوى ، العلبة وحلها فارغة تساوى الشئ الفلاننى يمكن ان تضع فيها الدخان والفلوس والجوهرات ! العريس كان يخاف أن يرجعوا فى كلامهم ؟ واهل العروسة كانوا يخافون ان يرجع فى كلامه !! محسوتك هي التي عملت هذا الشغل !! آه لو رأيت فلوس المهر وهو يعلاها وأبوها يقبضها ! عشت حتى شفت الورقة أم مية! ياسلام على منظرها ياذا الجدع ! تقول جوهرة ؟ عريضة ! عد منها الكثير ! وكل ورقة يتلکأ الحاج مسعود وهو يعد ها حتى تحيها الزغاريد لتتنقل خبرها للحيران ! ربنا يفرحنا يا أولاد ! قادر يا كريم ! " ..

إنخت على السلة ، راحت تعكرش فيها فتصدر عنها اصوات خرخشة
جمعاعة؛ ثم استدارت نحوى وقد احتلت قبضة يدها علبة من البللور ذات غطاء
محكم ملفوفة بورق السوليفان مربوطة بخيط ملون مشغول بخيوط الذهب والفضة؛
فوق غطاء العلبة قصاصة صغيرة مكتوب عليها : " بدرية - شعبان " ومن تحتها
التاريخ وعبرة : العاقبة عندكم فى المسرات . إرتجفت يدى وهى نقلب العلبة
الشديدة الفخامة ، المخشوة من الداخل بالملبس وقطع الحلوى الفاخرة ..
إذن فقد تزوجت بدرية ؛ أخيرا تزوجت بدرية . هكذا رحت أتمتم لنفسى فى
ذهول . يبدو اننى قلت ذلك بصوت مسموع ، إذ فوجئت بالداية تخبط على
صدرها منلهة :

- " تعرفها ياذا الجدع ؟! " ..

صاح الحانوتى كالمعلق على مباراة كرة :

- " الولية انلهت !! ياولية ! إن اللفندى هو خال الأنسة بدرية ! فى مقام

خالها !! ابن عم أمها لزم ! " ..

إتسعت عين الداية راحت تشع الكثير من هريق المودة المشوبة بشئ من عدم
التصديق أو التشكك فى حقيقتى . قالت :

- " يا رجل قل كلاما غير هذا ؟! " ..

- " وشرفك عندى اتكلم الجد ؟! " ..

تغيرت الداية ، بدا عليها الشديد والعناء الأشد لكى تمسك لسانها عن قول

شئ . أخيرا قالت بغير حرج :

- " اسم الله على مقامك ياذا الجدع ! إنها عائلة كريمة غنية ! ناس طيبين !

هل يعرفون أنك ابن عم الحاجة ؟! " ..

إنفجرت فى ضحكة صاعقة ؛ كدت أطوق دماغ الداية هذا الطريف واقبل

راس طفل شقى خفيف الظل ؛ لكنها استدركت :

- " الحاجة وديدة تعرف أنك تسكن فى وكالة عطية ؟! لو عرفت لوقعت من

طوطا !! " ..

أسرعت قائلا :

- " لهذا أحلفك بالله ألا تخبريها ! لا هي ولا الحساج ولا حواس ولا بديع ولا كريم ولا يسرية ولا شكرية ولا بدرية ! لا يصح أن يظهر عليك أنك تعرفيننى من الأصل !! " ..

تضاعف الذهول فى عيني الداية :

- " يبين أن كلامك صحيح ياذا الجدع ! إنك رصصت لى اسماعهم ! قلت لك إنك فيك شبه من ناس أعرفهم ! سبحانك يارب ! لا ! لا ياذا الجدع إطمئن فأختك رجل ! لن أجي بهذه السيرة أبدا أبدا ! الدنيا أسرار ياذا الجدع ! ولا أحد يعرف ماذا وراء جدران البيوت ولا جدران الصدور والقلوب !! الأكيد أن فى الأمور أمور فأنا لست عبيطة ! إذا كنت أنت من الفرع الفقير وبنت عمك أصبحت من الفرع الغنى فإن الغنى هو غنى النفس ! لا يهلك ! أهلا يا ضنايا ! انت من يوم ورايح فى عيني الإثنتين من حوه ! يا سلام على الأيام ! سبحانك يارب !! " ..

نكست رأسها شاردة لرهة طويلة ، كأنها أنشغلت بأمر شديد التعقيد ؛ لكنها سرعان ما رفعت رأسها ناضرة إلى وقد بان عليها تأثر شديد مفاجئ . وبصوت يقطر أمومة :

- " تعشيت يا ضناى ؟! " ..

هتف الخانوتى بفرح طفولى غامر :

- " قولى هل تغديت ؟! " ..

حدقت الداية فى عيني بعينين واسعتين فيهما بريق غامض حرت فى فهمه . سبب الحيرة أننى شعرت فيه كأن الداية الأربية تعرف ما قد حدث بينى وبين بدرية ذات لحظة سحرية من وراء الكون كله مرت كأنها محض خيال . إلا أن الداية صارت تلوح باصابعها الغليظة الخشنة الصدئة بحركات طفولية إغرائية ، وفمها الغليظ الشفتين يردد :

- " سأعشيك من طبيخ بدرية !! " ..

واستأنفت التحديق فى عيني مضيفة بلهجة فيها غنج خفى باهت:

- " تعرف طبعا طيخ يدى بدرية ! العريس خرج عن طوره وهو يأكل ! المعمر والحمر والمشمع والمحشو بالفريك والمكسرات ! والمسلق والمسبك والمشوى ! والجلال والبقلال والمريسة وعيش السرايا والبسيمة ! كل هذا الخير أعطتنى منه تعرف ياذا الجدع ؟ والله هذه البنت قلبها مثل الفرن السخن على طول ، أحسن واحدة فيهم كلهم ! فيها حنية تكفى بلدا بمخالها من فاتته بدرية من العرسان فاتته النفع ! ياالحبى لهذه البنية ! " ..

شوح الحانوتى بنفاد صبر هاتفا :

- " ياولية جوعتنا بما فيه الكفاية ! نريد أن نتأكد مما قلته ! هيا اثبتى لنا كما يقول الأفوكاتوا بالدليل القاطع أن الست بدرية زعيمة الطباخين ! إفتحى خُرجك وفرجيننا ! " ..

جمعت طرحتها الجربانة فى قبضة يدها مشوحة :

- " قم! تعالى يا جدع ! " ..

- " ينجى إلى أين يا وليه ! هاتى لنا هنا ! روحى سخنى عندك وتعالى نسقيك حجرين من فضلة خير شوادفى ! ولا تنسى نصيبه مما معك ! إنه يفعل معنا واجبات كثيرة هذه الأيام ينفحننا بقطع الحشيش الذى لا ندفع فيه شيئا ! " ..

إتكأت الداية على ركبتيها ونهضت واقفة . ونهض الحانوتى فساعدتها على حمل السلة المفرطة المتخمة بالأشياء والملابس النظيفة ذات الأقمشة الثمينة من الصوف والحرير والبوبلين . حين لمحها ركز عليها نظرة طافحة بالبشر والبهجة ترجمها قائلا : واكتسينا ايضا ؟. فلما ظاهرتنا الداية لتخرج من الباب خبطها الحانوتى براحة يده على فلقه مؤخرتها الكبيرة قائلا :

- " كلك خير وبركة يا حب عمرى الوحيد ! " ..

فبالفلقة الثانية دفعته فى ساقيه فتهاوى كالنحلة ثم ترنخ وهو يتشبث بالمصطبة ضاحكا . ودب فيه نشاط مفاجئ حميم ؛ ففك قلب التارجيلة وهزها بعنف وخرج يذلق ماعها أمام الباب مرددا من الخارج أن هذه المياه رائحتها تسمم البعوض وتصدده من بعيد . رحت أدفع علبه الحلوى فى الهواء وألقفها كالكرة ؛ ولا أدري لماذا تصورت أننى ألعب بقلبي ، فحوطت العلبه براحتى الإثنتين وضغطت عليها .

لا أدرى إن كان غيظاً أم فرط احتواء . بقيت هكذا منكس الرأس شارد اللب حتى
انتزعني صوت الحانوتي :

- "وحد الله ياسيدنا لفندي ! كأنك حضرت الفرح ! شف النصيب ! شف
العبر !" ..

حدقت فيه لبرهة ؛ سربت العلبة تحت الوسادة ؛ مددت ساقى ، شعرت أن
الأرض تدور فتمدت متطرحاً على ظهرى مغمضاً عيني . دخلت فى بحر الظلام
كأننى لوح من الخشب يتهدى فوق موجات الظلمة مندفعاً مع التيار إلى غاية
مجهولة ؛ كل ما تبقى منى مجرد ومضة كبصيص جمرة تحت ركام الرماد الكثيف
تتمنى لو تلتحم بالريح باحثة عن جسدى لكى تعيد إليه الحياة من جديد . وكان
يخيل لى أن دهرًا طويلاً جدا قد مر بى فى أعماق رحلة مجهولة لا أذكر منها شيئاً
على الإطلاق ، حينما شعرت بغمضة أصوات تطوف فوق رأسى ميزت فيها
صوت الحانوتي :

- " دعيه الان ! سوف يفيق وحده بعد ثوان ! شربنا كثيراً على خلو بطن !
والظاهر أن الخبز هزه وأتعبه !" ..

تشبعت بهذا الصوت الواضح المعروف لى ، فانتشلتنى الإطمئنان من أعماق بئر
سحيق ، ففتحت عيني بصعوبة ، لأفاجأ بأشباح كثيرة متضاعفة ظلها متكررة .
سرعان ما تبينت أن لا أحد معى سوى الحانوتي والداية ، التى انحنى فوق رأسى
محدقة فى عيني وقد انشق وجهها بالعرض على هيئة ابتسامة كبيرة بين هضاب من
لحم الخلد والصدغين . مدت يديها فامسكت يدى بوحدة وكتفى بالأخرى ؛
أنهضتنى جالسا . إذا بى قد أفقت تماماً كأننى مستيقظ من نوم عميق ؛ لأرى
الطبلية موضوعة على الأرض حافلة بعدد من الأطباق الألمونيوم وحفنان من الفخار
تصاعد منها روائح بدرية الشبيهة المكسرة ؛ فقفزت إلى الأرض جالسا أمام الطبلية
فزقتنى الداية عن عمد فى المصطبة ، فيما راح الحانوتي يعاينها :
- " ياولية خفى عن اللفندي حله يتنفس !" ..

أخرجت له طرف لسانها مرقصة حواجبها ، مكورة قبضة يمناها تطحن بها فى
راحة يسرها ، بينما هز الحانوتي كتفيه وهو يجلس قبلتنا متمتماً : امرأة مجنونة بحق .

سحب ثلاث ملاعق ، إثنان منها من الخشب والثالثة من الألمونيوم ؛ قدم الأخيرة لى، ورشق واحدة فى الطبق أمام صبيحة الداية وأبقى الأخرى فى يده . نطقنا فى نفس واحد : بسم الله الرحمن الرحيم . أكلت بشهية فائقة كأنتى أأذوق لحم بدرية وأنفاسها القريية من نكهة القرنفل ، كانت تتمثل لى فى كل لقمة فى عينين واسعتين محجولتين محجلا فلاحيا مغلفا بهريق بندرى ينضح بالتححرر الذكى عينان تفيضان بالحنان والبساطة ، فصار قلبى ينعصر كالعجينة بين ضلوعى ، فينسرب عصيره إلى عيني بقطرات من الدمع الساخن الحراق صرت امسحها بظهر يدي محاولا الإيحاء بأنها من فعل سخونة الطعام وحرارته الحريفة . وكل ذلك يضايقتنى لأننى كنت أأمنى لحظتها أن انفجر باكيا بصوت عال ، أريد أن أنتحب . إلا أن بريقا مدهشا لمع فجأة فى عيني صبيحة الداية كأنها اكتشفت سرا خطيرا . ظلت لبرهة منلهلة جاحظة العينين تركز بصرها على المصطبة مرددة :

- " بسم الله الرحمن الرحيم ! آمنت بك يارب ! " ..

ومدت أصابعها وصارت تتحسس اللحاف والبطانية والوسادة ثم هزت رأسها وزامت كأنها فهمت كل شى . أعيرا جعلت تربت على كتفى بحنان :

- " ما هو خسارة فيك يا ضناى ! هذا اللحاف وهذه البطانية وهذه المخذة ! تعرف ياذا الجدع ؟ كانوا من نصيبى أنا !! وعدتنى بدرية أنها ستعطيهم لى بعد أن تستأذن أمها ! تعرف ياذا الجدع ؟ أنا أعرف فرشهم من بين مفروشات الدنيا كلها ! تعرف ياذا الجدع ؟ إضحك واندهش ! من جمعتين ثلاثة أربعة نادتنى بدرية إلى حجرتها وقالت لى : إذا سألتك أمى هل أعطتك بدرية لحافا قديما وبطانية ومخذة فقولى نعم وأنا أدبر لك غيرها لأننى تصرفت فيها لواحد قريب غلبان ! شف النصيب ياذا الجدع ! شف تصريف المولى ! كنت غير مصدقة ولكن الله أراد أن يرينى صدقها ! بنت حلال كلها حنية ! قلبها كبير ! إنها كنمت خير هذه الفرشة عن أمها كل هذا الزمن الطويل حتى شعرت أن أمها تبحث عنها !! على كل حال أنا وأنت واحد يا ضناى !! " ..

وربت مرة أخرى على ظهري ، فيما رحت أنظر إليها منهلًا وقد شعرت أنني
حوصرت حصارًا محكمًا . يبدو أن صبيحة الداية رأت بوادر انهيار في عيني ؛
وصارت هي تربت على ظهري بكفها الغليظة :
- " عيط يا ضنای ! عيط كما تشاء حتى تستريح !! " ..
فإذا بي أنخرط في النحيب .

زينهم العتريس

حتى مطلع الصبح لم أكن فطنت إلى سر هذا الإزدحام الشديد الذى حل بالوكالة بشكل غير طبيعى . إمتلاء الفناء عن آخره بالناس من مختلف الأشكال والألوان ، فصار يعج ويضج ، يتصاعد الصخب ليخفت قليلا ثم يرتفع بعد برهة . ما يزيد على ثلاثمائة رجل وامرأة غير الأطفال يتحدثون يلغطون فى آن واحد بأصوات عالية حادة تظنه عراقا لا ينقصه إلا رفع النبايت ؛ لكنك سرعان ما تسمع بعض الضحكات العالية والأصوات الساحرة ..

كان من الصعب أن أخطو خطوة واحدة خارج باب حجرتى ؛ لأن الأجساد تمددت وتقرفت وتورت وانحشرت فى كل بقعة . فكنت من حين لآخر أقف على باب حجرتى فألقى بنظرة تقفز فوق الأرض المغطاة باللحم البشرى ما بين قاعدة ومتمدة متقرفص ومضطجع ومنبطح وواقف وقاعد فوق أجولة معبأة بأشياء أو فوق درابزين البواكى ؛ وثمة حمير تأكل دافنة بوزها فى مخلات معلقات فى رقابها ، وتنهق وتنفخ ؛ وبعض عربات الكارو الصغيرة التى يدفعها الباعة بأيديهم منكفئة فى ركن بعيد خلف طلمبة المياه . العجيب أن أحدا لم يضجر بأحد ولم ترتفع صيحة احتجاج واحدة ربما لأن الفناء كان يعج بأصوات تصيب الأذان بالصمم التام . الخاطر الذى طرق ذهنى لحظتى أن هؤلاء مساقين للعمل فى السخرة أو فى عملية ترحيلة تبع الوسية . وكان من المستحيل طبعاً أن يطرق النوم جفنى وسط هذا الضجيج المقيم . على أننى - مع ذلك - لم أشعر بالذعر أو الضيق ، بل على العكس صرت أشعر بنوع من البهجة والبهرة اللذان يشعر بهما الإنسان حين يصير فجأة فى قلب مولد من الموالد الشعبية الحافلة ..

شعرت بونس مفاجئ، ثم نيت لو استطعت اختراق هذه الجموع واختيار مجموعة منها للمسامرة وشرب الشاي طوال الليل ، ومن المؤكد أن فيهم من قرئى رهط كبير لاحظت أن سيدنا زناتى يظهر واقفا بين مجموعة يسلم عليهم. بما لا أدرى إن كان توديعا أم استقبالا وترحيبا ؛ ثم يختفى فجأة حتى أكاد أنساه لأفاجأ به متقرفا بين مجموعة أخرى . وهو بين مجموعة أراه منخرطا فى حديث جاد ينم عنه

مظهره العام وملامح وجهه البادية من على بعد ؛ وبين مجموعة أخرى أراه مندمجا فى مزاح وتنكيت وضحك هستيرى صاحب . لم يكن هو وحده البارز ؛ إنما كان هناك الكثيرون ممن ألقت وجوههم من نزلاء الوكالة يقفون بين مجموعات كأنهم مجموعة من حروف الألف وافقة بين سطور ضخمة من الحروف المتكورة والمنبجعة. أخيرا شاهدت سيد زناتى وهو يخرق الصفوف نحو حجرته ممسكا بين أصابع يديه رزمة ضخمة من الجنيهات القديمة المزينة بالغبار يعدها فى سرعة مبهيسا بشفتيه فيما يتعثر فى الأحساد ويمسك توازنه بدرجة شديدة ..

ثم ظهر الشيخ زينهم العترىس مقبلا من البوابة ، يصبص بعينه العمشاوين ، يحاول رفع قامته المخنية دائما فوق عكاز ؛ وحول شفتيه المضمومتين على حنك أهتم بفك سفلى متدل كجورب طفل ولید ، تلمع خيوط خفيفة من الريالة السارحة بين شعيرات شاربه الكيف المتدلى على جانبيه فمه محترقة شائطة من لفافات التبغ ، تبغ الأعقاب (السبارس)، التى يتخصص فى جمعها على نطاق واسع بواسطة أطفال كثار متشردين يشتري ملء الكوز بقرش تعريفة ، فيعود آخر الليل يحمل شكارة كبيرة متخمة يبيعها لسكان الوكالة وعلى رأسهم شوادفى ..

على أن هذه ليست مهنة الشيخ زينهما العترىس ؛ فهمته الحقيقية هى الشحاذة ، بأسلوب رسمى عتيق جدا لكنه ناجح ومريح . يلبس على رأسه عمامة كالحة بشال أحضر ، أو كان أخضرا ذات يوم بعيد . يحلف دائما يمين واحد لا يغيره ولا يبدله على أساس أنه لا يجب أن يعرض الله لأيمانه حسب وصيته سبحانه وتعالى . يمينه المفضل الثابت ، الدال على أنه غير حانث ولا آثم هو حياة سيدة العترىس الذى يلبس هو عمامته الخضراء كواحد من قدامى دراويشه وأتباعه . ولقد جعل نهاره لنوع من الشحاذة ؛ وليلة لنوع آخر ؛ حيث يخرج فى الصباح الباكر ليلبدأ السعى فى دائرة معروفة تستغرق منه أياما ربما وصلت إلى شهرين ثلاثة ليعود فيبدأها من جديد : يأخذ بيسوت المدينة بيتا بيتا ، حيا حيا ؛ فالضواحي البعيدة ، فالقرى المجاورة. ورغم أن الناس يعرفونه جيدا وليسوا فى حاجة إلى أى كلام يقوله فلننى قد شاهدته أكثر من مرة أثناء سعيه على الأبواب حاملا بعض الأجولة ومن خلفه ثلاثة أطفال هم أبنائه : أحمد وعترىس وعلى ، كل منهم يمسك بشئ . يتقدم هو

فيطرق باب البيت هاتفا : يا اهل الله ، ينطقها سريعة متداخلة الحروف ؛ وسواء أبطأ عليه اهل الله فى الدار أم أحابوه فى الحال فإنه يشرع فى إلقاء الخطبة اليومية المعتادة : " إلهى ما تقفوا وقفتى ! ربنا يزيدكم من نعيمه ! يا اهل هذا البيت يا من عرفتم بالكرم ! كتب الله لكم فى الآخرة حسنات بعدد شعر رؤوسكم ! الحسنه بعشر أمثالها ! الحياة فانية يا أسيادى ! لا يبقى سوى العمل الصالح ! يا بخت من أطعم جائعا وكسا عريانا واکرم عابر سبيل ! الأجر والثواب عند الله يا أسيادى ! يا من تتمنون الخطوة ببركة سيدى العزيس إكرموا أبناءه ومريديه !! " ..

تابعته فى كثير من الأضاحى وهو يكرر هذه الخطبة دون ملل ، حتى بعد أن يخرج مندوب من البيت ليعطيه الحسنه يأخذها ويستدير مكلا كلامه بصوت خافت حتى إذا ما انتقل إلى الباب المجاور رفع صوته بنفس العبارات الموصولة . الحسنه فى العادة رقيق أو رقيقين ، معهما فى بعض الأحيان قطعة أو قطعتين من الجبن القريش ، حتى مطاعم الفول والفلفل لا يتركها فيأخذ قرصا من الفلفل أو كسرة خبز . كلما امتلا حوال أو قفة تركه فى حراسة أطفاله على أى ناصية ويثما يأخذ لفته ويعود . مع احمرار شمس الأصيل يدخل الوكالة يحمل على كتفيه مخرجا منتفحا من الأمام ومن الخلف ؛ فوقه حوال كبير ؛ وكل طفل من أطفاله يحمل شكاره أو مقطفا أو جلبابا قديما معقود الأطراف . إذ يروبو إلى الوكالة لا بد أن يتوقف على البوابة لدفع الجمارك ، مجموعة أرغفة طرية أو بعض فطائر أو أى شئ طيب من وراء بركات سيده العزيس ، ثم يمضى فى زهو كبير منقلا عكازه على إيقاعات دعوات شوادفى له ؛ بنفس الكلمات التى يلقيها هو على الناس لتحنين قلوبهم .. إشتغلت دائما بسؤال يلح على : أين تذهب كل هذه الأطنان من الأرغفة التى يجمعها كل مع العلم أنه وأولاده لا يأكلون إلا خبز السوق الطازج خبز الطابونة ؟! إن الحجره التى يقطنها مع أولاده لا يمكن أن تتسع لكل هذا خاصة أن له زوجا وثلاث بنات على وش زواج : أمينة ورقية واعتماد وطفلة تحبو اسمها - وبالعجب - داليا ، ويدلعونها بدلدل . وقد سأله يوما عن الحكمة فى اختيار هذا الاسم الإفرنجى بعد أمينة ورقية واعتماد ؛ فابتسم ابتسامه عجفاء تخفى

دائما بين تجاعيد وجهه النحيل ، المتكاثفة بالطول والعرض فى جلد وجهه المشعث كطين بعد جفاف طويل ، وقال :

- " وال لله .. مانى عارف يا مولانا ! لكن ! الدنيا بتتقدم يا مولانا ! أنا باين انى سمعته فى الراديو - ولأ يمكن شفته فى السبعا ! كانت هناك صبية حلوة واسمها داليا ! أعجبني يا مولانا من غير ما أعرف لماذا ! حلفت لأخلفن بنتا لكى اسميها داليا!! إنما يا مولانا يهياى والله أعلم أن الإسم معناه دالية ! مثل قطوف الجنة التى ستبقى دالية يعنى متدلية تمسكها بيدك وانت نايم ربنا يوريك ويورينا ! تجى لآلف لك سبجارتين وأعمل لك شايا أو إن شئت أغديك ؟! .."

العبارة الأخيرة سخنة استشعرت أذنى صدقها ، لدرجة أنه قالها وهو يدفعنى فى اتجاه حجرته بجدية بالغة كأننى قد وافقت بالفعل . وقد فعلتها ؛ ولم أنتظر حتى يكررها مرة ثانية ؛ إذ كنت مشوقا لدخول حجرته بأى شكل . هو أيضا شعر برغبتي فى الموافقة ، فدخلت ..

حجرته مجاورة لحجرة قطيطة مباشرة ، بينها وبين حجرة الداية وزوجها الحانوتى . فإذا هى أوسع من حجرة قطيطة ومن حجرتي بقليل صنع فرقا هائلا . فى صدارتها - لصق الحائط - عنقريب متين من الجريدى ؛ قال مزهوا إنه اشتراه من السودان أثناء زيارة للخرطوم بصحبة شيخ مشايخ العتارسة من زمن طويل . على العنقريب بطانية قديمة من الأحزمة الصوفية المصنوعة فى بلدة فوة ؛ ومخدة عبارة عن حوال محشو بالقش . بجوار العنقريب صندوق مربع ، مرتفع قليلا ، مخروطى الغطاء من الصناديق التى تعرض دائما فى الأسواق ومحلات الأثاث فى البنادر ! إذ هو من ضمن جهاز العروس رغم أن الدولاب بدأ ينافسه ويغطي عليه حتى بالنسبة للعرائس الفلاحات الفقراء ؛ وهو صندوق مخطط بالألوان كالحمار الوحشى ، محشو بالملابس والأشياء ، حين يفتح تصاعد منه رائحة صابون الوجه الرخيص . بجوار الصندوق صينية من الألومنيوم الصدىء عليها أربع قلال فخارية مقطوشة محندقة رطبة تفتح الشهية للشرب على الدوام . بجوارها - فى الركن العميق - يقوم الجبل ، نعم ، جبل من الخبز الناشف مرصوص بطريقة فنية يجب أن يأخذ من رصها جائزة نوبل فى الصبر والدقة وحسن التصرف وموهبة البناء ؛ لدرجة أن بعض الأولاد يستندون

عليه بظهورهم وهم جلوس ، وقد يتشاجر الواحد منهم ويتشاحن مع أخيه فيصطدم الجسدان بجبل الخبز فلا ينهار ولا حتى يترجرج بل قد ينخدش دماغ الواحد منهم . لما رأوا دهشتي وإعجابي ببناء جبل الخبز الناشف قالوا لى إن اعتماد الصغيرة هى التى تقوم بهذه العملية بعد خروجها من المدرسة الابتدائية ، التى تنوى أن هذا العام يأذن واحد أحد إلى الثانوية فالكلية إن وفقها الله إذ أن أباهـ حالف بحياة سيده العريس أن يصرف عليها حتى تصير دكتورة مديعة كآمال فهمى تقول : هنا القاهرة ، سيمًا ولسان البنت فيه لدغة كلدغتها ..

الحجرة مع ذلك تتسع أرضها لحصيرة عريضة متأكلة الأطراف تكفى لأن يتمدد عليها الجميع براحتهم . فى الركن المقابل لجبل الخبز واپور جاز ماركة بريوس برجلين اثنتين حيث استعويض عن الثالثة المفقودة بنصف قالب طوب يحفظ توازنه على الأرض ؛ تحيط به حمالة حديدية متينة تقوى على حمل وعاء مهما ثقل . إلى جواره ثلاث حلل من الألومنيوم بأحجام مختلفة ، وطاسة صديئة محروقة معرقة بالزيت الزنخ الرائحة ، ومصفاة ، وبرام وطاجن من الفخار ، وحوالى خمسة صحون من الصاج المزرك الملون . ومن تحت العنقريب يطل جزء كبير من طست غسل متوسط الدائرة ..

زوجة رحاب أشبه ببرج الحمام الفلاحى ؛ رفيعة من فوق ، تزداد ضخامة كلما هبطت إلى أسفل ، طويلة القامة ، بارزة البطن متدلية الثديين الكبيرين تحت جلباب اسود على اللحم ، سمراء الوجه فى لون الفخار المحروق ، واضح أنها نورية من جذر عميق عريق ، لكن وجهها سمح ، منبسطة الملامح حتى لتبدو صغيرة السن جداً ، واسعة العينين بكحل ربانى غزير جداً فى شيطان الرموش ؛ فى وسطهما حبتان سوداوتان تسبحان فى بحيرة من عصيرة القصب لكنهما كحبتى البلى مدربتين على حيط بليتى عينيك وإزاحتهم حتى لتكاد تسمع صوت اصطكاك عينها بعينيك ؛ إنهما تستعطفانك بقوة رهيبة تستنجدان بك ، ربما لتتقنها وأولادهما من هذه الوهدة ، تقولان لك ببلاغة لا تحتاج لنطق : أسترنى إلهى ربنا يستر عرضك ! ساعدنى بما قدرك الله عليه ! إن يكن فى إمكانك المساعدة فعلى الأقل ساعدنى بكف أذاك عنى !. إلا أنك تلمح فى قاعهما العبيد ظلال عهر عريق

لعله راجع إلى أمناء حواء حريفة الإغواء . غير أنك لن تستجيب لنداء هذه الظلال على الأقل لأول وهلة . إلا أن الخطر لابد محدق بك إذا مكثت معها طويلا وألفتها وألفتك ، حيثئذ تتساقط من أشعة عينيها كل الإيجاعات السابقة فلا يبقى منها سوى ظلال العهر العريق الذى لاتزيدة هى بأى حركة أو كلمة أو لفظة ؛ بل إن فروغ بالها من هذه الناحية هو الإثارة بعينها ؛ وإن قذارة الثياب وانحطاط مستوى الحياة ووساعة كل شئ حولك واختلاط الحدود كلها ببعضها قد تصد نفسك فى أول الأول عن التفكير فيها كامرأة ، إلا أنك سرعان ما تقع فى الحية الأزلية ؛ فتجد نفسك محيرا وأنت تبدأ شيئا فشيئا تفكر فى " رحاب " زوجة الشيخ زينهم كإمرأة ؛ لكنك سوف تكتشف بعد قليل أن للقذارة والنتن جانبها المثير ، الحيوانى ؛ فمثلا نزول السلم سهل فلإن النظام والإستكانة للفقر والنتن سرعان ما يصبح لهما طعمهما المثير اللذيذ الأليف ..

نفيت من دماغى هذه المرأة بقوة ؛ لكننى لم أُنجح فى نفيه بالنسبة لابتها أمينة ، تلك العروس الزاحفة نحو سن العشرين مياسة القدر كالغزال الأسمر المسمم بمعنى أمها وثرأ وجه أبيها القادر على التلون بصورة ملهلة ، كعود السنط فى أعلاه بروزان مديبان ناضجان ، فى خصره أستك خفى يلم دائرة الخصر فى قبضة خفية ليندلق اللحم الشحيح فى بروزين من الخلف على هيئة فحلدين مسحوبين كالقرطاس حتى سماتنى قدمين كقصبتين من المامبو ، بكعبين دائريين . كانت تقف بجوار الباب تغسل عدة الشاى بعد أن أكلنا فطائر فلاحية دسمة مع جبن قديم فى المش . وكان جانب وجهها الرفيع المذهب الأنف تنعكس عليه ظلال لمبة الجاز السهارى فتبدو كنتقش فرعونى لفلاحة من الفلاحات اللامى أراهن مرصوبات فى كتب التاريخ يئنون الحب للأرض أو للدجاج . وكانت أمها رحاب قد جلست على الحصىرة فاشعة وركيها ممددة واحدة ومثنية الأخرى أمام الوابور المشتعل يونذ ونينا أليفا مؤنسا . بجوارها جلست رقية التى تصغر أمينة بثلاث سنوات لكنها متختخة مخشوشنة الملامح تأخذ طابع الولدان الأشقياء البلطجية ورعا ظننت أنها تخفى مطواة تحت إبطها أو طفاشة لكسر الأقفال . أما اعتماد فقد جلست على العنقريب مستندة إلى الحائط ممسكة بكراسة الواجب والقلم الرصاص تذاكر بصوت

عال كأنها تثبت لى لباقتها وجدارتها بالمدرسة . على مقربة منها تنام داليا الصغيرة .
أما أنا فقد رفضت الجلوس على العنقريب ، فتكورت بجوار الشيخ زينهم الذى تربع
بجوار الباب من الداخل ، وصار يذكرنى بكرمه فى كل لحظة مردداً بيتاً من الشعر
لا أدرى من أين حفظه : يجود علينا الخيرون بما لهم ونحن نعال الخيرين بجود . ورائحة
أعقاب السجائر التى احترقت للمرة الثانية ترعق فى جو الحجرة ..

أردت القيام لإحساسى بأن الشيخ زينهم على أحر من الجمر كى يبدأ جولته
المسائية التى يمارس فيها ألواناً أخرى من الشحادة : يخرج بعد أن يتوضأ ويصلي
الظهر والعصر والمغرب والعشاء معا فى حيط واحد ثم يتلفع ببقايا شال قديم
متهرىء ذى أصل عريق لابد أنه ذاب فى هوى أكتاف أحد الأثرياء الصالحين قبل
أن يخلعه عليه ، هو من الكشمير الطرى المرقش بنقط كحبات البازلاء ما تزال
ألوانه محتفظة بأصالتها كأنه حديد ، بل أن رائحة الصوف الحديد باقية فيه رغم أنه
بمجرد شرائح مشتبكة بخيط منسول فى ثنيات تطبيقاته التى طبع عليها إلا انه حين
يطويه ويلفه حول رقبته يبدو سليماً فبضى وجه الشيخ زينهم فيبدو كعزيز قوم ذل .
بمضى من فوره فى خط مهيب رافع القامة على عكس مشية النهار المتخاذلة المنحنية
الغلبانة . يمر على الدكاكين : القماشين والبقالين والعطارين والفكهانية والترزية
والمقاهى النظيفة ذات المظهر البكواتى . محبير هو فى تمييز صاحب المحل من الزبون
من الضيف ، يخرق الطريق إليه مباشرة وهو يبتسم مفتحاً عينيه الصغيرتين فى
نظرة ودودة سمحة ؛ ولما كانت عينه اليمنى منقوطة فى الحبة السوداء بشىء من
الرشح الرمادى فإنه يبدو مثيراً للشفقة . يسلم على صاحب المحل بحرارة شديدة ،
يبالغ صاحب المحل فى الرد على هذه الحرارة بالترحيب . بعد برهة وجيزة يفاجأ
صاحب المحل انه قد تورط فى حرارة لا لزوم لها ستكون له مالا يطيب له ؛ إلا أنه
يحدق فى عيني الشيخ زينهم منتظراً أن يفصح عن طلبه عن أمره ، لكن الشيخ
زينهم ينزوى بعد السلام واضعاً يديه أسفل صدره كالواقف فى الصلاة منكساً
رأسه متمتماً ببعض عبارات غامضة غير مفهومة . الرجل سرعان ما يستسلم لما قد
فهمه من أول وهلة فيفتح درج الحصالة يقلب بين قروشها الفضية عن قرش تعريفه
أو قرش صاغ يغمزه به . حيثئذ يرتفع صوت الشيخ زينهم وتتضح نبراته :

- " اللهم بلغه مناه ! اللهم وسع رزقه ! اللهم أخفض شأن منافسيه ! اللهم احذل حساده واعسف الأرض بأعدائه ! آمين ! ..

يكمل هذه العبارة وهو يذلف من العتبة إلى الشارع ، فإذا هي تضرب صاحب الحبل المخاور في الصميم ، كأنها فأل لصالحه ينطق بما في ضميره فإذا هو يفتح درج الحصالة بالفعل وينتقى القطعة الفضية حتى لا يكلفه مشقة الدخول والوقوف . يرجع آخر الليل جيوبه تشغل بالقطع الفضية الكثيرة ؛ فيجود على محل من محلات البيض ، لا كشحاذ هذه المرة إنما كزبون كريم يدخل مشدود القامة مرتفع الروح . ومثل أى زبون محترم يروح يقلب فى البيض بحرقة المعتاد شراء الحوائج . ينتقى عشر بيضات سمان يطلب من البائع لفها فى قرطاس ؛ ويدب يده فى جيبيه بحجة لإخراج القرص الصاغ الذى سيدفعه ثمنا للبيض وهو فى الواقع يعتمد إسماع البائع شحلة القروش الفضية الكثيرة ليغريه بالفكة حتى يقول له هات هذه الفكة . وفى العادة لابد أن يخلصه البائع من هذه الفكة مقابل نقود ورقية مجمدة يسهل وضعها فوق بعضها فى الخفظة أو فى الصندوق فى الحجرة . مع ذلك فزوجة رحاب هى الأخرى لا تكف عن العمل مصطحبة معها دائما ابنتها رقية ، ولهذا فرقية مدلة بعض الشئ . لزوجة رحاب زبائن فى أحياء متعددة فى المدينة تذهب إلى بيوتهم فى أيام معلومة من كل اسبوع ، فتتولى غسل ملابس الأسرة كلها وكنس الشقة وغسل بلاطها وشبابيكها بالماء والخيشة والخرق المبللة . ثمة أسر أخرى تجعلها تطبخ لها بالمرّة فتنزّل لشراء الخضار واللحم تاركة رقية لإنجاز شئ آخر فى الشقة . أما أمينة فهى القائمة وحدها بشغل بيتهم ، حجرتهم ، تنظيفها كل يوم وإعداد شئ للأكل ريثما تعود أمها ورقية قرب العصر من جولاتهما اليومية ..

كان الشيخ زينهم قد أنهى صلاته فيما هو جالس بجوارى دون سجود أو ركوع إلا بإيماءة من رأسه عند كل سجدة أو ركعة . ثم قال مبالغا فى إكرامى : تشرب شاي تانى يامولانا ؟ فظننت أنه يستحنى للقيام فشرعت أنهض فأمسكنى قائلا : إعملى شاي يا رحاب ! فقالت : حاضر يا زينهم ؛ وراحت تشعل الواوبر . لإندهشت من قولها : يا زينهم ؛ إذ يبدو أننى كنت أتوقع أن تقول له : ياعم أو على الأقل يا شيخ . ثم بدأت أنتبه من جديد إلى صباها وكهولته ..

ومن المؤكد أن اللعشة ظهرت على وجهى بوضوح شديد ؛ إذ أنه راقبنى من تحت لتحت وابتسم قائلاً :

- " إستغربت يامولانا لأنها تقول لى يازينهم ؟! أنا الذى عودتها على ذلك ! ليست امرأتى يا مولانا ؟ لابد أن تقول لى يا فلان مثلما أقول لها يا فلانة !".

قلت على سبيل إبراء الذمة من ذنب تعطيله :

- " ورائك شغل وأنا عطلتك ؟! ".

- " نشرب الشاى ونمضى !".

- " كما تحب !".

أخرج من سيالته بريزة فضية ؛ دب ظفر إبهامه فى حافتها فانفلقت فإذا هى بريزتان ملتصقتان ببعضهما . قلب بطن واحدة فإذا هى مغمورة بيطش الأفيون ذى الرائحة النفاذة . يعود من الكبريت سحب نتفة كالحمصة قدمها نحو فمى قائلاً :
إفتح بقلك ! ففتحته ؛ فدب العود فى فمى فأطبقت عليه بهشتى . أخذ لنفسه قطعة؛ ثم ألصق البريزتين ببعضهما ودسهما فى سيالته مستأنفا ما انقطع من الحديث :
- " على فكرة يا مولانا ! رحاب امرأتى هذه أنا الذى ريبتها بنفسى وكانت تقول لى : يا أبى !".

- " كيف كان ذلك يا شيخ زينهم ؟! ".

إتسعت عيناه اتساعاً خفيفاً ، صارت النقطة الرمادية فى قلب عينه اليمنى كجزيرة من الرشح فى محيط أسود ؛ فأيقنت أن الإتساع فى عينيه هو الأصل وأن التجاعيد المكشكشة حولهما تشبه تجاعيد باكية السروال يختفى بداخلها أستك خفى يمتط فتتسع العينان وينكمش فتضيقان ؛ وبأن لى أن ضيقهما هذا الخادع قد تم بتدريب شاق ؛ إذا أن اتساع هاتين العينين لابد أن يكشف فيهما عن محيط عريض من الشقاوة والشيطنة وطول العشرة مع ليل شرير وبؤس أشد وزمن حافل باللوعة والقهر والتحدى . خطر لى أن أسأله عن أصل هذه النقطة فى عينه أهو مولود بها أم أنها نتيجة إصابة أو مرض ؟ ثم ركزت النظر عليها بشكل يلحظه . فإذا هو يشير إليها بأصبعه ؛ وبكلمات كنت أتوقعها :

- " هذه يامولانا من أيام الشقاوة ! كنا طالعين بسرقتنا من كامب الإنجليز
ملهوجين ملخومين بكثرة ما معنا من غنائم ! عوجت رأسي تحت السلك الشايك
لأنه زيملي كى يفعل مثلى ! ما كدت أعدل رأسي حتى خطف السلك هذه العين
فصرخت مثل كلب فاجأته ضربة المسوقة على رأسه ! صرت أفرر فى الأرض
وزملاي يجرحوننى بعيدا عن الكامب ! رحت المستشفى فبقيت فيه شهرا بحاله
حتى عاجلوا ! " .

وانهى برم اللقافة وقدمها لى ، فهممت بالاعتذار ضيقا برائحة العقاب الزنخة
الخانقة ، لكننى كنت خرمانا بشدة بسبب الأفيونة فتقبلت اللقافة . وحين أشعلتها
استشعرت سحونة دخانها ولذعة بلذة غريبة لكننى قرفت من بلغه . أما الشيخ
زينهم فقد تبلمه بلذة فيما يستأنف الكلام بلذة أكبر :

- " أصل الحكاية يا مولانا أننى من بلدة السويس ! فتحت عيني على الدنيا
فجأة فإذا بى فى دار كبيرة فيها مئات الأطفال من كل سن ! وفيها عشرات
الأفندية الذين لا عمل لهم سوى ضربنا بالشلايت والبصق فى وجوهنا ليلا ونهارا
فى طوابير وفصول وأشغال يدوية ! لم أكن أعرف أن الطفل منا يمكن أن يكون له
أب وأم ! فأنا منذ وعيت لم أر لهما أثراً وكذلك من كانوا معي ! عرفت أن الدار
التي نحن فيها اسمها ملجأ الأيتام بالزقازيق ! وأنا جميعا أبناء زنا قد عثروا علينا عند
أبواب المساجد وفى صفائح الزباله ! ومنا من جاء أهله فسلموه بأنفسهم ونسوه !
كنت ولدا أعجبك ! من يومى أعرف أن الدنيا تؤخذ بالذراع والباط ! دنيا
كالعاهرة لا تعشق سوى القوى الغليظ القلب المتعافى ! وهكذا صرت بين الولاد يا
مولانا ! أخذ حقى وغير حقى بالذراع ضرب أضرب بحريشة أخربش نطح أنطح
سرقة أسرق كذب أكذب كله ماشى عندي ! والعجيب يا مولانا أن الجميع أحبنى
مع ذلك فصار لا يؤخر لى طلبا من غير حاجة للأذية ! حتى كاتب الملجأ صار
يخاف مني ! سأله عن أصلى وفصلى فنظر فى دفاتره الكبيرة وقال ، إننى منذ إثنى
عشر عاما وجدنى عسكرى انجليزى قطعة لحم فى طول القدم ملفوفة فى ورقة توت
ومرمية فى صفيحة زباله الكامب فسلمها لى بوليس السويس وبوليس السويس
بعثها بسرعة إلى ملجأ الزقازيق ! صرت كل يوم أحايل الكاتب حتى حبكى لى

أشياء جديدة محفوظة عنده فى الأوراق التى تثبت نسبى ! قال إنه أثناء العثور على
لحمى ترددت إشاعة بأن واحداً من عسكر الإنجليز اغتصب فتاة مسكينة من بنات
السويس فحملت منه فلما وضعت أخذت المولود وذهبت به إليه فطرحها فرمته عند
قدميه فلقى به فى صفيحة الزباله !! وأشعلت النار فى نفسها فجاء البوليس وحقق
وكتب المحاضر !! تكدرت نفسى من هذه الحكاية يا مولانا لأن لون عينى أيامها
كان فيه بعض الزرقه ! الكاتب ابن الكلب نشر هذه الحكاية بين الغلمان والولدان
فصاروا يعيرونى بها ! كان ينتقم منى لأننى لم أطاوعه فى الفسق ! أصله كان يوجر
الولد للعساكر الإنجليز ولبعض الناس المنحرفين المصايين بداء جماعة الولدان فينتقى
الولد الذى يعجبه فيعطيه إجازة ليلة واحدة !! المقصود يا مولانا ! كل عيال الملجأ
أولاد زواني لكن العار أن يكون الزانى بالأم إنجليزى أزرق العينين !! ضقت بالحياة
فى الملجأ من كل ناحية ! هربت ! اشتغلت شيئاً على المخططات وماسح أحذية تبع
واحد يعطينى الصندوق والملونة وأعطيه الإيراد كله ليلة لينفحنى بما يشاء ! إنما الغيظ
كان يأكلنى من ذلك الإنجليزى النذل الذى زنى بأمى ورمى بى فى صفيحة الزباله!
قلت لنفسى: مصير الواحد لوطنه فارجع يا ولد إلى السويس شف حالك بها ربما
قدرت على الانتقام من أبك النذل المجهول !! لقينى أولاد الحرام من أبناء السويس
المتعطلين بغير مهن ! قل إننى وقعت فى أيديهم ! فرحت كل الفرح لما علمت أنهم
يعيشون على سرقة كامب الإنجليز ! يدى فى يدكم يا جدعان ! أصبحوا
يصدرونى فى كل الأعمال الصعبة ! نفعت فيها كلها ! ولما اتشرخت حبة عينى
الزرقاء بشوكة السلك الشائك طار من عقلى أكبر برج فيه ! صممت على أن
يكون الانتقام انتقامين ! صرت كالجحش ! أرجع بالسريفة فأعود مرة ثانية للحرق
أو للقتل ! طبعاً يا مولانا ! جئت مرة عند مخازن السلاح ومخازن الأكل والعنبر
الذى يرقد فيه العسكر فى الليل ومعى ثلاث قطط صغيرة شكلها جميل لكنها زرقاء
العيون مثلهم ! دخلت مع العمال فى الزحمة واختبأت ساعة عودتهم حتى جاء
الليل ! كانت القطط مخبأة فى عيى ! فى عز الليل تسللت إلى برميل الجاز ففتحت
صنبوره فأغرقت القطط ثم تركته يسيل على الأرض ! عند كل باب أشعلت النار
فى قطة وتركتها تجرى بأقصى سرعتها كالجحش !! وحينما صرت أنا خارج

الكامب من بعيد استدرت فرأيت النار توجوج وتططق فى خشب وخيام وذخيرة وزيت وحبوب !! منظر الكامب فى الصباح لم يشف غليلي يا مولانا رغم الخراب الذى شمله والموت فيه بالجملة !! صرت ورفاقي أولاد الحرام تدبر أكمة للضباط السكرانين وندس عليهم الفتيات والنسوان المومسات لدحرجتهم إلى مكان مقطوع لفعل الزنا ثم تفاجئ الضابط من الخلف وهو خالع السروال منهمك فى ملذاته فغرز السكين فى جنبه فى قلبه فى رقبته نأخذ ما معه من نقود وسلاح وأشياء تصلح للبيع أو اللبس ونتركه ونمضى ولا من شاف ولا من درى !! هُبَّ للنبى قامت ثورة ١٩ وأنا شاب حلوا ! إنقلب الدنيا يا مولانا من فوق لتحت فعملناها حلوانة فى سلوانة وهات يا قتل يا ضرب يا حرق يا نهب ! وعسكر الإنجليز يسرحون فى شوارع البلد بالمدافع والعربات يفرمون الناس والبيوت والأطفال يسوونها بالأرض !! أيامها قابلت المرحوم عريبي وزوجته المرحومة حل الخالق ! نعم اسمها حل الخالق ! ويقولونها : حلخالق ! هما فى الأصل من عرب سينا وعريبي كان يعمل فى الكامب مع الأورنس ! تعرفنا على بعضنا فى المظاهرات فأصبح يزورنى فى عشة عرشتها بنفسى لنفسى بين عشش الصيادين ! فإذا به رجل طيب ودرويش من دراويش سيدى العتريس ! لخبط غزلى من حلالة كلامه عن العتريس وكراماته وعهده ومنزلته عند الله ! أحببت سيدى العتريس ! صرت أذهب إلى حضرته مع عريبي فأذكر الله واستمع للعهد والوعظ والكلام والذى يهز القلب يا مولانا ويملاؤه خشوعا ! قل إننى أصبحت من دراويش سيدى العتريس لا أترك الفرض يجئ على أخيه ! شيخ العتارسة يرحمه الله كان كالأولياء الصالحين ! سافر بنا إلى السودان والحجاز لنقابل إخواننا العتارسة هنا وهناك ! الله يرحمه أحببى فجعلت نفسى خادمه الأمين أذهب وراءه فى كل مكان فلا أفارقه ولا يقبل خدمة من أحد غيرى ولا يأكل لقمة بدونى !! لم أتشرد إلا بعد موته يا مولانا !! كان أهل الله يعطفون على لفترة ثم انقطعوا !! عريبي سعى وشغلنى فى الكامب شغلة ثقيلة لكننى احتملتها ! والدنيا التى لا تدوم على حال صدمتنى مرة ثانية فى موت صاحبي عريبي تاركا زوجته حل الخالق وبتاً عمرها سبع سنوات !! صعبت الولية وابتنها على ! أخذتهما فى حضنى ! حميتهما من الذئاب ! قل إننى

تزوجت جل الخالق لكى أربى لها ابنتها ! تركت الحجرة المستأجرة لصاحبتها وانتقلت إلى عشتى فجعلتها كالجنة ! سارت الحياة سمنًا على عسل ! أنا فى شغلى من ناحية وجلخالق فى شغلها من ناحية ثانية : تلتقط رزقها من هدمة تغسلها أو دار تكنسها أو شروة خضار تشتريها لتبيعها .عكسب يوافقها !! ورحاب تكبر وخراط البنات يخرطها وكلمة يا آبا تخرج من فيها كالعسل !! الواحد منا مفترى بطبعه صدقنى يا مولانا ! ما كان أغنانى عن الأبوة وعندي رحاب تقولها فى كل لحظة وأشتري لها كل شئ حلو كلما فاض القرش بيدي ! لكنه الطمع يا مولانا ! منى ومن خلخالق أيضا عليها رحمة الله ! أردنا أنا ننجب ولدا أو حتى بنتا ثانية توثق العهد بيننا ! وقد كان يا مولانا والواحد منا يسعى الى قدره بنفسه وإن ظن أنه يسعى لتحقيق أغراضه السعيدة ! حملت جالخالق وجاءت الولادة مستعجلة كالكارثة ! قبل موعدها بشهرين ! وقعت الولية لتلد فلم تقم بعدها ! أصابتها تلك الملعونة التى يسمونها حمى النفاس ! ماتت الوالدة والمولود معاً فانشق قلبى بالطول يا مولانا !! الله لا يريك ما رأيته !! صفصف الزمن علينا رحاب وأنا والأيام !! وكيف أتركها وحدها طول النهار لأخدم فى أولاد الجزم ذوى العيون الزرقاء ؟! الشيطان شاطر وهذه عروس بالغة ! هل أدخلها معى إلى الشغل ؟! سيأكلها الوحوش ذو العيون الزرق !! حاصرتنى المشكلة يا مولانا !! إنها مأكولة مأكولة سواء من العيون الزرق أو من العيون السود !! صرت أطلع من الشغل كالسعران ! وفى الشغل ربع عقلى !! أصلى الفجر أهتبل إلى الله أن يرزق البنية بعريس ابن حلال يستزها : أكاد أكلّم الناس أعرضها عليهم فلا يوقفنى إلا عزة النفس وخوفى من ترخيص البنية !! خمس سنوات على هذا الوضع يا مولانا حتى بلغت البنية عتبة الثلاثين فضاق صبرى على الخوف من همها وهم مسئوليتها !! إنما هو النصيب يا مولانا !! فى ليلة مباركة طاهرة عرضت عليها الفكرة بكل خوف وارتعاشة قلب !! رحبت رحاب وصدق من أسماها رحاب !! أخذتها إلى المأذون وعرضت عليه الحكاية من طقطق لسلامو عليكم فعقدل عليها بشرع الله وتوته توته فرغت الحلوة ! حلوة ولا ملتوتة ؟! ..

أبدا لم تكن ملتوتة ، لم أر فيها أى لتّ أو عجن . قلت :

- "حلوة والله يا عم الشيخ عتريس !".

قال باسم :

- " لو قلت إنها ملتوتة كنت أقول لك : عليك بَلِّ القراقيش : قلت على سبيل

المزاح :

- " أنا مستعد لبلها !".

قال فاشعنا حنكه :

- " فى فرصة ثانية !".

ثم نهض واقفا فنهضت ؛ ومضينا معا ؛ هو إلى حال سبيله ؛ وأنا إلى حجرتى .

ساعات

مثلما حدث ويحدث دائما في مثل هذه اللحظة التي يزدحم فيها فناء الوكالة بشكل غير معقول ، أسبوعا بعد أسبوع ، رأيت الشيخ زينهم العتريس مقبلا نحو البوابة فيما وقفت بباب حجرتي أرقب الزحام الحميم . تكلم مع شوادفي كلاما كثيرا . كان يحمل شكاراة صغيرة من قماش الدمور من الواضح أنها ملانة حتى المنتصف بأعقاب السجائر التي اشتراها من العيال المتشردين . نفعه العكاز ، إذ راح يمدّه فيتكفل بزغد الناس عَرَضًا فينتبهون فيوسعون له برزخا ضيقا يعبره إلى حجرته . تابعته ؛ كانت حجرته مواربة ، وضوء شاحب يطل من جوفها . وفيما أنا منهمك في متابعتة شعرت بأنفاس مع ظلال تقرب مني ، وبيد خشنة تلكنزني في عشم ، فانتفضت مذعورا ، فإذا بي أمام محروس بائع الفجل ..

- " أهلا.. ا.. ن محروس ! "

- " من أكثر ساعة وأنا أمسّي عليك بيدي وانت لست هنا! "

- " ما رايتك والله ! "

أشار نحو حوض الطلمبة :

- " رايتك من هناك ! لما تأكدت أنك لن تراني تركت بضاعتني في حراسة

واحد وحثت أسلم عليك ! معى عربية يد أستأجرتها يوما بليلة من العريجي لأطلع بها السوق إذا !! أهذه حجرتك ؟ وأنت إذن تسكن هنا ؟! عال عال ! خير مفرح! عندك عدة شاي ! "

- " وعندي ! "

وسحبته ودخلت . كان الخانوتي قد ترك عندي هذه العدة البسيطة على أمل أن يجعل قعدته عندي باستمرار حتى لا يضع بوزه في بوز المرأة كما يقول . حين جلس محروس بجوارى على المصطبة قلت له إن العدة موجودة ولكن الشاي بكل أسف غير موجود . فأخرج من جيبه لفة من ورق الجرائد تحوى قدرا من السكر والشاي ، ثم هبط جالسا وجعل يمصص الكوز والكوبتين بالماء :

- " أنا لم اعد أبيت هنا إلا ليلة السوق من كل جمعة ! "

- " فكيف لم أرك ولم ترني ؟! "

- " سألت عليك مليون مرة ! على فكرة ! شوافي سرح بي ولسف لي سيحارتين على المصطبة وسألني عنك أسئلة كثيرة حتى استغربت وقلت له إياك تظنني شيخ الحارة ؟! وفهمت منه أنه خائف منك يظنك مخبراً غشيماً في المباحث ! أكذبت له أنك جدع غلبان على باب الله ! قلت إنني شفتك نائماً ذات يوم على الرصيف ! فزام وهز دماغه ! وحمد الله أنك طلعت ابن حلال كما تصور من رؤياك أول مرة ! لكن عقلي يحدثنى أنه لم يصدقني ! لأنه نسي ما قلته له عنك وعاد فسألني مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى لخبط عقلي فأصبحت أنا الآخر أتحيل أنك في المباحث !! أنت رجل عدم المواخذه تفهم في أشياء كثيرة ومنظرك ليس يدل على أنك من المشردين ! وهل المتشرد يقرأ هذه الكتب ويتكلم في السياسة والفرن ؟! أنا بصراحة لعب الفار في عبي يا صاحبي فإن كنت في المباحث فاعلمنا وشف لنا شغلة معك ! أنا أنفع مخبراً يعجبك ! أجيء لك بالتأهبة من قرارها !! "

ضحكت :

- " شف لي أنت عشرة قروش معك على سبيل السلف . "

بحلق في عيني بإمعان وهو يصب الشاي الأسود الثقيل :

- " جد ؟! "

- " أنا واقع من الفلس ! لا شغلة لي ولا مشغلة ! شوافي كبرت ديونه عندي وسوف يطردني في أى لحظة !! "

بسط ذراعه في وجهي هاتفا :

- " إطمئن من هذه الناحية ! هو لن يطردك أبداً ! هو أساساً لا يتنازل عن حقه ! ما عنده مانع يسجنك في هذه الحجرة حتى يبين لك أصحاب يدفعون الدين عنك ليطلق سراحك ! إنما هو لن يفعل هذا الآن إلا بعد أن يتأكد أنك فعلاً لست في المباحث ! هو متصور أنك تبالغ في رسم الفقر حتى يقتنع أنك على باب الله ! ولك على أن أعطيه حقنة تجعله يثبت على اعتقاده !! "

- " المهم الآن هل ستعطيني عشرة قروش أم لا ؟! "

- " سأعطيك خمسة قروش هي كل ما أقدر عليه ! شرط أن تأخذها بعد انتهاء سوق الغد ! من الغلة التي يكرمني الله بها ! قبل أن أمشي سأمرك عليك وأتركها لك ! يظهر أنني خلقتك ونسيتك !! لم يكن ينقصني في الحياة إلا أنت !!".
وضحك بعمق فاهتز كوب الشاي في يده . وبصوت دافئ فيه كل النبرات الفلاحية الحارة :

- " إنما وحق ذى الليلة ومساها أنني مسرور بمعرفتك ! أنا لم يكون لي أخ ولا أخت ولا صاحب ! وكل من أردت أن يكونوا صحابي طلوعوا لا يجيئون المواعيل ! تخاضهم منجسة ! فلتكن أنت صاحبي ورقبتي فداك طول ما أنت ماشي معي بصداقة ونية صافية !! حذ ! هذا نصف فرنك تفطر منه وتشرب الشاي وسيجارتين فأنا جربت الحاجة وأعرف ذلك ! ربنا لا يرينا اللذ أبدا !!".
ثم وضع الكوبه ونهض واقفا :

- " سأعود إلى بضاعتي لأنام بجوارها وأرشفها بالماء ! أشوفك بكرة !".
ومضى قبل أن أرد عليه . وكان نصف الفرنك قد استقر في يدي كالغنيمة الكبرى ، وتفتحت له في الحال عشرات الأمانى ، ثم دهمني في الحال شعور مضاد تماما لصرفه في أى غرض عاجل ، شعور يبت في أعماقي نية أكيدة في الاحتفاظ به طويلا ، فلربما قدرت على الاحتفاظ بأى قرش يضل طريقه إلى يدي ، هدفي الأول والأخير أن يجتمع في جيبي حفنة قروش وباحلدا لو كانت شلنات وبها وعدى لو كانت برايز لكي أدفعها لشوادفي يخصصها من حقوقه عندي تلك التي أصبحت أهرب من محاولة حسابها أو تذكر عدد شهورها بخوف اللعر والروع . إننى لا يمكن أن أطمئن لتسامح شوادفي ، لعلمي بحقيقة شخصيته ، لا يمكن أن يعفني من ملهم واحد ؛ أشعر أن سكوته وعدم مطالبتى بالمرّة ليس إلا نوعا من تسمين العجل قبل ذبحه ؛ يضعني في موقف الإضطرار إلى قبول أى عمل يكلفني به تخلّصا لحقه وسداً لرمقى ، إن احتملت الجوع فهيهات أن أحتمل غضبته الأخيرة التي لا يعلم سوى الله مداها وما يمكن أن تسفر عنه من شر ؛ ثم إننى - أساسا - لم أعد قادرا على احتمال النوم ماشيا على قدمي في شوارع المدينة التي بت أملها بل أوشك أن أكرها لولا تذكرى بأنها كثيرا ما احتملتني صبح مساء دون أن يعترضني عسس

أو شرط ودون أن يضا يقنى متطفل سمج ؛ لكن من لى بجلد سميك يحجب عن ضلوعى قرص ولسع الهبوب الليلي فى طوبة المقبل على الأبواب ! بدنى يتشعر الآن وجسمى يتنفض لجرد التذكار فما بالك لو حدث ١٩ أدفع عمرى الآن فى سبيل أن أعرف ما الذى يدبره لى شوادفى ! ما هى اللحظة السرية التى يضعها أو لعله قد وضعها لى بالفعل وأصبح قاب قوسين أو أدنى من اقتناص فرصة للتنفيذ . ولكن ، ماذا لو تركت هذه المدينة منكلاً بشوادفى كما فعل سلفى ساكن هذه الحجرة سابقاً ؟ فى بلدتنا يقول المثل ، حين تتحزب الأحوال بالإنسان ويشتد به العوز : " غير العتبة ! " ، أى ابحث عن عتبة بيت جديد تسكنه أو بلدة جديدة تبحث فيها عن متاع . وهاهى ذى مدينة دمنهور الحبيبة قلبت لى ظهر الجن ، لعلها أشأمتنى ؛ جفتها مزهوا مؤملاً فإذا هى لا تتسع لى إلا شريداً بائساً ضالاً ؛ لك الشكر يا مدينتى على كمال حال ، فالحق أنك لم تقسين على قسوتى على نفسى فعلى الأقل وجدت فىك من احتوى بعض محتى وحمل عنى حل همومى ، ووجدت فىك جمعية للأدباء ومقهى حميما يلهمهم فكأنهم عائلتى التى لا يفهمنى أحد سواها ؛ هى الوحيدة التى لن تشتم من رثانة توبى أو تشتمنظ من خشونتى أو تزنى بمقدار ما أملك ما أصرف ما ألبس ما أشغل من مركز ؛ ولا بد أننى واحد بين أعطافها دربا أسلكه إلى أن أصبح كاتباً ذات يوم .. ها أنت ذا يا دمنهور ترين أننى غير مستطيع هجرانك مهما تأزمت بى الأحوال ، ثم ، ثم ، ثم كيف أهجرك وفيك قلب بدرية ؟ كيف نسيت أنا هذا ١٩ كيف فاتنى اكتشاف أننى كنت فى الواقع قد أحببت بدرية ١٩ ما أنا متأكد منه الآن تأكدى من سريان هذا النفس فى صدرى أننى أحبك بالفعل يا بدرية ؛ لا ، لست أحبك لأنك عطفت على دون أهلك برغم يقينك من موقفهم منى ؛ لأنك زودتنى من ورائهم بوسادة ولحاف وبطانية وملاءة ونفحتنى مبلغاً كبيراً جداً بالنسبة لى ولمصروف يدك ؛ كل هذا وإن كفى ليس وحده دليلاً على نبل قلبك ودفء مشاعرك ؛ إنما الدليل القوى هو مالمسته حال اختفائى كلى بداخلك ؛ الآن فحسب أستحلب مشاعر تلك اللحظة السحرية الخيالية الملهة التى إن رويت لى ما صدفرتها مع أنى عشتها ؛ الحق أنى غير مستطيع وصفها ؛ وكيف للجنين أن يتأتى له وصف الرحم من أمه وهو بضعة منه ؛ اللعنة ؛

اللعة ؛ اللعة على ذلك الذى اختطفها منى أياً كانت شخصيته ؛ نعم أنا فى منتهى
الإنانية ولست أملك إلا أن أكون ؛ اللعة عليه يا بدرية لو أشعرك ولو بالمضر فى
أعماقه أنه يتنازل لكى يقبل شفتيك الغليظتين هاتين الحبيبتين ؛ شفتاك إذن لأرق
من غلظة مشاعره وتغن قفاه ؛ ولو قد كان مستنير المشاعر لانحنى رакعا على
شفتيك بدفق الحنان والمشاعر السخنة الفياضة السائلة من قمم جبال عينيك الشاخنة
الدانية فى آن . آه .. بدرية .. بدرية .. بدرية ..

وهكذا اطلع النهار . تنبهت فجأة إلى اللون الإردوازى الذى صبغ حدران
الحجرة عبر زجاج الشباك . وكان اللفظ المتكاثر منذ قليل وكأنه فى قاع بعيد من
ضمير الكون قد ارتفع واتضحت أصواته ونداءاته وأهازيجه ورنين صنجيه وخوار
مواشيه وفحيح بوابيره وشخايل خيوله وقرقة عرباته . تمطعت فاستويت جالسا
فهابطا عن المصطبة . فتحت الباب فإذا الفناء قد فرغ تماما أو كاد من زحمته . جو
الفناء يعقب أنفاس الصبح الرطيب وبروائح طازجة فيها سمن مقدوح ويض مقلى
وفول مدمس فواح وطعمية وبقدونس وجرجير وليمون بنزهير ولبن صابح . جميع
الحجرات مواربة . أما حجرة الحانوتى والداية فمفتوحة على مصراعها ، يوش فيها
صوت وابور مشتعل وصوت كركبة ، حجرة الشيخ زينهم هى الأخرى نصف
مفتوحة وفيها هى الاخرة حركة ..

إن هى إلا برهة حتى فوجئت بالханوتى يخرج مرتديا ثوبا نظيفا أبيض اللون
شفافا هفهافا ؛ وقد حلق ذقنه ومن الواضح أنه استحم منذ قليل ؛ يحمل على كف
يسراه صينية دائرية من النحاس الأصفر اللامع ارتصت عليها مجموعة من الأكواب
الزجاجية ؛ وأمسك بقبضة يمناه برادا كبيرا جدا من الزنك أزرق اللون يتدافع
البخار من بزبوره . جعل يمشى نحو البوابة فى مخطو وييد معلقا السيجارة المشتعلة
بين شفتيه محركا شفتيه مع ذلك بتمتمة لعلها ختام صلاة أو دعوات . عرفت أنه
سيسرح بالصينية والبراد فى السوق ، حتى إذا ما فرغ البراد الكبير قفل عائدا إلى
الحجرة ليجد أن صبيحة الداية قد جهزت له برادا آخر وكوبات أخرى نظيفة ، ما
عليه إلا أن يحمل هذه تاركا تلك عائدا إلى السوق . خرجت إلى إفريز البواكى ؛
وقفت فاتحا صدرى للهواء العليل ؛ شعرت بجفونى تتباعد عن بعضها وتتخلص من

· عماص لزج خفيف . رميت بصرى إلى بعيد ؛ إرتفع متخطيا الجدار البعيد للفناء
مستقراً كعصفور قلق على حافة شرفة المنزل المواجه خلف جدار الفناء يفصلهما
شارع عمومى . كانت المرأة الحلبية البيضاء الموردة الخدين قد ارتفعت حافة الشرفة
يلمع وجهها كالجنه وسط غابة من الشعر الكثيف الضارب إلى الشقرة . رفعت
يدها يساعد بض انحسر عنه كم العبادة المنزلية الواسعة ، فحيتنى بحركة سريعة
عابرة، تلقيت تحيتها بحركة مثلها وقد خيل لى من فرط السعادة أن الدنيا كلها قد
رضيت عنى .

متاع الغنم

لمحت قطيعا من الأغنام يعبر الشارع أمام بوابة الوكالة إستمر متصلا غير منقطع لدقائق طويلة جدا حتى بدت بلا نهاية . فى أعقابها ظهر راعيان وبضعة أطفال فى يد كل منهم خيزرانة طويلة سرحة . إنسلخ عن القطيع رجل هضيم الوجه مكبلط للملامح أسوانى البشرة يتدلى على شفثيه شارب كثيف مدبب الطرفين بعوجة كمحراز العنقى ، وفوق رأسه لبدة كالبرام مقلوطة ، جبهته ضيقة ، وعينه كذلك . يربش الراعى فى مدخل البوابة يحبط بطرف العصا على الباب هاتفا :

- " ياعم الشيخ زينهم ! " .

فكأنما كان الشيخ زينهم فى انتظاره ، إذ خرج فى الحال :

- " إتفضل يا أبو هوانه ! " .

دلف الراعى داخلا :

- " إتصبح بالخير يا معلم شوادفى ! " .

ثم جلس أمامه . كان شوادفى بمروح على نار القواخ تحت كوز الشاى بطرف سرواله وفى نفس الوقت يطرح فى فمه لقيمات مجهولة الهوية يسحبها من حواراه فى دروة الخائط . قال من لحال حنكه للمشغول المضموم :

- " نهارك سعيد يا أبو هوانه ! حماتك تحبك ! " .

فرفع الراعى لبدته وأخذ من تحتها علبة دخانه الصفيح ففتحها فأخرج منها ورقة سولينان صغيرة مطوية على قطعة أفيون كحبة الفول ؛ نزع بظفره حرفا قدمه نحو فم شوادفى . قنطف هذا أصبعيه وأخذ القطعة فألصقتها بظفر إبهامه حتى ينتهى من الأكل ، وكان الشيخ زينهم قد وصل إليهما باسم الوجه مركزا بصره على ظفر الراعى والورقة السولينان مرددا فى عشم كبير :

- " صباحنا نادى بإذن الله ! " .

فلحق به ظفر الراعى وقد ظلله حرف الأفيون . فمد الشيخ زينهم بوزه وأطبق بشفثيه على الظفر ومصه ثم تركه وصار يتلمظ هاتفا فيما يجلس على طرف المصطبة :

- " وفّر شايك يا شوافى ! أن الشاى قادم من عندى حالا ! بسرعة يا أولاد! "

هكذا صاح موليا وجهه نحو الفناء . فشخط فيه شوافى :
- " لم نفسك يا زينهم ! "

صاح الشيخ زينهم فى اتجاه حجرته :
- " خلاص يا أولاد بلاش ! "

ومد يده لياخذ الكوبه من شوافى . قال الراعى وهو يواصل الرشف بلذة عتيقة
أريية :

- " كيف الحال هذه الجمعه يا عم الشيخ زينهم !؟ "

- " بركة ربنا كثيرة ! "

- " أطلّ طلّة !؟ "

- " وجب ! "

تقدم نحو حجرته وهو يتنحى بشكل مبالغ فيه . دلف :
- " صباح الخير يا أم أحمد ! "
- " يسعد صباحك ربنا ! "

هكذا ردت رحاب من وقفتهما المنزوية فى ركن قصى . أرسل الراعى نظراته إلى الركن الذى يقوم فيه جبل الخبز الناشف ، صار يمسحه بنظرات فاحصة مدققة ، من أسفل إلى أعلى ومن يمين إلى شمال ، ويعوج رأسه لينتير الأركان وعمق بنيانها ، يكاد يحسب عدد الرصات المتداخلة المشابكة رغيفا رغيفا ؛ ثم استدار نحو الشيخ زينهم ما سحا براحة يده :

- " صل على النبى يا عم الشيخ زينهم ! "

- " عليه الصلاة والسلام ! "

- " زده صلاة ! "

- " اللهم صل وسلم وبارك عليه ! "

- " دفعت لك عشر برايز ! "

- " قلب نظرك جيدا قبل أن تتكلم ! "

- " قلبت بما فيه الكفاية !".
- "تبقي ظلمتني وظلمت هؤلاء الغلابة الشقياني ن! هذا عرق أيام طويلة أنا وأولادى فى عز الحر من كفر إلى كفر ومن دار أبيعه بعشر برايز ١٩ لو كنت سارقة ما رضيت بهذا السعر ! خذه وقد وصل ثمنه أما أن تتمطع وتقول عشر برايز فهذا حرام عليك والله ! حرام عليك يا رجل !".
- طوح الراعى ذراعيه فى الهواء بحركة فنجرة :
- " أخذت العشرة واثنين ١٩".
- " أركب القطار السريع حتى تحصلنى !".
- " العشرة وخمسة ولا مليم بعدها !".
- وشفع قوله بالتحرك نحو الباب فى تباطؤ واضح . فشجعه الشيخ زينهم على الإسراع فى الإنصراف ليوحى إليه إن الموافقة على هذا السعر مستحيلة ؛ بقوله :
- " أقعد أشرب الشاى !".
- " تشكر تشكر !".
- ومضى يجر نفسه ببطء ولا مبالاه ، والشيخ زينهم فى أعقابهِ يردد فى ثقة مطمئنة
- البال :
- " مع السلامة ! شرفت يا أبو هوانة !".
- وإذ أوشك الراعى على الخروج من البوابة تلقفه شوافى :
- " تعالى يا أبو هوانة !".
- فارتد الراعى على الفور ؛ ثم جلس :
- " نعم !".
- " أنسيت أن الشاى ثلاثة أذوار يا عرباوى يا أهبل ؟ شربت منها دورا واحدا! تظنها وكالة من غير بواب تدخلها وتخرج منها على هواك ١٩ خذ !".
- تناول الراعى كوبة الشاى ضاحكا :
- " كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته !".
- " ولكن كيف تخرج وأنت غير مرضى ؟ أنت قلت له كم ؟".
- " مائة وخمسين قرشا ! ماهية رجل متعلم فى الشهر !".

- " وكم تريد أنت يا زينهم ؟! "

- " ستين بريزة !! " .

وحدد ذلك الرقم بأصبعه المشرعة في الهواء . هتف الراعى فى استهوال :

- " أشترى بها أردب من الشعير والفلول ! " .

- " عدم المواجهة هذا أحسن من أردبين من الشعير والفلول ! غنمك تأكل

طول أكثر من شهر ! هذا علف أصلى ! قمح مخلوط بعضه باللبن وبعضه بالردة !

أنت تعرف ما أقول ! " .

وحتم الشيخ زينهم قوله بنظرة حاسمة واثقة . فتدخل شوادفى لينهى المسألة :

- " صلى على من لن تراه فى حياتك أنت وهو !! " .

- " اللهم صل عليك يابنى ! " .

هكذا نطق الإثنان . قال شوادفى للراعى :

- " نقسم البلد بلدين ! إددع له ثلاثين بريزة ! " .

- " كثير والله ياعم شوادفى ! " .

- " صدقنى أنت الكسبان ! لاتضيع البيعة ! إن العيش الذى ستأخذه يزن أكثر

من أردبين من الدقيق العلامة ! أنا أبل الرغيف منه وأكله كأنه القشدة ! سوف

تبيض فروة حرفانك تصبح كالحرير ! " .

- " أخذت العشرين بريزة يا عم الشيخ زينهم وأمرى لله ؟! " .

- " يفتح الله ! " .

- " خلها خمس وعشرين يا أبا هوانة ! إياك أن تفتح فمك ! " .

- " أمرك يا عم شوادفى ! هاك المبلغ ! " .

وسحب من سيالته منديلا محلاويا ، فك عقدة فى طرفه فانقرطت لفة من النقود

متكررة فى بعضها . سحب منها حنبيهن ونصف ، رمى بهما فى حجر الشيخ

زينهم ؛ الذى تردد قليلا ، فأسكتته نظرة حازمة من شوادفى ؛ فقبض على النقود

فدسها فى جيبه :

- " تعالى شيل يا عم ! " .

نهض الراعى فسلم على شوادفى بيد مضمومة على بريزة فضية ، ثم مضى .
وفتش الشيخ زينهم فى سيالته عن بريزة فضية فوجد شلنين قدمهما لشوادفى ؛
وفتح علبة دخانة وراح يلف سيجارة ؛ ما كاد يتمها حتى دخل الراعى معه صبيين
شديدين يحملان جوالين كبيرين مطوين على جوالين أصغرين . دخلت الأجلة
فارغة وخرجت ملأنة لأكثر من ستة أذوار على امتداد أكثر من ساعة . وكان
الشيخ زينهم يراقبهم فى شئ قليل من الحق لشعوره بأنه قد غُن لأنه لم يقدر حجم
الثروة عنده جيدا ، لكنه كان يشيع الأجلة الخارجة باهتسامة لزجة مرددا بلهجة
ذات معنى :

- " خير وبركة ! خير وبركة ! كل شئ نصيب ! هنيئا وشفاء للغنم ! مطرح
ما يسرى يمرى ! " .

بعد قليل خرجت دميانة مرتدية ثوبا أسود شفافا يكشف عن ثوب تحته فاتح
اللون ؛ ووجهها يلعب تحت المنديل أبو أوية وترتر ، والطرحة مزاحاة إلى موحرة
رأسها منطرحة على كتفيها ؛ فيما تمسك بمقود القرد الصغير الذى راح يتسحب
حواليها ويتنطط ظلما منه أنه امتلك الحرية فيجذبه الجنزير بقسوة فيردعه منزويا فى
ظل ثوبها . رمت صباح الخير ثم انزلقت من البوابة ؛ فغمغم شوادفى :
- " تعب القرد يا ولداه ! " .

علق زينهم :

- " جبال الكحل تفنيها المراد ! " .

تبعها قطيطة حاملة على رأسها قفصا ملأنا بالدجاج . ثم ظهر فى الفناء قادما
من جهة الطلمبة شاب طويل القامة نحيف يرتدى سروالا ملطخا بالبوية وفانلة بغير
أكمام ؛ وعضلات زنديه تلمع تحت نقط من العرق . كان متجها إلى البواكى ،
حيث انعطف على حجرة الشيخ زينهم فصعد السلم القائم بجوارها إلى الحجرة التى
فوقها ، فعالج قفل بابه ففتحه ودخل . غمغم الشيخ زينهم :
- " أبو فرشه لم يخلص بعد !؟ " .

- " خلصت روحه ! طول الليل يشتغل فى غنيمة السوق الفائت ! هو الوحيد الذى أصبحت أتهدد من وجوده فى الوكالة ! يعرضنى للخطر بالأونطة ! أن لم يعتدل معى اليوم فسأسلمه بيدى للبوليس ولكن بعيداً عن الوكالة !".

خرج الشاب من حجرته حاملاً علبة البوية الجديدة من سلكها المقوس ؛ هبط السلم فى قفرتين ، إتجه نحو الطلمبة ، إنعطف يساراً فى كوعه حادة ، إختفى . ذهب عقلى وراءه ، صممت أن أتبعه ولكن بطريقة خفية . سحبت القوطة بسرعة واندفعت خارجاً نحو الطلمبة . همست بصباح الخير رافعا يدي غير عابى بالرد . إنعطفت بسرعة مثلما انعطف الشاب . قادتني العطفة إلى عطفة أخرى عكسية ، ووجدت فى مواجهتى بوابة صغيرة لمبنى شبه مستقل عن الوكالة مع أنه من ضمنها ؛ مكون من طابقين بعدة شبايك ومشربيات . كانت البوابة مواربة . ملت برأسى ونظرت فى الداخل ، فإذا بى أمام يشبه الإسطبل أو الحظيرة الواسعة له باب مطل على شارع خلفى نافذ فى قلب السوق مباشرة ، وباب آخر فى جدار جانبى يفتح على للمزارع البعيدة . رأيت مجموعة أبقار وجواميس وحمر مربوطة فى أوتاد أمام مزود مليئة ببقايا الحبز الناشف لا شك أنه من حبر الشيخ زينهم . كان الشاب أبو فرشه منهمكاً فى تقليب البوية ، على وجهه نظرة استمزاز من رائحتها النفاذة ، وقد راح يضيف إليها بعض سرائل يقلبها فيها ثم يعود فيشمها ، أخيراً وقف ، أمسك بالفرشاة المبططة التى تستخدم فى دهن الأبواب والنوافذ إتجه إلى حمار منفصل خلف الباب يظهر منه عجزه . كان لون الحمار أبيض كالقطن ؛ ما إن اقترب منه الشاب حتى جفل ونفر مغيراً وقفته مثيراً ضجة نافحة بمنخرية ؛ فإذا برقبته ورأسه ونصفه الأعلى الأمامى كله أسود قائم . أمسك الشاب برقبة الحمار فلواها فاعتدل الحمار كما كان ؛ فراح يغمس الفرشاة فى علبة البوية ويلهن بها جسده الحمار تاركاً الفرشاة تروح وتجي على جسده الحمار فى نعومة وسبولة ليتحم الأسود وتخف المساحات البيضاء شيئاً فشيئاً . ألفتى نظرة سريعة على الأبقار والجواميس فلاحظت أن معظمها مبرقش بالألوان الزاهية ، فالبقرة الحمراء يوجد على رأسها ورقبتها شرائح بيضاء . وأما الحمر فقد كان بعضها يلمع ومن الواضح أن البوية لم تجف بعد تماماً ؛ وأنها بعد قليل ستتمرغ فى الروث والتراب فيزداد لونها قتامة .

أبقت في الحال أن كل هذه الحمير والأبقار مسروقة ؛ فانسحبت على أطراف أصابع قدمي عائدا بظهري إلى الظلمة حيث أدرتها بهدوء وبصوت خافت لأتمكن من متابعة شوادفي وزينهم اللذين ارتفع صوتهما فجأة وسط موجة من الضحك العميق دلالة الإبتهاج الحقيقي كان زينهم يرد خلال ضحكاته المكتومة كأنه سيلفظ أنفاسه بعد برهة :

- " أعرف أنك مفترى كبير ! أنت متخصص في بيع البهائم المسروقة لنفس أصحابها المخروب ببوتهم !! والله إنى لأخاف أن تبيعنا ذات يوم واحداً واحداً ! تبيعنا لأنفسنا !!".

يرد شوادفي بجدية هائلة واثقة :

- " لاطمئن ! لن أفعل هذه الخيبة أبدا ! لأننى لن أجد من يشتري التبعين فيكم بمليم أحمر ! لكن لأجل الصراحة أنا بذات نفسى مستعد لأن أدفع مال الدنيا كلها فى المحروسة ابتك الكبرى أمينة ! هذه هى الجوهرة الوحيدة فى وكالتى !! أما بقيتكم فلا يليق بهم إلا صفيحة الزبالاة أو كوم السباخ !!".

إنطلق صوت ضراط قوى لكنه منغم ومكتوم كأنه جملة موسيقية طويلة معزوفة بمهارة وحرفة . فشخط شوادفي بصوت متجهج جدا :

- " قم داهية تفرق ! هذا عرق الناس وشقاؤهم تنن فى بطنك !! لو كان من عرقك وشقاك لجاء عطر الرائحة !! منذ متى لم تشخ على روحك !!".

حزق الشيخ زينهم حزمة مسموعة اختتمت بجملة قصيرة من ضراط خاطف ؛ أتبعها بقوله :

- " منذ رأيك !".

بغيط هازل كهين قال شوادفي :

- " يومنا فل بإذن الله ! بدأناه بالضراط التتن فلعله ينتهى بالخراء المعطر ! قم الآن فاصلح الفأل ودحرج لنا زبونا أو زبونين ! فى الضحى سنفتح الباب المطل على الخلاء ويستطيع أى زبون أن يدخل ليتفرج ويجس على كيفه !".

فى احتجاج جاد قال زينهم :

- " أتعب روحى والمعلم نائم فى حضن الجارية ؟ فليقم يهز لحمه ويشوف شغله ! أتعب روحى لماذا ؟ لكى يغمزنى بثمن ورقة دخان ؟ بناقص ! أشبه نفسى بالبحان ؟! المعلم رمضان عريجة زمانه باع البيعة كلها فى زحمة الليل دون أن نشعر !! "

- " لا ! هو تصرف فى شغل وداد الغازية فحسب ! ثلاث حنت جاءت عن طريقها من حوالى شهر ! وليلة أمس جاعنى ناس من أصحاب هذه الحنت ! إتفقوا على المبيت وفتحوا السيرة معى : سرقت مواشيهم قبل شهرين من قلب غيطانهم والشمس طالعة فلقوا أسواق البلاد بحثا عنها وأخيرا جاعوا لسوقنا لعلمهم يتعرفون عليها !! سألونى بحكم احتكاكى بسوق كبير كالوكالة إن كنت سمعت شيئا عن حادثة كهذه ؟ وأظهروا استعدادهم لدفع حلوان لمن يلهم ! أنكرت معرفتى بأى شئ لكننى فى الليل أرسلت لهم رمضان عريجة ليقلبهم وينهى الأمر معهم ! قبل الفجر كان الملعون قد قبض الحلوان بالفعل وأوصاهم بالعودة إلى بلدتهم لأنهم فى الضحى يجدون مواشيهم مربوطة فى نفس المكان الذى سرقت منه !! وهو الآن ليس نائما فى حضن الجارية يا مغفل ! هو الآن يراقب صبيانهم وهم يعودون بالمواشى إلى أماكنه !! "

سمعت صوت طقطقة ركب الشيخ زينهم أثناء وقوفه :

- " توكلنا على الله ! "

لحظتُ مررت بهما فى الاتجاه إلى حجرتى . إرتديت ثيابى وخرجت دونما هدف محدد . عليكم السلام ورحمة الله وبركاته خرجت من حنك شواذفى مملوءة بالاحترام ؛ أبدا أبدا ليس فيها رائحة التريقة أو رائحة الشر ؛ مماطمأننى بعض الشئ وألقى الرعب فى قلبى فى نفس الوقت .

رسول من جهنم

جبهتنى ضجة السوق وزحمته الكثيفة البهيجة ، وكنت قادما من وسط المدينة بعد تصعلك شريد استمر طوال الليل سائما من جو الحجرة المقبض فى الوكالة تحت ثقل التوحس من شواذفى ومن غمزاته المدببة المولدة . كنا فى الضحى ولم أكن راغبا فى دخول الوكالة رغم أوبى إليها شكل تلقائى لم أكن قصدته . إنعطفت يمينا نحو المزارع البعيدة . السوق كبير جدا ولا تبدو له نهاية ؛ فروشات متجاوزة : حبوب وقصب واقمشة وحضروات وطيور وأشياء لا تخطر على البال . كتل مكتظة متلاحمة متداخلة ؛ بين البائع والبائع أكثر من بائع ، وحول كل بائع زحافات عديدة . إنها حيل الباعة الخبيثة المجربة ، فمشت الأقمشة سينتهز الفرصة ويشترى لوازمه من البائع الجاور له مباشرة ؛ واذا يرى صانع الخواتم بجواره سيتشجع على صنع خاتم له ؛ وسيبى الجزار يتحللها باعة البصل والجرجير والطماطم . وهناك على مشارف البصر البعيد جدا سوق خاص بالماشية والأغنام والحمير له سور سلكى شائك وحراس وأصحاب الأرض يجمعون الأرضية من شاغليها كل حسب المساحة التى يشغلها ؛ يضحج بالحركة ؛ تصل رائحة روثه النفاذة إلى مساحات شاسعة تذكر الأنوف برائحة الحليب والقشدة والسمن واللحم المسلووق . إنعطفت ثانية مع جدار الوكالة ، ثم إلى عطفة ثالثة نحو بوز البناية التى تبدو مستقلة عن الوكالة مع أنها من ضمنها . ها أنذا الآن أمام بابها الخارجى الذى رأيت من الداخلين بوابة ثقيلة مصممة غائصة فى منحدر من الأرض ؛ البوابة صارت ملتحمة بطين الأرض الصلب . هذه البناية إذن - فيما بدا لى الآن - كانت حظيرة الدواب التى يجى بها المسافرين الذين ينزلون للمبيت فى الوكالة فى عصرها الذهبى لحضور هذا السوق ؛ إنها إذن لعمارة كبيرة ليس فى مكنة عصرنا إنجاز مثلها على هذا النحو الدقيق المتين الجميل برغم جور الزمان ؛ حقا إنه لمن المؤسف والمضحك أن مثل هذه العمارة التاريخية الضخمة تحول فى العصور الحاضرة إلى ملكية خاصة يترأسها واحد كشواذفى يحكم فيها بأمره يحولها إلى مباءة فسق إلى دولاوب يصب المال فى يديه . أخيرا وصلت إلى نهاية الجدار ، حيث يطل دولاوب الآخر طريق زراعى ضيق يخترق ساحة السوق يتسطرها

يتحول إلى جزء من مباحج السوق بتسهيل أعماله . بوابة ضخمة جدا ، مغلقة من الداخل بدرفيل من الحديد الصلب السميك ..

عبرت الطريق الزراعى إلى الشطر الآخر للسوق ، حيث يترامى فى نهايته سوق المواشى . لحث أحمد بن الشيخ زينهم وأخيه العزيس واقفين على جنب الطريق أمام قفة مغطاة بخرقه حلقة ، ثم مالبت الشيخ زينهم العزيس أن ظهر أمام فرش أحد الباعة يلقي تعويذته المعتادة التى لها فعل السحر فى قلوب الباعة الغرباء وبالذات ، أولئك الذين يستدرون الفأل الحسن ولو بغالى الثمن . نفحه أحدهم ملء قبضة اليدين من بلح العجوة فى ورقة جرنان ؛ ونفحه آخر قرشا ؛ ثم توقف أمام سبية الجزار فاردا حجره ؛ فألقي فيه الجزار بأشياء غريبة : مجموعة مواسير مكسرة ، وبقايا عفشة الذبيحة كالفشة والمصران والطحال ونشارات من الدماغ كان من المفروض أن يرمى بها للكلاب المقعبة على مقربة منه تزوم بهراسة ويأس فيما تصب النظرات النارية على الشيخ زينهم . بعض الكلاب راح يتمسح فيه يتملقه ظنا منه أن الشيخ زينهم يحملها لمثله .

وقفت أنفرج على بائع الطرح والمناديل والغوايش الملونة من النايلون ، تتحلقة طوائف من النساء والصبايا والأطفال . لصقه مباشرة سوق القماشين : صف طويل أشبه بالمخيم من تعريشات على هيئة دكاكين أو عشش صغيرة من قماش الخيم مشدود على اعمدة وقواطع من الحديد والخشب مغروزة فى الأرض . ما إن توقفت أمامه حتى لحث محمد أبو سن منهمكا وحده فى إعادة ترتيب الأثواب فى سرعة ولخمة . السلام عليكم ؛ فانهقد لسانه من هول المفاجأة . إعتدل مسلما على بحرارة ، ثم سحبني إلى الداخل . هل أنت وحدك هنا ؟ هكذا سأله . فقال إنه دائما يطلع الأسواق وحده وهذا أسوأ ما فى الأمر ..

- " ليتنى عرفت إذن لجتك من الفجر !"

- " تشمّر إذن وساعدنى ! وراءك شىء ؟"

- " لا !"

- " على بحيرة الله ! خللك معى !"

أخذت الزبائن تهل وتكاثر ، لأن محمد بدأ يتفرغ لها بكامل انتباهه . ليس هناك زبون يقف أمام محمد أبو سن ويمشي دون أن يشتري حتى لو كان غير راغب في الشراء حتى ولو كانت نقوده ناقصة فإنه على مقاس النقود تدور المفاوضات . لست أدري ما هو السحر الخاص الذي يجعل أبا سن يضع الزبون في الحال في حال المشتري الجاد في الشراء ، يحكم حوله الحصار يجعل الشراء رغبة حقيقية عند الزبون العابر . إنعكس هذا على ، فصرت كالنحلة صاعدا هابطاً بالأنواب وفردها وعرضها فيما هو مندمج في المفاوضات حول نوعيه الأصواف والتيال والحرير مستهدفا مبيعات كبيرة ، وإلى أن ينتهي من القياس والقص واللف والحسب أنصرف إلى بيع الأشياء الصغيرة والدقيقة وما أكثر زبائنها : الطرح والمناديل والأزرار وشلل الخيوط الملونة وما إلى ذلك ..

- " يوه ! بسم الله الرحمن الرحيم ! أهو أنت ؟ لآزيك ! " .

رفعت عيني عن ثوب الخبر ذى اللون الأسود الشفاف . إلتهمتنى فوهتان مفتوحتان كجورتى نار فى قلب اللهب فى كل منهما دويرة فحم صغيرة . أعينان هاتان ام جناحا طائر مفزع من طيور جهنم ؟ الكحل زاعق على الشيطان كرماد تطرده الحرائق فى العينين الطافحتين بلون سماوى مشوب بلون الشفق ؛ الإحمرار فى العينين انعكاس لحمرة خديها الأسيلين . يا الهى ما هذا الجمال الوحشى ! أهى عروس النيل أم الجنّة النداهة ! الوشم نقطة صغيرة خضراء فى منصف ذقنها ، والمنديل أبو أويه المشغول بالفل والترتر يحيط جبينها الوردى كاشفا عن شريحة من الشعر الضارب إلى البنى اللامع ؛ الحنك واسع والسن باسم وبين السن والسن فراغ لطيف ؛ الشفتان مكتزتان كحبتى فراولة ناضجتين ؛ القوام فارغ ، والجسم ممتلى فى غير ترهل ؛ كل شئ فى جسدها مغر بوضوح قاطع ، الثديان والجذع والأرداف المعروطة كل ذلك مجسد تحت ثوب أبيض تحت ثوب آخر من الأسود الشفاف ذى كورنيش فى الذيل . على صدرها عقد من حبات العقيق الحر ، وفى الأذنين قرط من الذهب على شكل مغرطة الملوخية ؛ فى المعصمين مجموعة من الأساور مكتومة الشخلة لاحتوائهما معصمين بضين ويدين كالقشطة الطازجة . صرت أنظر إليها مبهورتا وقد خيل لى أنها من عالم الحوادث اللذيذة جاءت فى مهمة

عاجلة . أخيرا قلت بريق جاف ، محاولا تقليد محمد أبو سن باستعارة لهجته المرنة
الفياضة بالدفء الصادق :

- " أأمرى ياستى !".

إنخنت نظراتها قليلا فغمرتنى فأنخنت بدورى من تقلل الكهرياء اللاآفة .
رفعت بصرى ثانية فرأيتها تبتسم فيما تشير إلى أثواب الحبر :

- " فرجنى على هذا الثوب !".

نزعت الثوب من وسط الرصّات وجئت به إلى البنك ، فردته بطريقة الباعة
المحترفين . قالت فى صوت حاد يخلو من أى شبهة :

- " بكم الطرحة منه ؟".

وكان أبو سن منهمكا فى تدوين حسبة على لوح من الورق المقوى الذى تلتف
حوله أثواب الشمس ، فرد عليها بسرعة من خلال انشغاله فى الحسبة :

- " بثمانين قرشا ياست الكل ! ولأجل خاطر عيونك بخمسة وسبعين فقط !
نقطع واحدة أو اثنتين !؟".

حولت نظرها إليه فهدت كحوراء ساحرة :

- " كنت أطلب واحدة ولكن لدورك أطلب اثنتين ! واحدة لى وواحدة
لجذتى !".

فى لذة فائقة شرعت أقيس بالمتز؛ كل طرحة مزين ونصف ، وقبل أن أقطع
بالمقص نظرت إليها محركا أصبعى عن العلامة بضع قراريط . فابتسمت ، ودبت
يلها فى صدرها فأخرجت " بُكّا " صغيرا من الجلد الأسود ، فتحته فالتقطت منه
بضعة أوراق مالية متكورة . دفعست الثمن فيما رحت ألف الطرحتين فى ورقة
مطبوع عليها اسم الخل ، لفه اسطوانية محكمة . فلما ناولتها اللفة قالت فى همس :
- " عرفتك وأنت لم تعرفنى ! إننا جيران ! أنا فى البيت أحبيك من البلكونة !
وجذتى فى الحجرة التى أمامك خبط لرق ! فوق حجرة قطيطة !".

غاضت الدماء فى عروقى ؛ خفت أن تستطرد فى الكلام عن الوكالة أمام أبى
سن ؛ مددت يدى فسلمت عليها بحرارة :

- " أهلا وسهلا ! فرصة سعيدة ! مع السلامة !".

- " ما اسم الكريم ؟! "

- " فلان ! " .

- " وأنا وداد ! وجدتني اسمها الشامية قوت القلوب ! إذا قابلت أحدا يحب كتابة اسمه على زنده أو رسم سبع على يده أو صدره فهاته لها ! إنها لا أخت لها في شغل الوشم !! " .

- " ان شاء الله ! " .

فاستدارت منصرفة كالفهد ، ليظهر في أسفل ساقها نحت كورنيش الثوب ، وفوق كعبين كريالين من الفضة ، يلتف على خنقة القدمين خلخالان رفيعين من الفضة بشخايل تصنع مع طرقات الشبشب إيقاعا طروبيا معجبانيا . شيعها محمد أبو سن بنظرة من تحت حاجبيه الثقيلين كالقنطرة ثم لكزتي هامسا :
- " ما هذه ؟! " .

قلت له إنني أسكن في حجرة في بيت في حي شبرا دمنهور بمائة وخمسين قرشا في الشهر وإن هذه المرأة فيما يبدو جارة لي . سألتني كيف لم أعرفها ! فأجبتته بأنني لا أعود إلى حجرتي إلا في عز الليل حتى لا يراني صاحب الحجرة فيطالبني بشهور مستحقة له عندي . لوى شفتيه في الشمزاز .
- " عدت إلى الحوارى مرة أخرى ؟! " .

ثم شوح في لا مبالاه وأسف ، وأضاف :

- " لا يهملك على كل حال ! كله يتدبر بإذن الله ! لو كنت أعرف من قبل أنك ملحاح في الشغل هكذا لشغلتك معي ! نحن فيها على كل حال ! تشتغل معي فترة بعد الظهر من الخامسة حتى العاشرة مساء ! وتطلع معي الأسواق ثلاثة أيام في السبوع ! " .

كدت أطير من الفرح ، لدرجة أنني لم أعلق بحرف ، إكتفيت بهز الرأس دليلا على الموافقة بامتنان ، لأنه في الواقع لم يكن يسألني الموافقة إنما كان يقرر ما يشق أنه سينفذ حرفيا . ثم بدا كأنه تذكر شيئا مهما ، فسألني فجأة :
- " لماذا لم تحضر فرح بدرية ؟! " .

فكأنه قبض على قلبى بكماشة حديدية وجذبه نحوه ، فنهايت مرتكنا على
البنك :

- " دخلت بدرية بالفعل ١٢".

- " كان فرحا كبيرا ! الدنيا كلها حضرت ! الشارع كله سهر حتى الصباح !
كان السراشق فى قلب الحارة بطول الحارة ! ومسرح وعوالم وعزائم ! وسافر
العروسان إلى راس البر لقضاء شهر العسل ! بلدتكم بحالها جاءت ومالت شارعنا
بالفلاحين وينادى الرش ١١".

تكدت كدرا شديدا ؛ طويت رأسى على راحة يدى :

- " لم أعلم بموعد الفرح لأنى لم أرهم ! ربنا يسعها !".

- " طيبة وغلبانة هذه البنات ! كل الشارع يحبها ! جميع بنات الشارع رقصن
أمامها ! إتضح أن العريس بمت إليكم بصلة نسب ! إنه من قرية العفيفى جنب
قريتكم مباشرة ! وهو أخ عزيز لنا من مدة كبيرة ! عريس يستاهلها ! أطيب من
عرفت فى حياتى !

- " الحمد لله ! هذا ما أتمناه !".

فنظر فى ساعته وقال :

- " وجب الغداء !".

وسحب من تحت البنك عامود الحلل الصغيرة الملتبسة فى بعضها بمشكاك ؛
فكها ؛ فإذا هى تحوى فاصوليا وملوخية باللحم وأرز وطرشى ؛ واشترينا أربع أرغفة
من السوق . بعد الأكل بقليل دخل الخانوتى بمقهاه المتنقل فصب لنا الشاى . ما أن
لحنى حتى كاد يقع مغشيا عليه :

- " أتعرفان بعضكما ١٢".

- " طبعاً ! إننا أصدقاء !".

- " الحمد لله !".

لم يزد ، فاسترحت . وحين عبث محمد ببعض القروش لكى يحاسبه قبض
الخانوتى على يده فى احتجاج :

- " لا تفعل ! الشأى هذه المرة تحية من عندى ! قسما بالله ما يتبعنى مليم واحد !".

ثم أخذ الكوبتين الفارغتين ومضى ، فحمدت الله أن لسانه لم ينزلق إلى ذكر الوكالة ، ونويت حين ألقاه أن أنبهه إلى هذا الأمر . ثم بدأت حركة البيع تخف شيئا فشيئا ، فخف عمد إلى سجادة الصلاة فصلى العصر . وبعد ختام الصلاة أعطى إشارة البدء فى التشطيب ؛ حسب تقوده بالورقة والقلم ؛ ونفحنى ثلاثة جنيهات قائلا :

- " سدد ديونك ودبر حالك حتى تقبض بعد شهر ونصف ! هذا المبلغ لن أحاسبك على نصفه لأنه من مال الله الذى ائتمنى عليه لمثل هذا الغرض ! اللهم اجعل لنا ولا تجعل علينا !".

ماكدنا ننتهى من تريط الأثواب فى بعضها ووضع الرفايح فى صناديق من الكرتون نربطها بخيوط وحبال ، حتى سمعنا قرقرة العربى الكارو يجرها حصانان ، وهى تزحف ثم تتوقف أمامنا ، يهبط منها عربجى عجوز ملتح وفى جبينه زبيبة الصلاة :

- " تأخرت عليك أربع دقائق !".

- " جئت فى موعدك على كل حال !".

صرنا نرفع اللغات والأربطة والصناديق لنعلها على ظهر العربجى ؛ الذى يمضى بها ليضعها فوق العربى ؛ حتى إذا ما انتهينا صرنا ننظر فى الأرض حوالينا بحثا عن شئ نكون قد نسيناه ، وتحسس محمد جيوبه فاطمأن على المحفظة والمفاتيح ، ونادى الخفير فسلمه التعريشة بينكها . ثم صعدنا إلى العربى فجلسنا فوق الكراتين ، وشد العربجى شُرْع الحصان قائلا : " شى..ى..ى " فمضت العربى تققع وتهزنا . مررنا بباب أسطبل الوكالة فكان مفتوحا وخاليا تماما ، وعلى بابه يتناحر الشيخ زينهم مع رجل معلم نظيف الثياب فارغ الطول نحيف البدن أسمر الوجه صلب الملايح يتحرك بكثف ماثلة قليلا ؛ رجحت أن يكون هو رمضان عربجة . وحين وصلنا إلى دكان محمد فى شارع السوسى وجدنا الشارع ساكنا وخاليا تقريبا من زحامه المعتاد ، فتذكرت أن الحركة كلها تنتقل فى هذا اليوم إلى السوق . كان ابن

أخت محمد أبو سن قد فتحت الدكان فهرع يساعدنا فى إنزال البضائع حيث صار العربى يدخل بها إلى مخزن داخلى فيتركها برباطها انتظاراً للسوق القادم بعد يومين فى بلدة أخرى ..

مكثت فى الدكان قليلا ثم قفلت عائدا إلى الوكالة مفعما بمشاعر كثيرة بهيجة موقنة . بقلب واثق جلست إلى شوادفى وسألته :

- " تسألنى فى كم يا عم شوادفى ؟ "

ثمهل قليلا ، ونظر لى نظرة سريعة خاطفة تعبيرا عن المفاجأة وبلهجة واثقة :

- " لاشئ ! هل طالبتك ؟ أسأت إليك فى شئ ؟ دعها على الله يا أخانا ! "

الحكومة تقع كثيرا فى العذر والفلس ! "

- " اليوم أكرمى الله ! لا أحب الدين ! يقلقنى يطير النوم من عيني ! فكم لك عندى ؟ "

تفكر قليلا رافعا وجهه نحو السقف :

- " حسبة بسيطة لا تستأهل اقلق ! "

- " كم يعنى ؟ "

- " خلها الآن ! اصبر مامعك وأنا أصبر ! "

- " لا أستطيع الصرف وأنا مدين بمليم واحد ! "

على مهل برم سيجارة وأشعلها :

- " إذن فهات خمسة جنيهات ويبقى عليك عدد الليالى التى مرت من هذا الشهر ! "

- " هاك جنيهين ! وبعد أيام قليلة أعطيك حنيها فجنيتها فجنيتها إلى أن أتمكن من الدفع مقدما ! "

دس الجنيهين فى جيبه ، وأسرعت أنا إلى حجرتى فدونت الحساب والتاريخ ، وتمددت على المصطبة مفعما بالأمل المتجدد ، كأننى فى انتظار آلاف الأشياء الجميلة حان موعد قدومها الآن .

الجذوة والريح

جو الوكالة فى العصارى لا مثيل له ، حيث يتحول الفناء الواسع إلى مخزن للشمس يغترف منها النهار وقود ضوئيه وحرارته ؛ وكلما أمعن فى المسير شحت عليه الشمس بنفسها واحتجبت منه فى الأركان والزوايا تستقبل وفود الرياح المتدافعة من كل مكان إلى الفناء الذى يغربلها يحللها يصيرها بحراً من الرطوبة العذبة المنعشة . ففى مثل هذه اللحظات من نهارات الخريف تفتح جميع الحجرات فى الوكالة فى الطابقين أبوابها ، وتفتح كذلك الأنصاف العليا لجميع النوافذ المطلة على الشارع أو الخلاء الفسيح . فى مثل هذه اللحظات ما بين أذان العصر وأذان المغرب يكون المعلمين قد صحوا من نومة القيلولة وغسلوا وجوههم بكأسين من الخمر الرخيص أو حجرين من الحشيش وعدساية أفيون ثم أكلوا شيئاً خفيفاً على سبيل التصبيرة ؛ ويكون معظم الصبيان ، أو العدة ، السارحين قد أتوا مجبورين وانضموا إلى القعدات ليعثوا فيها الصهيلة ثمهيداً لإتمام عملية التحاسب فى مناخ ومزاج ملائمين ، تجنباً لأمى مشاكل أو صدامات . عشرون حجرة فى الطابقين كل حجرة تحوى أسرة ، وجميع هذه الأسر تربطهم صلة أقوى من صلة الرحم ، هى صلة البحث عن القرش بحيل جهنمية بعيداً عن أساليب العنف والخشونة ؛ إذ هاهنا يتم تصنيع الحيل التى تبطل مفعول القانون وتلتف حوله تحاصره ترتكب أبشع الجرائم فى ظله . هم الآن فى أسعد لحظاتهم ، يعكس الفناء كل ما يدور فى كل الحجرات مررد إلى جانب الروائح أصداء كركرة الجوز وقرع الكتوس ورنين الضحكات وجلجلة أصوات الحريم وفحيح الأنفاس وبوادر صرخات نزقة مكتومة، وصوت أم كلثوم يردح فى قاع بعيد جداً : يا.. ظالمى . كل ذلك مع سحب الدخان المصبوغة بلون السماء يصنع خيمة من الأمن والسلام الملهلين ، كأن هذه الكائنات كلها مجرد أجنة تتقلب فى الرحم .. هكذا يحيل لى وأنا فى جلستى هذه البديعة الممتعة فى حجرتى ، كأنى بهذه الجلسة قد وصلت لأول مرة حياتى إلى لحظة الإنفراد الحقيقية الآمنة المفعمة بهدوء الأعصاب جميل . فمنذ أن اشتريت هذا الكرسي المصنوع من قصب المامبو اكتشف هذه القعدة خاصة فى العصارى

لاستقبال الأصيل بدماع موزونة : أضع الكرسي فى مدخل باب حجرى ؛ أمدد ساقى أسننها على حافة حائط البواكى ؛ أتكى بحرفتى على تكأتى الكرسي لأستغرق فى القراءة أو السرحان فى كل المتاهات اللذيذة ومسالك الغموض الساحرة . مبعث الإطمئنان والسحر والأمان الثقة فى لقمة مستقرة فى البطن أو فى متناول اليد ، وعلبة سحائر وكوب شاي ومخدع لا يتهدهه العراء ..

إلا أننى سرعان ما اكتشفت أن لذة الجلوس فى هذا المكان فى هذه اللحظات مصحوبة دائماً بلفت رقبتي إلى اليسار ، لتتمكن عيني من عبور الفناء صاعدة إلى تلك الزاوية التى يصنعها جدار الوكالة مع شرفة منزل مواجه للوكالة يفصل بينه وبين الوكالة شارع لكنه مع ذلك يبدو لى من جلستى هذه كأنه جزء من حدود الوكالة . كأن الوكالة تمد ذراعاً معقوفاً تتأبط شرفتين متجاورتين فوق شرفتين متجاورتين . عيني على الشرفة العلوية التى يظهر نصفها فحسب ، ويظهر من فيها . كأنه مقبل من ممر فى الوكالة نفسها ، حيث تظهر جنبه الحواديت ذات الجمال الوحشى الشرس أصيل كل يوم لتجلس فى هذا الركن بالذات فى مواجهتى تماماً ، واضعة كذلك ساقاً على ساق ، تشد الأنفاس الكثيفة كأعنتى الرجال الكثيفة ، حتى إذا ما احترق تبغ الحجر رفعتة فدلقت ناره فى منقذ لاشك أمامها ، متناولة حجراً غيره فتضعه على النارجيلة وترص النار فوقه بالماشى فى صبر وأناة ومزاج رائق . تظل هكذا حتى يرتفع أذان العشاء، فتختفى تماماً من الشرفة ، فيستبد بى الشوق لمعرفة ماذا يدور داخل هذه الشقة ؛ لكنها تظهر من جديد فى وسط السهرة قرب منتصف الليل ، على ضوء فانوس شاحب فى أعلى عامود النور فى الشارع فى كوة ذراع الوكالة ، مرتدية قميص نوم من الساتان البنفسجى الفاتح بكمين ناقصين قبل الرسغين ، بمسافة الأساور ؛ معلقة جدائل شعرها الضارب إلى الشقرة تنطرح على ظهرها متحررة إلا من منديل أحمر من الحرير يلمه من فوق الرأس فحسب ؛ وتستأنف شرب الأنفاس من النارجيلة لتختلط سحب الدخان الأزرق بكحل عينيها الواسعتين كعينيى فى برج الحمام ..

تلك هى وداد الغازية ، التى عرفتني بنفسها فى السوق فى دكانة محمد أبو سن يوم اشترت منى طرحتين لها ولجدهتها قوت القلوب الشامية الوشامة البارعة . عرفت

من الوكالة أنها راقصة ، لكننى لم أعرف كيف أبدأها بالكلام لتقوم الصلة الحقيقية بيننا ، فحين تلقى نظراتنا أبتسم فبتسم ؛ ولا شئ غير ذلك . ومع اهتمامى بأخبارها فكل ما استطعت معرفته عنها أن جدتها قوت القلوب الشامية - أم أمها - هى التى تسكن فى هذه الحجرة المقابلة لحجرتى تماماً فوق حجرة قطيطة ، وأنها هى وقطيطة أقدم سكان الوكالة من عهد ما قبل شوادفى بزمان طويل ؛ وقد شهدت حجرتها هذه رواجاً كبيراً فى جميع أيام الأسواق حيث يتراكم الزبائن من كل القرى لدق السباع والتحللات والأسماء على ظهور أيديهم وزنودهم وصدورهم وظهورهم ، ودق العصافير فى الفودين ؛ إلا أن صناعة دق الوشم بدأت تصاب بالكساد منذ انتشر التعليم وأصبح معظم أبناء القرى يتخرجون من شبة دق العصافير كعلامة على التخلف والهبل . بل نشأت مهنة جديدة يحترفها بعض حلاقى الصحة تتخصص فى إزالة الوشم بواسطة ماء النار وأصبح الموشومون يرحبون بعملها وإن خلقت مكان الوشم تسليخاً جديراً دميماً . أما وداد نفسها فقد سمعت أنها نادراً ما ترقص فى الأفراح ، ولعلمهم قصدوا أنها غازية فى سلوكها وحركاتها بعد أن هجرت الأفراح أو هجرتها الأفراح ، فإن لاحظ شوادفى أنك متلهف للحديث عنها شوح قائلاً :

- " مالناش دعوة ! فطنا من هذه السيرة أحسن !! " ..

ولم يكن من السهل على أن أفعل ذلك ؛ فهذه الفرس الهيفاء تخاطبني بلغة خفية لا أستطيع تجاهلها . لقد باتت تقض مضجعى وبت أجسدها فى فراشى كل ليلة بمختلف الحيل الخيالية ..

واليوم كنت قد شرعت أستقر فى جلستى وأستعد لتصعيد البصر إلى شرفتها ، حينما رأيته فجأة مقبلة نحوى من حجرة جدتها قوت القلوب ؛ بلحمها ودمها ، ترتدى ثوباً من الشيت المشجر بالأخضر والأحمر . كانت أعضاء جسمها تكاد تخرج من أفلاكها عارية ؛ فرغم أن الثوب ليس محزقاً إلا أن الجسد كان يحتوى القوب أشد مما يحتويه الثوب ؛ ولم تفلح الطرحة السوداء المطروحة على رأسها وكففيها فى تخفيف حدة الإحمرار المشع من سميتها . وحين تذكرت أنها حليبة اشتعل خيالى بالجموح والعاطف السخنة والإستعداد للمغامرة ؛ تذكرت أيضاً جبل

الدروز جبل السويداء ؛ تذكرت اختلاط دم الروم بدم الغساسنة فى الأرض وفى العروق وفى العقول فازداد خيالى المكبوت اشتعالا وازدادت أعصابى حمية . لحظتها كانت قد هبطت السلم وعبرت باب حجرة قطيطة واستدارت خارجة من البكية لتواجهنى ؛ عيناها تربعتا فوقى ، فيما هى تدلف من البكية فصار بينها وبينى اتساع الفناء إعتزنى ارتباك شديد ، كالفار تخد ره نظرة القط فتسمره فى مكانه حائراً سجيناً حتى ينقض عليه القط فيقرسه بكل بساطة . هذا قد حدث ، إنقضت على بالفعل ، أطبقت على رأسى بفكى عينيها صارت تشيلنى وتغطىنى على الكرسي تهدهدنى تطوحنى يمينا وشمالا . كانت رائحة الصابون المعطر برائحة حسنها الأنوثى برائحة اللبانة التى تطرق تحت فكيها قد صيرتنى سمكة ضالة فى قلب موج هادر غير ذى خطر . صرت أصعد فوق موج الإنفعال اللذيذ نحو هبوط قوى يدفعنى إلى صعود موجة أعلى توشك أن تلقى برأسى بين هذين التدين الطليقين تحت الثوب كقبضتى عجيز مبططين قليلا بحلمتين مدينتين أكاد أرى فوقهما تجاعيد الكلف خلل الثوب . كنت ممسكاً بكتاب لعله ألف ليلة وليلة ، وبسيجارة ملفوفة مخلوطة بالحشيش ، وتحت قاعدة الكرسي كوب شاي نسيتيه حتى ابتعد بلفح الرياح . تتسع المسافات بين أسنانها المفردة الناصعة البياض ، تتسع المسافة الحمراء بين فكيها ؛ وقد شمل السكون كل شئ فلم أعد أسمع سوى دقات قلبى ترجعها طرقات اللبانة . كانت قد ارتفعت سور البكية فانعجن التديان وانطرد تكورهما خارج فتحة الصدر كفوران الحليب يرتفع إلى أعلى الرقبة ليصطلم بالرموش المشرعة كشوك الخلفاء فيهب سائلا على النحر مختلطاً باللهب الأحمر . قالت بجرأة مذهلة :

- " ممكن ١٩ " .

وأشارت إلى السيجارة بين أصبعى باصبعيها القابضين على سيجارة وهمية . سرعان ما فهمت طلبها ؛ فتبعثرت أعصابى ؛ دفعت نفسى معتدلا فوق الكرسي : - " طبعاً ! السيجارة وصاحبها تحت أمرى ! " .

ثم نزلت عن الكرسي وقمت ذاهباً إليها بالسيجارة مع أننى لو مددت ذراعى لكان فيه الكفاية . على أنها تجاهلت غمزتى التى زلف بها لسانى عفو الخاطر ؛

وأمسكت بالسيجارة وجذبت منها عدة أنفاس متلاحقة عميقة ، تاركة الدخان
يندفع من متحريها ؛ ثم أعادت لى السيجارة :

- " بكم تشتري هذه العميرة ١٢" ..

قلت كأنى حريف فى الشراء مع أننى نادراً ما أشتريه للدرجة أننى قد لا أعرف
سعره الحقيقى :

- " واحد صاحبى يشتري لى ربع القرش بسبعة قروش ونصف ! " ..

عقدت حاجبيها دهشة ، وازداد وجهها احمراراً ، وساح الكحل فى بحيرتى
عينيها :

- " يضحك عليك صاحبك ! يخمك ! إن عوزت تشتري قل لى وأنا أشتري
لك معى ! القرش كله بعشرين قرشاً وأحياناً بثلاثة شلنات ! أنا أشتري من امرأة
بتبيع لى بسعر الجملة ولا تنتظر من ورائى مكسباً ! " ..

قلت فى الحال دون تبصر :

- " إذن فهاتى لى قرشاً معك ! " ..

- " هات عشرين قرشاً ! " ..

تورطت . لم يطل ترددى ، دخلت الحجرة بحماسة فانتزعت من لحمى عشرين
قرشاً بكيتها فى صمت بكاءً حاراً وحاولت استحضار صورة قرش الحشيش ككمية
تملأ العين وتكفى تموين شهر على الرائق ؛ لكن ذلك لم يخفف من التباعى للفراق
بينى وبين بريزتين من الفضة تركتهما فى راحة يد وداد البضة كقالب من الزبد .
ولكى أخفف شعورى بالأسى قلت :

- " أوصيك بجودة الصنف وعدل الميزان ! " ..

- " سنلوقه معاً فإن لم يعجبك نرده لأصحابه ! " ..

- " فمتى يتم ذلك ؟ " ..

- " تعال اشرب معى الشاى فى بيتى بعد صلاة العشاء ! !

سألبس الآن وانزل البلد وأعود قرب العشاء ! سأظهر فى البلكونة عندما
أجى .. فتجئ ! " ..

كاد قلبى يتفتت من الفرح :

- " وهو كذلك ! إلى اللقاء ! " ..
إعتدلت هي مبتسمة ثم مقهقهة بصوت رنان :
- " تكلمنى بالنحوى ؟ " ..
ومضت تتبخر فى خطوط الوثائق من أن الأرض لا تحمل من طرازها
القليل. وحينما حاذت شواذ فى عند البوابة حيثه :
- " سالتير ياراجل ياللى عامل زى قرد قطع ! " ..
كان مستغرقاً فى سنة من النوم ، فاعتدل فى رقدته معطياً ظهره للحائط د
ذراعه تحت رأسه :
- " ياليتنى كنت قرداً فمثلك لا ينفعه إلا قرد عجوز مثلى ! " ..
فألقت إليه بضحكة رنت على أرض البوابة كهمب الأطفال وتهمشت :
جذعها الصلب كالقضيبي .

حبـل من مَسَد

ظهر طيفها فى الشرفة عقب أذان العشاء مباشرة ، فكأن الكون كله قد أضى فجأة ، إذ أن الكون كله لحظتئذ كان منحصرأ فى هذه المساحة التى تحتلها الشرفة فى هذا المنزل البادى كأن الوكالة تمد ذراعاً معقوفأ يتأبط شيئأ . شعرت بطيفها قبل ظهوره ، فرغم بعد المسافة واللغظ المرتفع حوالى أكاد أجزم أنى سمعت حفيف توبها وشخللة الأساور فى معصميهـا والخلاليل فى قدميهـا . كانت تريد أن تشعرنى بحضورها ، فارتفعت إفريز الشرفة وأرسلت عينيهـا إلى باب حجرتى وظلت هكذا برهة طويلة رغم أننى - محتجبأ فى صدغ الباب عن شوادفى - أوأأت لها برأسى ويبدى بأنى قد رأيتهـا . ثم استدرت أبحت عن ثوب ملائم أرديه . لأول مرة أرانى أحابه مثل هذا الموقف ، وأقف عاجزأ مبهتسأ أمام سوء مستوى ثيابهـى بوجه عام ، فشعرت شعورأ حادأ بالضيق . على أن هذا الشعور سرعان ما ألجأ بحجاب مخلفأ شعورأ مضادأ بالرغبة فى تحدى الثياب . هكذا تعمدت الخروج فى أقل مظهر ممكن . خرجت بنفس الجلباب والشهبشب الزنوبة ؛ أغلقت الباب ومضيت ..

مسيت على شوادفى ، الذى كان منهمكأ فى قتل الحبـال من ليف النخيل . فرفع بصره نحوى باسمـا وبدون مناسبة واضحة قال :

- " فى حبـلها حبـل من مسد ! أنت يا أحنأ تعلمت فى المدارس فهل عرفت حبـل المسد ؟ أدفع رهانأ كبيرأ إن كنت تعرفه !!" ..

وفى الحلق لم أكن عرفته ؛ فشعرت بالحقد على نفسى ؛ ورأيت أن العقاب الرادع لنفسى هو التسليم بعدم معرفتى بدلاً من المكابرة بالجهل . حينئذ ضحك بصوت عال كزئير أسد هائج :

- " المسد يا أحنأ هو هذا الذى فى يدى الآن ! هذا الحبـل الذى أقتله من ليف النخل هو الحبـل من مسد !" ..

فرحت جداً لاكتشاف هذا المعنى ؛ لكننى قلت عاولأ الإلتقام لكبريائى الجريح :

- " ولكن ما مناسبة هذا الآن ؟!" ..

بخلق فى عينى بريق مخيف :

- " مثل هذا الحبل ستره معلقاً فى رقبة صاحبتك !! " ..
- إرتخت أعصابى فى بسة شاحبة :
- " صاحبتى من ؟ " ..
- " تلك التى أنت ذاهب إليها الآن !! " ..
- مضطرباً ضحككت ضحككت ساذجة ؛ كأنى أقول له آه يا عفريت ؛ ورأيت أن من الأوفى عدم اللف أو الدوران لأن كل شئ فى الواقع يتم تحت سمعه وبصره ، وليس من العقل محاولة استغفاله بأى شكل :
- " هى ليست صاحبتى ولا حاجة ؛ إننى كلفتها بطلب وهى التى عرضت على ذلك ؛ وما ذهابى الآن إليها إلا للإتيان بهذا الطلب ؛ " ..
- قاطعتنى ملوحاً بأصابع كالمسامير الخدادى :
- " طبعاً طبعاً ؛ ذهابك لن يزيد عن هذا بأى حال من الأحوال ؛ أعرف هذا يا أختانا وأنتى ثقتى بأنك واقف أمامى ؛ إنما أردت أن ألقى إليك بنكتة لعلها تنعشك وأنت ذاهب ؛ أقصد وأنت عائد !! " ..
- " بصراحة أنا لم أفهم هذه النكتة ياعم شوافى ؛ إعتزنى غيباً واشرحها لى هى الأخرى ؛ " ..
- " ألم تأخذ فى المدرسة قرآناً يقول : وأمرأته حمالة الحطب فى جيلها حبل من مسد ؟ " ..
- " تقصد سورة المسد : بسم الله الرحمن الرحيم تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب وأمرأته حمالة الحطب فى جيلها حبل من مسد ؛ صدق الله العظيم " ..
- " هو ذاك ؛ فما معنى جيلها ؟ " ..
- " يعنى منطقة الرقبة والعنق ؛ " ..
- " صاحبتك هذه يا أختانا شبيهة بحمالة الحطب فى جيلها حبل من مسد !!
- وطرف الحبل فى يد مجهولة لا يعرفها أحد ؛ معنى كلامى إنها مقيدة فى رقبتها بحبل خشن !! " ..
- " ولكنى ... " ..

- " إتكل على الله يا أختانا ! ربنا معك ! وقلبي هو الآخر معك ! أتمنى لك
سهرة سعيدة ! إدع لى وأنت تستمع !! " ..

إحتزت البوابة شاعراً بكثير من الإحباط وكثير من البواخ كأنى أمام طبخة دسمة
لستعنها النار فشاطت فتعين على أن أرمى بكل تكاليفها فى صفيحة القمامة . إلا أن
هذا الذى حدث قد بدد إرتعابى من المغامرة ؛ وبدلاً من الرعشة والإضطراب
تشجعت على الإقدام كالذى كان ذاهباً تحت جناح الظلام ليقتنم فإذا بالضوء يغمر
الطريق فجأة فإذا هو يعتدل فى مشيته ويواصل سيره كأي شخص عادى لا يتنوى
شيئاً . هكذا لم يعينى أن يرانى أحد وأنا أدخل منزل وداد الغازية فى مثل هذا
الوقت من الليل فيما هى فيه وحدها بغير رجل سوى . إلتابنى شعور من اللامبالاة
كأننى ذاهب لزيارة مريض فى المستشفى ..

ما كادت تفتح لى الباب حتى تدفقت موجات عطرها قوية عالبة داهمة تكاد
تطوينى فى دوامة سحيقة الغور . يدها البضة الناعمة الرخصة أطبقت على يدي ؛
جذبتنى إلى الداخل فى ترحيب رجولى خشن غير متسق عليها على الإطلاق :
" تفضل ! يا مرحباً " ، وانغلق الباب . ردهة مربعة كالعلبة ، تزدان حوائطها بصور
لفريد الطرش وأسمهان ومحمد فوزى وليلى مراد وليلى فوزى وسامية جمال وتحية
كاريوكا وهند رستم وشكرى سرحان وكمال الشناوى منزوعة من مجالات
الكواكب والصباح وآخر ساعة . على الأرض كرسيان وكنبة على الطراز
السيوطى مع طقطوقة . الخشب كالح ولكن الفرشة نظيفة مزوقة بمفارش ملونة .
على الحائط الأيمن رف خشبى تحت صورة يوسف وهبى ، عليه راديو كبير ماركة
فيليبس ، وتحت قرب الأرض صورة لأمينة رزق بين صورتين لصباح وشادية .
بدت هذه الردهة كأنها هى الشقة ؛ وبدت حميمة ، يمكن المكث فيها طويلاً ..

- " تحب الجلوس هنا أم فى البلكونة ؟ راحتك ! " ..

- " كما تحبين ! إن كان هناك داع للجلوس ! " ..

- " أنا عزمك على الشاى ولا أرجع فى كلمتى ! " ..

- " نجلس حيث توجد الشيشة فأنا كييف معسل ! " ..

أشارت بيدها من فوق كنفها أن اتبعني ؛ ومضت تتبختر أمامي . تبعتها وقد ركبت عيني فوق قبتين ضاحيتين بالحياة وبالجاهلية . ممر ضيق ؛ على اليمين مطبخ ضيق تجاوره دورة مياة ضيقة . في مواجهتها حجرة صغيرة فيها سرير نحاسي بعمدان ذى ناموسية من الساتان الخفيف البمبي ؛ وبوريه بمجموعة أدراج مستطيلة فوق بعضها بمقابض نحاسية لامعة ، وكرسی من الخيزران ، ومشجب مدفوق فى الحائط تبدل منه قمصان نوم وفساتين . ثمة باب صغير مجاور للبوريه يفضى إلى حجرة ثانية كالخزنة لها باب ثان يطل على الممر . فى هذه الحجرة فى الصدارة سرير سفرى صغير . آه ياربى ؛ توقفت مرتعداً فى رعشة شملتني من قدمي إلى رأسي . إعتزاني ما يعتزى إنساناً فوجئ بأنه داخل قفص حديدى مغلق أمام كلب مسعور أو أسد غضوب . كأن أمامي وحش بهيئة إنسانية ، عبارة عن عينيْن واسعتين جداً ، تبخان لهباً وبريقاً من عمق لا قرار وله نهاية ؛ يلتف حول العينين وجه كالشهد المصفى ، بجداول شعر كستنائى محلول كحزم متطايرة تحفى رأساً دقيقاً ، برقبة مستطيلة كجذع شجرة حديثة الغرس ؛ وبدت عروق العنق المتصلة بالكتفين والصدر كجذور ضاربة فى جسد هزيل ، كتفان عريضان يسندان صدرأ ناهداً منفلقاً ؛ وذراعان طويلان بيدين سرحتين ، ينتهى الصدر إلى خصر شديد الضمور كأنها مجرد رسم كاريكاتورى ؛ يتزايد الضمور حتى ينتهى بقدمين دقيقتين كقدمي طفل وليد ، وليس من ساقين على الإطلاق ؛ أى أن هذا الجسد البالغ الجمال لا يمكن له الوقوف أو الحركة ؛ كما أنه بلا عقل على الإطلاق ، إذ راح هذا الوجه يثقلت حوالبه فى انبهار بنظرة جامدة كنظرة العروس البلاستيك ، والذراعان تشوحيان فى حركة عشوائية نرقة ..

كانت وداد قد وقفت على عتبة الشرفة وقد انفرطت ملامح وجهها فى ابتسامة شاحبة حزينة :

- " مالك تسمرت ؟! اصفر وجهك ! تعال ! يظهر أنك ضعيف القلب ! كان الله فى عونى !! " ..

انتبهت إلى وداد وهي تخطو نحوى بسرعة ثم تمسكنى من يدي برفق لئلا تمنعنى من الترنح ؛ ثم سحبتنى بهدوء إلى الشرفة . أجلستنى فى نفس الركن الذى تجلس هى فيه فإذا برأسى تحت مستوى جدار الشرفة . قالت كأنها تواصل حديثاً سابقاً :

- "إنها ابنتى رغدة ! عندها شلل أطفال ! فى يوم من الأيام وهى طفلة عمرها أربع سنوات أصابتها سخونة شديدة ! وكان ورائى مشوار أكل عيش فتركتها مع جدتها فتركتها ونامت ، مسكينة الأخرى ! مسافة ما عدت من المشوار حملتها كالجمرة الوالعة جريت بها إلى الحكيم فى مستشفى الحميات فانهال على سباً وشتماً وأوشك يطلب لى البوليس ! قال إننى أهملت البنت حتى احترق مخها !! يومها شعرت للدكتور الهجاص المخرف ! لكن المسكينة من يومها وهى تكبر وتكبر أما عقلها فيظل كما هو ! سنهال الآن عشرون عاماً وعقلها طفل رضيع ! لا تنطق ! إنما تصرخ وتزوم وتناوّه وتتوجع فأعرف من صوتها ما بها وأتصرف ! مسكينة ! ربنا يتولاها ويتولانى ! " ..

تربعت أمامى فوق شلثة صغيرة ، تربيعتها تكاد تلتصق بقدمى . أمسكت براد الشاى ثم استدركت :

- " تأكل ؟ عندى سمك مشوى ! انا عزمتك على شاى ولكن يمكن أن نأكل معا عيشاً وملحاً ! " ..

ثم نهضت بخفة وحماسة ، واختفت فى المطبخ . عادت بعد قليل تحمل سफطا من الخوص عليه طبق فيه أربع سمكات مشويات مع رغيفين من الخبز الفلاحى الطرى . جلست واضعة السفط أمامنا ؛ فنزلت عن الكرسي وتربعت بجوارها فانزاحت هى قليلاً لتوسع لى فصار نصفها فى الشرفة ونصفها الآخر فى عتبة بابها . أكلت سمكة ونصف رغيف وعرقين من اللفت على سبيل الارتباط بعيش وملح قد يوطد العلاقة الناشئة بيننا . كنت أشعر أن الطعام على تواضعه شهى جداً ؛ لكن منظر الملاك العاجز فى الحجرة صد نفسى عن الطعام وكاد يصعد مزاجى عن الاندماج فى سهرة طيبة . إلا أننى حين شرعت أشرب الشاى تأكدت من أول رشفة أن وداد قد صبت لى فى كوبه ملوثة ببقايا أفيون كان مذاها فيها منذ قليل ،

فلا بد إذن أنها تتعاطى أفيون أيضاً ، أو لابد أن أحد الأفيونجية كان هو الآخر معزوماً على الشاى هنا قبل قليل . بحركة مأكرة سألتها :

- " أجد عندك أسريئة ١٩ "

قالت ببساطة مشرقة :

- " تأخذ سنة أفيون ؟ معى عدساية أعطتها لى صاحبتى أعالج بها الصداع

فأخذت منها غلّة ومعى بقيتها ! " ..

ومدت ظفر إبهامها إلى الأسورة الذهبية فكشطت عنها نقطة سوداء كحبة الدنية ، قربتها من فمى ، فاطبقت بشفتى على إبهامها والتقطت القطعة بطرف لسانى . ثم إنها أعدت الحجارة ونظفتها وحشتها بالتبغ المعسل ماركة أبو غزالة من مصانع الحناوى :

- " أظنك تحب بأن نلوق التعميرة ! " ..

- " طبعاً ! أين هى ١٩ "

دبت أصبعها فى التحويف الضيق بين الأساور ولحم معصمها ، فأنزلت ورقة السلوفان المرومة فى استطالة كقلم الشفايف ، قدمتها لى . أعجبنى منظرها وحجمها لأول وهلة . فتحتها ، ففاحت رائحة الحشيش الطازج كالعطر النشوان . حجم وصنف ممتازان ، هكذا قلت منلمظاً ، وجعلت أقتطع منها للتوقيع على الحجارة ، فشخللت الأساور فى يد تمتد نحوى لتوقفى :

- " لحظة واحدة ! خذ واجبك الأول من عندى ! " ..

وخلعت الخاتم من أصبعها ، ونزعت من تحويف الفص قطعة حشيش كالبلية ، جعلت تقطع منها بأسنانها المفردة الناصعة البياض توقيعات عريضة ، مما أدهشنى وأعجبنى ، فمثل هذه التوقيعات العريضة لا تليق إلا بالمعلمين الكبار طالبنى النفس السمين الكثيف ، ثم إننى سأبدو بخيلاً تنناً حين أبدأ التوقيع كعادتى بالأحرف الأولى فحسب ، بتعميرة كقشرة اللب ، هذا إن استطعت أن أجاريها فى الشرب على هذا المستوى . وحدثنى أقول :

- " هذه تعميرة كبيرة ! أنت توقعين باسمك الثلاثى ١٩ " .. ضحككت ضحكة

أسيانه :

- " أنا أبصم وأنت الصادق ! هكذا تعودت ! لا أحب أن أبيت وفى يدي حشيش !! لابد للحشيش أن يحرق كله فى الحال ! أحسن مكان آمن تخزن فيه الحشيش هو رأسك ! وإذا امتلأ دماغك وفاض خزن فى أدمغة أصحابك فإنه يعود عليك بالإنسباط أيضا !! " ..

وحين صار الطاقم الذى وقعته بإمضائى على وشك الإنتهاء كانت هذه المساحة الضيقة قد تحولت فى نظرى إلى جنة فيحاء مفعمة بهدوء الأعصاب والسلام والإطمئنان . كان شايا ثالثا أو رابعا قد نفذت رائحته فى خياشيمى مختلطة برائحة الفحم المحترق فأخذت تهلهد دماغى ، بلمس كملمس القطيفة . أمتدت الأساور قابضة على معصم يد نابض بالحياة منتهيا بيد تغرى الأسنان بقضمها وقرقشتها كانت ممسكة بكوبة الشاي الساخن من أذنها . بإحدى يدي أمسكت الكوب فوضعت على الأرض ؛ وباليدي الأخرى احتفظت بيدها ، ولمست عليها برقة وحنان متهدجين متفضين . سحبت يدها برفق شديد محمر الخدين من فرط الخجل ؛ فأغراني ذلك فأطبقت يدي الإثنين على يدها وصبرت أضغط عليها ضغطا ساخنا ؛ فإذا بالغضب يبرق فى عينيها الواسعتين يذيب الكحل فى الجفون . خففت الضغط، فسحبت يدها قائلة فيما يشبه الإنذار الحاسم :

- " أنا عزمك على الشاي فحسب ! ولكنى قدمت الأكل ليكون عيشا وملحا بيننا يستوجب الإحترام !! " ..

فى فناة ظهرى تدحرجت حبات العرق ، وفاضت على جبينى :

- " متأسف ! ولكن أنا معذور ! لم أستطع الصبر ! " ..

حدقت فى عيني بعينين ثاقبتين باسميتين :

- " نفسك فى تزوجنى إذن على سنة الله ورسوله !! " ..

فدارت بى الأرض . أفقت . أحسست بأنفاسى تتقطع وأنا أحاول الشرب بصورة عادية طبيعية أغطى بها مالحنى من اضطراب شديد فقدت معه القدرة على الرد المناسب . كانت رأسى فارغة تماما . من كل شئ لدرجة أخافتنى ، حاولت معرفة ما الذى يدور فيها الآن على وجه التحديد فلم أستطع الإمساك بأى شئ أزعم القول بأننى أفكر فيه . جاعنى صوتها مهيضاً بلا رنين . كانت الأساور

الذهبية قد هبطت قليلا فانحشرت في سمانة الساعد ، وهى ترفع السراد ، بميل ليصب
البرزوز حيط الشاى القرمزى الغامق فى الكوب ، لترتفع الرغبة فيه شيئا فشيئا كما
يفعل بائع العرقسوس الحريف :

- " شفتك انكمت ما أعطيت منطلقا !! كلكم هكذا ! تفضلون سرقة الفواكه
من فوق سور الحديقة على الماشى ! خاصة إذا كانت طابت ووقعت من أمها
الشجرة على الأرض أو على حافة السور ! معطوبة كانت أو عجر أو حتى تننة !
كله ماشى عندكم ! وياقادر يارب تحلو فى نظركم عن الفاكهة المعروضة فى فترينة
الفكهانى لأنها مكلفة ! أنا انقرصت يا صاحبي انقرصت وانعضضت وانشرخت
وانشرمت !! السبب طيبة قلبى ! ولا أشعر باللذعة إلا حينما يلهبنى السم !! هذه
البنية المسكينة الراقدة الواقعة فى قراييزى أبوها رماها فى بطنى وانشقت الأرض
وابتلعتة !! كان مداحا ! يحفظ الأشعار ويولف مثلها ، يسرح بجماره وأسرح معه
أحيانا لنمدح النبى فى البلاد نتوقف أمام كل دار فنرجع آخر النهار مجبورين بنخبز
وغموس وقروش كثيرة من أمة محمد التى تحبه والثى هى دائما بخير !! كان من
سكان الوكالة بجوار حجرة جدتى يوم تعرفت عليه وأنا صببة غريرة فأعجبني شبابه
وحلاوة لسانه وكلامه الكثير الحلو ! تزوجته قبل أن أعرف أى شئ عن ماضيه !!
فلما اختفى وطالت غيبته قالوا : كان هاربا من نار ووقع فى يد عدوه !! وقالوا :
كان هاربا من السجن المؤبد وأمسكوا به ورحلوه إلى طره !! كانت ابنته هذه على
حجرى !! تزوجت مرة ومرتين وثلاثة وخمسة وعشرة !! كل زيجة لا تدوم أكثر
من سنة بطلوع الروح ! أحص واحد فيهم احتملته سنة وشهرين وكان أوطى
شخص شفته فى حياتى !! كان يبيعنى فى السر للعمد والأعيان دون أشعر ليأكل
الأنبيون ويوقعنى فى المشاكل !! فلما علمت أوقعته فى شر أعماله بكمين حتى
أمسكه البوليس فطلقنى غصبا عنه !! لم ينل أحد منى شيئا فى الحرام طول عمرى !!
كل أزواجى كانوا لا يهتموننى بسبب البنت التى تضايقهم بمنظرها وتأخذنى من
أحضانهم فى الليل كى أسكتها عن البكاء وأنقلها لدورة الحياة !! زوجى الأخير
عرض على أن نرشد الطبيب ليعطيها حقنة تخلصنا منها ولذلك لم أره !! لكننى
مصممة الآن على أن من يرانى حلوة فى نظره عليه أن يتزوجنى على سنة الله

ورسوله وأن يتكفل بكل مصاريقي ومصاريق ابنتي من أكل وشرب وكسوة وعلاج !! إذا لم يعجبه الكحل فلا يتكحل! ونبقى مجرد أصحاب نخاف على بعضنا!!"

مسحت عرقى بكم جلبابى :

- "عذاك العيب ! من الآن أنا صديقك الوفى !"

- "وأنا خادمك فى أى وقت ! حينما تريد حشيشا كهذا قل لى وأنا أقضيه

لك وأنت جالس فى مكانك كالباشا !!"

كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل حينما كنت خارجاً من بيتها ماشياً.
وكانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل حينما كنت خارجاً من بيتها
ماشياً فى الشارع وحدى أطارد ظلى المنطرح أمامى على الأرض فى ضوء فانوس
الشارع المهادئ الساكن سكونا شاحبا . خيل لى أننى مشيت دهرا طويلا نسيت
حلله كل شئ يتعلق بأى شئ ، لدرجة أننى فوجئت بباب الوكالة فكأننى كنت
قطعت الصلة بها نهائيا ، بل إنها بدت شيئا غريبا بالنسبة لى ، وكأننى أدخلها
لأول مرة فى حياتى . وقد بدا ذلك هماً ثقيلا جدا على قلبى . مع ذلك طرقت
الباب ثم دفعته ودخلت .

أسواق .. أسواق

قبيل انصرافي من الوكالة أوصاني محمد أبو سن بالآأألكآ في العوءة الى المنزل لأنني يجب أن أنام مبكراً هذه الليلة لأصحو عند الفجر ، ففي الغء سنذهب الى سوق بلةء المءموءة مع البضاعة فوق العربة الكارو أم حصانين ، لنكون في قلب السوق في مطلع الشمس على أكثر تأخير ، حيث نفرش بقعة معينة من الأرض بالخيش والمشمع نرص فوقها أثواب القماش بجميع أنواعها ، ونزيع وسطها تحت مظلة عريضة من المشمع أيضاً وأمانا طبلية واطقة أشبه بطاولة مستطيلة من الخشب تحجز بيننا وبين الزبائن .

في السوق يتركنا العربي فيسرح في البلةء يتصيد نقلة أو نقلتين أو ثلاثة على الماشي ، ثم يعود إلنا قبيل أذان العصر كي يعود بنا الى ءمنهور ، ليجءنا قد ربطنا البضاعة في انتظاره ..

بمحمد أبو سن يعرف أن كل بلةء مطلع سوقها ، فيها قماشيتها الذين ربما لءيهم نفس البضاعة بجميع أوصافها ، لكنه يعرف أيضاً أن البائع الزائر يغري ءائماً ابءاً أهل البلةء ، ولقد يملك من الصفات الحسنة والروح الطيبة والأمانة ما لا يملكه تاجر البلةء . مع ذلك لا يعتمد أبو سن على هذه الحقيقة المجردة وحلها ، إنما يعتمد على الله أولاً وأخيراً ، ويؤمن بأن لكل مجتهد نصيب ، وأنه لو رزقه الله بمصاريف العربي ومصاريفي فحسب فإنه بذلك يكون كسبناً للثواب . الا أنه كان يكسب أكثر من الثواب ، فلقد انءلر من عائلة كلها من تجار الأقمشة والمنسوجات القطنية بأنواعها ، وأءء أحواله صاحب مصنع كبير للءانلات والسراريل ، وخاله الآخر صاحب مصنع للقوط والبشاكير ولوازم التنجيد ، ناهيك عن مءلاتهم ومعارضهم وعءيد أنواعهم الءوءية العتيقة التي تخصصت في صنع أنواع من الأكلمة الرخيصة من بقايا قصاصات الخياطين .

أبو سن تبعاً لذلك خبير كبير في لم سوقه وتنويعه بأشياء تشيل بعضها بعضاً تعوض بعضها بعضاً . هو يضمّن - مثلاً - أن التواطى والسراريل والفاءنلات والمناءيل المءلاوي وأءوات التنجيد وشوار العرائس والطرح السوداء وأقمشة

الملابس المكشكشة ، التي يجلبها من مصانع أحواله بسعر التكلفة بها هامش ربح عريض يتحرك فيه براسته ، وكذلك الغوايش النايلون والأزرار وكلفة القسطين والمناديل المشغولة بالفلل والترتر ، كل ذلك يجد في الأرياف رواجاً كبيراً ، فيكثر منه ، مقلداً من الأصواف والأجواخ والأتيال والحريير الغالي ، أكثر من الدمور والديبلان والشيت وقماش شهير بالحاج عباس ، واليبة الزرقاء مع رفابع كثيرة كأربطة الأحذية وعلب الورنيش والشرابات والتلافيح والشباشب الزنوبة . اذافة الى ضالك ، يلجأ الى طريقة جهنمية لا تخبأ أبداً : فبدلاً من أن يتنقل حمله بثوب كامل من جوخ العباءات أو الصوف الإنجليزي ، فإنه يقطع قماش عباءة أو عباءتين ، جلباب أو جلبابين ، يلف كل واحدة منها بعناية في ورق مصقول ، يدفعها في البضاعة ، ودائماً أبداً يمر عليه من يقول له : " ألقيش عندك جوخ عباءة ١٩ " ، فيهر رأسه في اعتذار وأسف كأن صاحبنا قد طلب المستحيل ، ثم يستوقفه بعد قليل من التردد المصطنع بحرفة عالية ، وبضعة لطافة يلقي في روعه أن جوخ العباءات المعتبر شاحح هذه الأيام ، وكأنه كتاجر أمين يخاف ربه لا يقبل المتاجرة في أنواع الجوخ الرديئة الموجودة بكثرة لدى الباعين ، انه لا يرضى بإيذاء الناس في مبلغ يقصم الظهر ، فالمرء لا يفصل كل يوم عباءة ، ولكن يبدو أنك ابن حلال وفلوسك طاهرة ، اذ عندي - بالصدفة - عباءة واحدة تدبرتها من السوق السوداء لرجل أوصاني بها في السوق قبل الفاتح لكنه لم يأتي حتى الآن ، فيبدو أنها مكتوبة لك من نصيبك . يكون حينئذ قد نجح في إثارة فضول السائل ، ثم يمد يده فيسحب الملففة المعني بها ، يفتحها برفق ، تفتح رائحة القماش الجديد الثمين حقاً ، تسكر الرجل قبل أن يمد أطراف أصابعه ليتحسس القماش ، يبدأ في السؤال عن الثمن وهو على استعداد لشيء من التضحية دون غضاضة ، خاصة أن أباه سن لن يبالغ في سعره بل سيقول أنه اشتراها بكذا ويطلب عرقه فيها كذا ، في العادة ينضم المشتري نسبة العرق هذه حتى يكون أبو سن قد أضافها على مكسبه خصيصاً لتكون موضع المساومة بعيداً عن السعر المحدد المقرر أن يقبضه ..

شغلة مرهقة بالنسبة لي ، أعود بعدها مفصص الأعضاء لكن أبو سن يتكفل بإزالة كل التعب عندما نرجع ونعشى بالكباب وربما سهرنا عند العليشي لوقت

متأخر من الليل يتجدد فيه نشاطنا بالأفكار لنيرة والغريبة التي يلتقطها العليشي من فتنة طه حسين الكبرى ومن عبقریات العقاد واعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي، مغطياً على أكفار أبي حنطور المنحصرة في برهان الزركشي واتقان السيوطي وفتاوي ابن تيمية . نرجع بعد ذلك الى البيت فننام كالقتلى ما شئنا من ساعات ، المهم أن أكون في الدكان عند آذان المغرب لأبقى حتى موعد التشطيب حيث يرجع ابن أخته الى منزله ليذاكر وينام مبكراً .

عفریت أم وداد

فى تلك الليلة كنت أنوى الدخول إلى حجرتى مباشرة لكى أنام حتى الفجر ؛ لكن الرغبة فى السهر عند وداد كانت تناوشنى بقوة وتشد قدمى إلى تجاوز بوابة الوكالة فى اتجاه منزل وداد . ثم حطرت لى أنه من الأفضل مواصلة الطريق إليها حتى لا يلحظ شوادفى . لقد أصبح وجه وداد الطافح بالأنوثة الشهية الطازجة دائما ، ومجالستها بعض الوقت فى الشرفة فى ظل الأنفاس ذات الدخان الأزرق ، نوعا من الراحة أحلى وأفيد من التقلب فى الفراش الصلب ..

وهكذا مكثت عند وداد وقتا جميلا طال إلى قرب منتصف الليل ، هدأت فيه كل توتراتى ؛ إذ أن وداد باتت تألفنى ، فلم تعد تضع بينى وبينها سدا قويا حاسما ، بل كانت تجتهد أن تكون طبيعية وكنت أجتهد أن أكون رجلا ملتزما حدود الأدب والنية الصافية غير الخبيثة ، ويبدو أنها بطول العشرة لمست أننى طرحت عن نفسى فكرة النيل منها أو الطمع فيها . فكانت تتجاهل الأمر إذا احتككت بها عرضا وأنا مار بجوارها ؛ أو إذا فردت ركبتى فى قعدتى فاستراحت على وركها قليلا ؛ بل لم تعد تمنع أن أحضنها وأقبلها بسرعة فى حرارة اللقاء أو عند الوداع .. طعمها الأنثوى ذو الرائحة القريبة من رائحة لبن الأطفال ممزوجة برائحة العرق والعطر الرخيص كان لا يزال فى خياشيمى ، حينما دفعت باب الوكالة ودخلت . كان شوادفى لا يزال مقعيا على المصطبة يذخن بشراة ، كتلة من الضباب الأسود تبرز فى بقعة منها جرة السيجارة : السلام عليكم؛ فرد بحماسة وترحاب شديد ، وضغط على الزر بجواره فأضيت اللبة السهارى التى بالكاد ترسم خطوطا باهتة على سبورة الظلام فى ساحة البوابة ، وكان نادرا ما يفعل مكتفيا بلعبة الجاز :

– " أهلا أهلا ! تعال ! ليلائك فل ! " ..

فعرفت أنه موزق أو فى انتظار رسالة من رسائله السرية الغامضة التى لا تنتهى ؛ اذ هو من مكانه فى جلسته هذه يشارك فى أعمال جسيمة تحدث فى بلدان أخرى بعيدة ، وربما كان على اتصال خفى بها لحظة حدوثها دون أن يبرح مكانه ، إنه تبتطان بكل معنى الكلمة ولا بد أنه قادر على الحضور فى مكانين متباعدين فى

وقت واحد . لست رائقاً هذه الليلة لكنى لا أجزؤ على إهمال دعوته ؛ لا بد من تلبيتها ولو لدقائق على سبيل برو العتب ، فكسب وده خير من كسب عداوته التى لا قبل لى باحتمال مجرد وقوعها ..

جلست إلى جواره ؛ فمد يده فى الحال إلى منقذ النار ، فكشف رداء الرماد عن خبيثة الجمر ، ووضع الشاى فوقه . شوحت بيدي فى احتجاج رقيق :
- " لا ! أعمل معروف أريد أنا أنام ولو ساعتين ! ورائى سوق بكرة ! بالمناسبة ياليتك تطرق بابى قبل الفجر بقليل ! " ..

حملت فى وجهى بعينين حادثين كعيون الذئاب :
- " وراءك سوق وتسهر عند حمالة الخطب !؟ سمعت خطوك مقبلاً من اتجاه بيتها ! حولته ثم حولته !! لطفح الشاى وغر من وجهى !! " ..
- " تشكر ! " ..

- " لا شكر على واجب ! " ..

- " تشكر أيضاً ! " ..

وهو يمرح على النار بذيل قميصه :

- " ما رأيك فى التعميرة التى تشتريها لك وداد !؟ " ..

- " برىء ! لم أشرب مثلها فى حياتى ! الوزن عال والصنف أعلى ! هل تعرف المرأة التى تشتري منها وداد !؟ " ..

- " أعرف الرجل الذى يبيع لها بالجملة ! لكننى واقع معه هذه الأيام فى كلام وحديث ! مصيره يرجع لى فتدوق هذه التعميرة ذات الصبب الحسن !! " ..

- " وداد يمكن أن تشتري لك منها ! " ..

- " وداد تشتري لصبى كحيان مثلك ! أما أنا فلى وضع آخر فى الصنف والوزن والكمية والسعر وكل شئ !! لكن البنت وداد جدعة على كل حال ! إنها كثيراً ما تدخل على بحجرين من هذه التعميرة ! أنا ياما دخلت عليها بحجارة وحجارة ! " ..

هكذا يجرنى للحديث عن وداد . فكرت فى التشكيل به وإيهامه بأننى قد نلت وطراً من وداد برغم يقينه بأننى لن أقدر . فى اللحظة التى شرعت فيها أتكلم

تفيلت شوادفى وهو يعاتبها على ما سمعه منى فتكون الفضيحة بجلاجل وشخاليل
وطبل بلدى ؛ فانعقد لسانى فى الحال ؛ وأردت أن أعقده أكثر فقلت :

- " وداد ست طيبة فعلاً ! غلبانة ! كان الله فى عونها ! هى فى الحق شريفة !
أشهد بذلك أمام الله ! وفعلاً كما قلت لى اتضح أن فى رقبته حبل من مسد !! "
ثعلب ماكر شديد اللهاء مقع أمامى فى عينى شوادفى ، يتحفز للإلتقاط على
دماغى فى أية لحظة مناسبة . كان يبتسم ؛ وقال بفحيح يعث على الشك
والتوحس :

- " أنتما إذن متفقان ؟ "

- " على ماذا يا ترى ؟ "

- " هى الأخرى قالت لى إن وراءها مشوار بكرة !! "

- " مشوار ؟ "

- " لهذا طرقتك مبكراً !! كم الساعة الآن ؟ "

- " تزيد عن منتصف الليل ! "

- " هو هو هو .. و .. ه ! أنت نائم على روحك يا أخانا ! نحن مازلنا فى بداية

السهرة ! موجز النبأ كان يتكلم فى الراديو منذ دقائق ! "

ثم أخرج ساعته الكالحة المربوطة فى فتلة قيطان فى عروة الصديرى ؛ أزاح
غطاءها وبخلق فيها على وهج السبحارة :

- " الساعة عشرة وربع !! "

- " غريبة !! "

تذكرت أننى كنت فى منزل وداد فى حوالى الساعة مساء . أعاد هو ساعته إلى

جيبه وجعل يصب الشاى بمزاج رائع :

- " يا أخى هذه الدنيا غريبة ! تصور يا أخانا أن وداد هذه تعيش نفس قصة
أمها ولكن بالقلوب !! لإحمد الله أنك لم تر أمها والإ كنت اندلقت على بوزك
وكلفتنا مشاكل عويصة !! كانت آية فى الجمال يا أخانا ! لا قمر ولا شمس ولا
نجوم تصلح لنشبهها بها !! كانت غجرية من حلب ! أو لعلها بلدية الله وحده
وأعلم ! لكنها كانت بارعة فى شوفان البخت وقراءة الفنجان وعمليات السحر

والتبشبة ! يركبها جن اسمه قدش ! أول ما يركبها تندمج في التفقير ! أقصد في الذكر : الله حى ! الله حى ! تتطوح شمالاً ويمناً وهي مزبقة في قعدتها ! نصف ساعة ساعة ساعتين حتى تأخذها الجلالة فلا يقدر مخلوق أن يوقفها ! وإن حاول أحد ازدادت حرقتها وعلت صيحات الوجد ! وحين تنطق لفظ قدش تعرف أن العفريت قد وصل وانتهى من الركوب وجلس يخادتها ! فتروح هي ترد عليه وتحدثه في أشياء غريبة ! عن مسروقات ! عن عيال تائهة ! عن زروع أثلقت ! عن محاصيل أحرقت ! عن قتيل راح غدرأ وغيلة ! وترد على نفسها بردود أروبة خبيثة نفهم منها أن قدش العفريت هو الذى يقول لها ابحنى فى المكان الفلانى ! إذهبنى إلى السبيل العلائى زورى مقام الشيخ فلان إسألنى عن الشيخ ترتان هاتى بيضة هدهد وجناح يمامة سوداء وحبة عين ثور مذبوح لتوه وإعجنى كل ذلك فى عجينة ورشقيها بالدبابيس وارمى بها فى البحر يصفو لك الجر ويظهر المرض والهزال على الفاعل الأصلى فينكشف أمره !! نصب فى نصب طبعاً لكن الناس العبطاء كانوا يصدقونها يأتون لها من الأرياف فتنتهز أمها الفرصة وتدق لهم أوشام السباع والعصافي ! الله يرحمك يا صفيية كانت كسبية ولا أجدع الرجال ! يدها كانت طويلة ! مصاصة دم ! لكنها من الناحية التى بالك فيها كانت طاهرة ! لم يستطع مخلوق أن يعاشرها ! لا فى الحرام ولا فى الحلال ! وكان لى عليها الدلال فكنت أسأله بصريح العبارة : كيف يا امرأة تحرمين جسدك من متعة الدنيا ؟ فتقول إن الرجل إذا ركبها أذلها وأصبحت عبدة له مكسورة العين ! والرجل الذى تنكسر له عينها لم يخلق بعد !! أعرف رجالاً محترمين كانوا مستعدين للزواج منها على سنة الله ورسوله ! لكنها عاشت لإبنتها ولأمها ولذكرى زوجها الذى كان من كبار اللصوص الأشقياء فى مصر وكان ويا للعجب شاعراً يسرح بالرباب بقصة أبى زيد والزناتى خليفة ! الناس فى القرى يعزمون شاعر الرباب ليلة أو ليلتين أو جمعه بحالها أكلاً شارباً نائماً فى نعيم حتى يخلص لهم أبسا زيد من أسره ! أثناء ذلك يكون صاحبنا قد فلى الدار وعرف كل خرم إبرة فيها وكيف يدخل إليها ويخرج منها فى أمان ؟ وما هى الحاجات التى ينشئ عليها لسرقتها ؟ ثم يعود بعد ذلك لينفذ خطته بدون الرباب هذه المرة ! وحده أو بصحبة غيره حسب حجم الغنيمة ! بعدها بايام

قليلة يرجع إلى نفس العائلة فى نفس البلدة حاملاً الرباب ! فى السهرة يستمع إلى
 أحبار المصيبة فيوصيهم بالذهاب إلى الشبيخة صفية المكشوف عنها الحجاب !!
 الشبيخة صفية تتولاهاهم بحيلها تظل بهم حتى توهمهم أنها من الشواهد عرفت
 أشخاص الفاعلين !! تتوسط لهم في استرداد المسروقات ، تهير حلوان كبير بخلاف
 أجرها الذي تأخذه بالطول وبالعرض !! الحجر الدائر لابد من لطفه كما يقول المثل!
 وما كل مرة تسلم الحجر كما علمونا في الكتاب أهل زمان ! صاحبتنا قفشه صاحب
 الدار وهو يتسلق السور ليفتح الباب من الداخل كي يخرج بغناؤه ! من هناك ؟ من
 هناك ؟ لم يثلها ! طخه بالعيار فطب ساكتاً ! المرحومة صفية كانت هي العفريت
 الذي يركب العفريت وليس يركبها العفريت ! لم يكن أحد من ضحاياها يعرف
 أنها زوجته لكنها ذهبت فاستلمت جثته على سبيل فعل الخير !! دفنتها هنا في مقابر
 الصدقة !! بدأت تشتغل وحدها ! فعشقها عمدة بلدة قرية إسمها شرنوب واسمه
 شرنوبي !! وجهه أحمر وذو لغد في رقبته ويتنقل راكباً فرساً ويلعب بالفوس لعباً !!
 العمدة شرنوبي صرف على صفيه دم قلبه لكي تنام معه ليلة واحدة فلم يثلها !!
 طلبت منه الزواج على سنة الله ورسوله لكنه كان يخنس زوجه وألاده الكبار !
 طلب منها زواجا عريقاً يداري به الفضيحة فلم تقبل ! لم يقطع الأمل فيها ! سقّرها
 الى الحجاز فمخجت بيت الله ! اشترى لها بئراً ماله هذا المنزل الذي تسكنه وداد !!
 اشترى الفستائين والأساور الذهب التي تتزين بها وداد!! كان ينفق عليها في الليلة
 الواحدة خمسين حنيها في عز الرخص ! لا يؤكلها سوى الحمام والأرانب والدجاج
 والرومي ! بدأ يبيع أرضه في السر لينفق عليها ! لم يكن المسكين يعرف الكيف
 لكنها علمته التحشيش والأفيئة وشرب الخمر كل ليلة ليظل في نشوة دائمة تفتح له
 الأمل في ليلة موعودة لم تجئ أبداً !! لم يعد لديه شيء يبيعه حتى الفرس باعها
 واستبدلها بخمار مهزول من حمير السباخ ! وفي النهاية لم يجد مفرأ من قبول الزواج
 منها على سنة الله ورسوله زواجا رسمياً معلناً على يد المأذون ! لكن المسكين لم يهنأ
 بها ساعة واحدة إذ انشقت الأرض عن ابنه الكبير الذي كان يراقبه فاقتحم الحجرة
 على العروسين وأفرغ فيهما خزنة المسلس كلها !! تولت الوشامة العجوز تربية
 البنت وداد بنفس الطريقة التي ربت بها أمها ! غير أن وداد أطيب قلباً من أمها !

ورثت قلب أبيها شاعر الرباب الذي لم يكن له في اللصوصية لولا الملعونة التي كانت تدفعه !! من السهل الضحك على وداد ولهذا تعبت كثيراً في حياتها وخسرت الجلد والسقط !! آه يا أخانا كم شهدت هذه الوكالة من مأس ؟ بعدد طوب هذه الجدران يا أخانا ! دنيا دنية والزمن غدار ! وفي قول آخر على رأي فقيه المسجد : دنيا فنية والزمن كباس !! " ..

وانفجر ضاحكاً بصوت وحشي . وكان النوم على وشك أن يطير من عيني فدفعني نفسي واقفاً : " تصبح على خير " ، مضيت مهرولاً الى حجرتي وأصداء ضحكته الوحشية ماتزال ترن في جنبات الفناء .

فى وضف النهار

فى فترة الضفى انتعش السوق بسرعة مضطردة . هجمت الزبائن من كل مكان . تفرغت أنا للرفايح الصغيرة من غوايش نايلون ومناديل وما إلى ذلك ، تفرغ محمد للمبيعات الثقيلة وقبض النقود ومراجعة الحساب بالقلم الكويبا ينزعه من خلف أذنه ، على ورقة بحجم كف اليد من رزمة مشبوكة بمقبض ، ولا يرمى بأى ورقة بل يثبتها إلى الخلف حتى يتسنى له مراجعة كل حسابه آخر النهار بموجب هذه القصاصات التى لا يفهم تفاصيلها أحد سواه . فى حوالى الثانية بعد الظهر يحف الزحام على الرفايح ، وقل عدد النساء والصبايا والولدان الصغار ، وزاد عدد الرجال طالبيى الفانلات والسرراويل ومقاطع الأقمشة التى تروج بين عمال مصانع الحمودية ..

بدأت أجد متسعاً من الوقت للنظر فى زحمة السوق أمامى . السوق مقام على قطعة أرض من عدة أفدنة ، فى مساحة متاخمة للبلد قريبة من ترعة الحمودية ، يحيطها سور من الأسلاك الشائكة ، والباعة صفوف وأركان أركان ، تفصل بينها ممرات تتسع لمرور الناس والماشية والعربات الكارو وعربات اليد . صف القماشين يعطى ظهره للسلك الشائك من ناحية ويطل بوجهه على السلك الشائك من ناحية أخرى . من خلفنا البلدة بمطاحننا ومصانع الحلويات ، تحيط بظهرنا فى قوس ذى انبعاجات وبروزات وتعرجات ساذجة ومآذن ركيكة البنيان وشرفات بائسة ومداخن مسودة الهامسات توحى بأن ثعابين ضخاماً تسكنها . على يميننا ترعة الحمودية التى تخترق مدينة دمنهور واصله إلى الإسكندرية وما بعدها ، تبدو بعيدة جداً لا يظهر منها سوى مثلثات صغيرة جداً بيضاء ومرمدة ومتداخلة هى شواشى أشرعة المراكب الراسية على شاطئها والزاحفة فى مياهها ، وتحمل إلينا الريح الخفيفة رائحة زفارة السمك وزحج الصيادين وجعير عراكهم وغنائهم ودخان نيرانهم ، وكذلك تحمل إلينا وفودهم حاملة البلطى والقراميط فى سلال ندية شروات تملأ العين بكثرتها بطزاجتها بانتفاضاتها يرخص ثمنها ..

أمامنا الطريق الزراعى على مرمى حجر ، وعلى يسارنا مزارع خضراء وحمرات متزامية إلى ما لا نهاية . إشتري محمد أبو سن شروة سمك من على الطريق الزراعى ، وتكفل بائعها بشويها . وحج بالليمون والخبز والفجل والجرجير والطرشى وكل ذلك بالجنان من جيراننا الباعة . رحنا نأكل بشهية فائقة كأنها أكلة العمر . وفيما كنت أحمل لفة الجرنان المحتوية على بقايا الأكل لكى أرميها فى صندوق حديدى مثبت فى السلك الشائك المائل على الطريق ، رأيت امرأة غازية تركب حماراً ، مرتدية بذلة الرقص الخليلة الكاشفة لمفاتن الجسد وعريه ، ومن فوقها ملءة تلفها نصف لفة . خلف الحمار يهرول طبال يعمل طبلته الدبكة تحت إبطه ، وحامل رق . الراقصة تطوح ساقها فوق ظهر الحمار تستحثه على الإسراع فى السير . تذكرت صاحبتى وداد ، فابتسمت ، ظلت أتابعها حتى آبت إلى سحابة صغيرة من الغبار . سحبت عيني عن خط الأفق وشرعت أستدير عائداً فاصطدم بصرى بالمعلم رمضان عريجة فى أبهى ثيابه الكمشير ، والركوب البنى فى قدميه والعمامة الصعيدية الكبيرة فوق رأسه والشال الحرير السمى اللون على كتفيه ، وعلى يمينه رجل وعلى يساره آخر كانوا يمشون فى لامبالاة قليلة ، وعيونهم تضرب إلى الأمام فى إلتباه وحذر . عقدت اللهشة لسانى وسمرتنى فى وقفتى : ترى ما الذى جاء برمضان عريجة إلى هنا اليوم ؟ !! أله فى السوق مأرب ؟ جاء يسرق أم يبيع سريقة سابقة ؟ لكن خاطراً أشرق فى رأسى ربط بينه وبين صاحبتى وداد ، فأيقنت أن الغازية التى مرت منذ قليل راكبة جماراً هى لابد أن تكون وداد ..

عدت إلى الفرش وذهنى مبعثر فى متاهات غريبة . بعد صلاة العصر مباشرة قرقرعت العربية من بعيد ، فشرعنا نعبى البضاعة فى الكراتين ثم نربطها بالحبال . تحول الفرش الكبير إلى مجموعة كراتين محكمة الربط . تكفل أثنان من شبلى السوق - الذين يظهرون دائماً فى اللحظة المناسبة - بمساعدة العريجي فى التحميل وعدل الكراتين وتوثيق الحبال فى مواثيق العربية . تم ركبنا جلوساً فوق الكراتين ، ثم زحفت بنا فكأننا مفتشين مكلفين بتفقد أحوال الكون ..

إستوتينا على الطريق الزراعى وقد خيمت علينا الشمس بستارة برتقالية اللون خشنة . ثم ابتعد السوق وبدا بأسلاكه الشائكة كبقايا أحرف بالقلم الرصاص قبل

مسحها وكشط بعضها ، ثم غاصت البلدة فى منحدر بعيد ، والتحقت مبانيها
بكتل السحاب ، ضاق الطريق وتعرج وتقلقل حتى صرنا نرتج فى جلستنا .
وكننت أعرف أن هذه الوصلة قصيرة وسرعان ما تقودنا إلى الطريق المرصوف
المخاذى لزرعة المحمودية ، فاقترحت على محمد أن ننزل لنتمشى هذه الوصلة خلخلف
العربة التى صارت تمشى ببطء شديد . استحسنت محمد الفكرة خاصة أنه قد آن
الأوان ليفك حصره بعد صلاة العصر وليتوضأ من جديد لصلاة المغرب ..

هبط محمد إلى سفح قناة لأنه لايد أن يستنحى فيغسل عضوه بعد فك الحصر ،
وربما انتهاز الفرصة وتوضأ ، وربما صلى ركعتين شكراً لله على نهاية السوق بدون
مشاكل لعل الله يكمل جميله فينهي اليوم كله بالنجاحة من مخاطر الطريق على خير .
أما أنا فمضيت نحو شجرة جميز عتيقة لكى أدارى نفسى فيها متفرصاً مفرغاً بطنى
من زحمة السمك . رأيت إستحالة ذلك لوجود مجموعة من رجال على مقربة بجوار
ساقية على مرمى حجر . لمحت بناية صغيرة مربعة بالطوب اللبن مما يبينه الفلاحون
على رؤس حقولهم للمبيت وحفظ المواشى أثناء السهر فى الرى . رأيت من
الأنسب أن أحتجب بظل جدارها الخلفى . مررت بالرجال . دوت المفاجأة
كطلقات مدفع كاتم للصوت فى جوفى : إنهم رمضان عريجة والرجلين ، يحاولون
فك حبل يربط جاموسة وبقرتين فى وتد مغروز فى الأرض . أخيراً أخرج رمضان
من جيبه مطواة فجز بها عقدة الحبل ، سلم الجاموسة لهذا والبقرتين لذلك ، أشار
لهما على الطريق . حمدت الله أن أحداً منهم لم يرنى إذ أننى كنت فى منخفض من
الأرض محتجباً بجدار العشة . تقرفصت رافعاً ثوبى مجتهداً بكل قوتى ألا أضطر
فيكشفنى صوت الضراط . إن رمضان عريجة لو رآنى الآن فليس بعيد أن يغزنى
بالمطواة . كان الهواء يحمل فى أذنى صوت نقر على الدربكة والرق ، على واحدة
ونص ، وكان الإيقاع المشحخل واضحا مجسداً مفرحاً لدرجة أن الغائط كان ينزل
متدفقاً متراقصاً على الإيقاع . جففت نفسى بورقة خروع متدل على جدار العشة ،
وقمت ملتفاً حول الساقية من الناحية الأخرى ، فلمحت فى منخفض آخر عند
ساقية أخرى جمعاً من الصبيان والرجال العجائز والأطفال ، وكان حسد الراقصة
يتلوى داخل كوكبتهم الملتفة حولها وقد راحوا جميعاً يصفقون لها على الواحدة

وهى تترنح وتتمايل على صدر الرجلين العجوزين فاشخة حنكها وساقها ،
والعجوزان يصرخان فى نشوة نزقة : يا وعدى !! وأحدهم يجعر : كل ده عشان
عودين برسيم لحمارك ؟ خذى نصف فدان من البرسيم . ثالث يمشط صدرها
وكتفها بكفيه فى شراهة ويقول فى توجع على الصوت كأنه ينادى على أمل بعيد
: قولى لى أين مكانك وأنا أحيئك بلبن العصفور !! هبطت المنخفض ، إقتربت من
الكوكبة ، كانت الراقصة هى وداد ، نعم صاحبتى وداد بلحمها ودمها وقد تعرى
ذراعها وصدرها وظهرت تكورات بطنها تهتز صاعدة هابطة فى دربة هائلة .
وقفت إلى بعيد فوق هضبة من الرديم والساباخ ، صرت أخلق فيها أطعنها بنظراتى
فى قلبها فى بطنها فى ساقها . إلا أنها كانت مسبلة العينين ، مائلة برأسها إلى
الخلف مقوسة ظهرها إلى الوراء وقد تدلى شعرها نحو ساقى أحد العجوزين
الرقيعين . وإذا هى تعدل قامتها سقطت سهام عيني فى عينها ، فشهقت فى فزع
وبريق الجنون يندفع من عينيها ، خبطت صدرها بيدها ضارخة : يا حرابى ! معقول ؟
فاستدردت فى الحال واندفعت مهرولاً نحو الطريق بساقيين مرتعشين وأنفاس لاهة .
ظلمت أشعر بأن هناك من يطاردنى للقبض على ، حتى استويت على وصلة الطريق
المتعرجة المقلقلة . كان محمد أبو سن كما توقعت قد توضأ وصلبى ركعتين لجبر
الطريق ، ووقف لتوه يتلفت حواله بحثاً عنى . قال باسمًا :

- " ظننتك رحت تنفرج على الغازية ! " ..

- " رأيتها من بعيد فحسب ! " ..

- " مالك ؟ كنت تجرى ؟ ! " ..

شعرت أننى سأحكى له ما حدث بشكل مثير : أتذكر المرأة التى اشترت منا
طرحتين فى سوق دمنهور وأخبرتكم أنها حارتي ؟ لقد اتضح أنها هى الغازية .
لكننى أمسكت فى الحال عن ذكر أى شئ ..

على أو الطريق المرصوف كان العربى فى انتظارنا ، فركبنا . بعد مسير حوالى
ربع ساعة مررنا برمضان عريجة ماشياً وحده فى خطو بطي واثق كمشية شيخ البلد
يتفقد زرعه . وبعد حوالى كيلو متر مررنا بالرجلين يسحبان ثلاث جواميس وأربع
بقرات !! ويمشيان فى هدوء وثقة عجيبين كما يسحب التاجر بهائمهم . أدركت

أبعاد اللعبة الجهنمية : وداد تختار مكاناً معيناً لتبدأ الرقص مقابل حزمتين من الترسيم
لحمارها ورغفين لرفيقها ، فحينئذ يتجمع الأولاد الذين تركهم أهلهم في حراسة
البهائم ، وأثناء فرحتهم على الغازية يتمكن رمضان عريضة ورجاله من فك البهائم
وسحبها ، وإذا يملك الطريق العمومي يصير مجرد رجل يسحب بهائم عائد بها
من السوق أو من الحقل .

وفيهامقبرة

تسمرت وداد فى فتحة بابها . سلطت عينها المذعورتين المنكسرتين المتنمرتتين مع ذلك فى عيني تبحت فيهما عن نواياى الحقيقية من هذه الزيارة كأتنى أزورها لأول مرة . كان الخوف والإضطراب ظاهرين عليها بشكل واضح رغم مرور أيام طويلة على ذلك الحادث ، عاقدة ماين حاجبها فى تساؤل أليم كأنها تقول : عايز منى إيه بتتجسس على ليه ؟ ! لكنها لم تقلها ، إنما استدركت بكل أريحية : تفضل ، وأوسعت فتحة الباب . فدخلت متجهاً إلى باب الشرفة متحاشياً النظر إلى يسارى حتى لا يقع عيني على ذلك المخلوق المشوه المعذب ، لكن بصرى مع ذلك لشعها بالرغم منى ، ففى البنت عينان يفتحان عينين فى جنبك فى ظهرك فى قفاك فى أى مكان منك ، لتنتظران إليك النظرة اللهفى ، نظرة الطفلة المنبهة البلهاء المولمة ، تشوح يديها تكاد تقفز نحوك تضرع إليك فى حاجة ما .

تركت حذائى بجوار الباب وتربعت جالساً على الأرض .. إمتلأ فراغ الباب بظل من الشهد الجسد المتكسر على نصف جدار الشرفة . قالت بود حقيقى كأنها زوجى تستقبلنى بعد عمل يوم شاق :

- " تاكل إيه ؟ " ..

ترددت ، حرت فى الجواب ، إستدركت :

- " نتعشى معاً ! "

فنظرت فى عيني على ضوء القمر المنسرب إلى ركن الشرفة من فوق حائط كأنه عين من عيونها يتجسس علينا . كان العشاء جاهزاً بالفعل ، جاء السفط وفيه صينية بطاطس باللحم المسبك بالتخديعة والثوم والبصل ، مع أرز وخبز وفجل وباذنجان محق . أكلت بشهية تكفلت هى بفتحها ، إذ راحت تزيع أمامى كتلاً من اللحم المفصص ، وتنتقى لى شرائح الباذنجان الطرية ، وتشذب أعواد الفجل ، وتغزنى بالأكل حتى حلفت بالله ما أضع فى بطنى شيئاً آخر . وكان الشاى قد نضج على وهج الفحم المشتعل فى المنقد . قالت :

- " تغسل يديك ؟ " ..

فقمتم متجهاً خلفها إلى الحمام . غسلت يدي وفمى بصابونة معطرة ، فيما هي واقفة بمسكة بالفوطه . جففت يدي تم طرحت الفوطه على كتفها :
- " عشوة هنية ! تسلم يديك ! " ..

احمر وجهها من شدة الإمتنان ، خفضت شعاع عينها كما تخفض شريط المصباح إلى أسفل كي تلقى بستار من الظل على خيمة الضوء ، فبدت أفتن من جميع صور الفاتنات التي تعلقها في مدخل شقتها . كانت مع ذلك تبدو تعيسة جداً ، غلبانة جداً ، طيبة القلب وإن حاولت الظهور بمظهر عشن ، بل كانت رغم هذه الحياة الغريبة التي تحياها لا تعرف شيئاً كثيراً عن أمور الحياة ، فمخجها صغير صغير ، وحيلتها قليلة ، ورزوها بهذه البنت العاجزة وحده سبب كاف لوضعها في زمرة التعساء . وجدتنى أربت على كتفها لأول مرة . يبدو أن يدي قد حملت الكثير مما في مشاعري نحوها لحظتها ، فإذا هي طفلة صغيرة تنتظر هذه الحركة منذ زمن بعيد ، فاندلقت على صدري ، مريخة رأسها على كتفي في حنان حقيقي مصفى . فلما هدا اهتزازها بعض الشيء ، بدأ صدرها يستقر على صدري ، فضممتها برفق ثم بقوة ، فإذا بهذا الجسد العملاق ينضغط كأنه ممتلى بالهواء . بمنديل مسحت دموعها . وقبل أن أرفع يدي بالمنديل عن حديها تلقفت هي راحة يدي فطبعت على ظهرها قبلة امتنان حارة . فسحبت يدي بسرعة . وقد لاحظت أنني في هذه الأثناء نسيت أنها امرأة ، أو لعلني نسيت أنني رجل ، وأننى طامع فيها بكل كياني ، إذ لم يتحرك في ذلك العرق النافر دوماً على ذكرها . وكنت أشعر مع ذلك براحة وصفاء نادرين ..

حين جلسنا نشرب الشاي وتدخن النار حيلة كانت لإشعاعات عينيها ترسل بوارق تليغرافية غامضة ، إستشعرت منها أنها قلقة بشئ ما . وجدتنى أقول :
- " إعتبري أنني لم أرك في ذلك اليوم ! " ..

قالت بصوت متحشرج :

- " قلبي وقف لحظتها ! وقعت من طولي ! أغمى علي ! كان الناس يفكرون في الجري وراءك !! لماذا حررت !! شبهتنى في نظهرهم ولكني قلت لهم لما أفقت أنك ابن خالتي ولم تكن تعرف شيئاً عن مهنتي !! أغمى على بمزاحي لكي ينشغلوا

بى بدلاً من الجرى وراك ! فأى واحد يجرى فى الأرياف يجرى وراءه الناس من دون أن يعرفوا سبب جريه ! يتصورون حريقاً يلزمه ناس تطفئه ! يتصورونها بهيمة وقعت فى بئر الساقية ويجب إنقاذها ! يتصورونه لصاً عليهم أن يشنكلوه فيوقعوه ليعرفوا خبره ! المهم كيف تأتى لك أن تضبطنى فى هذه الوكسة ؟ ! كنت تتجسس على ؟ ! على فكرة ! أنا تصورت هذا ففرحت وأحببتك ساعتها مع أننى اغتظت منك غيظاً لا يشفئنى من غليله إلا خنجر إغرزته فى قلبك !! لكن الله ستر ! كيف جئت ورائى من دمنهور إلى ريف المحمودية !! ؟ "

ضحكت فى شئ من الإضطراب :

- " لم أراك فحسب ! رأيت رمضان عريجة وهو يفك البهائم من وتلها ويسلمها لرحلين كانا معه ! ورأيتهم معهما على الطريق الزراعى وهم عائدين بالبهائم !! " ...

شوحت يديها فى ولولة ، وقربت أصابعها من صدرها علامة أنها تود أن تشق هدومها . راحت تولول شاحبة الوجه والشفنتين :

- " كملت المصيبة ! كنت تتجسس طبعاً ! سمعت أنك فى المباحث ! أكثر من واحد فى الوكالة قال لى هذا الكلام لما عرفوا إنك تسهر عندى ! أنا ربك والحق لم أصدق ! ويظهر أنى عبيطة ! أنت مباحث طبعاً ما فى ذلك شك ! تبع الأداب أم جنائى ؟ ! أنا وحق من جمعنا على غير ميعاد امرأة غلبانة منكسرة كما شفت بعينك ! لا شأن لى بأحد ! فى حالى ! وبصراحة أنا أشتري لك الحشيش خدمة من ناحية ومن ناحية ثانية تعطينى الولية حجرين لى فوق البيعة ! لست أشتري لأحد غيرك ! قلت يا بنت إنه يبدو عليه أنه لابن ناس وطيب وظروفه ما أحد يعرفها غير الله فاتحدميه بدلاً من بهدلته لو وقع فى يد الحكومة الغدارة ! ولكنى والله العظيم عبيطة ونحاية ! إنظر لحالى تعرفنى ! غدر بى رجال كثيرون ! كلهم يريدون أكل لحمى بالجان ! لا يغرنك أننى أعزى كنفى وأهز وسطى بين مجموعة أطفال !! إنه أكل العيش المر ! أما أن أنام وأفتح باب نفسى لأى واحد يدخلنى ويعرطنى على مزاجه كأننى خرقه بمسح بها جزمته فلا يحدث أبداً وعمره ما يحصل إلا فى الحلال على سنة الله ورسوله ! جدتى قوت القلوب زرعت هذا فى نفسى وقالت لى من

يأخذ منك شيئاً سهلاً تخسرينه رجلاً وتخسرينه صاحباً نافعاً !! وقالت لي إن المرأة مهما يهلها الزمن يبقى عندها شيء مصون سوف ينفعها في الزنقة !! إذا الذهب ينفع الرجال في الزنقة فشرف المرأة يسرى عطره بين الناس فيأتي زبونه الذي يطلبه أن يجيء !! فإن لم يجيء ماتت المرأة شريفة طاهرة الجسد وربنا يغفر لها جزاء ذلك بقية الذنوب !! أنت مثلاً ! نفسك في تريد أن تأكلني ! أنا الأخرى نفسي فيك ! لكن هذا لا يرضى الله ولن أفعله وأظن أنك لم تعد تفكر فيه ! أنا أسهل امرأة تزوج وأسهل من تطلق !! من ضيقى بأكل العيش المر أنزوج ! وأطلق من ضيقى بزوجي الذي تنكشف لي دناءته !! حظي أسود من الهباب ! ما وقعت في زوج طيب أبداً !! وكيف أقع على الطيبين وطريقى نفسه لا يمشی فيه الطيبون ؟ ! من عشرين سنة كنت صغيرة ومقطعة ! رحت أشغل مع العوالم أرقص في الأفراح في زف العرايس ! الليلة لا بد أن تنتهي بخناقة على الحساب وتوزيع الأجر والنقود ! بعدها خناقة ثانية أشد من الأولى : متعهد الحفلة يريدني أعود معه إلى البيت ! رئيس الفرقة يتصدى له ! لا ليدافع عني وإنما ليأخذني هو !! الطبال نفسه يشخلعني بمزاج بعشم أن يسرقني منهم جميعاً ! حتى صاحب الفرح والمعازيم كلهم يضايقوني حتى عقدوني من جسدي !! هل مكتوب على حبيبتي أنني سهلة وواقعة من قعر القفة وفي انتظار إشارة من أي أصبع ؟ ! أما والله إنها مصيبة حيرتني !! سنين طويلة مع العوالم بدون راحة ! وفلوسهم منظورة ومحسودة وليس فيها أي بركة ! صرفتها كلها على البنت العاجزة ! على ناس تقعد بها لحد عودتي فجدتني لا تطيق رؤيتها !! بخت أسود ! الفضيحة مكتوبة على حتى من غير تفريط في الشرف !! أكبر علامة على سوء البخت أن أفتح عيني فأراك فوق رأسي في مكان بعيد !! .. "

وألقمتني مبسم النارجلية بحركة زغد فيها كثير من الغيظ المبني على كثير من العشم . سحبت نفساً عميقاً ، قلت من خلل دخانه الكثيف :

- " إسمعي يا وداد ! أنت اشتريت مني طرحتين في السوق ! فأنا لست مباحث ولا يحزنون ! بل إنني أكره الشرطة بجميع فصائلها كره العمى رغم أنني لا أحتك بها في أي شيء ! أستثقل ظلهم أتمنى أن يكفيني الله شرهم ! كنت طالباً وسأعود مرة

أخرى للدراسة من منازلهم فى الجامعة بإذن الله ! وبلدتى قرية فى محافظة الغربية
لكننى جئت إلى هنا على أمل السكنى مع بنت عمى الثرية المتزوجة هنا من شخصية
كبيرة إلا أننى لم أسترح فى الإقامة عندهم فسكنت وحدى فحدث لى حادث
عطلنى عن الدراسة فغضب أهلى على فمنعوا عنى المصروف فجئت للسكنى فى
هذه الوكالة مؤقتاً واشتغلت مع ذلك القماش الذى باع لك الطرحتين !! ويوم
رأيتك فى ثوب الغازية ترقصين بين الأطفال كنا عائلتين من سوق الحمودية !
وكنت أفك حصرى فاصطدمت بـرمضان عريجة يفك حبل البهائم ثم اصطدمت
بك ترقصين ! وعلى فكرة ! رأيتك وأنت مارة من جوار السوق راكبة حمارك ومن
ورثك الطبال والرقاق وبعدكم بقليل رمضان عريجة ورجليه !! " ..

- " بنت أسود والله ! "

هكذا رددت بأقتناع شديد . ثم ظهر فى عينيها بريق مفاجئ يعكس أبعاداً من
الذعر والتوجس :

- " رآك رمضان عريجة ؟ ! " ..

- " لا ! " ..

- " ولا أحد من الرجلين ؟ ! " ..

- " من حسن الحظ ! " ..

- " جئت بسيرة الموضوع أمام شوادفى ؟ ! " ..

- " لم أفتح فمى لأى أحد ! " ..

- " الحمد لله !! أنا أصيلة وطيبة القلب ! اياك أن يعرف رمضان عريجة أنك

رأيتك ! اياك أن تهمس لشوادفى أو لأى مخلوق ! ان فى الوكالة ! يارب ! أغفر لى

يارب ! أنت ترانى الآن أفعل خيراً يارب ! هى ليست فتنه أفتنها لكننا فعلنا خير

أفعلها من أجلك يارب !! أسمع يا صاحبنى ! الوكالة !! تحتها مقبرة كبيرة !! " ..

- " ماذا قلت ؟ ! " ..

- " طربة ! طربة لدفن الحثث !! " ..

- " جئت من ؟ ! " ..

- "الذين يتخلصون منهم ! عيال صياح أمهاتهم دعون عليهم يجيئون للمبيت فى الوكالة ! تسحرهم الوكالة ! الواحد منهم يغتر بشبابه بجرأته بسوء سمعته فى الخربشة ! يصور له الشيطان أن يصبح حاكماً للوكالة بدلاً من شوادفى بأن يكسر أنفه وعينه أمام الباقيين ليركب عليه وعلى الباقيين وعلى الوكالة كلها مثلما فعل شوادفى نفسه مع عطيه !! شوادفى نمس ! مكار ! يعطيه الأمان يذيب له البرشام المنوم فى السماى والسجاير ! يتكوم جنبه بعد دقائق ! يكمل عليه شوادفى بالمنديل يكتم أنفاسه ! يعمله ! الطربة لا تحتاج لفحت ! فلها فتحه سرية بغطاء كغطاء الجارى ! انها فى الأصل بئر مبنى تحت الأرض فى زريبة المواشى ! له سلم مبنى ومتصل بقاع الأرض البعيد فى دقائق تغيب الجثة فى جوفه ولا من شاف ولا من دري ! وسرعان ما تختفى فتحة البئر تحت روت البهائم !! "

صار مبسم النار حيلة يرتعش بين شفتي . صرت انتفض كالعصفور تحت هاطل المطر . لإحتمال كبير أن وداد نأول إلقاء الرعب فى قلبى حتى لا أذيع ما رأيت ويتناثر الكلام إلى سمع الحكومة . وإحتمال أكبر أن تكون صادقة وهذا هو الأقرب إلى الحقيقة لانها تحكى بإنفعال وحرارة وخوف ثم أننى لا أستبعد شيئاً على شوادفى ، أنه مصيبة كبرى وإلا ما أصبح حاكماً على هذه الوكالة وفيها كل هذه الأنواع من عتاد المجرمين والثقة الضائعين الضالعين فى التشرذ ..

- إن كنت تكذبين يا وداد فإنك تفسرينى مدى الحياة ! إننى فلاح أموت فى حب العشرة وأدفع عمرى فدأء للصاحب والحق والواجب ! وبنفس الدرجة أدفع عمرى إنتقاماً ممن يخوننى أو يغدر بى أو يستغفلنى ، إن كان قصدتك إخافتى لكى لا أتكلم فأنتى لا أتكلم من حالى ! من أخلاقى وتربيتى الرفية الأصيلة ! فإن كان قصدك إخافتى فأنت تثيرين عنادى ! أنا صحيح أعرف أنهم جميعاً غدارين مجرمين ولكن أنا عندى مخ أستطيع تشغيله بقوة عند اللزوم لألجؤ من أصحاب الأعماخ الشريرة !! فكونى صادقة معى يا وداد إحتراماً للعيش والملح ! هذا الخبر الذى قلته لى الآن صحيح أم أنه خيال هايف وبايخ ؟ أريد أن أعرف لاحتياط لنفسى فحسب !! "

نهضت واقفة بإنفعال ، هرولت فى الممر بحسد ينتفش ، عادت ممسكة بلقمة خبز .

- " عدم المواخذة ليس عندى مصحف ! أخاف أن تكون شقتى غير طاهرة بما فيه من الكفاية فيحرقها المصحف الشريف !! ولكن هذه اللقمة كالمصحف بالضبط !! "

وكسرت لقمة الخبز ، ووضعتها على عينها هاتفة بفحيح قوى بحسد :
- " وحق هذه النعمة على عيني ! عيناى هاتان من هذه البلكرنة شافت الحشة وهى محمولة إلى الزريبة وشودافى يخرج من غيرها بعد مدة ينفض يديه ورجليه من التراب !! فى الصباح أتفقد سكان الوكالة من حجرة جدتى ؟ أعرف الذى غاب منهم ، أظن أتفقد أيام طويلة ! لا يظهر بتاتاً ! أتيقن من دفنه ! بعيني هاتين اللتين سبأ كلهما الدود شفت الموت والدفن مرات عديدة !! الظروف دائماً أبداً تخدم شودافى الظروف فى بلدتنا الوسخة لا تخدم غير شودافى .. "

أفقت ، كل الأنفاس التى سحبتها بلذة وعمق تبخرت من رأسى وخلفت وجعاً فى عضلات صدرى وضيقاً فى تنفسى . قالت وداد باسمه كأنها تتشفق علي من الخوف :

- " ما يصح أن تخاف هكذا ! إن شودافى فى النهاية لا يقول : شر للبيع ! طول ما أنت طيب وصادق وأمين معه يقيد لك أصابعه شموعاً ! كل بعقولهم حلاوة ! أنت عندك مخ كما تقول وهم أخناخهم ظلمة كما أوافقك ! شغل مخك على طول الخط معهم ! أفتح عينيك شف كل شئ وأقفل فمك ! إسمع كل شئ وكأنك لم تسمع شيئاً ! المثل يقول : ان نزلت فى بلد تعبد العجل حش وارمى له ! وسكان الوكالة والحكومة الصايعة لكرمهم يعبدون شودافى لأنه ينفعهم ويتسبب لهم فى الأرزاق الكبيرة من غير تعب ! أنت الآخر حش وأرمى له !! إن باله طويل ونفسه أطول وهو يجرب فيك كل يوم تجربة !! .. "

تسللت إلى آذنا دقات الساعة قادمة من الراديو فى مكان قريب وإعلنت المذبة همت مصطفى منتصف ليل القاهرة . فنهضت واقفاً :

- " تصبحى على خير ! " ..

مضت ورائى نحو باب الشقة . توقفت لأسلم عليها ضممتها بقوة حتى
طقطقت عظامها فتأوهت ، ورغم أنفها خرجت التأوهات أنثوية مثيرة مكهربة ،
فإذا بى مشدود الوتر محتقن الدماء أكاد أحترقها . فصلتني بذراعيها فى رفق ،
همست باسمه فى جدية وأخوة كصديق يسدى لصديقة معروفاً جميلاً :

- " سأعرفك على واحدة تعجبك !! الفجرية سندس فى الحجرة المجاورة للحجرة
جدتى أراهن أنها ستجعلك تنسانى ! ليلتك فل ! " ..

حين صافحنى هواء الشارع عادت إلى دماغى كل الأنفاس الهاربة صارت
تشارك الريح فى اللعب بأعطافى ومشاعرى ، من قمة البهجة إلى وهدة الخوف إلى
حضيض الرعب . ضوء الشارع يزداد شحوباً فى ناظرى ، رأيتنى مشكوكاً فى
كلايشات الشرطة مع يد وداد ورمضان عريضة وسيد زناتى وزينهم الشحاذ ،
ورأيتنى مشجوج الرأس حثة محمولة إلى الزريبة لتغيب إلى الأبد فى بحر جوفى
مهجور لا قرار له . وكانت المزارع المتزامية على مقربة من الوكالة ترسل فطيرة من
الأصوات المتحاضنه فيها من عواء الذئاب ونقيق الضفادع ونعير السواقى وهدير
الطنابير وجعجة الشواذيف وحرير الجنادب ونعيب الغربان وزقزقة الكراون . لم
أكن مع ذلك أشعر بأي رغبة فى دخول الوكالة كأننى أقف أمام زنزاة السجن
المؤبد واننى لو دخلت فلن يكتب لى الخروج إلى الأبد . فوقفت واضعاً يدى فى
جيب سروالى استنشقت الهواء النقى الطرى . إن هى إلا دقائق حتى ظهرت فى نهاية
الشارع الخالى بقعتان سوداوتان ظللتا فى تعاظم حتى ظهر شخصان طويلان غارقان
فى صداً وأسمال بالية . من الواضح أنهما يبحثان عن أى صيد . جعلتا يقتربان ،
فلما رأيتنى توقفا على ناصية الشارع وصفر أحدهما فرفعت رأسى ، فأشار بأصبعه
فى حركة أمر أن تعال ! ففى الحال طرقت باب الوكالة بلفه وخوف ثم دفعت
الباب فانفتح فانزلت فى فتحته فى اللحظة التى وصل فيها الشريدان وأوشكا على
الأمساك بى فدفعت باب البوابة فى وجهيهما وسمعتهما فى الخارج يضحكان
ويشخران فى لهجة يأس ولامبالاة .

وشوشة

معظم صبيان الوكالة لا يسرحون يوم الجمعة إلا سندس الفجرية فإنها تحمل سفلها على رأسها وتمضى ، مرتدية ثوباً من الشيت الرمادى المبرقش بكور صغيرة خضراء قائمة ، كاسر لحد الكعبين فوق الخللخين بكورنيش عريض ؛ وفى منطقة الصدر والجدع كسور وكشكشة مما يحقق للصدر والبطن وللردين بروزاً لطيفاً يشير إلى أن تحت هذه الثياب أنثى فاتنة . الوجه طريف ساحر كأنه مرسوم بريشة فنان فرعونى قديم شعبى جداً ، تنقصة الرصانة والنعومة فى الخطوط لكن الملامح فى مجملها جذابة إلى حد كبير جداً . وجهه كطبق من الفخار فى لون السمن البقرى ونعومة اللمس رغم خشونة المظهر ، ولمعانه ، مرسوم عليه عينان ضيقتان قليلاً ، حادتي البصر ، برموش طويلة سوداء ، تحت حجبين كحبة الرمان ، فى مقدمته حاجبان كثيفان أسودان ، وفى أعلاه المندبل أبو أويه المشغول بالفل والترتر ، يخفى شعرها فى برمة عربية عتيقة ، والशल القطيفة الأسود . الأنف مستقيم مدبب شامخ الطرف مخروم من أسفله ، وتتدل فردة قرط من الذهب على شكل مخرطة الملوخية . بين الحاجبين نقطة وشم خضراء ، وتحت الأنف ، مكان الشارب ، وشم آخر على شكل خطين بالطول ثقيلين متجاورين يتصلان بمثلين لهما فى منتصف الشفة السفلى وينحدران إلى وسط الذقن . العود سمهرى لذن ، والمشية - وهى حاملة السفط - معجبانية كمشية الفرس فى طريقها للقاء خيالها تكاد تنفرط من البهجة . كل عضو من أعضاء جسمها يتحرك كأنما ليمشى وحده فى حرية كاملة لكنه ما يلبث حتى يتقابل يتضافر يتدافع مع بقية الأعضاء الأخرى ..

منذ أن حدثتني عنها وداد بدأت أترقبها باهتمام ، ثم بدأت ألح على وداد أن تعرفنى بها بالفعل . وقد تم ذلك بكل جرأة وبساطة ذات عصرية رقيقة النسبات ؛ إذ فوجئت بطرق خفيف على باب حجرتى فقلت فيما أعتدل جالساً : إدخل . فدخلت وداد ساحبة خلفها سندس تحمل سفلها على رأسها . وقفت مرحباً بهما ؛ وسعت لهما مكاناً على المصطبة لكن سندس تفرصت على الأرض أمام سفلها

فيما جلست وداد على حافة المصطبة . كان الباب موارباً ؛ وقالت وداد بلهجة ذات معنى :

- " شوفي للأفندى بخته ! وشوشى الودع ! إضربى الرمل ! افتحي الكتشينة !
إفتحي قلبه ! دماغه ! هاتى كل ما فى جوفه !! " ..

تمدد الوشم على وجه سندس واتسعت المساحات بينه فى نفس الوقت ،
وظهرت أسنانها الدقيقة المسممة وسبح فى محيطها الداخلى لسانها الزرب بلهجة
عرباوية معوجة الحروف مندفة متلاحقة بصوت دافئ يشبه صوت الرجال فى
عرضه وغلظته لكن إيقاع الأنوثة مدو فى عمقه السحيق . أخرجت من تحت غطاء
السفط رقعة قماش كالمنديل ملفوفة ، فكت لفتها ، فردتها على الأرض ، فإذا هى
حفنة رمل وودعتين صغيرتين . صارت تخط فوق صفحة الرمل بأصبعها :

- " اسم الكريم ؟ " ..

- " فلان ! " ..

- " واسم الكريمة والدتك ؟ " ..

- " فلانة ! " ..

- " مكتوب لك عيش فى الغربية ! والمكتوب مامنه مهروب ! الدنيا ظلمتك
وأنت لا تستحق ولكن الصبر مفتاح الفرج ! يُحك الله من قضية رزية فما كانت
هى ؟! لا تقلها ولكن قل : حصل أم لم يحصل ؟! " ..
- " حصل ! " ..

- " انسان كان لك مثل الأب أو الشيخ أو المعلم كان يقرش الملح من جهتك
يعبى صدره بالشر عليك فمن يكون لك ؟! " ..
- " معلمى فى المعهد ! هذا غريب حقاً ! " ..

- " أحببت انساناً كبير القلب أحسن اليك ! وغرد فى حطاب سقفاك طير
كبير نادر المثال قليل الحظ وما كاد يملاً حياتك بالأنس حتى اصطاده الصياد فمن
يكون بالنسبة لك ؟! " ..
- " بدرية ! " ..

- " هناك كهل عجوز يعطيك ظهره ويمشى غاضباً منك يتوء ظهره المحنى بجبال الهموم فمن تراه يكون ؟! "

- " لا بد انه أبى ! "

- " وامرأة قصيرة القامة بيضاء الوجه تحمل همك فى الصحو وفى المنام تنزع اللقمة من فمها تشيلها لك فى حرز حرير فمن هى ؟! "

- " الواضح أنها جدتى أم أمى ! "

- " أنت أبيض القلب ! سريع الغضب ! كاللبن الحليب يفور ويدلق نفسه على حواف الإناء فلا يخسر إلا نفسه ! أنت مثل التين الشوكى ظاهرك شوك وقلبك لبر كالعسل ! الفرع طيب والأصيل أطيب ! كريم النفس والكريم لا يضام ! دائماً أبدأ بصادفك أولاد الحلال يقدمون لك الخير والقول الحسن ! ينير الله بصيرتك يعطيك كثيراً مما لا يعطيه لغيرك ! خيرك فى حسن المال لا فى كثرة المال ! إن كنت اليوم فى ضيقة فلا تقنط ولا تجح ! من يستهزئ بك اليوم يوقرك غداً ومن يضيق منك اليوم سوف يسترضيك بإذن واحد أحد ! حظ سالك وناج من المهالك لا مكان فيه لعزالك وملى بعلامات السعد لعيالك ! عما قريب تخرج من حفرة وقعت فيها غصباً عنك إلى جبل عال فيه مآذن ونخيل وأشجار وفيه ورد وطيور وأبراج حمام ! فعاهدنى عهد الله بحق نبيه المصطفى وبحق النهار إذا اتسق والبدر إذا اكتمل والضحى إذا تجلى أن تذكرنى بحلاوة البشرى وطيب الذكرى ! قل اللهم آمين!! "

- " اللهم آمين ! "

قلتها وأنا مقع أمامها فى العلو كالتلميذ النجيب الذى راح يردد خلفها تفاصيل الدرس . شعرت انها ليست سهلة ابداً ؛ إنها فى منتهى الذكاء وسرعة البديهة ، خبيرة بقراءة الوجوه والتقاط رموز المشاكل والهموم فى خطوطها الإنفعالية فتصل بالرموز إلى ما يقرب من الحقيقة وبالخطوط إلى ما يقرب من الجذور الأصلية . عجب والله وأى عجب . هذه البدوية الأمية اللبقة لم تتعثر فى عبارة واحدة بل إن فيها لفصاحة فطرية يفتقدها الكثيرون من المتعلمين فى المدارس والأزهر ، فمن أين أتت بها ؟ ومن أين توفرت لها هذه الخبرات بالنفس ومحاولة استنباط ما فيها باستكهان لا يخيب ولا يطيش إذ لا بد أن يجيى فى كلامها جزء كبير بل كبير جداً

من الحقيقة . لابد أنها خبيرة بصفات يتشارك فيها أعداد كبيرة من البشر المتشابهين، لتفسيرها عندها أصداء مضمونة التجاوب فى كل هؤلاء الذين يحملون هذه الصفات . أهى ثقافة فرعونية قديمة ورثها عن أجدادها مثلما ورثت أرض سيناء الأديرة والكهان والتاريخ ومناجم الذهب والفيروز وهجمات الغزاة ١٩.. أيقنت أن علاقتى بهذه الغجرية سندس سوف تكون طويلة المدى عميقة الأواصر . إن الذكاء المثل من عينيها نافذ وحاد ، وفيه لسعة طرية باردة تغريك بأن تقهره فوق فراشها بلذة دافقة ، وأن تقضم مقدمة هذا الأنف المستفز الشبيه بقرن الفلفل الأحمر ، وتعضعض هذه الرقبة الطويلة المبرومة ، تطوف بالعقد الكهرماني الملتف حول عنقها ..

نظرت لى وداد نظرة ذات معنى . فاعتدلت ، وسحبت المحفظة من تحت الوسادة ففتحتها فسحبت بريزة ورقية مخرشرة ؛ قدمتها لسندس بقليل من الحياء . فسلبتني بنظرة كاللهب :

- " عيب عليك ! لانا جيران وإخوة ! " ..

وقالت وداد :

- " سندس كريمة من بيت كريم ! تستطيع أنت أن ترد لها الخدمة بخدمة مقابلة فى أى وقت يعجبك ! " ..
قاطعتها سندس:

- " إذا ردها لا تكون خدمة ! لا منه ولا منى ! " ..

غمزتني وداد بقرصه خفيفة . قلت :

- " ولكنى أحب أن أراك كثيراً يا سندس ! إن كلامك فيه حكمة ! وبصيرتك نيرة بالفعل ! أرجو أن تعتبرينى أخاً لك هنا ! " ..

بطرف عينيها نظرت لى وداد ساخرة من سذاجتى كأنى تلميذ سقط فى الإمتحان ؛ ثم اعتدلت كأنها ستدلى بالجواب الصحيح :

- " على كل حال تعال نسهر سهرة عند سندس ! القعدة عندها تجنن ! حجرتها مثل الصندوق وهى تجعلها كالسفيرة عزيزة كصندوق الدنيا ! وعندها جوزة مثل القلة القناوى من الفخار مياها باردة ونفسها يرطب الصدر ! والشاى

من يلها لا تشربه بعلمها من يد أخرى ! أما الأكل إن وضعت فيه نفسها فلا بد أن تجربه ! " ..

قلت محاولاً إثبات ذكائى هذه المرة :

- " شوقتنى يا وداد ! فلتكن سهرتنا عند سنلس يوم الخميس القادم ! فما رأيك يا سنلس ؟ " ..

- " الدار دارك فى أى وقت تشاء ! " ..

- " إتفقنا ! " ..

وخرجنا . وفيما كنت خارجاً إلى الدكان مساء ذلك اليوم استوقفنى شواذفى وشرح لى ، بدون مناسبة ، كيف أنه يرضى دائماً كلما رأى سكانه يتحابون ويتزاورون ويتبادلون الطعام ، فكلما قام العيش والملح بينهم اتقينا شر الخيانة والغدر.

سندس واهريسة

استسمحت محمد أبو سن فى إحازة مساء الخميس بحجة السفر إلى بلدتنا خميساً
وجمعه ؛ فوافق عن طيب خاطر . ومد يده بجمنيه كامل :
- " اشترى به شيئاً لإخوتك على حسابى ! إياك أن تطمع فيه وإلا فإنه يقش
ما جمعته فى الحلال ! " ..

كنا فى وقت الضحى . وكنت مرتدياً ثيابى النظيفة التى أقف بها فى المحل ،
فمضيت متوغلاً فى شارع سوق الخضار والفاكهة المتفرع من شارع السوسى ،
على ناصيته محل فواكه الفخرانى ، نظيف جداً ، يشبه الصيدلية فى واجهاته
وفتارينه الزجاجية . الفاكهة معروضة أمامه ودخله فى شكل مدرجات من
الصناديق الكرتونية مملوءة بأنواع لا نهاية لها من الفاكهة . آخر ما كنت أتصوره أن
أرى الفواكه التى يعرضها الباعة فى أقفاص وأسفاط وعربات يد يمكن أن يعتنى بها
هكذا للدرجة أن كل برتقالة أو تفاحة أو منجاية أو حتى جوفاية وبلحاية ملفوفة
وحدها فى ورقة زبدة ومرصوصة بجوار بعضها فوق بعضها كحبات العقد ؛
والرصّات التى على السطح قد رفع النقاب عن بعضها بانفتاح الأوراق فبدت
كوجوه صبوحه تطل من تحت الطرح الملونة . مهرجان من الروائح تضرب
سراقاتها إلى نهاية الشارع ، لا ينافسها إلا بائع الهريسة الواقف بعربته على ناصية
قرية ، والنار الهادئة تنساب تحت صينية الهريسة مرسلة عبقاً من السمن البلدى
والفانيليا . محل الفخرانى له بابان على الشارع العمومى وثالث على الشارع
الجانبى ، جدرانه مرصعة بالمرايا وسقفه أيضاً ؛ والمراوح المتدلية من السقف تدور فى
حمية لتظهر فى المرايا عشرات المراوح وحركة الشارع كلها ؛ مما يجذب كل مار إلى
التوقف ثم النظر فى انبهار ..

إلا أن كيانى كله انصرف إلى بائع الهريسة على الناصية البعيدة فى آخر
الشارع ، حيث يلتحم هذا الشارع الجانبى بالشارع العمومى الكبير ، فكانه حبيب
مستطيل بفتحتين تقودان إلى اتجاهات مختلفة . كنت أمر عليه كل يوم فى طريقى
إلى المعهد حينما إنتقل المعهد من عمارة المعلم علس فى كوبرى افلاقة إلى مبناه

الخاص فى شبرا دمنهور ؛ فأرى الزحام حوله من الأفندية والعمال وراكبى الدراجات يتوقفون : هات حته بنصف أفرتك ! بأربعة صاغ ! بشلن . والرجل يرد على كل واحد بمزحة تضحكه : لك ولا حتاكلها ؟ ويسجى على الطبق بالسكينة المبطلطة شريحة تملأ العين يتصاعد منها دخان رقيق ؛ ثم يغمس السكين فى سلطانية السمن السايح الساخن فيسقى بها خرطة الهريسة ، يضع بجوارها شوكة صغيرة ؛ يقدم الطبق لطالبه ؛ فإذا يد هذا يده لتناول الطبق يهبط الرجل بيده دفعة واحدة فى دربة مازحة ، فيفزغ صاحبنا يرتاع ظاناً أن الطبق قد أفلت على الأرض . متعنى كانت الفرحة على هذا المهرجان كل صباح ؛ وأمنيتى كانت أن أتلقى مداعباته هذه ولو بنصف فرنك . الآن قد آن الأوان لكى أشتري خرطة كبيرة ربما نصف أقة . هذه فكرة طيبة للغاية وما أحلى دخلتى بها على سندس الغجرية ، أشيك وأرخص من فاكهة الفخرانى التى لا أجرؤ على الإقتراب منها مجرد السؤال عن سعرها ..

حدوت أولاً على سوق السمك : حاره سد متفرعة من شارع السوق . رأيتنى منجذباً للسير خلف امرأة عرباوية رشيقة القوام كانت تسير أمامى حاملة سفظاً على رأسها ، تشبه إلى حد كبير هيكل سندس حتى فى مشيتها . كنت أعرف أن ريف دمنهور العريض يحوى الكثير من المغاربة والأعراب المستوطنين من قرون طويلة ويجيبون دائماً إلى دمنهور للتسويق والتسوق . توقعت أن هذه المرأة العرباوية تزمع شراء سمك . أنا الآخر جئت لأشتري أكلة سمك نسهر عليها عند سندس لنحلى بالهريسة ..

أخذت أرسل النظر على الجانبين فى جنبات البلطى والبورى والمياس والقراميط والتعاين والمفروشة امام الباعة فى كثرة كثيرة . هذه أول مرة فى حياتى أتوقف فيها أمام بائع لأشتري شيئاً كهذا من حر مالى . كان يئيل لى أن الباعة جميعهم يعرفوننى معرفة شخصية وأنهم سوف لن يصدقوننى إن وقفت أمامهم كالزبون المحترم وسألت : بكم ؟ بله أن أقول : زن من هذا وانتق من هذا . لن يأخذ أحدهم الأمر بجدية على الإطلاق . ربما كان هذا هو سر الخجل الذى أصبحت استشعره كلما هممت بالتوقف أمام بائع ، إذ أرانى قد أحجمت فجأة ؛ فأواصل السير

مفكراً فى كىففة اقنحام البائع بجرأة كأى خادم أو امرأة من هؤلاء الذين يزعمون فى الباعة آمريـن بالذمة وبعـدل الميزان . فكـرت أن أعطى لسندس أو لوداد بعض النقود لتجئ هى فتشترى لنا أكلة تصلح لإقامة السبـهرة المنشودة ، إذ يجب تكون سمكاً على وجه خاص ، وثعابين على وجه التحديد ، لما سمعته عن مزايا أكل الثعابين المائية فى إلهاب الجسد بالطاقة والحياة . تذكرت أن فى آخر هذه الحارة بائعاً يعرفنى جيداً ؛ فلأذهب إليه فإنه الوحيد الذى لا حواجز بينى وبينه ..

عيناه التقطتا عيني من بعيد ، فابتسم ملوحاً بذراعه فى اشتياق كبير . كان كعادته جالساً على عتبة آخر بيت فى الحارة . هو بيت عتيق جيداً من خمس طوابق، شبابيكـة مستطيلة بشبكات من الحديد من خلفها درف الشيش والزجاج لكنها لم يعد فيها زجاج بقدر ما فيها من ألواح كرتونية كالحـة تحل محل الزجاج ؛ بعض الشبابيـك منزوع الدرف أصلاً ومسدود بخشب الأهلكاش والورق المقوى والصفائح المفردة . منظر البيت يشئ بأنه كان ذات يوم بعيد على شئ كثير من الأبهة والعز والفخامة ، بدليل هذه المشغولات الزخرفية فى عقود الشبابيـك وإحاطتها بما يشبه التاج الملكى . الباب الكبير المرتفع القائمة بدرفتين من خشب عتيق كالحديد أزورتا ، كل منهما التصقت بالخائط قد ملأ التراب والصدأ والعفن ما بينها وبين الأرض فتسمرت فى مكانها فبات الباب مفتوحاً على الدوام بعتبة مرتفعة عن أرض الشارع بثلاث درجات من رخام شاخ وتاكل . على اليمين شقة من ثلاث غرف ؛ وعلى اليسار أخت لها فى حجمها والباب مواجه للباب يفصل بينهما ممر عريض مبلط بالرخام العريض المربع . والسلم فى المواجهة ، يوصل فى كل طابق إلى بسطة تفصل بين شقتين كهاتين متقابلتين ؛ كل باب من درفتين كل درفة فى أعلاها شراعة كشريحة مستطيلة بشبكة حديدية من خلفها باب زجاجى حاجب . على كل باب مطرقة من النحاس على شكل يد تمسك بين أصابعها كرة صغيرة تنام اليد بها فوق رقعة نحاسية مجوفة ؛ على الطارق أن يمسك هذه ويطرق بها طرْقاً خفيفاً يسمعه من الداخل وهو فى سابع نومة .. هو بيت حميم جداً بالنسبة لى ..

ما كدت أقف أمام عم حنبوطة حتى شعرت بدوار ، وجف ريقى ؛ إذ ما كان يجب أن أجيء إلى هذا المنزل بقدمى ، أنا الذى تجنبت المرور فى المنطقة المحيطة به منذ وقت طويل مضى . ففى هذه الشقة التى على اليسار تسكن حماة محمد فسدى ، مع ابنها محمد أفندى حسن ، باشكاتب سنترال دمنهور ، وابنتها وفدية ، العانس ، البالغة من العمر ثلاثين عاماً دون أن تتزوج لأنها تشبه أختها تماماً ، الذى يشبه بدوره أباه إلى حد التطابق بينه وبين صورته المعلقة فى برواز على الحائط . فالأب نوبى ، كان جاويشاً فى البوليس كما تشهد صورة ثانية له باللبس الرسمى الكامل ؛ تزوج امرأة بيضاء شاهقة من بنات هذه المدينة واسمها مصرية ؛ فأجلب منها ثلاثة أبناء : محمد أفندى حسن ، الذى حصل على الشهادة الابتدائية وتوظف بها فى السنترال ثم تولى مسؤولية الإنفاق على البيت بعد موت والده . وقد ظل يوحد زواجه حتى وصل إلى مشارف الخمسين من عمره دون زواج ، ربما لئأسه من الوقوع على الفتاة العذراء التى ترضى به إذ أنه مكبظ الوجه بصورة منفرة جداً غليظ الملامح والأسنان والشفقين وكذلك الشعر والحاجبين ، يصف شعره إلى الوراء بعناية بعد دهنه بالمساحيق للتلميع ، ويرتدى البدلة ورباط العنق . وهو لطيف جداً ، ورقيق ، وكريم ؛ يتحلى بالصمت العميق ومتابعة الحديث بعينيه وانفعالات وجهه الفخارى . بعده فى ترتيب الميلاد تحى أخته صفية ، ثم أخته وفدية ، التى تشبه تماماً فى كل شىء ، غلظة الملامح والشفقين مع بروز ضبين فى مقدمة الأسنان؛ وهى مع ذلك فارحة القوام منحوتة الجسد رقيقة ، كلماتها مسممة ذات وقع مريح ، كما أنها طباحة ماهرة ، ومدبرة ، تشتغل بتطريز المناديل بالإبرة للحارات فتقتضى معظم النهار إما فى السوق لشراء الخضار أو فى محلات الخردوات لشراء الخرز والترتر ، وتحوش لنفسها الكثير من لوازم العروس . وقد دار عليها عرسان كثيرون ولكن لا أحد يعرف لماذا يهربون فى آخر لحظة . مع ذلك فالبنات خفيفة الظل مرحة لا تتأثر بسوء حظها ، وتردد دائماً أن ربنا يعرف أنها تحب أمها ولن تقدر على فراقها فيبقىها بجانبها ؛ وأمها القصيرة القامة السمينة الجالسة على الكنب تنظر إليها فى إشفاق وحزن تتضح بعمقه عيناها العسليتان البائستان . أما الأخت الكبرى صفية ، فقد ورثت طول قامه أبيها وبروز السنتين الأماميتين

المفلوجتين بخفة ظل ، والحاجبين الثقيلين ؛ كما ورثت عن أمها بياض البشرة الحمرة
وسمسة الملامح ؛ ولهذا تزوجت مبكراً من محمد فسدق ، الذى يعمل حاجباً فى
محكمة الاستئناف الكبيرة ، غير أنه تخصص فى إدارة بوفيه المحكمة الذى يستأجره
من الباطن ويديره مرتدياً الطربوش والبدلة الصفراء النظيفة ويختص بتقديم القهوة
للقضاة فى غرفة المداولة ..

محمد فسدق استطاع أن يدخر القرش فوق القرش حتى اشترى بضعة أمتار فى
أرض زراعية متاخمة لحي شبرا دمنهور ، إبتنى فوقها بيتاً صغيراً مكوناً من حجرتين
وردهة بغير سقف ، ونفدت نقوده عند التسقيف فاستعاض عن البن بعروق
الخشب والبوص والخيش . أقام هو وزوجه فى الحجرة الكبيرة والمسقوفة وحلها
بالبن ؛ فرشها عبارة عن حجرة نوم وبضعة كراسى نثرها بين السرير والدولاب ؛
والأرض مفروشة بكليم رخيص فوق حصير . فى هذه الحجرة تجلس زوجته صفية
طول النهار تطبخ على وابور الجاز أو تغسل أو تطرز المناديل التى ترسلها لها أختها
وفدية ، فى انتظار عودة زوجها محمد فسدق من المحكمة فى الثالثة ظهراً فيتغذى
وينزل إلى المحكمة ثانية ليعود فى حوالى التاسعة مساءً ؛ ويحلوها دائماً أن تقول عن
زوجها : محمد راح المحكمة محمد ماجاش من المحكمة ، تقولها بجدية وبساطة حتى
يظن المستمع أن زوجها لابد يعمل قاضياً أو مستشاراً . أما الحجرة الثانية فقد
عرضها للإيجار وقادنا إليها السمسار بعد شهر طويل قضيناها نساكن فى كوبرى
إفلاحة رغم انتقال المعهد إلى شبرا دمنهور على مسيرة نصف ساعة . كنا أربع طلبة
من بلدة واحدة ؛ كل واحد فينا يدفع ثلاثين قرشاً فى الشهر . وبهذا استفاد محمد
فسدق فائدتين : مائة وعشرين قرشاً فى الشهر ، وأربع شبان يحرسون زوجته فى
غيابه فى هذا المكان البعيد عن المدينة القريب من لصوص الليل وقطاع الطرق ؛
وفى نفس الوقت يأتس بهم فى الليل . هو واثق أن الطلبة الفلاحين لا يجرؤ واحد
منهم على التعرض لزوجها بأى سوء .

أول ما تقع العين على محمد فسدق وزوجه صفية تصدق بأن الطيور - حقاً -
على أشكالها تقع ؛ فإنه هو الآخر كبير الأسنان بارزها بصورة غير طبيعية ، لدرجة
أنه لا يستطيع إطباق شفثيه على بعضهما فكأنه بلا شفثين أصلاً . أما حينما

يضحك - وهو دائم الضحك على الفارغة والملانة - فكأنه تمساح يفتح فكيه لاصطياد فريسة من الهواء ، بصوت عريض أقرع لا جلبة فيه ولا صهيلة رغم محاولته افتعال ذلك . كلاهما ، محمد وصفية ، طيب القلب جداً ، وعطوف . كانت صافية تطبخ الطبخة وتجلس فى انتظاره وهى تعلم أنه سيتأخر فى الحجى كالعادة . حيثل نكون قد عدنا من المعهد ولبسنا الجلابيب وشرعنا نقرش الخبز اليابس للمغموس بالملح أو الفلفل الباية أو اللفت المحدث أو المش الذى يضى به من البلد . الحجرتان متصلتان بباب داخلى فضلاً عن البابين المطلين على الردهة . هذا الباب الداخلى لا يغلأ أبداً إلا عند النوم ؛ وصفية على الدوام جالسة فى مواجهة هذا الباب ترقبنا فى تأمل أسيف ؛ فكثيراً ما تشرد بعينيها الواسعتين شروداً طويلاً حيث تتجمد ملامح وجهها فلا يتحرك فيها سوى جبتان سوداوتان تروحان وتحيقان كالمكوك فى بحيرتى عينيها المليقتين بسائل نصف متجمد كأنها دموع موجلة أو فائض دموع على وشك الإنسكاب ؛ ثم تقطع هذا الشرود فجأة صائحة: يا مصطفى . ولاندرى لماذا زميلنا مصطفى بالذات ؛ ربما لأنه هو الذى استأجر الحجرة باسمنا وهو الذى يجمع الإيجار منا ويدفعه لها أول كل شهر ؛ وربما لأنه الوحيد فىنا الذى يظهر عليه أنه ابن ناس ، بوجهه الأحمر الوسيم المرغد وصحته المتينة وثيابه الكثيرة النظيفة إذ هو ابن تاجر حبوب فى بلدتنا وهو ابن شقيق الحاج مسعود زوج ابنة عمى . مايكاد مصطفى يسمع اسمه حتى يرد فى الحال بأدب جم كأنه يرد على أمه : نعم ياست أم أشرف ؟ تقول له بصوت قوى رنان : تعال ياخوي ، بلهجة من يريد أن يقول : لأمفر . فحين ينتفض ذاهباً إليها عبر الباب الداخلى تكون رائحة الطبخ قد ارتفعت فجأة بصورة مسكرة ؛ فنعرف ونحن منزوين كل فى ركنه فوق حصيرته وبطانيته ومخدته بجوار صندوق زوادته ، أنها رفعت غطاء الحلة لتغرف منها فى الطبق . مصطفى يعرف مقدماً أنها ستفعل ذلك وأنه سيمتنع ، ومع ذلك يذهب إليها فى كل مرة ، ليقف على مبعدة قليلة . تكون هى قد ملأت الطبق بالبطاطس أو الفاصوليا أو البامية وفوقها أربع فتافيت من اللحم الشهى ؛ تمد الطبق نحو مصطفى بذراعها الطويلة البضة ويدها النظيفة البيضاء المتختخة ؛ فيدور لسان مصطفى بنفس الكلمة : لا ! متشكرين ! متشكرين ! إحنا

اتغدينا خلاص ! والله اتغدينا خلاص ! متشكرين !.. فتصيح فيه بصوتها الرنان المصلصل : ياواد امسك آمال ما تتعبش قلبى ! ، ولسانه لا يكف عن ترديد نفس الكلمة ، ونحن من وراء ظهره تتبادل النظرات اللاعنة الحاقدة عليه . ولكن مصطفى يفعل هذا لثقتة التامة أن صفيه بعد يأسها منه سوف تنادينى : طب تعال أنت يا فلان !! إنت اللي مريحنى ! صريح وما تعرفش اللوع ! ؛ ففى الحال أتتفض إليها ؛ فأمسك الطبق بيدى الإثنين ؛ ثم أستدير عائداً ومصطفى من خلفى ؛ فأمضى به إلى حصيرتى ، وأضعه على الأرض فى بقعة محايده ؛ فيجئ مصطفى متأبطاً رغيفاً كالمطرحة ، ويتسلل النمى وراءه ، ثم بهى الدين ؛ حيث نترع متحلقين الطبق ؛ لبدأ التكسير مع القرش من جديد ..

كثيراً ما يدخل علينا فى هذه اللحظة محمد فسدق ، ويكنى بأبى أشرف ، فيجدنا نكافح باللحم الناشفة فى تمسيح بقايا الطبق ؛ فيمسحنا بنظرة من عينيه اللوزيتين البارزتين تحت حافة الطربوش ، واضعاً يديه فى جيبي الجلباب الإفرنجى ذى الباقة ، يهزهما فتشخلل القروش التى لاشك أنها حصيلة البقشيش ، يفشخ حنكه ضاحكاً :

— " آه يا أولاد البالسة ! كأتى خلفتكم ونسيتمكم ! " .

ثم يذلف إلى حجرته :

— " سالخير يا صفيه ! " ..

ثم ننصرف فى الحال إلى محاولة الخلاص من مهمة كتابة الواجب قبل أن يجئ محمد فسدق ليؤانسنا بالجلوس ، معتمداً على ترحيبنا به من أجل خاطر عيون الشاى الذى سيسقيه لنا معه ، ويظل يصدع رعوسنا بالحواديت عما دار اليوم فى محكمة الجنابات ، وكلمات المديح التى تلقاها اليوم من القاضى فلان والمستشار علان ؛ حتى إذا وضع له أن النوم قد تمكن من عقد أجفاننا بصورة سافرة تركنا فأغلق الباب الداخلى ، ليزج بنفسه فى الفراش ، ولحظتها يطير النوم من عيوننا ، إذ نسمع السرير يطقق بجمعجة صاحبة ، ثم بصوت مكتوم هادئ ، كيراكين تتضارب تحت الأرض باعثة فينا شعوراً فائقاً باللذة نتندر به فى الطريق إلى المعهد صباحاً أو فى الفسح ..

أخيراً أراد محمد فسدق أن يحسم مسألة الأكل هذه ؛ فطراً على حديث السهرة موضوع جديد استغرق أسابيع طويلة حتى أقنعنا به :

- " الآن أنتم غرباء هاهنا لا أحد يطبخ لكم اللقمة ! وأكل السرق هفق لا يمرى على الجسم ! تاهت ولقيناها ! أنا وزوجتى مستعدين لخدمتكم بالبحان ! فأنتم كإخوتنا ! كل ما عليكم أن تساهموا فى نفقات الأكل ! إسمعوا ! أنا مسئول عن أكلكم وشربكم فى الفطور والغداء والعشاء ! وأنتم تدفعون الإيجار ثلاثين قرشاً فى الشهر لكل واحد ! فليدفع كل منكم حنيهاً واحداً فقط ! منه إيجار ومنه أكل وشرب يابلاش ! ثلاث طقات فى اليوم يابلاش ! وأكل محترم كما تعرفون ! فما قولكم ١٩ " ..

مصطفى كان أول الموافقين بدون تمحيك . ومن بعده بهى الدين لأنه ابن مزارع ميسور الحال يملك خمس فدادين من أرض الإصلاح الزراعى التى وزعها عبد الناصر فيما بعد على من كانوا يزرعونها . وبهى الدين مثل مصطفى يصرف ضعف هذا المبلغ على أفلام السينما . أما النمى فهو ابن أرملة لا ترسل له شيئاً على الإطلاق ، لا تعطيه سوى قفة الخبز المشقق الذى تدخره من كد عملها كملاية لدى بعض الأسر ، وتدبر له أجرة القطار راتحاً غادياً ، والإيجار ، وهذا يعتبر كثيراً جداً عليها . وهو منلى يؤمن بحقيقة مثل راسخ فى ذاكرة بلدتنا : " إن حضر العيش - يعنى الخبز - يبقى الملح - أى الغموس - دلع ! " أى من قبيل الرفاهية . أما أنا فمصرفى يكفى بالكاد لكل يوم قرش تعريفه ؛ وهذا المبلغ الذى يطلبه محمد فسدق يعتبر بالنسبة للنمى ولى رقماً فلكياً نكتفى إزاءه بالصمت باعتباره من الأمور الكونية التى لا تملك حق الكلام فيها أو شغل الدماغ بها . لكننا مع ذلك فوجئنا بأن الأمر قد دخل فى طور التنفيذ الجاد ، إذ يبدو أن محمد فسدق اعتبر صمتنا من قبيل الموافقة ، فشرع ينظم موعد الوجبات ونوعياتها فى الفطور والغداء والعشاء شكل فيه ينتهى الإغراء والعز لم تشهده فى بيوتنا . وإمعانا منه فى الكرم ، وعلى بل الربط النهائى للكلام ؛ بادر محمد فسدق بتنفيذ مشروعه الغذائى فى اليوم لى مباشرة ..

عشنا فى رغد من العيش لمدة ثلاثة أشهر ؛ ما نأكله فى الفطور لا نأكله فى الغذاء أو العشاء ؛ والشأى ضرورى لأثر كل وجبة ، وبالحليب فى الصباح ؛ حتى تغيرت سحناتنا فتدفق الدم فى وجوهنا وصرنا ميالين إلى المرح والصفاء والرغبة الجادة فى المذاكرة . صرنا عائلة واحدة ؛ فعرفت أقدامنا طريقها إلى بيت الحماة كل بضعة أيام خاصة أيام الجمعة مع محمد فسدى وصفية ، لتتغدى معاً هناك ، ويألسنا محمد أفندى حسن مسافة شرب الشأى وتدخين سيجارتين ثم ينصرف إلى ستراله ؛ لنبقى نحن حتى أذان المغرب ، ونقفل عائدين ، نتبادل حمل الطفلين فى الطريق . كان مصطفى وبهى الذين يدفعان كل شهر حسابهما بانتظام . أما أنا فقد زعمت أننى أنتظر حلول موسم الحصاد حتى يحصل أبى حقوقه لدى الفلاحين فأدفع له حسابه كله دفعة واحدة . فلما ظهر على محمد فسدى ميل للإقناع إقتدى بى النمى فزعم نفس الزعم . وكان حرياً بمحمد فسدى أن يكفر بمزاعمنا هذه لولا أن حدث حادث بدد ركود أيامنا وأنعشنا لبضعة أسابيع ؛ ذلك أن الحاج مسعود القبانى زوج ابنة عمى جاء موفداً من قبل أخيه فى بلدنا لكى يزور ابنة مصطفى فى مسكنه ويتأكد من صدق هذا النظام الجديد الذى ادعاه الولد ليأخذ بموجبه جنيتها فى الشهر فوق مصروفه . إذا تأكد للحاج مسعود أن الأمر صحيح لا نصب فيه ولا احتيال من جانب الولد ، أبدى إعجابه الشديد بهذا النظام ، وامتدح أصالة محمد فسدى وزوجه فلما تطرق الحديث إلى تبليطى فى الخط أنا وزميلي النمى فيما يختص بدفع الحساب المتفق عليه ؛ طبطب الحاج مسعود على صدره فى شهامة قائلاً من حلل شفتيه الغليظتين اللتين تقلبان حرف السين والصاد إلى شين :

- " العيال دول - يقصد أنا والنمى - كلامهم صحيح ؛ وعلى العموم لو

مادفعوش رقبتي سداة ! " ..

ثم إنه تغذى معنا من الزيارة التى دخل بها علينا من طرف أخيه ، قوامها أوزة حمرة فى حلة من الأرز المعمر باللحم العجالى ، مع فطير مشلتت وعسل لحل وجبن قريش . آثرت صفية أن تضع هذا كله أمامنا حتى لا تنهم بفراغة العين أو أنها كانت فى انتظار شئ كهذا . وقبيل انصرافه أعطى الحاج مسعود لمصطفى - على سبيل البقشيش - ورقة بربع جنيه ؛ ثم شعر بالحرج فأعطانا كل واحد بريزة فضية،

ثم شعر بالحرج مرة أخرى فأعطى لإبنى محمد فسدق كل واحد ربع جنيه ، وانصرف مشيعاً باحتفال كبير ؛ إذ قمنا جميعاً بتوصيله حتى قرب منزله ، حتى صبية قامت هى الأخرى فودعته حتى خرج من باب الشارع وظلت واقفة به إلى أن اختفينا فى المساكن البعيدة . بعدها تدعمت ثقة محمد فسدق فينا ، لدرجة أنه تركنا نساfer بعد الإمتحان حاملين كل أمتعتنا ، على وعد بأنى سأحضر بعد أيام لرؤية النتيجة ومعى حسابى وحساب زميلى النمى . غير أننى لم أعد مطلقاً لأنه كان قد حدث ما حدث لى فى الإمتحان مع مدرس الرياضة ذاك . وذات يوم فوجئنا بدخول محمد فسدق علينا فى منزلنا بالبلد ومعهم كيس من الفاكهة يرافقه مصطفى القبانى . ولم يكن أبى يعرف شيئاً عن موضوع النقود التى أنا مدين بها لمحمد فسدق . فلما سمع شرحاً له من مصطفى لم ينبس بحرف ، لكنه بعد شروء طويل أشار نحو قائلاً لمحمد فسدق :

- " إن كنت تقبل شراءه شخصياً بربع هذا المبلغ فهنيئاً لك ! أو خذه دون أن تدفع شيئاً ! " ..

ثم تركه وأقام الصلاة . وكان أبى قد عاقبنى على ما حدث فرفض أن يشتري لى ثوباً جديداً ، فكنت لحظتها أرتدى ثوباً قديراً ممزقاً من أماكن كثيرة ، فنظر لى محمد فسدق نظرة غامضة لم أفهم معناها ، لكنه فشىخ حنكه ضاحكاً ، ثم نهض واقفاً ، ثم ربت على كتفى قائلاً : يعوض علىّ وعليك ربنا ! .. وسحب مصطفى ومضى تاركاً ضحكته ترن فى عتبة دارنا لوقت طويل بعد انصرافه . ويومها علمت من مصطفى أن الحاج مسعود هو الذى أرسله إلى دارنا ووصف له طريقة الوصول إلينا بدقة ؛ ثم قال لى مصطفى وهو يدارى خجله إن أباه قد دفع لمحمد فسدق حسابى وحساب النمى فرحاً بنجاح مصطفى ..

.. كل ذلك دار فى خلدى وأنا جالس على الأريكة الواطئة الشبيهة بكرسى اسح الأحذية ، التى أصر عم حنبوطة أن يجلسنى عليها ريثما أشرب الشاى . ريثما كنت أشرب الشاى صرحت له بأنى نفسى فى أكلة سمك من يده . فامتدت

اصابعه وانتقت بعض البلطى والتعابين والقراميط ، وضعها فى قرطاس كبير محكم الإغلاق :

- " بالهنا والشفاء ! " ..

- " بكم ؟ " ..

- " هات ما يطلع من ذمتك ! " ..

- " لا بد أن تقول ! " ..

- " هات ثلاثين قرشاً ! " ..

- " فقط ؟ ! " ..

- " فى بيتها ! " ..

سارعت بالدفع بكل أريحية ، هممت بالقيام لكنه استبقانى مستدركاً يسألنى عن سر غيبتى هذه الطويلة ، ويذكر أن زملائى مصطفى وبهى الدين وأحياناً ذلك المدعو بالنمس يجيبون حتى وقت قبل أن يتخرجوا بأيام قليلة . ثم قال لى خيراً مذهباً ، موداه أنه سمع من مصطفى أفندى أن بهى الدين والنمس تركا الدراسة بعد الرسوب مرتين فالتحقا بالكتاب العسكرى ولا بد أن كلا منهما قد أصبح الآن صولاً فى الجيش قد الدنيا . وكنت أتعجل الإنصراف قبل أن يرانى أحد من سكان هذا البيت تجنباً للحرص ؛ إلا أن هذا الخير عطلنى ، إذ رحت أسأل عم حنبوطة عن كثير من التفاصيل لعله يعلمها عن هذا الكتاب العسكرى وشروطه لعلنى أتقدم إليه أنا الآخر . مادريت إلا ومحمد أفندى حسن يقبل نخوناً مرتدياً الجلباب البلدى مسلطاً بصره علينا وقد تحول وجهه كله إلى ابتسامة فرحة برؤيتى . قال عم حنبوطة بفرح كبير:

- " محمد أفندى ظهر ! تراك لم تره من سنين ! هو الآن على المعاش ! سوّى معاشه قبل الأوان ! واقتنح لنفسه كشك سجاجير وحلويات على ناصية ميدان الساعة ! اقتنصه من البلدية بالكوسة عن طريق المرشحين فى انتخابات الاتحاد الإشتراكى وهو نفسه عضو فيه ! " ..

ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

- " هو الآن يبحث لنفسه عن عروس ! الناس تكبر فيركبها الجنون ! بعد ماشاب ودّوه الكتاب ! " ..

لحظتها طب علي محمد أفندي ، فتلقفتني في حضنه بحرارة . وبعد أن اشبعني لثماً وسلاماً وسؤالاً عن الصحة والوقت والأحوال ، وجه الكلام إلى عم حنبوسة :
- " ماذا كنت تقول له عني يا رجل يا مخروق ؟ " ..

فضحك عم حنبوسة عن أسنانه الصفراء :

- " أكلمه ليبحث لك عن عروس ! هذا ما قلته ! " ..

ضحك محمد أفندي :

- " أنت متأخر ! نحن نتكلم اليوم في تحديد يوم الفرح ! " ..

ثم سحبنى من ذراعي نحو البيت . ترددت مشيراً إلى ما معي . حلف بالطلاق ممن سيتزوجها أن أدخل لأسلم على " الجماعة " . فلم أجد مفراً من ترك القرطاس لدى عم حنبوسة والدخول مع محمد أفندي حسن ، منكساً رأسى فى الأرض من فرط الخجل ..

وإذ استدرت للدخول فى باب البيت لمحت شخصاً تأكدت أنه رمضان عريجة ، كان يروح وييجى أمام الباعة فى قلق واضح ، يسترق النظر من تحت لتحت إلى هنا وهناك . فتحت لنا وفدية ، وكانت متعجلة ملخومة للدرجة أنها لم تنتبه لوجوده . فما كادت تهرول نحو الداخل حتى صاح فيها محمد أفندي حسن :

- " إتعيميتى ولا إيه ! مش تسلمى ؟ " ..

حملت فى وجهى كالمهلولة ثم جعلت تصيح :

- " مش معقول ! أهلاً وسهلاً ! فينك يا راجل من زمان ؟ " ..

وسلمت على بحرارة ، وقادتنى من يدي إلى أمها المتربعة على الكنبه بجوار شبك الشارع . وسلمت على هى الأخرى بحرارة وسألتنى عن أخبار أهلى . وهنفت وفدية فى غبطة ومرح :

- " دى صفية كمان هنا ! تعال يا صفية ! مفاجأة فى انتظارك ! " ..

فأهلت صفية قادمة من حجرة البنات كما يسمونها ، يتعلق بنوبها طفلان كبيران. ما كادت ترانى حتى صاحت فى فرح حقيقى :

- " معقولة ؟! أهلاً وسهلاً بـيك ! والله زمان ! " ..

وسلمت علىّ بحرارة أشد ، وراحت تغالب الرغبة في البكاء . هنا سحب محمد أفندى أحسن كرسيّاً وضعه بجوار كنبه أمه ثم أجلسنى عليه ؛ وسحب آخر ووضعه فى مواجهتى . وجلست صفية على حرف الكنبه وهى تسمح دموعها التى انهمرت فجأة بشكل أدهشنى ؛ إذ لم أكن أتوقع أننى يمكن أن أثير كل هذه العواطف الساخنة والإشتياق الحار . لكن محمد أفندى حسن قطع الطريق على خواطرى حين أشار إلى الطفلين الكبيرين قائلاً :

- " تصور ! إن النذل ترك هذين الطفلين الجميلين وراح يتزوج ! نعم ! ربنا كرمه فأصلح حال البيت وعلاه بدورين فأصبح يقبض إيجاراً محترماً ! وافتتح بوفيهماً لحسابه فى محطة السكة الحديد ! وأول ما شطح نطح ! فكر فى الزواج على هذه المسكينة التى شربت معه مر الفقر ! وأصل السبب بنت مايصة ملونة العينين قابلها فى الحكمة فطيرت مخه ! هى مطلقة وعندها قرشان فى يديها وتحت البلاطة وفيه معيز ومواش ومحاصيل !! من يوم ما عرفها اندار على هذه فأورأها العين الحمراء ! لكننى سأمنحده ! سأجعله يسف التراب ! سيلعن اليوم الذى ولد فيه ! " ..

وبكاء صفية يزداد حرقه ، وتتمخط فى منديل صغير . جاءت وفدية بصينية عليها زجاجتى اسباتس ، وضعتها على طقطوقة صغيرة وانصرفت عجلي إلى حجرة البنات ، التى صبرت بقعدتى هذه فى مواجهتها تماماً . إنفتح بابها قليلاً ؛ فلماذا بى أرى ما أذهلنى وسمرنى فى جلستى على نظرة بلهاء : كانت سندس الغجيرة بلحمها ودمها متربعة على الأرض أمام طست غسيل ملئ بالمياه يتصاعد من حوله دخان البخور ، وهى منهمكة فى قلب أشياء فى سفلتها ؛ فحمدت الله أنها لم ترنى . أغلقت وفدية الباب وراعا . قال محمد أفندى حسيباً :

- " الغذاء يا صفية ! نأكل لقمة أنا والأستاذ ! " ..

- " لا ! أرحوك ! إعفنى من الغذاء فورائى مشوار منهم " ..

- " لقمة خفيفة على ما قسم ! يلا يا صفية ! " ..

- " أنا مضطر للمشى الآن فوراً !

- " طب خلاص يا صفية ! " ..

فجلست ثانية. وحملت صفيّة الصينية وذهبت بها إلى المطبخ ثم عادت بعد قليل بفنجانين من القهوة . لحظتها وورب باب حجرة البنات وانزلت منه وفديّة ، فأقلبت على صفيّة وهمست في أذنها بشئ . قالت صفيّة : حاضر ؛ ثم خلعت من عنقها عقدًا من اللهب عبارة عن حبات أشبه بالزيتون الأصفر ، وخلعت من معصمها أربع غوايش سمكها رفيع ، وخائماً من أصبعها ، وقرطاً من أذنيها ، ثم سلمت كل ذلك لوفديّة :

- " أنا حاية وراكي ! " ..

- " طب روحى أنتى يا صفيّة ! " ..

أومأت لى برأسها :

- " عن إذتك ! " ..

- " تفضلى ! " ..

فمضت إلى حجرة البنات فواربت الباب وانسلت داخله والطفلان في أعقابها . ولاحظت أن الحجرة قد أظلمت تماماً . ونظرت لى محمد أفندى حسن نظرة ذات معنى ، مع ابتسامة سخرية :

- " شغل نسوان وكلام فاضى ! ناس متخلفين ! لكنها ارزاق ناس على قفا ناس ! "

- " ما الأمر ؟ " ..

تردد قليلاً ، نظر نحو أمه . كانت قد نكست رأسها فى حجرها مغمضة العينين مستغرقة من سنة من النوم . ثم مال نحوى قائلاً :

- " هذه العجيرة سرحت بعقل البنتين !! شهر على هذا الوضع !! أفنعهما بوصفة غريبة لحل مشكلتهما معاً !! واحدة تريد محاصرة خطيبتها بعمل يجعله يتعلق بها !! والثانية تريد أن تجذب زوجها إليها ليعود كما كان يحبها ويخلص لها !! شف كهن النسوان التعبانة فى مخها ؟ ولكن هل أستطيع أن أقول لهما هذا نصب واحتيال لا تنفع فيه ؟ يقتلن : أبو النواس يخرج من البلد !! أنا مالى يا عم ؟ وعلى كل حال من يعرف ؟! سبحانه وتعالى يضع سره فى أضعف خلقه !! " ..

- " ولكن لماذا خلعت صفيّة ذهبها ؟! "

شوح فى سخرية ، وبنبرة شجر اسكندرانى :

- " العمل اسمه مشاهرة الذهب ! شرط العمل السحرى أن يتم فى حجرة مظلمة ! تقول هذه العجربة إن فى الذهب سرّاً خطيراً لمن يفهم حقيقته ! أنا على فكرة سمعت هذا الكلام من مدة طويلة من ناس عاقلين !! الولية العجربة كلفت البنتين بتحضير إبريق من المياه سقط عليه الندى ! وتضيف هى إليه أشياء من عندها ! ثم تضع الذهب فى الطشت وتعزم عليه بتعزيمة معينة مع البخوار الجاوى ! توشوشه بكلمات تعرفها ! تجففه وتعيده إلى صاحبتيه فتلبسه فينعدل حظها وينعدل مزاج الشخص الذى عليه العين والنية !! بينى وبينك أنا لا أعتقد فى مثل هذه الخرافات ! لكن ربما تجئى بنتيجة !! طب ما رأيك أن هذه العجربة شافت لى البخت مرة وكانت صادقة فى كل كلامها عنى وعن أوضاعى وشخصيتى ؟! أدارت رأسى هذه المرأة ! لما طلبت منها على سبيل الهزار أن تعمل لى عملاً يحب فى إنسانة معينة كنت أهواها كلفت وفدية أن تجئى لها بأثر من ثياب هذه الإنسانة فأعطتها وفدية مندبلاً كانت تطرزه لها ! طب ما رأيك أن هذه الإنسانة بعدها بأسبوع وافقت على الزواج منى ؟! حاجة غريبة فعلاً يا أستاذ! الواحد لم يعد يفهم كيف تمشى هذه الدنيا !! ..

وسحب نفساً عميقاً من السيجارة دون أن تتحرك عضلات وجهه ، واتسعت ابتسامته عن أسنان كبيرة بارزة فعمقت من مسحة البلاهة الجامدة التى تغلف وجهه . ثم لأننى شعرت بالرغبة فى الإنصراف بسرعة قبل أن ترانى سنلس فيتضح أننا نعرف بعضنا . قمت واقفاً فى الحال طالباً الإنصراف . فنهض محمد أفندى حسن فسلم على وأوصانى بتكرار الزيارة إذ أن هذه المرة غير محسوبة .. وجدت زحاماً شديداً حول عم حنبوطه . وقفت أنتظره حتى يفرغ من مناقفة زبونة متعبة . وفى الواقع كنت أترقب خروج سنلس لكى أتبعها من بعيد لبعيد ؛ فإذا بى الملح رمضان عريجة يتلصقاً على مقربة ، يتصنع البحث عن سمك جيد يشتره . فجأة إشتبك عم حنبوطه مع ثلاثة من الأفندية ؛ سرعان ما تبينت أنهم مفتش التموين ومرافقين . راح عم حنبوطه يقنعهم بأنه يبيع بأقل من التسعيرة ، يريهم عينه البضاعة ، وورقة السعر النائمة تحت الأسماك بفعل تقليب الزبائن كما يؤكد ،

يستشهد ببعض الزبائن الواقفين على سلامة أسعاره . ثم إنه بجراً كبيرة ، وبخفة يد غير طبيعية ، أمسك بيد الأفندى بحركة من يطلب الود :

- " وحق العشرة دول يا أفندى ما كذبت عليك! "

يقصد العشرة الأصابع التي خلقها الله لا تتشابه بصمة أصبع مع أختها . ويقصد في نفس الوقت العشرة القروش التي غمز بها يد الأفندى ، الذي سحبها نصف مطبقة ثم دارها بكراسة فردها فوقها وراح يكتب بعض البيانات ، ثم سحب رفيقيه وانصرفوا . شيعهم عم حنبوطة مغمماً :

- " حار ونارا! .. "

في هذه اللحظة خرجت سندس من باب المنزل حاملة السفت على رأسها مخترقة زحام الشارع لا تلوى على شيء . اصطلم بها رمضان عريجة . بسرعة مدهشة دست يدها في سياليتها وأخرجتها مشعللة برنين الذهب . دست يدها في قبضة رمضان عريجة ، الذي دس يده في جيب الصديري واندفع بين الزحام فكأنما انشقت الأرض وابتلعتة . أما هي فقد أخذت تتباطأ في مشيتها عن عمد ، هاتفة بغير حماس : " أضرب الرمل وأشو .. و.. ف! .. "

ثم تتلصق ، تتوقف كل خطوة لتعيد النداء مرات ومرات كأنها تعتمد الإعلان عن وجودها لفترة طويلة في رحاب ذلك البيت الذي خرجت منه . فجأة شق سمعنا صوت صرخة ملتاعة ، في أثرها ظهر محمد أفندى حسن يلهث مهرولاً هاتفاً :

- " الحقوها قبلما تختفى ! بسرعة ! هاتوها ! أمسكوها ! اللصة ! الاختالة بنت الكلب المفترية !! " ..

إندفع كالجئون يضرب في زحام السوق حتى اصطلم بسندس فأطبق بيديه على كتفها ، ثم سحبها من طوق جلبابها بقسوة :

- " تعال هنا ! عايزينك في كلمتين! .. "

وراح يجرجرها وهي متقادة له حتى اختفى بها داخل الشقة . ففي الحال توقعت ما يمكن أن يكون قد حدث ؛ فتسمرت في مكاني وقد دبّت الرعشة في ساقي . مع ذلك كان ثمة ما يشدني إلى البقاء لعلمي أتمكن من حلية الأمر . ظللت واقفاً مع

عم حنبوطه فى دهشة واستفهام لمدة تزيد على ربع الساعة . أخيراً وسع لى مكاناً على الدكة ، وكور كفيه حول فمه منادياً :

- " إثنين شاي يا أبو جاموس ! " ..

حتى أبو جاموس هو الآخر كنت أعرفه . هاهو ذا لم يتغير ، يقبل بالبراد والأكواب على الصينية يتمايل فى عياقه . أشار عم حنبوطه إليه وإلى قائلاً :

- " تعرفه؟! كبر هو الآخر ولكنه لا يزال يتمايل مثل علوق بنها ! الذى فيه فيه

لم يتغير! " ..

أبو جاموس لا يهتم ولا يعلق ؛ إنما نظر فى وجهى صائحاً ، وقد اتبسطت

سحنته بالترحاب :

- " لإزيك يا أفندى ! فينك من زمان ١٩! " ..

وسلمنى الكوب :

- " على حسابى الشاي ده يا حنبط ! " ..

شوح عم حنبوطه وهو يغمره بنصف الفرنك الفضى :

- " الحداة لا ترمى الكتاكيت ! " ..

للدهشتى أخذه أبو جاموس فأسقطه فى حيب المريلة الكالحة دون أى اعتراض ،

واستدار ماشياً ..

كان الكوب على وشك الإنهاء حينما خرجت سندس تعدل فى هياتها وقد

تورم وجهها وظهرت عليها البهذلة الشديدة ، وفى عينيها بعض دموع كاذبة .

مضت فى طريقها متجنبة النظر إلى أى شئ . وحينما حملت قرطاس السمك

وتأهبت للإنصراف ظهر عمده أفندى حسن كالماتور يصفق كفاً يكاد يركى من

غضب مكتوم :

- " يا قاعدين يكفيكم شر الداخلين ! أنا لا تنقصنى المصايب والله يارب !

فتشنا المرأة فى كل مكان ! حتى لمؤخذة فرجها !! لم نجد أى شئ ! أياكون هذا

معقولاً ياناس ؟! أياكون الصائغ قد غشنا من الأساس ؟! صفية المقرمة الروبة

ينضحك عليها ؟! ربك والحق كانت خائفة من الأول ! قلت لها يا صفية هذا

خرف نسوان ! صفية كانت خائفة لكنها وافقت !! بمجرد خروج العجيرة خلعت

ذهبها ووزنته فى كفها بعد تشكك ! قالت إن الذهب صار ثقيلاً بعض الشيء !
وفى ملمسه خشونة ! أمسكته فى كفى ووزنته ! فعلاً دقت فى موضع الدمغة !
ليست الدمغة فى المواضع التى كانت فيه من قبل ! إنه ذهبنا ونعرفه قطعة قطعة !
عرفت فى الحال أنه من الذهب القشرة !! لكن نظامه هو هو لم يتغير ! نفس الفرع
ونفس الغوايش ونفس الحلق لكن الذهب ليس هو الذهب !! أ تكون هذه الغجرية
قد سحرتة ؟! منذ شهر وهى تجمى كل أسبوع مرة ومرتين وتعاينه وتعد حبات
الفرع وتقيس وتوشوش !! كان يجب أن نسلّمها لشرطة البندر لكنها صعبت على
أنشاء التفتيش !! عرت نفسها أمامنا قطعة قطعة ونفضت نفسها واحتملت الضرب
بالبونية والشلوت !! أعطنى عقلك! لحقناها بعد خروجها بثلاث دقائق ! أمعقول
أن تكون تصرفت فى الذهب بسرعة البرق ؟! أين وكيف ؟! إنها لم تبتعد عن
البيت !! أنا سأجن يا ناس !! طول عمرى أحشى الفضيحة وهامى الفضيحة قد
جاءت لحد عندى ! دبرنى ماذا أفعل ؟! ماذا أقول للكلب ابن الكلب فسدى ؟!
أ يكون هو الذى غشنا ؟ متى ؟ طيب ذهب وفدية ؟! ليتنى ماتركت الغجرية !
ولكن ماذا ستأخذ الريح من البلاط ؟! إننا نستاغل ماجرى لنا !! حلال علينا هذا
الخراب ! مادمنّا أولاد قحبة متخلفين نومن بالخرافات !! آه ياربى ! أدفع بقية
عمرى الآن لأعرف كيف حدث ما حدث !! ولكن : لو كانت هى الفاعلة أكانت
تبقى هكذا دون أن تهرب ؟! هى نفسها طلبت بلسانها أن تذهب بها إلى البندر !!
إننى سأجن ! سأشل ! فعلاً ! لايقع فى الحية إلا المفتحين !!..

وكان صوت الولولة واللطم فى داخل الشقة يتعاشق مع صوت محمد أفندى
حسن . بعد برهة خرجت وفدية ملتفة بالملاءة اللف السوداء ؛ ومن خلفها صبية
بالملاءة أيضاً . شيعهما محمد أفندى بغیظ .

.. " لاتتعبا نفسكما ! الذهب فالصو ! إن القشرة واقعة من بعضه ! سيضحك
منكما أى صائغ ! أين تذهبان يا أولاد الزوانى يامتا عيس ؟ يافندى الأسود ؟!..
وشرع يشق طوقه ؛ لكن عم حنبوطة أطبق على يديه صائحاً بصوت دافى ،
صوت برلسى فيه نبرة الفصاحة وقلوطة حرف القاف :

- " وحد الله يا رجل ! موت وخراب ديار ؟! قل ما تشاء وفضفض لكن لا تشق المذموم فهذا كفر والعياذ بالله!!" ..

فجعل محمد أفندى حسن يصرخ من الغيظ ؛ ثم مضى مسرعاً خلف شقيقته . وكان صوت سنلس قد ابتعد . بقيت مسمراً في مكاني لا أعرف كيف أتصرف . كانت الأرض تدور بي تضعني في سجن الحيرة : فلو تكلمت بما رأيته فلن أنجو من الإتهام ، بل المؤكد أنني سأبدو حينئذ كشريك لها استيقظ ضميره فجأة فاعترف على شريكته متنصلاً منها ؛ الملابس كلها سوف تؤكد للجميع ذلك الظن ؛ إذ ما الذي جاء بي اليوم إلى هنا بعد غيبة طويلة صاحبها سوء سمعة بشكل عام ؟ وما الذي تراه يربطني بسنلس ؟ إن كلامي سيقلب الدنيا على رأسى ، سأرغم على إرشاد البوليس إلى الوكالة ؛ يجر البوليس بعض رجالها ؛ لا يستقيم لى فى الوكالة مقام بعد ذلك . لقد صرت متأكداً الآن من أن سنلس لفت على هؤلاء المساكين الأغرار حتى حفظت شكل ذهبهم واشترت نظائر له من الذهب الفالصو بواسطة رمضان عريجة الذى رأيته يعينى يتسلم منها الذهب الأصلى ؛ ولكن هل أستطيع التصريح بذلك أو الإعتراف به ؟ هل يرحمنى أحد ؟ هل يحترمنى البوليس أو حتى يترقب بى ؟! لا أظن ذلك مطلقاً . إن الإنسان لا يمكن أن يكون شريفاً داخل محيط من الفساد والفسق ، الشرف لا يمكن أن يكون فردياً بأية حال من الأحوال حتى لو أراده شخص مثلى يحلو له أن يصير كاتباً يتحدث عن الأخلاق والمثل العليا ؛ وحتى لو تحلى به الإنسان واعتنقه ؛ فالشرف كما يبدو لى الآن لا يتحقق بالاختيار فقط ولا بالممارسة فحسب وإلا فأنا شريك بالصمت فى هذه الجريمة ..

وهكذا أمسكت بقرطاس السمك ومضيت أترنح فى الشوارع أخرجر ساقى من شدة الخذلان والألم والكآبة ؛ وقد فقدت حماسى لكل شئ . صرت أتمنى أن تنشق الأرض لتبلعني فأنجو من هذه الخواطر المعبدة . لكن الأرض انشقت عن محمد أفندى حسن ممسكاً بسنلس من قبضة يدها ومتجهاً بها إلى قسم شرطة البندر ؛ ومن خلفه كل من صفية ووفدية ، وبعض السابلة ، ومجموعة من الأطفال بمرايل المدارس وحقائبها . تابعتهم حتى اقتحموا البندر ودخلوا حجرة البلوكامين الواقعة على الشارع العمومى مطلة على ميدان الساعة بشباكين طويلين مفتوحين عن أعواد

من الحديد تظهر من خللها حنة البلوكامين جالس فى الصدارة إلى مكتب عتيق ومن خلفه السلاحليك مرصع بالبندق . على الشارع الخلفى يطل شباكان آخران لكنهما مغلقان . تحت أحدهما وقفت أتصنت ممسكاً بقرطاس السمك ولفة الهريسة. هذا السمك كان من المفروض أن تطبخه سندس بنفسها لتأكله الليلة ونحلى بورقة الهريسة ، فى حجرتها هى بالوكالة . فأى شؤم هذا الذى حدث؟ شعرت أننى أرغب فى رمى كيس السمك إذ هو فيما بدا لى سبب النحس . أما لفة البسبوسة فيمكن أن أتسلى عليها وحدى . تذكرت وداد ، فلأعطيها السمك. إنتقلت إلى الرصيف المقابل ، مضيت بجوار سور المنتزه ماراً بمكتبة البلدية والمطافى ، فى مواجهتى محكمة دمنهور الجزئية التى يعمل بها صديقى الأديب مسلم المغازى . هذا المبنى يشدنى دائماً ، لأحود من ورائه يميناُ إلى قهوة المسيرة ؛ لكننى حودت فى الشارع العمومى . على يمينى مدارس معيطى ، ومن بعدها المصور فرام ، الفخيم ، على ناصية حارة جانبية تودى إلى سينما الأهلى ، ودكان العجالاتى الذى كنت زبوناً له مدة طويلة . مررت مرة أخرى على بائع الهريسة فانتقلت تلقائياً إلى رصيفه؛ ثم تجاوزته إلى مكتبة البنا ، فشارع السوسى ، فالمديرية ، ثم أخذتنى حمية السير فحشنت الخطى نحو ذيل المدينة الممتد فى الخلاء المتناخم للمزارع البعيدة .

الرهق

لحت رأس وداد على حافة الشرفة ؛ فطرفت بأصبعي ، فأسقطت عينيها فى الشارع ؛ فأشرت لها بىدى أننى قادم . فسحبت عينيها ثم رأسها ..
قلت وأنا أسلمها القرطاس واللفة :

- " الظاهر أن سندس نسيت موعد سهرتنا الليلة عنلها ؛ حجرتها مغلقة بالقفل ولا بد أنها سرحت ويعلم الله متى تعود ! " ..

ظهر فى عينيها كأنها تعرف حطة سندس اليوم بالتفصيل ؛ إذ قالت بثقة تامة :
- " إنها عائدة ! هى فى مشوار قريب فى البلد ! تسرح اليوم ! سرحتها أصلها طويلة فيها سفر وبلاد ! إنما هى اليوم تعرف الموعد وتحضر نفسها له ! وراها مشوار صغير فى وسط البلد سيحى من ورائه حسنة بسيطة ! مسكينة وغلبانة ! فىن وفىن لما يرزقها الله بحسنة تسندلها ! " ..

دفعتها إلى الداخل :

- " يظهر أنك تعرفين مشوارها ! " ..

- " نعم ! هى لا تخبى شيئاً عني ! أنا حبيبتها الوحيدة هنا ! سرها معى وسرى معها ! لا تشغل بالك أنت ! فى الموعد ستجد حجرتها مضاءة ! سنها من هنا ! " ..

- " واثقة أنت من أنها لا بد تعود فى الموعد !؟ " ..

- " إذا لم يتلبها الله بعرة تفرمها والعياذ بالله ! " ..

- " أو تكون وقعت فى مشكلة مثلاً ! " ..

هى لاتقع فى أى مشاكل ! هى تخرج كالشعرة من العجين ! هى نورية تعجبك !
إرمها فى البحر واتركها ! غطسها تجلها عائمة بعد مزين ! هى لبط ! إن أردت أن توقعها فى مشكلة أوقعتك فى مصيبة ! لكنها طيبة وغلبانة وقلها مثل البفتة البيضاء !
ليست غدارة ! إنما تعرف كيف تنتقم : تضربك بنفس السلاح الذى ترفعه أنت عليها ! فاطمن ! إن سندس آتية فى موعلها وسنسهل عنلها ! أهذه الأشياء لها !؟ " ..

- "لنا كلنا ! ليتك تقومين أنت بطبخ هذا السمك قبل أن يفسد ! هذه لفة هريسة هاتها مع السمك فى السهرة ! سأذهب لأنام ساعة أو ساعتين ونتقابل عند سنلس !.."

- "ولماذا تنهب ؟ خش فى البلكونة ومدد جسمك كيف تشاء ! النوم مع رائحة الطبخ حلو يسند الرأس ! كل أرزا بلن مع الملائكة حتى أصبحك لتنزل !.."
- " فكرة !.."

دلقت إلى الشرفة فخلعت حذاي ؛ سحبت حشية الكرسي فثبته تحت رأسي ؛ مالبثت حتى استغرقت فى نوم عميق . وحينما فتحت عيني على يد وداد تهزنى كنت قد نسيت كل شئ فى الحياة كأننى أولد الآن فحسب . وكنت كالمخدر وأنا أضع قدمي فى الحذاء وأترنح نحو دورة المياه لأطس وجهي بحفنة من الماء ..
قالت سنلس ونحن متربعين حول الطبلية نغرس أصابعنا فى سمك بالدلمعة وآخر مقلى :

- " ربنا ابتلاني اليوم ببلوى عمرها ما خطرت ببالى يا وداد !! الواحد منا يمشى فى حاله والبلوى تنحدف عليه من الباب للطاق ! أنا ماثية فى حالى لا بسى ولا على مادريت إلا ورجل مكعب الوجه يقبض على كتفى يشدنى ينزل فى ضرباً بالبنوة والشلوت ووراء امرأتان من أهل الحوارى الرداحات يصوتن ويمسكن بالحناق لأى سبب !! مالكم يا أسيادى ؟ قالوا : هاتي الذهب الذى سرقته منا ! تعالى إلى البندر ليحقق معك البوليس لكن آمنت بك يارب ! أحتك يا وداد قلبها أبيض ! ربنا هيألى طفلاً من ولاد المدراس وقف يتفرج عليهم وهم يضربونى ! فلما سحبونى إلى البندر سحبت الولد معى وغمرته بقرش ! البلوكامين فتح المخضرا الرجل الكلب ابن الكلب الظالم ادعى أنني دخلت بينهم وعملت لهم عملية سحر ونصب حتى سرت ذهبهم وأعطيهم بدلاً منه ذهباً مغشوشاً !! إيش قولك ياوداد يا أحتى أن البلوكامين يص له من فوق لتحت ولم يصدق ! قال له : متى حصل ؟ قال : الآن وقد قتشناها فلا بد أنها ابتلعت فى جوفها ! قال البلوكامي ن : تبتلع فرعاً وأربع اساور وحلقاً وخاتماً ؟ لابد أنها بحر ماله قرار ! لو حصل هذا لمات فى الحال ! قل كلاما غير هذا ! وقال لى : ما اقولك يا امرأة ؟ قلت : يا سعادة البيك ربنا

يخليك أنا ولية غلبانة ومنكسرة على باب الله ! كنت ماشية فى الشارع مادريت إلا وهؤلاء الناس يهجمون على وهات يا ضرب ! شوف ياسعادة البيه آثار الضرب على وجهى وجسدى كله ! وما عرفت لماذا يضربونى إلا الآن ياسعادة البيه ! عمرى ما شفتهم ولا عرفتهم !! المرأتان هات يا لطم ! والرجل يصفق على كفيه ويزغدننى ويقول : ياولية يا ضلالية يا بجحة والله إنك الآن حرامية بالثلث !! دفعت الولد أمامى بمريلة المدرسة ومخلدة الكراسات وقلت يا سعادة البيه هذا طفل برئ لا أعرفه ولا يعرفنى إسأله ماذا رأى بعينه ؟ فسأله فقال الولد : يا إعادة البيه التت دى كانت ماشية تنادى على البخت والراجل ده جرى وحلق عليها ونزل فيها ضرباً بالبونية والشلوت وجرجروها فى الشارع لحد هنا ! قال البلوكامين : على كل حال نفتشها ! وفتشونى وفى الآخر قال البلوكامين : لمواخذة يا جماعة ليس عندى سبب أمسكها به والحجز مزحوم بالتحريات والضباط يزعمون لنا إن حجرنا أحداً بدون سبب مهم ! وعلى كل حال إن ظهر لكم سبب جديد تعالوا وأنا آجئ بها من تحت طقاطيق الأرض فإننا نعرف كل الأماكن التى تأوى أمثالهم وكل ما أقدر عليه الآن أن أعمل لكم محضراً ونبحث عن مواصفات ذهبكم عند الصاغة ونترصد من يلهب لبيعه ! وأنت ياولية إن ظهر أنك فعلت هذه الفعلة سادب هذه العصا فى فرج أمك ! هيا غورى من وجهى يا بنت القبحة ! لا نأخذ من ورائكن سوى المصائب التى تتكرر فى الأرياف ولكن إن عشت سأقطع دابركن جميعاً واحدة واحدة !! ولما طلعتنا من البندر جاء الرجل يريد أن يضربنى فرميت ما معى ونزلت فيهم جميعاً بالضرب والصوات حتى بهدلتهم ومزقت ثيابهم وعملت ميتة حتى مشوا وتركونى !!".

نظرت لى وداد كأنها تقول : ألم أقل لك ؟ ثم نهضت واقفة تمصمص أصابعها؛ وحملت الطبق المغطى بشاشة نظيفة والذي وضعنا فيه ماناب شوادفى حتى لا يسمم ليلتنا كلها ؛ ومضت به إليه ؛ فيما بقيت مع سندس . صرت أنظر إليها من تحت لتحت أحاول معرفتها من أول وحديد . وبعد قليل جاءت وداد ؛ فبدأت السهرة . تولت هى غسل الجوزة وتسيبىخها وتنظيف الحجارة وإشعال النار ثم تعسيل الحجارة وتوقيعها بخاتم الحشيش قائلة إن علينا أن نأخذ راحتنا فى الشرب والمرح

باطمئنان لأن شوادفى جالس بالباب كالأسد لن يترك أى حكومة تدخل حتى يكون قد صاح وغجر وبرطم بما يكفى لأن يتخلص الجميع من أى شئ يمكن أن تضبطه الحكومة ؛ فبهذه الطريقة لم تتمكن الحكومة أبداً من ضبط أى شئ فى الوكالة ..

أخذنا راحتنا بكل اطمئنان . وكلما مضى الوقت أهابت بى وداد أن أخذ راحتي أكثر؛ فمرة أوصتني بارتداء الجلباب وذهبت هى إلى حجرتي ،علايسى لكى تأتى بالجلباب فبقيت بالملايس الداخلية إلى أن جاءت ، مما أتاح لسندس أن ترانى شبه عار ؛ ومرة ثانية أوصتني بأن أتمدد لأريح ظهري ؛ فتذكرت أننى بين عاهرتين لكل منهما طعم خاص . أكلنا الهريسة فاشتعلت ؛ صرنا نضحك بشكل هستيرى متواصل وبانفعال حقيقى ؛ نميل فيه على بعضنا وتتصافح بالأيدى . وكان الراديو مفتوحاً فى مكان قريب جداً لعله منزل من المنازل الملاصقة للوكالة من الخلف ، فكأنه فى الحجرة معنا ؛ وقد راحت المطربة صباح تردح على نقر الدربكة والنأى بأغنية : زنوبة.. زنوبة.. حلوة وخفة وحبوبة .. شويش يا حبايب زنوبة .. زنوبة.. فنهضت سندس واقفة ، وبحماسة وحرارة خلعت جلبابها وبقيت بالقميص الداخلي فكشفت عن جسد مشدود مليء بالبروزات والتكورات المكتنزة ؛ سحبت شالاً فتحزمت به فوق قبة الفخذين مباشرة حتى برزت السرة كغطاء حلة مقلوب ، جعل يتراقص رائحاً جاثياً صاعداً هابطاً ؛ ناهيك عن الثديين وما تحتها ، والعجيزة التى بدت كالعجين الخمران وهى تلتف حول نفسها فى نشوة . كانت تضم كفيها وتطرقع بأصبعيها الكبيرين على نغمة الإيقاع برشاقة مدهشة . ويبدو أن وداد قد غارت منها ، إذ نهضت هى الأخرى ونزلت قصادها رقصاً . صرت أصفق لهما على واحدة ونص . ولحظة أن وقفت لأشاركهما الرقص انقطعت الأغنية وبدأ المذيع يقرأ موجز الأخبار ؛ ثم مالبت حتى انكتم فى الحال . وتهاوت سندس بحركة اصطناعية فتلقيتها على ذراعى ، بحركة اصطناعية أيضاً ؛ ثم عدلتها فاحتضنتها فقبلتها ، فبقيت مستسلمة فى رخواة . قالت وداد بلهجة ذات معنى :

- " أنكشع أنا ! سامرق من الباب فى الكتم إلى أوضة جدتى جنبكم ! أحب أن أسمع رقصكم ! " ..

ومرقت بالفعل من وربة الباب ؛ سمعنا حفيف ثوبها وهى تمزق إلى حجرة
جذبتها وتغلق الباب برفق . إمتدت يد سندس فأغلقت بابها بالترباس . إرغمنا معاً
على الأرض متلاحمين . صرت أحتضن وأقبل وأعبت بيدي فى كل مكان . هى
الأخرى صارت تفعل ذلك بحماسة ، لكنها كانت كمن ينفخ فى نار مطفأة .
خلعنا كل الثياب ؛ صرنا نتمرغ فوق بعضنا ، فلا يصيبني سوى اللهاث والعرق ،
ورائحة الأنتى تلفح أنفى تفتق نخياشيمي مختلطة برائحة عرق لزج وبقايا بصل
وثوم وزفارة سمك . أنشد قليلاً لدقائق معدودة وسرعان ما ينقطع الحبل . وكان
صوت أذان الفجر يحيط بنا من كل الجهات حينما تمددنا بجوار بعضنا جسدين
عاريين ، أحدهما يحاول إخماد نفسه والآخر يحاول التشبث بأذيال الحياة دون
جدوى . وكأن ثمة اتفاقاً صامتاً قد جرى بأن نستريح قليلاً حتى تهدأ الأعصاب
ويزول الرهق لعل وعسى ؛ ولكن كل شئ سرعان ما اختفى داخل حب مظلم .
وحين عدت إلى الوجود بعد اختفاء طويل فى الجهول المضطرب كانت وداد تنقر
الباب من الخارج لتصحينا ، والضحى يغمر فناء الوكالة باللون الأبيض الكرى .
فتحت لها سندس ؛ وفيها كنت أتمطع وأعتدل جالساً لحت سندس فى لقطة خاطفة
وهى تلعب أصبعها تجاهى بحركة بذيئة جداً فيها معنى الولولة والإستهزاء والصدمة .
حينئذ انتهت إلى عريي التام ، فشعرت بخجل شديد ، وسارعت بارتداء ملابسى .

وديعة أنقح من وديدة

.. " إقعد قليلاً معنا يا أخانا !.. أم أن من يرى أحبابه ينس أصحابه كما يقول المثل ؟ كل شيء يتم هنا بمزاجى على كل حال فلا تظن نفسك نصف فرنك !! " ..
" إقعد معنا شيئاً من الوقت فرما احتجت إليك الليلة فى أمر !! النافع هو الله أى نعم لكن الله ينفع الناس بالناس ! ولسوف أسقيك شايًا معتبراً عمرك ما شربته ! وستأخذ عدساية أفبون ! هاهنا ! لو كنت أخذتها ليلة السهرة إياها لسترت وجهك !! خذ ! لا تأكلها الآن فهى كبيرة ! " ..

" قم يازينهم هات العدة لنبحر روعوسنا بحجرين ! جاعتنى اليوم قطعة حشيش هبو ماركة المشير ومرسوم على كبسها وردة !! جاءت فى الحقيبة الدبلوماسية !! هذا يا أخانا نوع يعرفه التجار للشرب لا للبيع !! أقطع ذراعى إن كنت تعرف الحقيبة الدبلوماسية هذه !! " ..

" هيه ؟ ما رأيكما فى التعميرة ؟ الرأى واضح على وجهيكما بغير كلام ! هنيئاً وشفاء ولكن لا تتعودا عليها فليس منها فى البلاد لأنها لا تباع !! " ..
" الأمر وما فيه يا أخانا - والكلام لك أيضاً يا شيخ زينهم - أن سامراً كبيراً سينصب هنا الليلة ! فى الوكالة ! ولا أحب أن أراه وحدى ! " ..

" أظنك يا زينهم تذكر وديدة ؟ ومن منا لا يذكر وديدة ؟ المرأة القرشانة التى لم يهدا سوى الموت !! غجرية كانت يا أخانا تشوف البخت مثل صديقتك المسكينة سندس ! لكنها كانت حلبيه مثل لهطة القشطة بنت الكلب هذه يرحمها الله ! تنظر النظرة لأى شخص فتوقع به فى الحال ينزل على جذور رقبته لا يعطى منطقاً !! البخت لم يكن وحده صنعتها كما تعرف يا زينهم ! الناس نبهوها إلى جمالها الفتان ! بلدنا مصر هذه - بكل صراحة - تستأهل الحرق ! نعم ! تستأهل أكثر مما يجرى لها ! هى التى تنفخ فى البنى آدم حتى يركبها !! خلاص ! أصبحت جبلة نولد بها !! وديدة مثلاً لم تكن تدرى أن جمالها فتان إلا بعد أن كثر عدد الأذلاء تحت أقدامها !! كل من يلقاها يعرض عليها الزواج بأى شكل مثل أم وداد يرحمها الله لكنها أجهل وأبرع ! كانت سخاً جباراً يستحق أن يحكم دولة بحالها !!

العبد لله وحده كان يشكها لأنى عرفت سر قوتها فأبطلت مفعوله فى نفسى!!
سر قوتها جمالها ! وأنا على فكرة لا أجيد العوم إلا فى بحر العيون السوداء الواسعة
فى وجه عريض أبيض عمر الخدين ! كما أنى أعرف حدودى جيداً يا أخانا ! فأنا
لا أرضى أن أكون طفلاً عبيطاً تلهيه بقطعة حلالة أو بلحسة من خلها لكى تفعل
على حسها ما تريد وتحكم الوكالة بدلاً منى !! رميت مخاطاف عيني بعيداً عن
شواطئ عينيها صرت فى الأمان أستطيع أن آخذ حتى من مكاسيها الكبيرة !! ..

المرأة لما ستحلت نفسها فى الأنظار وجدت أنها إن تزوجت باعت نفسها
بتراب الفلوس لرجل واحد قد لا يملأ عينيها مستقبلاً حتى لو كان جمال عبدالناصر
نفسه أو الملك فاروق !! خلعت ثوب العجربة يا أخانا وارتدت ثوب سيدات
البيوت من أبناء الناس الطيبين !! كنت وغيرى لا نعرفها إذا طلعت للشغل فى
الصباح على سبعة عشرة لابسة الفستان الشفتشى ومتلعة بالشال القطيفة الأحمر
وفى قدميها نعل يسمى الشكرين مع الجيوب الحرير لون ساقها !! تطلع على باب
الله حيث يكون فى انتظارها على المقهى أفندى محترم ابن ناس فى أههى زيتته!!
أولاد حرام يا أخانا ! لا يعرفهم ويكشف ملاعبيهم سوى أولاد حرام مثلهم ! لا
يفل الحديد إلا الحديد يا أخانا ! والطيور على أشكالها تقع ! كذا أم لا يا زينهم يا
عترى !! ..

"ابن الحرام الأفندى قد يكون اليوم سليمان وغداً إبراهيم وبعد غد رأفت أو
حشمت وربما جرجس أو بطرس !! وربما هو اليوم أفندى وغداً شيخ طريقة وبعد
غداً أحد الحجاج الأتقياء !! ربما هم جميعاً شخص واحد لكنهم فى الشغل
شخصيات متعددة كل واحد منهم يستطيع أن يكون كل الشخصيات فى آن واحد
أو فى حالات متقلبة حسبما يحتاجه الرزق !! لسأل الشيخ زينهم فهو خبير بهم !
إنه زعيمهم ! هاهأهاها.. ا..ى ! أقصد كان وانقضى ! الشيخ زينهم هذا يا ما
طلع مع وديدة فى مشاوير أيام الشقاوة طبعاً ! كلنا على فكرة تشاقينا !! .."

"وديدة هى المعلم كل الخيوط فى يدها ! هى التى تختار من يطلع معها الطلعة !
فهى خبيرة فى التقاط الرجال الذين تشعر أنها تحتاجهم فى اللحظة المناسبة ! الذين
يمكن ان تلبسهم فى يديها فى قدميها فى رأسها فى صدرها فى أى مكان يعجبها!!

تختار الشخص حتى فى أخرج للمواقف ! حتى اللحظة التى يصبح فيها من الواجب على شخص من الأشخاص أن يقبض عليها ليسلمها للشرطة لكى تقتص منها يتحول الأمر بقدرة قادر فيصبح الخضم عاشقا متيما بعده يتمنى رضاه فما بالك ومعبوده يلقى إليه بنفسه طعم الإغراء يطرح عليه الشبك طرح صياد ماهر ؟! الصيد دائماً أبداً ينساب فى شباكها نشوان القلب بلا أى مقاومة ! هو دائماً صيد ثمين !! وكما نمسك نحن بمصيدة الفئران لنرجحها بين أيدينا والفأر حبيس بداخلها يرتج حتى ينزف وتتفتت روحه فإن وديدة تفعل هكذا بالضبط فى صيدها وكم وقع فى يديها من رجال من أبناء الأسر الطيبين طمعوا فى قطف ورود خلدوا وهصر جذعها والغرق فى عينيها فإذا هم ينحطون فى خدمتها كالصبيان الملتهين مع أنهم فى بيوتهم وأشغالهم أسياد مبجلين لهم شنة ورنة !! يبقى المسكين أسيراً لديها حتى يصبح لا وجود له فى أى مكان آخر إذ تنهار شخصيته فى داره فى شغله فى أى مكان بعيد عن وديدة كمدمن الكوكايين لا يسترد وعيه إلا بالكوكايين !! وكبل الوزارة والمدير العام واللواء يقضى لها المشاوير بمزاجه !! وحسب قوة احتماله ! ربما ظل يقبل عن طيب خاطر حتى يصير مجرد بواب أو ناضوجى فى حراستها وربما يصبح مجرد رفيق مجرد صاحب مأمون الجانب مجرد خادم مجرد خيال مآته ييذب عنها الطيور المهاجرة حتى ينتهى رجل أقوى منه فى الداخل من عمل الواجب على النحو الذى يرضى وديدة !! هى لذلك تستطيع السكنى فى قصر ملكى لكنها تموت حباً فى تراب الوكالة ، فهى فى الوكالة ملكة لكنها فى القصر لا تدرى ماذا تكون ؟! فى الوكالة لها حاشية كبيرة من الرجال وقعوا جميعاً فى هواها بصدق أصبحوا من دراويشها مع أنهم رجعوا المشوار من عندها فوق الشوك إلى مكاتبهم فى وظائفهم وعمديتهم فى قراهم وشطارتهم فى ليلهم رغم الذل والعذاب والحرمان لا يقطعون الأمل فيها مع أن بعضهم كان متزوجاً من حوريات طاهرات لكنها الطفاسة و فراغة العين يا أحنانا ! أو قل إنه حظ مقدور عند الله وموهبة يمنحها لمن يشاء !! ..

" الشيطانة تركتهم جميعاً ينصرفون عنها يائسين فلم يبق تحت حوزتها سوى من لم يعد لديه شئ آخر يعود إليه ! وذلك من أجل أن تستقبل صيداً جديداً يفتح لها

سككاً جديدة !! إنما هي لا تركهم ينصرفون عنها كأنهم ما كانوا !! لا يا حلوا
إنها تبقى على خيوط الشبك في يديها تشدها في أى لحظة تشاء من هذا الخيط أو
ذاك ليحضر فى الحال هذا الصيد أو ذاك ينقلها من ورطة يفرج عنها ضيقة أو
يفكها من قبضة البوليس !! كل واحد منهم يا أختانا عنده شئ منها يعتز به فى
صدر مكنون : قبله ساخنة حضان عميق ليلة حمراء ضربة رمش فما بالك لو جاءه
مرسال حى منها يطلبه لأمر يخصها ؟!..

" تسألنى يازينهم لماذا أتفكرها الآن ولماذا أصحى الجثث وهى رمة ١٩ أنا والله
لا ذنب لى فى الأمر إنما هى التى صحت لأن الزمن صباحها الليلة لتحل مشكلة
فضيحة كانت فعلتها منذ خمسة عشر عاماً !! مطلوب منها الآن أن تدلى باقوالها فى
أشياء كثيرة وعريضة !!.."

" سرحات وديدة كانت بلا نهاية ! فالسرحة تنشأ من السرحة ! والمشوار يلد
المشاوير ! وصفقة تقود إلى صفقات ! أرايت يا أختانا إلى ملكة دنيئة لا يهمها عرف
ولا شرف ولا مظهر ولا مخبر ولا أى شئ ؟ شف يا أختانا ماذا تكون ١٩ هى مثلاً
تعشق هوايتها المفضلة التى كانت السبب فى اتساع سوقها ورواج بضاعتها !
تنظف مهمما انظف لكنها تعود للتنانة فى آخر الأمر ! إن تابت القحبة عرست !!.."

" المرأة الشعنونة تطلع مع الأفندى ذى الشكل المحترم فتسافر به إلى الأسكندرية
لتمكث هناك أياماً طويلة حتى تغربلها وتهز هزها ! يعنى لا تترك فيها حياً إلا
وسلبت منه أشياء ! تختار عربات الأتوبيس السائرة على الخطوط الطوالى ! تختار
أشد العربات ازدحاماً ! تركب ومن ورائها الأفندى ! ينحشران زحفاً داخل
العربة !! عطر المرأة وجسدها مهرجان كبير ! الجميع يحضنون عليها وهى تنزلق من
بينهم فى سهولة ! بخبرتها تتوسم خيراً فى أحد الركاب فتقف أمامه مباشرة فيلتصق
هو بها فى الحال سعيداً غائباً عن الوعى فيلتصق به الأفندى من الخلف ! صاحبنا
يندلق على المرأة والأفندى فى لمح البصر ينتهى من تقليبه وسلب محفظته وكل ما
معه بخفة يد لا ترى بالعين المجردة !! حين تشعر هى أن صاحبنا المندلق على
مؤخرتها قد اكمل اندلاقه تعرف أن أفنديها قد أكمل استلابه ! فتكثر من حركات
التألم ثم تستدير ناظرة إلى صاحبنا فى تأنيب واحتقار فيلتقطها أحد المتابعين

فيدعوها فى الحال للوقوف مكانه موسعاً لها فى الأول حتى يبدأ الالتصاق بها شيئاً فشيئاً معتمداً على أنها سترد له جميله بالسكوت عنه ! وهى تسكت عنه بالفعل حتى ينتهى الأفندى من تخليص مهمته ! قبل نهاية الخط بقليل يهبطان فلا يبقيا فى الشارع برهة واحدة ! لا بد من الاختفاء فى حارات ملتوية أو فى تاكسى أو مترو ! المهم أن من يسعى وراءها لا يمكن له اللحاق بهما أبداً ! فلا تنس أن الذين عملوها على أنفسهم فى الأتوبيس لن يجرؤ واحد منهم على إعلان فضيحته إذا اكتشف غفلته فى وقت مبكر !!".

" هذا جانب الأتوبيسات وحدها ! تعال إلى جانب الشاطىء الذى يسمونه البلاج ! اليوم فى المندرة وغداً فى سيدى بشر أو المنتزه أو أبى قير !! ما عليها إلا أن تخلع ثيابها وتمشى بالمسيو على الشاطىء ! ألف واحد من العزاب سيمشون وراءها ! هذا مؤكد ! أرايت يا أحنانا إلى مجموعة من الكلاب يتحوطون كلبة واحدة فتقوم بينهم معركة وهى مقعية إلى بعيد تتفرج منتظرة نتيجة المعركة وفى النهاية ربما تركتهم ومضت إلى سبيلها لا تمكن من نفسها أحداً منهم !! تلك كانت وديدة على البلاج ! لا بد أن يفوز فى معركة الإغراء واحد تتأكد هى من منظره من كلامه من مصروفه أنه ملان بالخير ! تنعطف عليه ! يتم الاتفاق على موعد ليلى فى مكان ما حيث توهمه أنها ستزوغ من زوجها !! تنتقل معه إلى شقته ولكن بعد أن تسرح به سرحاً طويلة فى المدينة تشتري فيها كل ما لذ وطاب مما هى محرومة منه والبقف يدفع بكل سخاء ولذة ! فى شقته تلس له المخدر فى شاي فى كأس خمر فى قطعة حلوى !! يستسلم البقف للنوم وأكل الرز باللبن مع الملائكة بينما تكون هى فى ثمام صحوها ! تقوم يا أحنانا فتقشش البيت من كل ما فيه من مال وملابس وأشياء ثمينة تضعها فى صرر وحقائب !! وأكثر من أفندى ينتظرونها تحت باب العمارة وباب الشقة مسلحين بالمطاوى !!".

" حوّد على البلاد المجاورة ! المدن الصغيرة مثل كفر الدوار ورشيد والحلة وكفر الزيات وزفتى وميت غمر ! تنزل على سوق الكانتو تبيع الملابس بالقطعة متخذة مظهر التاجر حتى لا يخمها أحد أو يتشكك فيها مخبر سرى !! فتنتقل بعد ذلك إلى سوق الصاغة فتبيع مالا يلزم لزيبتها مع المصاغ المسروق !! هى لاتبيع إلا المصوغات

الغريبة التي لا تتسق مع شخصيتها كالحفواتم الأثرية والبروشات والأشياء التي لا أحد يصدق أنها اشتريتها للتزين بها فحسب !! هي أيضاً مفترية فى السرقة ولكن ذلك لحكمة يا أحنانا شفى العجب ! إن من حكمتها أنها لا بد أن تأخذ حتى الثياب التي ينام بها الموكوس بحيث يصحو عندما يفيق فيجد نفسه بلبوصاً ولا يجد هدمة واحدة يستر بها جسده لينزل إلى الشارع ! يعنى أنه لن يتمكن من تبليغ البوليس إلا بعد أن تكون المعلمة قد غادرت البلدة وعادت إلى شخصيتها كفجيرة حلبية لا علاقة لها بالهائم الفخيمة سيبلغ عنها الموكوس إن بلغ !! معظمهم يكفى على الخير ماجوراً ويفرض أمره إلى الله !!".

" من المدن الصغيرة إلى الوكالة تزك غنيمتها تحت البلاطة تدخرها ليوم تدبل فيه وردتها فتجد شيئاً تعيش عليه بقية عمرها !! يوم أو يومان أو أكثر فى دمنهور تشتري كمية كبيرة من الأساور والحفواتم والأقراط والأفرع من مصوغات القشرة ماركة الجمل بأسعار تزيد عن ثمن الزراب قليلاً ! تلبس منه فى يديها وأذنيها وأصابعها وحول عنقها طاقماً مغريباً ! ولا تنسى يا أحنانا أن الملبوسات بجميع أنواعها لا تليق على كل الأشخاص فأنت أو أنا قد نلبس خائفاً أو بنطلوناً ثميناً فيبدو علينا كأنه شئ لا يلفت النظر إنما لو لبسه شخص آخر لظهر فى منتهى الشياكة !! الناس إما فتارين أو أزيار مظلمة الجوف ! ومصوغات الصائف كلها لو وضعت فى قلب زير لاندفت أما لو وضعت فى الفتارين فحدث ولا حرج ! وديدة كانت فترينة ! تظهر الأساور النحاسية فى معصمها كأنها من أغلى أنواع الذهب الخالص وكذلك كل شئ تلبسه يجذب العيون فيتمنى من يراه أن يقتنيه !!".

" تنزل البلدة على شكل محترم وحشمة ويدها ورقة مكتوبة فيها عنوان شخص لا وجود له فى أى مكان ! حبذا لو كان ذا لقب متشابه مع لقب عائلة مشهورة فى البلد !! تمضى هى للسؤال عن هذا الشخص المجهول ! يقودها أولاد الحلال إلى من يتشابه اسمهم ما اسم من تسأل هى عنه !! هم بالطبع أهل ود وترحاب خاصة مع الضيوف الغرباء فالغريب فى القرى مكروم لأجل النبى !! أهلاً وسهلاً تفضلنى ياست إشرى الشاى قبل كل شئ !! الشاى ربما يجلب الغداء ! والغداء ربما يجر إلى المبيت ! وهى من لحظة استلامها لهم تشغلهم جميعاً بحكاية مثيرة تبتدو وحشة أيامهم

المتشابهة ! تحكى أنها حرم الأستاذ فلان الفلانى هذا الذى جاءت تسأل عنه حيث تزوجها منذ سنة أو سنتين وخلفت منه لكنه خرج ذات يوم بعيد مسافراً إلى بلدته هذه فلم يعد فلما استغيثته وضافت بها الحياة فى مصر جاءت تسأل أهله عنه!! يا حرام ! لا حول ولا قوة إلا بالله ! ربنا ينتقم منه ! أهنات الناس لعبة ؟ شفى الرجل ابن الحرام وكيف خدع هذه الولية الغلبانة ! هل سألت قسم البوليس ؟ والمستشفيات ؟ هل فتحت المنديل ؟ زرت أحد المشايخ ؟ قرأت عذبة يس ؟ هى ترد على كل ذلك مولولة ممثلة بأشد اتقان دور التعيسة المنكوبة المتورطة فى مشاكل الدنيا والآخرة يسندها مظهرها الفخيم الذى يلقى الاحترام ولا يتطرق إليه الشك!! بعضهم ناس طيبين بالفعل وكرماء يقومون معها بواجب كبير ، فبعد المبيت تخرج فى الصباح من عندهم محملة بخير كثير تبرع به القوم لها ولعيالها من زاد وملبس وفلوس !! بعضهم بطيبة قلب كبيرة يخرج معها للبحث فى عزة مجاورة تشابهت أو قل اشتبهت فيها الأسماء !! يقوم نبابة عنها بشرح القصة بشكل أفضل منها باللغة التى يفهم بها الفلاحون مع بعضهم فيتأثر السامعون أشد التأثر ويتحمسوا أشد الحماس وربما قاموا بدورهم بتقديم المشورة بحماسة كبيرة لكنهم لابد أن يساهموا فى تحميلها بمزيد من التبرعات حتى تفاجأ بها عائدة إلى الوكالة ذات ليلة بين حمول كثيرة يجرى إنزالها من تاكسيات أو حناطير أو عربات كارو !! ياما نالنى من الحب جانب ! ياما أكلت وشربت ولبست من فيض الكريم عليها بأشياء لم تكن تخطر لى على بال !! الميزة فى وديدة أنها ليست عقربة تقررص والسلام كل من يقترب منها! الحق لله كانت إذا جبرها الله فى بلدة من البلاد عادت راضية دون أن تؤذى أحداً! أما إن لقيت سوء الاستقبال أو الجفاء فإنها تقدر على اصطلياد بعض الضعفاء الطماعين لتسخينهم وإلباسهم قراطيس الخديعة : إنها الآن - تحكى لهم - واقعة فى ورطة مهبية ! ليس معها أجرة السفر كما ليس فى بيتها لقمة لعيالها وهى لا تحب أن تتسول فهى ليست فى حاجة طالماً أن فى يديها ذهب ! فلو تجد من ترهن عنده هذا الذهب مقابل مبلغ بسيط فهى لا تمانع !! هنا يتحرك الطمع فى السامعين فيسعى بعضهم للإستيلاء التام على هذا الذهب البراق بيعاً وشراءً بضمن بخس! فيروح يساومها ! فإذا هى قد أخرجت فى الحال من حقبة يدها فاتورة الصائع التى

اشترت بها هذا الذهب مذ كانت عروساً جديدة !! المساوم ساذج كالسمكة الصغيرة تتحرك بحرية داخل فكي التماسيح ! هى تكون أول من يطلب الإنتقال إلى أى محل صائغ فى أى مكان يروونه ليقوم الصائغ بثمين الذهب بسعر هذه الأيام وهى من عندها تخضع ما يرضيهم !! تصر على ذلك لبعض الوقت حتى تهيج غريزة الطامع فيرجوها أن يتم ذلك فى السر ما أمكن خوفاً من القرب والحسد !! من هنا يجاهد معها الفلاح الطيب أو الفلاحة الغشيمة حتى ينخفض ربع الثمن الذى طلبته وديدة !! وأحياناً تجرى بينهما المقابضة مع دفع الفروق كأن تأخذ منها الفلاحة هذا الفرع الكبير وهذا القرط الثقيل وهذا الخاتم وتعطيها فى المقابل هذا المصحف بهذه السلسلة مع هذا القرط الخفيف ومبلغ كذا من المال وبضع كيلات من الأرز أو القمح أو كيسين من القطن !! رجال وديدة دائماً فى انتظارها رهن لفئة منها فى صورة ناس يتطوعون بمساعدتها لوجه الله !! ..

" شيطانة كانت من التتر والحلب معاً فأبوها تترى وأمها حلبية ! لا يقدر عليها إلا صاحب القدرة سبحانه وتعالى ! كفاك الله شرها يا أختانا حتى وهى ميتة !! عمرها وصل إلى الستين وهى عفية لم يطرأ على جمالها الوحشى أى تغيير !! إبتنها كانت عروساً فى الثانية والعشرين من عمرها واسمها نور الصباح أنجبتها من زوجها الأول القديم ترك حان الذى طلقته بعد ولادة نور الصباح بغام واحد ! نور الصباح لم تره أبداً لأنه رحل إلى بلاد الله خلق الله فلم نعرف له خيراً من يومها !! أى والله يا أختانا ! قل له يازينهم ! قل له عن ترك حان الذى كان عبارة عن بغل كبغل الوسية بشارب كخيال المائة كانت شغلته تراييزة البخت فى الموالد بتقليب الزهر فى كوب ثم دلقه برهان على رقم فيه إن لم يجىء به مجموع حبات الزهر يخسر الزبون الرهان ! وفى غير أيام الموالد يلعب الثلاث ورقات ! كان بليداً يشرب كوز السيترو الأحمر على ريق النوم ولو تعارك بمسك بالرجل الشديد فيقطع وسطه قطع الخيار ! لا أحد بمأ عينيه أو يصد فرعنته غير وديدة ! الوحيدة التى يعمل لها ألف حساب ! ومرة أراد أن يكون الرجل معها كإى زوج من حقه أن يشخط فى زوجة يأمرها بكذا فما كان منه إلا أن شرب كوزين من السيترو الأحمر لكى يتمكن من الشخط فيها !! هى شخطة واحدة إنها لبعدها الشبشب فوق رأسه

حتى اضطر للجري فظلت بعضا تسليك الكنيف تلاحقة ككلب أجرب !! وإذا كان الكلب يعود بعد طرده فإن ترك خان لم يعد من يومها !!..

فلما كبرت فى السن وكبرت البنت أيضاً انهد حيلها بعض الشئ ! أصبحت سوابقها مشهورة فى حوادث كل البلاد كأمن الغولة ! أصبحت تخشى النزول إلى بلد من البلدان للشغل ! وعلى حد قولك يا زينهم إنفض عنها الرجال الأشداء بالموت أو بالشيخوخة أو باليأس النهائى !! أتذكر تلك الأيام يا زينهم ! تذكر يوم أمسكها البوليس فى واحدة من ألاعيبها فلم تجد من يتدخل للإفراج عنها !؟ دفعت الشيطانة خمس سنوات من عمرها فى سجن النساء تاركة طفلتها نور الصباح أمانة لدى صديقتها أم وداد التى سمت ابنتها على اسمها !! كالعادة فى كهن النسوان طلعت الولية من السجن تائبة تتلفح بالطرحة البيضاء !! مابقى تحت البلاطة بعد أتعاب المحامى وكتبة المحاكم وحوايشية السجن وأكل غير أكل السجن وألبان لا يبتها نور تبدد كله فى شهور قليلة !!..

" عادت لشغلها الأصلية ! حملت القفة وسرحت تشوف البخت فى البلاد الصغيرة التى سبق أن نزلتها للنصب والإحتيال ! وكانت تعود فتحكى لنا كيف رأت الناس فى هذه البلدان ما يزالون يتكلمون فى الحوادث التى فعلتها فيهم ذات يوم ! وكيف أن بعضهم اختلن بها وسألنها إن كانت تعرف امرأة شكلها كيت وكيت !؟".

" فى سرحة من هذه السرحات أوقعت الولد فى هواها يا حسرة أمه عليه!! كان ابنها الوحيد ! يدلله أبوه بل كاد يعبد : رح يا بدر تعال يا بدر! وبدر يترطع فى الدار يصبح كبيرها فى ظل أبيه السعيد به والذى كبره بنفسه على نفسه !! عخطب له أبوه ابنة واحد من ذوى الأملاك الكثيرة ودفع مهرأ كبيرأ وشبكة ثم صارت الدخلة على الأبواب! لكنه النصيب يا اخانا! الدنيا كما قال يوسف وهبى مرسحية كبيرة غريبة !! بدر بن السعيد هو وأبوه إسمان على مسمى !! بدر وهو بدر ! الوجه كطبق النحاس الأحمر المنقوش الذى يعلقه أولاد النوات على حوائط بيوتهم ! أما الجسم فكجذع شجرة الجميز تخناً وامتلاءً وكعود السنط صلابة وشدة! الطاقة الصوفية الملونة منجصة على مؤخرة رأسه والجلباب الكشمير

كالكمكة على يذنه والمركوب الآخر فى قدميه والعصا العوجاية الأبنوس فى يديه
كلل مرشح للعمدية!!..

"يومها كان سارحاً فى العصارى ببهايمه يدرج بها يفسحها على شاطئ ترعة
قرية من زمام بلدته! وضع القدر وديدة فى طريقه خارجة من البلدة!! سلطت فيه
عينها! وقع الولد من طوله فى الحال! استوقفها تشرف له بخته!! ألقت له فى
الحال بختاً يوافق هولاء!! قرأت عليه تعزيمه أوقعته فى حبالها، كلما همت
بالنهوض استبقاها مقابل ما تشاء من أحر لكنها لم تتخلص منه إلا بعد أن أعطته
عنوانها فى الوكالة!! بدر السعيد للمسكين لم يكذب خيراً! فى نهاية الجمعة نفسها
حاء إلى الوكالة محلاً بزيارة ثينة من أرز ودقيق وعسل وسمن وبيض وجبن ولبن
وعجبر طرى وفطير!! مكث عندها يومين فى حفاوة كبيرة وعند النوم تفرش له
فرشها كله أمام باب حجرتها ليتأكد من شرفها!! بدر السعيد لم يكن يريد التأكد
من شئ! قلها بنفسه! حتى لو كانت هى فيها ما قتل الحواى فإنه بات أسيراً
وهيات أن يهرب منها!!..

"أشعل الولد خيالها الكهل أيقظ عواطفها الخاملة ذكرها بمملكتها القديمة
وبأسرها السابقين!! وقعت هى الأخرى فى هواه صار يتردد عليها كل جمعة مرة
أو مرتين! ثم فوجئنا بالمأذون يدخل الوكالة ليعقد عليها!! صارت وديدة زوجاً
شرعياً لبدر السعيد!! الذى غاظنى أنها أتت بمأذون من خارج الوكالة مع أنها
تعرف أنى قادر على عقد قرانها بنفسى!! المقصود يا أختانا إنتقل بدر السعيد إلى
حجرتها وترك خطيبته بنت الناس وأهله وأرضه ومستقبله واختار العيش تحت ظل
وديده!! السر لم يكن فى عينها وحدهما يا أختانا ولا فى جسمها الذى هو
الشیطان نفسه مجسداً فى امرأة ليفرى بها اتقى الناس وأشبعهم إيماناً وهو على ثقة
أنهم يرفعون جباههم عن سجادة الصلاة فإن خطفت عينها عيونهم ما عادوا
للكوع ثانية إلا لها!! إنما السر فيها!! إنما السر فيها كلها ولا أحد يعلمه بالضبط!!
الولد بدر السعيد جاءت خطيبته إلى هنا لى بنفسها هذه التى اختطفته منها
فعلته مع أنها.. تصدق بالله يا أختانا!!.. قل له يا زينهم.. جمال بنات الحور يا
أختانا! والله لعلها أجمل منهن!! ولكن.. البنت للمسكينة كانت تياها بجميعها

منذ دخلت وجلست مع أهلها بجوارى على هذه المصطبة ! فلما رأت وديدة انكسر
حبينها فى الحال واغرورت عيناها بالدموع ونهضت قائلة لبدر السعيد : معك حق
يا بدر فأنت طول عمرك تموت فى حب الجمال وإنى لست زعلانة منك فهناك
دبلتك وشبكك وأنا لى رب يحمينى ويضع فى طريقى من يحب جمال الشخص قبل
جمال جسده يا بدر ! يا بدر كثر الله خيرك لأنك جعلتنى أفيق فأنا كنت مثلك
أحب الشخص لحلاوة شكله وأتصور أننى غالية عليك !!.. سحبت البنات أهلها
ومضت! وإذا وصلت إلى فتحة البوابة استدارت فى هبوب الريح الذى تطح ثيابها
إلى الوراء وهفهفها فبدت كقوس من سحابة سماوية اللون فارغة فارغة نخيلة حمراء الوجه
تحت المندبل أبو أوية المشغول بالفلل والترتر! رفعت ذراعها صانعة من راحة يدها
مظلة فوق فمها وأطلقت زغرودة مجلجلة طويلة النفس تخطف القلوب خطفاً يا
أخانا !!.. وحق من جمعنا على غير ميعاد إن زغرودتها ترن الآن فى أذنى قادمة من
فراغ البوابة من زمن بعيد مائل لا يريم! أسمع الآن صوتها يقول بصدق حقيقى:
ميروك يا عريس!!.."

"إنصرفت البنية التى أذهلتنى وأذهلت الجميع ! ولكن بعد شهور قليلة جاء أبوه
وأمه بصحبة وفد من الرجال ! كان منظر أبيه يا أخانا يصعب على الكافر لكنه لم
يصعب على ابنه بدر السعيد !! المرض هد الأب فبان عليه الذل والإنكسار إذ
يستعطف ولده أن يرجمه فيرجع إلى أهله يرعى أملاكه وأراضيه ومواشيه فلم يرض
الولد!!.. لو كان ابنى أنا لقتلته فى الحال حتى لو كان وحيدى!!.. تصور يا أخانا
أن المرأة وديدة نفسها تأثرت من منظر الرجل المسكين فصارت هى الأخرى تزجى
بدر أن يذهب مع أبيه وأنها توافق على أن يزورها كل أسبوع ليلة أو ليلتين فما
كان منه إلا أن شكها بكوعه فى بوزها فسكت!!.. كنت عارفاً من الأول أن
بدر السعيد لن يرجع إلى أهله! لأنه شرب خمر وديدة! شرب رحيق شفيتها
الحريفتين فسرى المخدر فى عروقه ولن يصبح له دواء إلا هذا المخدر نفسه! فلإن
جمال وديدة من النوع الذى لا يكفى أن تمتلكه بل لابد أن يبقى فى حراسته مفنجل
العينين لا تغفل عنه لحظة واحدة !! وهذا ما فعله بدر السعيد يا أخانا !!.. بعد شهور
قليلة تلقى خبر وفاة أبيه فسافر لدفنه ثم عاد بعد أيام !!.. شهور قليلة أخرى وتلقى

عبر وفاة أمه فسافر لدفنها ثم عاد بعد أيام !.. وظل كل بضعة شهور يسافر إلى بلدته ليبيع شيئاً من أملاكه ويأتى فيصرف ثمنه على أكل الحمام والجنسرى والكابوريا والبطارخ وشرب الخشيش والخمر الذى تعلم شربه من وديدة وعرف الطريق إلى محل الخواجة بنى كرياليكوس فى شارع البندرا!.. وكانت صحته مع ذلك فى تقدم مستمر فنضحت على صحة المرأة فتجدد شبابها ! لكنه كسر شوكتها بعنفوانه فأصبحت تحبه وتخاف منه ! لأول مرة فى حياتها تعرف الخوف من رجل ! أصبحت تتحشم فى لبسها فى كلامها فى خروجها فى جلوسها !.. قسم الحجرة قسمين بقاطع من الخشب حيث تنام الولية وابنتها فى مكان منعزل ويبقى هو وأصدقاؤه فى الشطر الآخر يسكرون يلعبون القمار حتى مطلع الفجر فيصرفهم ويستدعى المرأة ليكمل فى حضنها بقية الليل !..

" القمار كان لعبته شغلته الوحيدة ! خسر فيه المئات لكنه كسب الآلاف فصرفها كلها على وديدة وابنتها !.. فقد بوديده جعلها رسالته فى الحياة حررها بحق وحقيق أدها ورباها ! ! لم يكن يضربها إلا بالكرباج السودانى المسقى بالزيت ! كل علة أنقح من سابقها ! ! درب عينها على عدم الإنزلاق هنا أو هنا !.. وبعد أربع أو خمس سنوات فوجئنا بالمأذون يدخل الوكالة مرة أخرى متجهاً إلى حجرة وديدة !.. وقع الخبر علينا كهم الموت لم تصدق أن بدر السعيد امتلك الجرة على تطليق وديدة !.. فى هذه الحالة بدأ الفأر يلعب فى عبي !.. أنت تذكر يا زينهم تلك الأيام ! أنا بدأت أفكر فى التدخل ! جاءت فرصتى لأقول له : ماذا يقيقك هنا بعد الآن يا بدر السعيد ؟! أظن من الواجب الآن تعود إلى أهلك ! ! لكنه لم يعطنى الفرصة يا أختانا ! إذ ماكدت أقتنع بضرورة محادثته فى الأمر بحجة استنكار وجود أعزب بين امرأة وابنتها العروس حتى فوجئت بالمأذون يدخل الوكالة مرة ثالثة ليعقد قران بدر السعيد على نور الصباح ابنة وديدة وترك خان !.. لحظة أن فكرت فى توجيه النصيح للولية المجنونة كان بدر السعيد يدعونى للمشاركة فى الفرح بل يجعل البنت تختارنى وكيلاً لها أضع يدى فى يده عقد القران ! وبما أنى وكيل البنت فقد طالبت بحقى الشرعى فى الإنفراد بالبنت لمعرفة رأيها !.. تصور يا أختانا : البنت نانت واقعة فى غرامه لشوشتها وأنها هى التى أرغمت أمها على طلب الطلاق من

بدر السعيد لكى تتزوجه هى بدلاً من ارتكاب الفعل الحرام معه !!.. إنفردت أيضاً بالولية فوجدت فى كلامها حكمة : إن بدر السعيد لن يدع أحداً غيره يتزوجها والبنيت تبور وتفرط فى عرضها فلماذا أحبيب أملها وأنا شبت من الدنيا ؟! دعها تتزوجه تعيش شبابها معه مادامت تحبه وهو يحبها أكثر منى ولأننى أحبه وأحب انتهت فإنى أتركها لمن يحبها أكثر من حبيبى أنا ها !!.. شف كلام الولية القرشانة يا أحنانا !!..

" هى حبة أى نعم وحبها وحشى كشخصيتها ! إنما ضرب الكراييج له أثر ! وكنتم الأنفاس فى صدر تعود على التنفس بحرية تامة له هو الآخر وقع مؤلم فى النفس ! وكسر الأنف بالنسبة لإنسان تعود أن يكون الأمر النهائى له كذلك أثر ! وما كان بدر السعيد ولا أحد فى الوكالة يعرف ما الذى يفعله هذا الأثر فى نفس وديدة .. تصدق بالله يا أحنانا ؟ ولا حتى وديدة نفسها كانت تعرف أنها تدبر للإنتقام دون أن تدري !! هذا فى شرعى أنا !! وفى ظنى أنها وجدت نفسها أمام الفرصة فتركت غيرها يقوم بالفعل !!.."

" الولد حمؤه الشهير بالبورى ولد عجالاتى وصاحب دكان خلف سينما الأهلى وهو فى العشرينات من عمره كسيب وجدع لكنه مضروب بداء القمار وشرب السيرتو وأنفاس الحشيش !! أتى به القمرية إلى الوكالة يرفل فى النعيم ! كان حلو التقاطيع مسمم الوجه محمر البشرة بدم خواجاتى ومسحة ذواتية وعلى جبينه الضيق خصلة شعر متكورة كشبان الأفلام المرسومة على ورق الإعلانات ! نحيف البدن قوى البنية ! ملوث اليدين والخدين ومقدمة الأنف بشحوم العجالات وترايبها ! تعود ان يدسل إلى حوض الطلمبة بمجرد مجيئه ليغسل نفسه إذ هو لا يحب أن يلعب القمار إلا نظيفاً إذ أن أصابعه الملطخة بعرق الشغل لن تريح أعصابه حين يدفع بها نقوده إلى الكاسب ستذكره دائماً بالعرق فى الشغل من أجل كسبها !!.. الحقيقة أنه ظهر كالوارث مبلغاً كبيراً وبالخصوص لأنه فى مظهره طيب ومؤدب وابن ناس لدرجة أننى لأمانته انتخبته فجعلته مندوباً لى فى قعدة القمار يقبض العمولة المقررة عن كل دور فى اللعب فكان يودى ذلك بكل أمانة وكنت أسمع عراكه معهم على مغالطتهم فى احتساب الأدوار المنسية بسبب عدم وجود الفكة !!.. حمؤه هذا كما

كانت تسميه وديدة البورى كما كنا جميعاً نسميه ، كنت أشعر كأنه ابنى الذى ضل طريقه فانحرف ! وياما حاولت نصحه فلم يعطنى الفرصة لكننى كنت أشعر ان وراءه أمراً ! وقد صدق ظنى لكننى لم أعرف ذلك إلا فى الآخر!.. إتضح لنا أنه كان محتالاً كبيراً يسرق وينصب ويوقع بالفتيات المراهقات فى أحاييله فيستولى على مصاغهن ومصاريفهن وشرفهن كما يغريهن بسرقة أو تدبير الأموال من أهاليهن كى يدفعها مهرأً لهن وهو فى الواقع يدفعها على طبلية القمار!! كذلك نصب على شركات فأخذ منها بضمنان ملكية الدكان دراجات كثيرة باعها ولم يورد ثمنها ثم أتضح أن الدكان ليس ملكه تماماً هو موزع بين ورثة كثيرين!! وفى الأيام الأخيرة كان قد تم حقه بمخلد وديدة وابنتها فأصبح غير قادر على السلو! وفى نفس الوقت غير قادر على حرم شخصية بدر السعيد والوصول إلى غرضه فى واحدة منهما!! حاول أن يتفوق عليه فى اللعب فخسر الجلد والسقط!! حاول أن يتيه عليه بجماله فظهر كالصبي العلق الطرى فكف عن هذه المحاولة نهائياً وبات يعتمد نسيان أنه جميل الشكل!! حاول أن يغلبه فى مسائل الرجولة والقوة فراح فى الكازوزة لأن بدر السعيد أرجل منه وأقوى بغير كلام!!..

" الولية القرشانة تعرف كل هذا ! كانت تحكيه لى يا أختانا فى ساعات الصفو التى تجلسها معى فى العصارى أثناء نوم بدر!! وأنا كنت أظن نفسى أفهمها وهى طائفة إتضح لى أن بنت حواء بنت الفرطوس لا يمكن أن يفهمها أحد حتى لو كان شواذفى!! ألم يعلمونكم فى المدرسة قرآنا يقول : إن كيدهم عظيم؟! فعلاً فعلاً صدقت والله يارب!! الولية شغلت عينيها على الولد البورى فى السر من وراء ظهر بدر السعيد فأشعلت دماغه ورطبت نفسه المحترقة باليأس وطببت على رجولته المهية! صارت تلتقطه فى السر فى لحظات خاطفة أثناء نوم بدر أو فى السوق وهى تشتري الخضار! فمرة تعطيه حضناً ومرة تعطيه بوسة! ومرات كثيرة تبخ السم فى أذنيه! قربت له الأمل! أحيته من جديد! صرحت له أنها يمكن أن تعطيه نفسها أو ابتتها نور الصباح أو هما معا إذا هو تمكن من التخليص على بدر السعيد!! رسمت له الخطة كاملة : أن يفتعل عركة فى أول السهرة بسبب اللعب لكى تكون القضية مجرد خناقة أدت إلى موت فى الدفاع عن النفس فتكون العقوبة

سنوات قليلة لا تزيد عن ثلاث يقضيها في السجن ليخرج فيتزوج من نور الصباح بدون مهر أو أى شئ وأنها ستسرق مطوأة بدر السعيد من حبيبه وتعطيها له فيمسكها بالمنديل ليقول فى التحقيق إن المطوأة هى مطوأة بدر الذى كان يريد أن يضربه بها فدافع عن نفسه !!..

" فى أول الليلة قلّ الولد أدبه على بدر بصورة طيرت صوابه فشتمه فرد عليه البورى بشتمة قاسية فلكمه بدر لكمة قوية رنحته دوحته !! كان بدر يظن أن البورى سيرتدع بهذه اللكمة ويفيق إلا أن البورى إعتدل وصوب دماغه على وجه بدر السعيد نطحة نطحة أفقدته الوعى أسالت الدم من أنفه بغزارة فذب يده فى حبيبه بحثاً عن المطوأة فإذا بالمطوأة تظهر فى يد البورى ملفوفة اليد بمنديل من مناديل بدر أيضاً !! بسرعة البرق دب البورى المطوأة فى جنب بدر الأيسر فدخلت عن آخرها فتركها واستدار يتخبط فى الباب وفى الدرج ثم انطلق يجرى مغادراً الوكالة إلى عط السكة الحديد قاصداً الإحتباء لدى أقارب له فى عزبة بعيدة!! تصور يا أحمانا أن بدر السعيد استطاع أن ينزع المطوأة من جنبه ثم يجرى بأقصى سرعة وبقوة حصان جامح حتى لحق بالبورى على القضبان قبل أن يعثرها فأمسك به!! إلا أنه داخ فارمى فوق القضبان فطارت المطوأة من يده فالتقطها البورى فشرح بها جسده بدر فى موطن القلب ولم ينس أن يغز نفسه بسن المطوأة فى أكثر من مكان حتى يثبت أنه تعرض للضرب فدافع عن نفسه بحاصة أن بعض الناس شاهدوا بدرأ يجرى وراءه مشواراً طويلاً وهو مسك بالمطوأة تقطر دماً فرسم على الأرض خريطة حمراء تتبعها البوليس والنيابة من مبنى الوكالة فى ضوء الكلوبات!! ذهب البورى إلى أقاربه ملوثاً بالدم فطردوه ! وفى طريق عودته أمسك به البوليس ليجد أن وديده قد رتبت كل شئ مع البوليس شرحت له كيف أن العداوة قائمة من زمان بين القاتل والقتيل بسبب اللعب وحب البنت وكيف أن القاتل سرق مطوأة بدر ومنديله حيث كان يبيت النية السيئة !! ولم تنس أن تذكر للبوليس كيف أن القاتل إلتصق القاتل على عرضه وشرفه وأعطاه الأمان والحب فحاول كثيراً أن يخون الأمانة لكنها لم تبلغ بدرأ بهذا حتى لا توقع بين الصديقين !!..

" الشيطانة كانت تريد التخلص من الإثنين تخلصاً نهائياً وقد حصل ! مات بدر السعيد فلم يجد أهلاً يتسلمون جثته فجئ به إلى المشرحة ثم الثلاجة فتستمر بضعة أيام فى الغربة !! فافكر يا زينهم !! تصور يا أحنانا من الذى تسلم جثته فى النهاية !! البنت المسكينة خطيبته التى تركت له الشبكة والدبلة مشفوعة بزغرودة !! جاءت هذه المرة مع بحار السواقى زوجها الميسور بمهنته وأرضه ولم تنس هذه البنية الفاضلة أن تمر على وديدة غريمها لتسألها إن كان المرحوم مديناً بشئ لأى أحد فهى على أتم استعداد لتسديد كل ديونه !! زينهم العتريس هذا - لمواخذة يا زينهم - كان واقفاً ساعتها ييكى ليس على المرحوم طبعاً إنما على أمل الحسنة وفعلاً نفحه النجار شلناً بحالة كما وزع القروش على الجميع صدقة على روح المرحوم !! يومها عرفنا ان هذا النجار هو الذى اشترى أرض بدر السعيد ومواشيه لأنه الجار الذى هو أولى بالشفعة وأنه رغم الشراء كان مستعداً لرد كل شئ لو أن بدرأ افاق ورجع لبلدته وخطيبته كما أنه تزوج من خطيبته ليداوى جراحها !! تصور يا أحنانا أنه كان ييكى بحرقه وهو يقول هذا الكلام !!".

" تخلصت الشيطانة من بدرها بالموت غيلة ! ومن البورى بالسجن ! حكمت عليه المحكمة بعشر سنوات !! وبقيت هى فى جحيم غمت الموت هرباً منه !! فلأبنتها نور الصباح لم تغفر لها هذه العملة السوداء ! البنت كانت تعشق بدر السعيد عشقاً ولا يحلاً عينها رجل آخر ! وكانت والله يا أحنانا على وشك أن تذهب إلى البوليس فتعترف على أمها ! صار عراكها فى أنصاف الليالى يبلغنى على هذه المصطبة كأنهما ناكرو وكبر كعدوتين محكوم عليهما بالسجن فى زنزانة واحدة !! آه من هذه البنت يا أحنانا ! عمرى ما شفت أصلب من دماغها ! من تصميمها ، قوة إرادتها ، طول لسانها قرص كلامها وجع ملافظها !! ياما فوجئت فى قعدتى هذه بوديدة تخرج من الحجرة مولولة كالمشبوبة بالنيران طهقانة تطلب من يطفئها ! تشق المدوم من شدة الغيظ تلطم خديها بيديها فى عنفوان سريع وهى تتطوح يصير وجهها كحمرات النار !! أناديها ! نجى ! ترمى على المصطبة مخفية وجهها بين يديها مندبجة فى بكاء عنيف ! أطيب خاطرها بكلمتين ! أذيب لها قطعة أفيسون فى كوب شاي حتى تهدأ ! كل ذلك والبنت مرتكنة بكروعها على سور البكية تمضغ

اللبان فى برود وتفرج على أمها باستمتاع !! من شدة قسوتها لم تكن تتركها فى حالها بعدما تعود !! ل !! إنها تتصيد أية فرصة لتبدأ تحاكمها من جديد !! حتى فوجئت ذات عصرية مشثومة بعاصفة من النار تخرج من حجرة وديدة وتجري هابطة الدرج مقبلة نحوى تنفرد ألسنتها المخضرة الأطراف وفى قلبها كيان يطشطن ييقب تبينت أنه جسد وديدة !! نفضت نفسى واقفاً ! سحبت البطانية طلعت أجرى نحوها لكى ألقها وأحمد النار المتطايرة منها تزغرد ! لكنها سرعان ما حولت وجهتها إلى حوض الطلمبة الملوء بالماء العطن فرمت بنفسها فى قلبه فارتفع صوت الطشطنشة وأعقبه أزيز حاد مثل الأزيز المتخلف عن فرقعه بالون الأطفال !! إمتلأ فناء الوكالة بالناس من كل مكان وامتأ الهواء برائحة اللحم المحترق ! صارت مثل فرع شجرة تفحم بعد حريق هائل وتأكلت نتوءاته !! جاءت النيابة عاينت الوضع أمرت برفع الجثة فلم يتقدم أحد سوى ! رفعت عاموداً من الفحم الفارق المتسلخ ! طوينا عليها الملاة !! هى الآن مدفونة فى مقابر الصدقة بيننا وبينها خمسة كيلو مزار !! ..

" نعم ! نعم يا زينهم أنت محق لكننى لم أنس شيئاً قط إنما أحكى لأخينا كل شئ وحده حته حته من أولها لآخرها ! جئتكم فى الكلام فأقول إنما بعد أن دفنا وديدة لم نستطع نسيانها أبداً فظلت شهوراً طويلة كالمقيمة بيننا نسمع صوتها ونراها !! وذات ظهيرة فوجئنا بسيارة فارهة بأجنحة زرقاء اللون تزحف أمام باب الوكالة حتى توقفت فى فتحة البوابة !! نزل منها أفندى نحيف يتمطى فى بذلة أنيقة يتصاعد منها العطر النفاذ ! أبيض البشرة كجمار النخيل ضيق العينين شعره أحمر غزير متكور كسباطة البلح ! قال فى رقة خطيرة كرقعة من يملك إعدامك فى أية لحظة يشاء ! بلسان الدغ : مساء الخير !! فنهضنا جميعاً واقفين : مساء النور أهلاً وسهلاً .. أهذه وكالة عطية ؟ .. قلنا جميعاً : نعم أى خدمة ؟ قال : شكراً أرجو أن أقابل وديدة هائم حان الشهيرة بالثرية !! .. صرنا ننظر لبعضنا البعض فى ذهول وحيرة وقد نهبت الدموع فى مآقينا من جديد !! إبحر وجهه : ما الحكاية يا جماعة ؟ لأول مرة يا أحنانا إنفجرت فى البكاء كالمرأة : البقية فى حياتك يا سعادة البية فقد ماتت منذ قليل !! فكأننى جذبت محيط المناحة فانفتحت الصدور كأنها

انتهزت فرصة نادرة للبكاء !! الولد الأفندى هو الآخر صار يهتز ويرتعش كأنما ترنحه ربيع مسلطة عليه وحده ! تقبضت ملاحه فبدا وجهه كقرص العجين داست فوقه قطة فلخبطته ! والدموع تتسرب من عينيه كعصارة البرتقال !! ..

"إنهشنا أكثر فأكثر يا أحنانا !! ثم إذا به يستدير باكياً فينتجه إلى سيارته كأن شيئاً لم يكن !! .. تعال هنا يا .. سعادة البية الأفندى ! من تكون ؟! إقعد هنا ! هات كرسيّاً يا ولد .. فاطر يا زينهم ؟ أنت يومها عملت نفسك رجلاً ملو هدومك فصحت في أولادك طلباً للشأى حالاً !! أشهد لقد جاء الشأى حالاً بالفعل ! سعادة البية هذا يا أحنانا .. عجب والله يادنيا عجب ! لو لم يبك لظللنا منه على خوف واحتراس ! أما وقد بكى معنا فالحاجز انهار صار هو مثلنا !! ثم إنه قعد معنا على المصطبة .. الشعب المصرى جدع يا جدع ! وذكى وابن حنت يعجبك !! شف مثلاً كيف أننا لم نعد خائفين منه لكننا أمسكنا ألسنتنا ! هكذا من نفسنا دون أن ينبهنا أحد !! فالذى خطر ببالنا كلنا ساعته أن هذا الأفندى لابد كان من ضحاياها وبرح به الشوق بعد تباعد فجاء يتقصى ريق الحبيب فلم يجد سوى الصدمة المريرة ولهذا بكى !! لكننا لما رأيناه مستمراً فى البكاء يكاد يقع مغشياً عليه من التعب الحقيقى الظاهر فى عينيه المتورمتين الحمزتين تخبرنا فيمن تراه يكون ؟! إحدروا يا أولاد الزوانى أن يغلط لسان احدكم بكلمة هبلاء تخر علينا أى ورطة كانت !! .. هكذا قالت عيوننا لبعضها !! .."

"بقينا صامتين لفترة طويلة ! وكلما سربت عيني إلى وجه الولد الأفندى انكسر قلبي من الألم ، فعلى وجهه تعاسة تعاسة تعاسة من هنا لحد يوم القيامة ، منظره كأنه مات ثم سبق إلى ساحة الحساب فعرف أن كتابه بشماله فجلس فى انتظار مقدم الزبانية الذين سيلقون به فى نار جهنم وبئس المصير !! إن العشق وحده لا يمكن أن يفعل بالمرء هكذا يا أخ العرب !! أخيراً ضاق صدرى فمِلت عليه : وحد الله يا سعادة البية فكلنا سنموت ولكن لماذا لا تقل لنا من أنت حتى نتعرف عليك ؟! .. نظر فى وجهى ووجوه الحاضرين بعينين منطقتين كضفدعتين فى شقين ناشفين ! ثم رمى فى وجوهنا بالقنبلة التى من شدة دويها كأننا لم نسمعها مع أن أجسامنا اقشعرت وانشالت عن الأرض ثم انحطت فانبطت فارتضت فمشت منها

العقول !!.. بعد برهة خفت صوت دوى القنبلة فانتبهنا فسالناه من جديد وقد ملنا جميعاً نحوه نتفحصه بدقة وفضول شديدين : قلت لنا من أنت إذن ؟!.. فبرعشة من شفتيه قال مؤكداً : أنا ابنها ! نعم ابنها الوحيد فى حياتها ! منذ أكثر من عشر سنوات وأنا أبحث عنها بكل الطرق لم أترك باباً إلا طرقتة ولا نافذة إلا نظرت فيها ولاقشة فى قلب الموج إلا تعلقت بها !! أبى مليونير لبناني يملك العزب والضيايع والمحلات التجارية الكبرى فى بيروت وبيروت وبيروت سياسياً ويتزوج من أكثر من سيدة تعيش كل منهن فى قصر خاص بها ولديه من كل منهن أولاد أما أنا فأعيش وحدى فى قصر أمه جدتى وكل صيف أجيء إلى مصر فأظلم طوال الصيف أبحث عن أمى إذ أن أبى لم يقل لى أى معلومات عنها ، كما وأنى لم أرها طول عمرى إنما كانت جدتى لأبى هى التى تقول لى المعلومات بالقطارة كل بضع سنوات كلمة تقلب كيانى حتى موعد الكلمة المقبلة ، والغريب أن اهتمامى بحياة أمى المصرية التى ماتزال على قيد الحياة جعلنى أهتم بماضى أبى لعلنى أعتدى منه إلى شئ ينير طريقى إلى أمى ! عرفت أن أبى حينما كان تاجراً فقيراً من العلم كان مهاجراً من وطنه الأصلي فلسطين الذى احتله اليهود فحين طاب العيش فى مصر القاهرة تزوج من سيدة تدعى وديدة الرجال تعيش فى مدينة اسمها دمنهور وقد عاش أبى معها فى هذه البلدة فى حى يدعى أبو الريش حيث كان أيامها يتاجر فى الخيش وفى مخلفات محالج الأقطان كالبذرة والوبرة ليقوم هو ببيعها فى أسواق بعيدة وكان يحب المال وأمى حباً شديداً لكنهما كانا دائماً على خلاف مستمر بسبب سفر أبى الدائم وحبه للمال الذى ينافسها فى قلبه حيث كان يجيى من ميناء لينهب إلى مطار ومن محطة السكة الحديد إلى مواقف سيارات النقل حتى زهقت أمى فضايقتة هددته بالطلاق إلى أن ولدتنى فصار أبى يدايدها يسترضيها بأى شكل حتى تمكن من ترتيب كل شئ للسفر بى وبأمواله إلى غير رجعة !! وحينما جاءت حرب ثمانية وأربعين كنت فى بيروت طفلاً أروح الحضانة ويلهب أبى إلى شغله فبييت بعض الليالى بعيداً عنا ، وفى تلك الأثناء انخفرت فى ذاكرتى حكاية أمى إذ أننى عدت من المدرسة يوماً فرأيت جدتى تبكى بشدة وعرفت من ولولتها أن أبى تزوج امرأة أسكنها قصرأ بعيداً وسمعت منها تعريضاً بأمى التترية المصرية ! ووقعت فى يدى

بعض خطابات كانت ترسلها أمى لأبى قبل زواجهما فعرفت أنهما كانا يعيشان قصة حب حقيقية ملهشة ! فلما جئت إلى دمنهور ذات عام قال من سألتهم إنهم لم يسمعوها عن وديدة الرجال هذه إنما يعرفون وديدة ترك خان شغلها شرفان البخت وقالوا إننى أحمل شبيهاً كثيراً منها لكنهم لا يعرفون أين أحتفت فكلفت ناساً من هنا بأن يبحثوا ويكتبوا لى على بيروت وهناك حاصرت جدتى بالأسئلة حتى أعترفت لى أن أمى كانت بالفعل تشوف البخت ولهذا ما صدقت أن وصلنى خطاب يبلغنى بوجودها فى هذه الوكالة مع زوجها ترك خان وها أنتم تقولون إنها مات فليتنى ما بدأت الرحلة من أساسها إذن لا سترحت أما الآن فمن أين ياترى تجى الراحة دبرونى يا أخوان !! ..

" هذا ما قاله الفتى يا أحناء لا يمكن أن تغيب كلمة منه عن بالى ! حالة كانت صعبة مؤثرة ولهذا حفظت كلامه إذ قلته أمام البوليس والنيابة عشرات المرات !! الولد الأفندى بعد أن قال ما قال انفجر فى البكاء الحراق وصارت الدماء تخرق تحت جلد وجهه شيئاً شبيهاً ! وكلما أراد النهوض للإلتصاف بحذلقه قدماء فيعود إلى جلسته منكسر الفؤاد وأخيراً قال بصوت متحشرج وإهن : تركت المرحومة شيئاً ؟ أمى مدينة لأحد بشئ ؟ لها أبناء وزوج ؟ أريد أى أحد أو أى شئ من ريجتها !!.. قلت : يا ولدى إن لها ابنة تدعى نور الصباح كانت متزوجة فمات زوجها وهى عروس فلم تخلع الطرحة السوداء وقد أخذتها صاحبة لها تسكن خلفنا لكى تهدئ خاطرها وهى كل ما تبقى من المرحومة فإن شئت ناديناها لك !!.. قال أنه يجب أن يراها ويقيم الود معها !! ما كاد يكمل عبارته حتى ذهب أكثر من مرسل إلى وداد الغازية فجاءوا بالإثنين وداد ونور !! ياله من منظر يا أحناء !! الدنيا يا أحناء فيها سر لا نفهمه ، لا تقل لى مدرسة ولا علماً فالدينا شوغان وتجريب قبل كل شئ !! ..

" وداد ونور الصباح وقفنا أمامنا حمامتين صورة واحدة منقسمة إلى نصفين غاطسين فى الثوب الأسود بالطرحة السوداء لا تميز بين هذه وتلك فمن الذى أرشد الولد الأفندى إلى أخته بنت أمه التى لم يرها فى عمره ؟ لا أحد وحق الله يا أحناء ! إنما الولد هو الذى يخلق فيهما بعينين قويتين ثم ارثى فى الحال على صدر

نور الصباح منفجراً في البكاء ! صارت هي تربت على ظهره !! إنخلع قلبي !
فوحق ذى الليلة ومساها أننى صرت أنظر للولد مرة وللبنت مرة فأرى أن سحبة
الفكين في الوجهين واحدة كما النظرة في العينين واحدة ! قال الولد الأفندى
لأخته نور الصباح : يا أخت أسمى خالد ابراهيم النعمان ! قالت نور الصباح وهي
تهز يده : أنت خالد ابنها ؟ أهلاً بك يا حبيبى إنها كلمتنى عنك مرة واحدة
وبعدها قرطت على بعدم فتح سيرتك أبداً لكنها ياماً ضبطتها وهي تحلم وتبكي
قائلة هاتوا لى ابنى خالد حبيبى وفى يوم صحت من حلم مثله فلطمت وشقت
الهدوم ! الله يرحمها كان فى حياتها أشياء كثيرة لا أعرفها ولا أفهمها ! أنت ابنها
إذن ؟ أهلاً بك يا خوى !! قال الولد الأفندى : جئت هذه المرة وفى نيتى أن أقيم
مع أمى إلى الأبد لأننى زهقت من الحياة فى بيروت بغير أم خاصة أن أبى مشغول
بأبنائه الآخرين الذين يحب أمهاتهم وهم جميعاً يختفروننى فأين أذهب الآن ولن
أجأ ؟ إسمعى يا أختى أنا جئت معى بكل ما يخصنى من مصارى وملابس وهي الآن
فى اللوكاندة التى أنزل فيها فى مصر لسوف أذهب الآن لأحضرها ونبحث عن
مسكن هنا نعيش فيه معاً حتى ينظر الله فى أمرنا !! .. ومضينا خلفه نودعه إلى
السيارة فإذا هي سيارة من سيارات الأجرة المصراوية فيها سائق عجوز مستغرق فى
النوم ! مد الولد الأفندى يده ليفتح الباب لكنه ترنح بقوة وانكسر جذعه ثم هوى
فوق الأرض مغشياً عليه !! إنقلبنا فوقه صرنا نقلب فيه يمناً وشمالاً وهو كالخرقة !!
مات الولد يا أختانا !! وقعنا فى سين وحيم ! داهمنا البوليس والنيابة مرة ومرة !!
جاءتنا تحريات البوليس تقول أن الولد الأفندى عمل عملة خطيرة : قتل اثنين من
إخوته غير الأشقاء فى لحظة غضب أعمى إذ أنه مدمن مخدرات ومختل العقل من
صغره يخرج من عيادة ليدخل فى مصحة ! وحين قتل أخويه كان يمثل تمثيلية مخلولة
بمسلس مسروق من طبيبه الخاص ! وقد عرفوا فى بيروت أنه تسلل إلى مصر ليختبئ
عند أمه بعدما سرق مخدرات جدته ومصوغاتها !! وعند تشريح جثته وجدوا فى
بطنه كميات كبيرة من الحبوب المخدرة والأفيون والحشيش المعجون بالشكلاطة
كبست كلها على قلبه أوقفته !! أبوه رفض استلام جثته فكانت البلوى كبيرة !! ..

" ياله من منظر يا أختانا !! نور الصباح التى أمسكت بقشة أمل توصلها إلى بر الأمان وجدت نفسها لم ترث من الحلم الفجائى سوى حشة هامدة !! طلعت فى غاية الجدة ! رافقت حشة أختيها كالرجل المقدم حتى دفنتها بجوار أمها !.. كلنا طبعاً تشاءمنا من فتح المقبرة وهى جديدة على حشة لم تكذب تستقر لكن ما باليد حيلة !! رقدت نور الصباح فى فراشها أياماً طويلة تحت رعاية نسوان الوكالة فى حالة ما يعلم بها غير الله ! حتى فوجئنا بها ذات يوم تخرج مشعته الشعر تهذى بكلام غير مفهوم ! تجلس فى الشمس فى الحوش شاردة تسيل الريالة على شديها !! إنهطلت البنت وما كان كان ! صارت تخرج عارية فى الليل تصوت بغير سبب وتمزق جلد وجهها وتهيل التراب على رأسها !! نكتفها لنلبسها ثوباً بالقوة ! نمزقه ! تفعل حركات جنونية خطيرة ! ترقص ! تلعب حواجبها للعيال تضحك على الدوام ترمى الناس بالحجارة !! جاءت عربة الشرطة فأخذتها بقميص الكتاف إلى مستشفى الخانكة !!.. البنت وداد فيها البركة والله يا أختانا ! صارت تزورها كل شهر ثم كل شهرين ثم كل ثلاثة ثم مرتين فى العام وفى كل مرة تعود يائسة من شفاء حبيبة قلبها نور الصباح !!.."

" والآن لابد أنك تسأل نفسك لماذا حكى لى الرجل هذه الحكاية الطويلة العريضة التى لم تكن تخطر على البال ؟! ولكن لا تتعجل يا أختانا فبعد قليل تعرف السبب !!.."

السراب

.. كان الليل قد بدأ يوغل فى الظلام والقدم مع أن الماضى منه قليل ، وموجز
أخبار العاشرة يصدح فى الراديو البعيد كأنه قريب بصوت المذيعه همت مصطفى ؛
حينما انزاح باب البوابة بعد طرقة رمزية خفيفة ، ودخل رجل نحيل يرتدى القميص
الأففرنجى فوق السروال . إتجه نحونا فاتحاً ذراعيه مهلاً فى بهاشة وبهجة صائحاً :
- " والله زمان ياعم شوادفى ! مصير الحى يتلاقى ! " ..

هجم على شوادفى ، الذى نهض واقفاً فى استقباله بجمرة ؛ اعتنقه وربت على
ظهره بكفه الناشفة وهو يضحك ويهمل :

- " إزيك ياواد! سلامات ألف حمد لله على السلامة ! وصلنى مرسالك اليوم
وبعثت لك السلام معه وقلت إنى فى انتظارك فى شوق إليك " ..

ثم أطلق سراحه ، فاقترب منى مسلماً على ، واستدار فسلم على شوادفى مرة
أخرى بلهوجة ؛ دون أن يلحظ وجود الشيخ زينهم العزيس المتكور جنب المصطبة
على الأرض مسنداً ظهره لحائط البوابة . جلس بينى وبين شوادفى على المصطبة.
كان وجهه نحيلاً مبيضاً بارز عظام الحدين عليه مسحة من الغبار والقشف ؛ وفى
عينيه انكسار وظل من الدلة المضمرة على تمرد خفى، يرمش باستمرار كأنه يتقى
الضوء أو يتلقفه على مهل قبساً قبساً . خيل لى أننى رأيته من قبل، فشكله مألوف،
له فى رأسى رصيد من الصور فى أطر مجهولة لست أتبينها الآن ، لكنه مرح جذاب
بقدر ما يشع منه ومن عينيه ولسانه من روح عدوانية متحفزة مكظومة.. سحب
شوادفى منقذ النار واندمج فى تكسير القوالب المتفحمة واشعلها بواسطة ورقة جرنان
يقرطسها ويشعل طرفها النفيرى ثم ينفخ فى فتحة رأس القرطاس فإذا النار قد
أمسكت بالقوالب فى لمح البصر. قال شوادفى مشيراً إلى زينهم البادى ككومة من
الخرق الحائلة ملقاه فى الزاوية الكابية :

- " لم تسلم على حبيبك القديم ! السجن أنساك الأحبة؟! " ..
صرخ واقفاً فاتحاً ذراعيه :

- " الشيخ زينهم العتريس ! ياخير أبيض ! لا تؤاخذنى يا أبو عتريس فعينى لم تعود الضوء بعد ! إزيك وازى الأولاد كلهم ؟! " ..

وارتمى على زينهم منهالاً عليه تقبيلاً واعتناقاً ، فيما يرددان معاً فى نفس واحد كالأطفال الهازلين : إزيك ! طيبون ! .. وهكذا إلى أن صرخ فيهم شوادفى :

- " هى سيرة ولا آيه ! ما كفاية كده ! "

ثم نظر لى نظرة ذات معنى فيما يشير إليه :

- " هذا هو حمزه البورى ! صاحبنا من قديم ! "

- " أهلاً وسهلاً ! " ..

وارتعش قلبي على أوتار صوتى من شدة الفضول . جلس البورى وهو يريست على ركبتيه ناظراً فى اتجاه البواكى نحو الحجرة العلوية صائحاً فى ابتهاج مرتعش بالفرح والغبطة والسرور :

- " سا الخير ياللى فى بالى ! نحن هنا ! " ..

واستدار إلى شوادفى :

- " كيف الحال يا عم شوادفى ! لك وحشة والله العظيم وحق سيدى أبو المكارم ! " ..

فى صوت شوادفى حزن شفيف دافى اندهشت من أن يكون فى شخص كشوادفى يحتفظ خلف ظهره بمقبرة لمنهضيه :

- " بخير يا بورى ! كل شى فى الدنيا نصيب ومكتوب ولا أحد يأخذ أكثر أو أقل مما قسمه الله له ! " ..

قال البورى فى اغتباط :

- " بعثت لك المرسال وأنا فى مديرية الأمن من أجل إجراءات الخروج ! قلت فى بالى إنكم ستفرحون بالخبر وربما تجهزون لى عشوة بيتية ! " ..

أشار إلى حجرة وديدة وقد انداحت الغبطة من صوته تحت نبرة كئيبة تنضج بالشر العميق :

- " لا ضوء يظهر ! سميع الجماعة بالخبر ياترى ؟! ما أظن أنهم علموا بخبر للوعى اليوم من السجن ! تصور أننى لم أذهب إلى أى مكان ؟! من مديرية الأمن

إلى هنا فى الحال ! شف يا أخى ترتيب الأيام العجيب ! من هنا إلى السجن ومن السجن إلى هنا ! تصدق بالله يا عم شوادفى ؟ أنا فى السجن لم أر شيئاً لم أتذكر شيئاً إلا هذه العتبة وهذه الحجرة وعبون نور الصباح ! لم يكن فى بالى أى شئ آخر! زملائى فى الزنزانة كانوا من هنا ومنهم من يبيت فى فرشتى طوال الليل فى حضنى!! وحق سيدى أبو المكارم كنت أثناء النوم أمد ذراعى لأحضن النائم بجوارى وكان يخيّل لى أننى حضنت جسده بالفعل !! يا سلام !! الحرية متعة حقاً!! الواحد يأكل العيش الخاف يمشى عارياً ويحمد الله على الصحة والستر!! وحق سيدى أبو المكارم أن السنوات العشر على غداً واحدة كانت مليون سنة !! سأسعى لمقابلة آمال فهمى فى برنامج على الناصبة فعندى لها حبة كلام حلوتين لكى أطلب أغنية أم كلثوم وأهديها إلى السجن : أنا لن أعود إليك !! أبداً !! كفانا الله شره وسيرته !! من غدا سأزوج مهجة القلب وأبدأ حياة جديدة فى يدى صنتعى والحمد لله سأشتغل صنايعياً فى أى محل عجالاتى سأفرش على الطريق الزراعى لألحم عجالات السيارات وسوف يوفقنى الله بالإستقرار فأخذ وضعى من جديد!! مادمت فى حوار مهجة القلب نور الصباح ونور عيني فإن الله سيهدنى يجعلنى ابن حلال !! إدع لى يا عم زينهم حلفتك بحق سيدك العتريس أن تقول له إننى ولد جدع أعجبه !! له عندى نذر ولسيدى أبو المكارم مثله لأنى استنجدت به فى السجن فوضع أولاد الحلال فى سكتى!! الإخوان المسلمون جاءوا إلى السجن فنغنغونا بزيارات أهاليهم لهم كل يوم !! كل وارد يوزع علينا بالعدل ونحن أبناء الجنايات نشغل بدلا منهم بمواسلة العسكر الذين يأكلون معنا لقمة بلقمة وسيجارة بسجارة وشفطة شاي بشفطة شاي !! حتى الصلاة أرغموهم على مشاركتنا فيها وإلا انقطعت الجراية عن الجميع !! يا سلام على الأيام !! ما أكثر الأئمة وأصحاب اللحى والكلام الحلو مثل العسل!! ينزل فى القلب فلا يرحه!! أنا وغيرى من أبناء الجنايات لم نكن نعرف شيئاً عن أمور ديننا وديتانا ولكن هؤلاء المشايخ الأفندية جعلونا آخر حلوة !! أبناء الجنايات ربوا لحاهم وتعلموا الكلام وبعضهم صار يعقد لنفسه مجلساً من قضايا النصب والسرقة والغش والتزوير يقولون لهم قال الله وقال

الرسول !! ناس خرجوا معي وفي نيتهم الإعتكاف في المسجد !
الحجاز هذا العام كما نوت !! وأما أنا فلن أنقطع عن الصلاة !!"
وحينما وضعت كوبة الشاي أمامه تمطى الشيخ زينهم في قعدته ثم
نحو البورى بعدسايه أفيون . فصفق هذا بيديه في ابتهاج كبير صائحا
- " أحبك ! هل هلالك شهر مبارك ؟! "

وكشط الفينة عن ابهام الشيخ بابهامه ثم اسقطها في فمه متدا
الشيخ زينهم وزع علينا كل واحد عدساية . قال شوادفي وهو يتلمظ
بالشيخ زينهم لإنتقاده من هذه الورطة التي وضع أنه حائر في علاجها
- " عندك كلمتين حلوتين تقولهم يا أبو عتريس ؟! غلب حمارى
عن العمل ! إهرش بخك معي ! نريد أن نسمع شيئا من كلامك الحلو
با أحنانا قد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فليتك تنقلنا بشئ ينفعنا
الذى نحن فيه !! "

فنظر الشيخ زينهم بطرف عينه المصابة ، فصارت البقعة البيضاء المز
الأحمر القاني . صار يهرش في رقبته خلف رأسه . فضحك شوادفي مر
كالخطاطيف :

- " أقول لك إهرش راسك تهersh أنت في عرق الهيافة ؟! ما الم
تقوله للبورى الآن ؟! أخذت لى بالك ؟! خلده في حضنك وتحدث ! ه
عبر له عن اشتياقك مثلاً ! فكر في فكرة تريجه وتريجنا !! نحن الآن ك
تريد أن يتبعها الله بالسلامة وبدون رجوع فماذا عندك ؟! "

نكس الشيخ زينهم نظراته في الأرض لثوان طويلة صار يشفط حلا
النهمة من سيجارة " وينجز " تخينة بين أصبعيه . ثم رفع رأسه ناخا
تقلصت شفتاه المزرققان بلون الدخان فيما يشبه الإبتسامة ، وبدأ أنه يتأ
بل ظهر في بريق عينه السليمة كأنه قد عثر على الكلام الناجع في
المشكلة العويصة ، لتبريد البورى وتأهيله لتلقى الحقيقة الفاجعة ..

حكاية الطير العجيب

.. " صلوا على النبي !! كان ياما كان فى سالف العصر والأوان ولد شاطر
مجدع قوى إسمه الشاطر كريم !! ذا غير الشاطر حسن الذى تعرفونه فى الحوايت
أما حكايتنا فإنها حصلت فى الحياة : الشاطر كريم كان ولدأ فتوة ينزل فى عركة
يقشها ! شارع يقفله ! فرح يطفئ كلوباته ! ما كان أحد يستطيع الوقوف أمامه !!
لخطف قلبه إلى فتاة جميلة بنت رجل فقير على قد حاله فلذهب ليخطبها وفى باله
أن أب الفتاه سيفرش له الطريق بالرمل لأنه تنازل وجاء يخطب ابنته !!.. الأب
الفقير ليس فى يديه أن يفعل لكن رحب بالشاطر كريم كل الترحيب وقدم له كل
ما يقدر عليه من الكرم وقال له يا سيد الشطار إننى أكون على شرف كبير
لزواجك من ابنتى ولكنك جئت بعد فوات الأوان والبنت مخطوبة لابن عمها الذى
تحبه ويحبها منذ الصغر !!.. نفخ الشاطر صدره من الغيظ وقال له يا شيخ العرب
منذ متى كان للبنت رأى فى زواجها ومنذ متى كانت تفهم فى اختيار الزوج
المناسب وكيف تقول أنت بلسانك أنها تحب أليس الحب عيباً وعاراً يا أخ
العرب !!؟ قال الرجل وهو فى شدة الخوف : يا سيد الشطار هذا ما كان وإنه
لحب شريف عفيف وعلى كل حال فالشرع يبيح للبنت أن تقول رأيها فيمن يتقدم
للزواج منها وها أنت ذا تقدمت فتعال نساها أمامك أن كانت تقبلك أم لا؟!!..
فازداد غضب الشاطر كريم وقال له : إننى بصريح العبارة لا أحب أن أخطب
واحدة وترفضنى هذا شئ لم أعوده فهل ترضاه لى ؟!!.. قال له الرجل : والله يا
ولدى لا أحتمل وفى نفس الوقت لا أحتمل أن أرغم ابنتى على الزواج من أحد!
ليس فيك أى شئ يعاب فإن رضيت بك البنت فأهلاً وسهلاً..!!.. جئى بالبنت
فقلت إنها تحب خطيبها ولم تزد على ذلك كلمة واحد فخرج الشاطر كريم غاضباً
ياكل فى نفسه من شدة الغيظ وصمم أن يجعل البنت ترقع عند قدميه وترجوه أن
يتزوجها !!.. هكذا دبر مكيدة لخطيب البنت فأغرقه فظهرت حشته بعد أيام وبقي
الفاعل مجهولاً لكن الجميع عرفوا أن الفاعل هو كريم!!.. واراد صاحبنا ان يستميل
قلب البنت فصار يرسل لها ولايها وإخوتها الهدايا مما ينهبه فى قطع الطريق ولكن

البنيت ظلت حزينة على حبيبها فانصدت نفسها عن الحياة وعن كل شئ فصارت ترد له هداياه فصمم على أنكسر أنفها بعد أن حرق قلبها !!.. وهكذا دبر مكيدة أخرى لأبيها ! لم يقتله لكنه أوصى بجرحه والقاء الرعب في قلبه !!.. وبينما كان الأب المسكين نائماً في فراش المرض من شدة الخضة ذهب كريم ليزوره ويعشمه بأنه في حمايته منذ اليوم وسينتقم له من الفاعل !! ولم ينس أن يلمح إلى طلبه وكانت البنيت واقفة خلف باب القاعة تنصت فلما سمعت أباه يقول إنها غير راغبة في الزواج دخلت عليهما وقال إنها راغبة الآن ومن كريمة بالذات !! عرفت نية كريم وضميره الأسود فرحمت أباه !!.. إنبسط كريم فأقام الفراح والليالي الملاح سبع ليالي طوال وانتقلت العروس إلى داره البعيدة التي تقيم فيها أمه العجوز مع طفلين من أبناء ابنتها المتوفاه !!.. في ليلة الدخلة وجد كريم عروسه مريضة! وكل ليلة يتجدد المرض ويقوى ! وكلما حاول الاستمتاع بها وجد بين يديه رمة لا حركة فيها ولا فس فيرمى بها ويخرج في عز الليل يضرب الهواء بنبوته يقه في خلق الله بلا ذنب جنوه ينهب المخازن والأسواق والقوافل المسافرين ويقتل من يعترضه !!.. أخيراً يا مولانا تعبت نفسه من كثرة الظلام المعشش فيها!! فبينما كان ماشياً قابلته عرافة تشوف البنيت فأنقعى أمامها وطلبها بأن تشوف له بنته!! فضربت الرمل وفنطت الورق ووشوت الودع ثم قالت له إن في حياتك مسجون سوف يهدم عليك جدران سجنه يهرب ويهروبه تفوح روائح كريهة تهيج الدنيا عليك تكسر وسطك تقصم ظهرك فمن يكون هذا المسجون !!؟.. أسودت الدنيا في وجهه واغتاز من العرافة فركلها بقدمه وانصرف لاعناً أباه وأب اليوم المشثوم الذي وضعها في طريقه !! ورأى نفسه لا يحب العودة إلى داره فظل ماشياً دون وعى ودون هدف بلد تشيله وبلد تحطه إلى أن اعجبه شكل بلدة تقع على تخوم غابة لا أول لها ولا آخر على شاطئ نهر ضيق الشيطان !!.. أخذت لي بالك يا مولانا !! رأى على شاطئ النهر محلة يجلس فيها ناس من كل نوع: صيادون وبخارون وفلاحون وتجار وسطار ولصوص ومرترقة وعمال مراكية وحمارون !! جلس بينهم وطلب مشروباً مثلهم وسرح لوحده في ملكوت الله مسحوراً بالمنظر الجميل ! إلا أنه لاحظ أن الجميع من حوله يتحدثون في موضوع واحد !!.. أخذت لي بالك

يامولانا ؟ فى موضوع ماذا ؟ واحد ! فالجميع يتكلم عن طير غريب الشكل والمنظر يسكن الغابة المجاورة ولا أحد يعرف له اسماً كما أن أحداً لم يتمكن من صيده أبداً!!..

" كريم انشغل بالأمر يامولانا ! صار ينظر لهم باستهانة واستخفاف! فأى طير هذا الذى يعجز الشطار عن اصطياده ؟! نسر ؟ صقر ؟ حداة ؟ لو كان أسداً بجناحين فلا بد أن يكون هناك من الشطار من يقدر على اصطياده فلكل صائد فنه!!.. لكنهم طيروا غيه يا مولانا حينما راحوا يتذاكرون تاريخ الشطار الذين حاولوا اصطياد هذا الطير العجيب الغريب دون أن يفلحوا!! شف العجب يا مولانا ! بل أن ملوكاً وأمراء وفرسان حرب جمعوا الجيوش وعجلات الحرب ومدافعها وجاءوا لمنازلة هذا الطير فبقوا شهوراً واعواماً حتى نفذت ذخائرهم ونفذ صبرهم وكسحهم طول الحر والصقيع والسفر فعادوا فى النهاية خائبين!!..

" فتك فى الكلام يامولانا ! إن كريم كان كلفاً حاول الاجتماع بعروسه فتعطيه نفسها كالخرقة البالية فلا تنشده أعصابه دخله الشك فى رجولته ! فلما سمع هذا الكلام عن هذا الطير الغريب اشتغل خياله فصار يدبر ويصور له صورة لنفسه وقد رجع إلى بلده فى زفة كبيرة محملاً بالهدايا والأموال جزاءً وفاقاً على بطولته فى اصطياد الطير الذى عجزت عن صيده الجيوش والمدافع ! ورأى عروسه تغمرها الفرحة به وبطولته فتفتح له حضنها يعود إليها وإليه روقان البال فيمسك برجولته التائهة منه!!..

" هُب للنبي وجد نفسه يقوم فيتجه إلى الجالسين فيعرفهم بنفسه ويمركزه بين أهل بلده ! فرحبوا به وأشركوه فى حديث الطير الغريب فرغب أن يراه ليحرب حظه معه فقالوا له انه فى الغابة دائماً فاذهب إليه وعد به ان استطعت ولك منا ماشئت ، فمن يقدر على اصطياد هذا الطير بالذات من حقه أن يبقى حاكماً على هذا البلد إلى ماشاء الله!!.. صاحبنا لم يكذب خيراً!! جمع نفسه واتجه إلى الغابة وفى جعبته نبال من كل النواع وعلى جنبه الحراب والدروع والمقنوفات!!..

" دخل الغابة متوجساً مرتعشاً يسدد بصره على كل فروع الشجر ليدرس زوايا التنشيز وكيفية رمى الشبك على الطير ، مجرد أن يراه إذ من بين خططه أن يباغته

قبل أن ينتبه إليه فيناوره !!.. أخذت لى بالك يا مولانا ؟.. صاحبنا لم يتوغل فى الغابة سوى خطوات قليلة إلا وقد فوجئ بشئ خفيف صغير يقف على كتفه اليسرى! شئ أقرب إلى العصفور أو اليمامة أو الكروان ! ما كاد يهشه حتى خرج منه صوت ساحر النبرة عذب الإيقاع واضح الكلمات ؛ قال لكريم فى سخرية وبراعة :

- لماذا كل هذا التعب يا كريم ؟! وما لزوم هذه الحراب وهذه النبال وهذه المقذوفات ؟! إن الأمر أبسط مما تصورت يا كريم !.
- من أنت أيها العصفور الجميل ؟!

- أنا هو ! الطائر الغريب الذى حثت تصطاده ومن قبلك جاءت جيوش ودبابات واهوال لكنهم قفلوا خائبين لأن اصطيادى سهل ومستحيل معاً فما أسهل أن تقبض على بيدك وما أسهل أن أفر من حميم الطلقات فلا تبلغنى أبداً وأنت يا كريم تستطيع أن تمسكنى يداً بيد بل أنت غير محتاج لمسكى فيها أنذا فوق كتفك وأن شئت دخلت جيبك لأعود معك إلى حيث تشاء أصير ملك يمينك..

" قال كريم وهو من النحول بين مصدق ومكذب:
- فكيف عجزوا عن اصطيادك مادمت سهلاً ميسوراً هكذا ؟!
" قال الطير رافعاً جناحيه فى أسف :

لأنهم سقطوا فى الإمتحان ! ودائماً يسقطون فيه !!..
" أخذت لى بالك يا مولانا ؟ سقطوا فى ماذا ؟ فى الإمتحان ! فما هو هذا الإمتحان الصعب يا أيها العصفور الجميل ؟ هكذا سأله كريم ! فقال الطائر:
- أنا لى شرط واحد فقط لكى أمشى معك بالرضا والتسليم ..
- ماهو فلانى مرحب به ؟

- تمشى معاً فى سكة طويلة فالواجب أن نسلى أنفسنا حتى لا نعب أو نمل !
سأحكى لك فى الطريق ثلاث حكايات صغيرة بثلاث فرص كبيرة أمنحها لك إن سقطت فى أحدها ربما نجحت فى الأخرى فتطيب علاقتنا معاً إلى النهاية! شرطى الوحيد هو أننى كلما حكيت لك حكاية أنك لا تنهده ولا تقول : آه !! إن قلت

الآه بعد نهاية الحكاية سأطير فى الحال دون أن ترانى ! لك فرصة أن تقول الآه مرة ومرتين ، أما الثالثة فهى ثابتة إن قلت فيها الآه لن ترانى مطلقاً..
" ضحك كريم وقال :

- إطمئن فأنا من هذه الناحية جامد القلب عمرى ما نطقت الآه حتى لو قتلونى من الضرب ، وياما ضرب الزمان فى ولسعنى بالنار فلم انطقها فهل أنطقها متأثراً بحكاية تحكيها أنت أو غيرك ؟ هذا والله لا يكون أبداً ..

- إذن فقد اتفقنا ، إليك أول حكاية : يحكى أنه كان يوجد رجل من مساتير الناس يعيش فى مزرعته البعيدة مع كلب أمين يحرسه ويجب كل منهما الآخر حياً كبيراً وحدث أن هذا الرجل خرج لبعض شأنه فى الحقول كما خرجت زوجته وكان لديهما طفل وليد تركاه نائماً فى سرير الصغير فى حراسة الكلب الأمين فإذا يتعبان ضخم يزحف متجهاً نحو سرير الطفل مباشرة فكشر الكلب عن أنيابه وانقض على الثعبان راح ينهش فيه يمزق لحمه حتى التهمه كله ووقف معسكراً بالباب يهز ذيله من الفرح فى انتظار سيده ! فلما حضر سيده ورأى بوزة ملوتاً بالدم ظن أن الكلب أنسعر وأكل طفله ففى الحال نزع مسدسه فأطلق الرصاص على الكلب فأرداه قتيلاً!!..

" هنا صرخ كريم غضباً عنه فى أسف ولوعة :

- آ.. آ.. ه يا خسارة الكلب الأمين وياله من رجل غبى مندفع !..

" حينئذ لم يجد الطير على كتفه إنما سمع صوته :

- سقطت فى الإمتحان يا حلو فعد وحذك !..

" صاح كريم:

- لى فرصتان فاغفر لى هذه الغلطة !..

" حط الطير ثانية على كتفه:

- إليك الحكاية الثانية : يحكى أن رجلاً كان تائهاً فى الصحراء يتخبط منذ

بضعة أيام فى عز الحر ! كاد يموت من العطش وليس حوله ماء ! وفجأة لمح على البعد صخرتين جبليتين يلعب فى شق بينهما خيط ممتد من أعلى إلى أسفل فأسرع إليه فوجده خيط ماء ينزل من مكان مجهول فى أعلى الصخرة إلى شقوق فى أسفلها

فقال: يا ما أنت كريم يارب ! وكان معه جفنة من الفخار فوضعها أسفل خيط الماء وبقي هكذا مدة تزيد على ثلاث ساعات فى القبط والخيط يتساقط فى الجفنة قطرة قطرة فلما امتلأ قعر الجفنة بشربة ماء طيبة رفعها إلى شفثيه فإذا بهلهد جميل الشكل يسقط مذعوراً من السماء فى قلب الجفنة فيوقعها على الرض فتتكسر ويتبعثر الماء! فما كان منه إلا أن انفض على الهلهد الملحوم داسه بقدميه حتى فرمه وعاد إلى خيط الصخرة يحاول فتح فمه تحته فإذا به يرى ما لم يكن رآه من قبل : حية رقطاء رابضة فى الشق رهيبة العينين والماء يتساقط من فمها المفتوح قطرات من السم فانشق قلبه من الحزن ..!

" هنا صرخ كريم دون أن يدري :

- آ.. آ.. لا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد غدر التعيس بالهلهد الجميل الذى أنقذ حياته ..!

" وفى الحال لم يجد الطير لكنه سمع صوته :

- سقطت فى الإمتحان للمرة الثانية ..!

" صاح كريم فى ضراعة :

- لى فرصة أخيرة وأضمن لك أنى سأكون غليظ القلب كما هو معروف عني!..

" فنزل الطير إلى كتفه:

- إليك الحكاية الثالثة والأخيرة : كان يوجد صياد ثرثار يحب الرغى ولهذا وقف حاله وتعطل رزقه ! دله أهل الخير على غابة منسية فيها الخير كبير ومخاطر جسيمة لا يفلح فيها إلا الكتوم الرزين ! فجمع نباله وسهامه واقتحم هذه الغابة فوجدتها ملائنة بالأشواك والحيوانات الثمينة المطروعة لكنه وهو يقترّب من إحدى الفرائس رأى جمجمة إنسان ملقاه فى الطريق تحت شجرة فوقف يتأملها مذعوراً فإذا الجمجمة تكلمه قائلة : كن فى حالك وامش ! فقال لها : مادمت تتكلمين فقولى : ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ قالت : الكلام !! صاحبنا الثرثار نسى صيده وانطلق يجرى إلى المدينة ! ماكاد يصل إلى داره حتى كان الخير قد سقط منه فسمعه الناس فوصل إلى أذن حاكم المدينة فبعث فى طلبه فقال له أرنا هذه الجمجمة التى

تتكلم ولك منا مكافأة كبيرة ! قال سمعاً وطاعة ! فأرسل معه السيف إلى الغابة وقال له إن تكلمت الجمجمة أمامك سلمه المكافأة وإن لم تتكلم إقطع رقبته وأترك رأسه بجوار الجمجمة وارمى ببحثه لكلاّب المدينة ! ذهب الصياد مع السيف إلى الغابة ولكن الجمجمة لم تتكلم! فقطع السيف رأسه وتركه بجوار الجمجمة وحمل جثته ومضى ! وبعد انصراف السيف مالت الجمجمة على رقبة الصياد قائلة : ما الذى جاء بك إلى هنا يارقبة الصياد ؟ قالت : كلام ..

" هنا صرخ كريم :

- آ. آ. ه. مضبوطاً لسانك حصانك أن صنته صانك وأن خنته خانك ! هذا اللات يستأهل !! ..

" وتحس كنفه فلم يجد للطير أثراً ، فصار يحدث نفسه قائلاً : فعلاً إنه طير حر غريب يأبى أن يسجن فى قفص أو يكون عرضة للعسس . فإذا به سمع صوت الطير نفسه يقول :

- لا يا شاطر كريم ! الحكاية مش حكاية طير يخاف من القفص ويطير من العسس !! الحكاية حكاية الآه والآه لا يمكن أن تنجس ! أنت يا شاطر كريم مع أنك غليظ القلب ما قدرت أن تجس الآه فى صدرك فهل تراك تقدر أن تجسها فى صدر غيرك ؟ إرجع ولا تفكر فى القبض على مرة أخرى !! ..

" أخذت بالك يامولانا ! إنها حكاية ماذا ؟ حكاية الآه ! كل واحد فينا يقول الآه غصباً عنه أو برضاه ، لكنه عندما يتسبب فيها لغيره لا يطيق أن يسمعها منهم !! .. الشاطر كريم من قهرته رجع إلى بلده ودماعه يضرب يقلب فى غليان فصار يشعر بالندم على ما فعله طول حياته فامتألت أذنه بالآه ضخمة كبيرة بعشرات الأصوات ممن ظلمهم واعتدى عليهم طول حياته الشقية !! تمنى لو أنهم جميعاً قبلوا اعتذاره وغفروا له لكنه شعر أن الله لن يغفر له أبداً! فنوى أن يكفر عن ذنبه فيتوب ويعامل عروسه بالحسنى إذ أيقن أنها لا يمكن أن تخلص له أبداً لأنه قتل حبيبها فطعن قلبها ولهذا فهى ليست زوجته باختيارها بل هى تعتبر محبوسة عنده بالخوف وحده ! ومثلما لم يستطع هو كتم الآه فإنه لن يستطيع حبس عروسه فى داره إلى الأبد إذ أن عروسه نفسها لن تقدر على حبس الآه فى صدرها ..

" لكنه وجد أن الآه الحبيسة قد سبقته وانطلقت يامولانا ! فالبنية المسكينة فى غيبته قلبت فى حاجاته فوجدت خائماً ذهبياً تعرفت عليه فى الحال إذ هو حاتم حبيبها الذى تعرفه ؛ كما عثرت على أشياء كثيرة كانت مع ناس أختفوا من الحياة فى ظروف غامضة !.. ذهبت إلى بعض من تعرفهم من أهالى ضحاياه فحدثتهم عما رأت !! فلهبوا جميعاً إلى الحكومة فأبلغوها فدبرت له كميناً فما كاد يستقر فى داره حتى هجموا عليه وحملوه إلى السجن وهو ييكى قائلاً : حقاً إن الآه الحبيسة لا بد أن تكسر عظام الصدور وتطير لتنتقم لنفسها !!.. أخذت لى بالك يامولانا ؟ قال الراوى إنه لما وضعوا رقبته فى جبل المشنقة بسبب جرائم القتل التى استيقظت كلها بالأدلة وحاصرته كان يهذى بالعرافة التى شافت له البخت الأسود فلم يصدقها ! وبذلك الطير الغريب الذى يقول أنه ينقره فى عينيه وحة قلبه بمنقار مديب ! شف يامولانا نهاية كل مجرم ظالم !! داين تدان يامولانا ! الذى تأخذه بالغضب أو بالجرمة لا بد يضرك فى صحتك فى عينيك فما بالك بالذى تأخذه بالعدو أو بالقتل أو بالسم ؟! دبر هذا فى مخك يامولانا !!.. أنت شرفت وأنست يابورى ! مادمت خرجت من السجن بصحتك فاحمد الله ولا تطمع فى أى شىء حرام !! تب إلى الله توبة نصوحا ولا تحزن على مافات فكل شىء نصيب ومافاتك يعوضك الله خيراً منه !! خيرا فى غيرها يابورى يا ابن الناس هكذا يقول المثل ! وربنا يهدينا ويهديك إن شاء الله !! " ..

المواجهة

- " يا ابن الكا لب !! أنت واعرحقاً ياد ياشيخ زينهم ! فتح الله عليك !.."

هكذا قال شوادفي مشوحاً بكفه العريضة ؛ ثم راح يطوف بعينه على وجه البورى، الذى وضع أنه قد تبدل الآن تماماً . كانت صفحة وجهه قد استرخت وتهدلت واختفت منها بوارق التحفز والعدوانية ؛ سكنت فى عينيه نظرة كانت حائرة متعجلة متوترة ، آبت إلى ركود فى صفاء تام ؛ إنداحت عن كيانه حالة الزهو الشرير والفرح الغامض ، آبت إلى طفولة شقية عاجزة ؛ بدا جانب وجهه المقابل لى فى ظل ضوء شاحب جداً يتدلى من أعلى السقف، تعيساً إلى حد كبير جداً، عاجز بشكل مثير للشفقة. كان شاردأ شرود صوفى محبوب مظلّل بالكآبة والملل . حانت منه التفاتة سريعة يائسة نحو حجرة وديدة بدا كأنها النظرة الأخيرة يلقيها المرء على قبر ضم رفات شئ كان عزيزاً وانتهى ؛ ثم خبط يديه على ركبتيه وبدا أنه يفكر فى الإنصراف وانه حائر أين يذهب . وحين رفع وجهه ناظراً فينا بدا كأنه يشعر بخيبة أمل فادحة حيث لم يلق الاستقبال الذى حلم به طوال سنوات السجن ولباليه ؛ وبدا أيضاً أنه قد أدرك ان شيئاً غير عادى قد حدث ؛ وظهر التساؤل فى عينيه بشكل مؤثر ، خاصة أن حجرة وديدة كان يجئ من ناحيتها صمت وظلام وسكون مخيف وكئيب سيما وأن قاطننها الحالى هو رمضان عريجة. ثم إن الإستجابة فى الأمر ظهرت بوضوح على وجه البورى كما بدأ ايضاً أنه يفكر فى طريقة ذكية يسأل بها عن الحقيقة وأنه فى نفس الوقت متوجس من معرفتها . شوح شوادفي بذراعه الطويلة ككحف الجريد بحركة من يريد طرق الحديد وهو ساخن :

- " اسمع يا أخانا ! أنت قتلت رجلاً مظلوماً كان رجلاً ولا كل الرجال ! وأخذت جزاءك وهو قليل قدام قصف عمر رجل !! وديدة خربت بيوت ناس كثيرين وأخذت جزاءها هى الأخرى إذ طلبها الرفيق الأعلى ليحاكمها أشد المحاكمة ! ومأواها الموبد جهنم والعياذ بالله !! المسكينة الوحيدة بينكما هى البنت نور! جاعها لطف بعيداً عنك وتسكن الان فى مستشفى الجنانين! زمانها ماتت!

وداد لم تعد تزورها إلا صدفة !! المصائب الثقيلة حدثت فى غيابك ! وها أنت ذا قد نجوت نفذت بجلك من المعركة !! أنت الوحيد الكسبان ! مازلت بصحتك وشبابك تستطيع الشغل والزواج والإبتداء من أول وجديد على نظافة ! هذا كل ما فى الأمر فأياك وحركات الزعل التى لا تأتى بمصاريها !!".

الجحوظ فى عيني البورى رغم الشرر المتطاير منه يشي بأنه كان قد استعد لتقبل مثل هذه المفاجآت الخطرة ، فظل جامد الوجه صلب الملامح لفترة طويلة خيم فيها علينا سكون مشحون متوحش . ثم بدأت ملامح البورى تلين شيئاً فشيئاً ، ثم ترتعش تحتفن ؛ ثم انهرت الدموع غزيرة كالطرر..

نكسنا الرعوس فى حزن شديد ، لم ينبس أحداً بحرف ، بل إننى رغم عدم احترامى للبورى كمجرم عنيف رحت أغالب الرغبة فى البكاء ، فقد هالنى أمره تلك اللحظة . وكلما تصورنا انه استرد هدوء بالصمت والشرود، عاودته نوبة البكاء من جديد بشكل هستيرى ، يهتز جسده كله ويتنفض ، وسط عبارات يرسلها شوادفى وزينهم العزيس : وحده الله ! ما منه فائدة ! أحمد ربك ! قدر ولطف ! ارحم نفسك !.. حتى ظهر عليه الضيق وشعر كأننا نريد أن نمنعه من فعل شئ يحبه ويهواه ؛ فإذا هو يتنفض قائماً بشكل مفاجئ : سلام عليكم ؛ ثم يندفع نحو الباب فى حماسة هوجاء . صاح شوادفى :

- " رايح فين يا مجنون ؟! "

- " أسافر إلى مستشفى الخانكة ! سيطلع على الصبح هناك بإذن الله ! " ..

- " يا أخانا هل جننت ؟ ماذا ستفعل فى الخانكة ؟! تسلم نفسك للجهادية ؟

إعقل وأجلس نتفاهم !! " ..

- " فى صدرى بكاء كثير ! " ..

- " إه ! وهل لا ينفع البكاء هنا ؟! " ..

- " طربة المرحومة لن تضيق بكائى ! " ..

- " ولا هذه المصطبة ! نوح عليها حتى الصباح ! هذه مصطبة وتلك مصطبة !

هناك عفارىت شريرة وهنا عفارىت طيبة !! " ..

- " لن أهدأ إلا إذا بكيت على طريقتها وكلمتها بما فى ضميرى !! ولن أهدأ إلا إن قابلت نور الصباح ورأيتها بعينى ! عندى عشم أن الله يرد لها عقلها حين ترانى!! إن الله على كل شئ قدير وعشمى فيه كبير!!" ..

- " معك نقود ؟! " ..

- " ولا مليم ! " ..

- " فكيف تركب القطار ؟ كيف تلعب إلى المستشفى وانت مثل قنك ؟! إقعد نتفاهم قليلاً ! " ..

- " المشى سيرىعنى ! " ..

- " طب عذ ! " ..

وغمره ببريزة فضية :

- " سلم لنا على الإثنين ! ذى (وأشار بإبهامه بحلف ظهره نحو المقبرة) وذى (وأشار بسبابته إلى الأمام) وقرأ لنا الفاتحة فى الحسين ! " ..

مد البورى يده على استحياء فأخذ البريزة . وكان الشيخ زينهم قد أخرج بريزة أخرى قدمها له :

- " وهاك بركة من سيدك العترىس ! " ..

فأخذها ، فوجدت نفسى منساقاً إلى نفس الفعل بلذة كبيرة ، ففردت البريزة الورقية وقدمتها إليه :

- " وهذه منى ! " ..

فاختصنى بنظرة امتنان شديد ، ربما لأنه لم يكن يعرفنى من قبل ، ولم يعرف بعد من أكون . وجدت نفسى أمضى خلفه حتى البوابة . وظللت أرقب شبحه وهو يتحول إلى عامود من الدخان الرمادى القائم يتلاشى كلما ابتعد غائصاً فى المقابر التى بدت هى الخرى كتلا من السحب الدكناء تلتحق بالسحب السماوية فى أطراف خيمة الأفق .

النذير

صرفنى محمد أبو سن فى لحظة مبكرة اندهشت لها . كانت مفاجأة ، ففى مثل هذه الليلة من كل أسبوع اعتدنا السهر فى حجرة العليشى حتى صلاة الفجر نأكل ونشرب الشاى والقرفة والقهوة مع الفاكهة نقرأ نتكلم . صحيح أن نصيبى فى الكلام يكون ضئيلاً جداً لا يتعدى عبارات عابرة قاصرة على إبداء الدهشة أو ربما الإعجاب ؛ لكن كلامهم ممتع لى إذ أسمع منهم العجب ، نفس الآيات ونفس الأحاديث النبوية التى سمعتها فى المساجد من الخطباء والوعاظ معات المرات ؛ أكتشف فى هذه الليلة أن لها معان كثيرة أخرى وربما كانت مناقضة تماماً لما كنت أعرفه ؛ معان وتفسير مشرق تضى الأفق تملأ الفؤاد بالرهبة والخوف من قلة الورع ؛ تدفع الإنسان إلى الجرأة فى الحياة ؛ توقظ فى نفسه الشعور بالمساواة بين البشر ، بأنه وحاكم البلاد مخلوقين لا فضل لأى منهما على الآخر إلا بالتقوى واتباع الخير واجتناب المنكر . معان وتفسير تجرد الحاكم من هالة الرعب تظهره فى صورته الأصلية كشخص يخطئ ويصيب ويجب تبعاً لذلك أن يخضع لشريعة العقاب والثواب . لقد كنت أحب هذه السهرة لأنها كانت تعطينى حصيلة كبيرة من أقوال مأثورة مفحة جامعة شاملة مع آيات قرآنية وأحاديث نبوية ذات معان مشرقة يمكن أن أستخدمها فى الحياة خلال تعاملى مع البشر من زملاء ورؤساء وشرطة . أقوال وأشعار وآيات وأحاديث من فرط مرونتها وغناها واتساع معانيها تصلح للإلتحام بأى سياق والإنسلاخ فى أى خبط والافحام فى أى مناسبة . أمتنع الأقوال المأثورة ما انطوت على حكاية طريفة ؛ وأجمل الأمثال ما يقتضى تفسيره الإحالة على حكاية قديمة أو حادثة مثيرة . وألمع الأحاديث النبوية ما انبثق عن أمر من الأمور أو قضية من القضايا أو مشكلة اجتماعية . تنتهى لحظات سعادتي واستمتاعى ان أعثر فجأة على مناسبة من المناسبات أو موقف من المواقف أو خلاف من الخلافات النقاشية ينطبق عليه بعض ما سمعته من تلك المأثورات فأنبرى مردداً العبارات كما سمعتها وحفظتها بالنص عن ظهر قلب ، بكل ما أستطيع من فصاحة وحماسة ، حتى الأسماء البدوية والعربية المكعرة كنت أجد استمتاعاً فى

تصحيح نطقها ، وكم شعرت بلذة فائقة فى نطق أم سلمة والتعالى وابن أبى زرة وابن الجعد وابن قحافة وابن لا أدرى من . الطريف أننى كنت أجد تجاوباً منهلاً لدى من يستمعون ؛ سرعان ما يعطونى انتباههم وأذانهم فى طلب المزيد ؛ حتى إذا شعروا أن غزير علمى قد غاض عند هذه النقطة فحسب أو أن مد معارفى قد انحسر عند هذه الحكاية وحدها أكملوا هم بحكايات من عندهم تمضى فى نفس الاتجاه تهدف إلى نفس الغرض ، الأمر الذى حفزنى على مضاعفة حصيلتى من المأثورات على قدر ما أستطيع ؛ فلقد صرت أوقن من أن القوم فى بلادنا على شاكلة واحدة فى هذا الصدد : إما أن يمعنوا فى الاصغاء المخدر إذا كانت حصيلة المتكلم من المأثورات البراقة غنية ؛ وإما أن يتباروا فى المشاركة فى الكلام باستدعاء وربما بتوليف حكايات وأقوال تمضى فى نفس الاتجاه إلى نفس المعنى ؛ النجم فىنا - فيهم - من يملك أكبر حصيلة من الحكايات والطرائف والنوادر والملح ؛ إنه الوحيد الذى يأسر القلوب ويشنف الأذان حتى ولو كان محض نصاب أو محتمل - هكذا نحن ندور فى دوامة لا يطفو على سطحها سوى المتخفف من أعباء الفكر والرأى والأمانة والضمير الحق ..

فى سهرة العليشى اكتشفت حقيقة هذه الظاهرة وتأكدت من أن الذين ينجلبون لبنا بالحديث الطلى الشهى هم الذين يمكن أن نعطيهم ثقتنا بل كل ما فى جيبونا وقد نأتمنهم على شرفنا وأسرارنا نسلمهم مصائرنا . عرفت ان أبرعهم من كان يعرف مشاكل الناس وأوجاعهم . براعتهم تتجلى فى قدرتهم على حقن الناس بأمصال من المأثورات والحكايات التاريخية المطابقة لأوجاعهم وكيف انتهت كما أراد لها الله أن تنتهى لا كما يريد العبد ؛ حيثئذ يرفعوى كل صاحب ألم فيرمى بكل أوجاعه ومشكلاته على أكتاف المشيئة الإلهية فيخلص من حملها طالما أن كل شئ يحدث للإنسان إنما هو قدر مقدور عليه أن يحتمله دون أن يواجهه لأن من الكفر مواجهة المشيئة الإلهية وتحديدها ومن حسن الإيمان الامتثال لها واحتمالها بصبر كصبر أيوب ..

فى سهرة العليشى تختلط المسائل اختلاطاً يعجز عقلى الصغير الضيق عن تفنيدها وفرزها ووضع كل شئ فى خاتته . فى كل أمسية أكتشف الكثير من الإشراقات

مع كثير من المتناقضات فلا أعرف إن كانت التناقضات كامنة فى النصوص أم هى ناتجة عن قصور فى فهمى وفهمهم للنصوص والتحليلات المطولة المتقنعة ؛ لكننى أحببت لعبة الاستمتاع بالتأثير على الناس بالكلام المأثور المنمق الباعث على الرعدة الوجدانية . تكون فى أعماقى مشروع واعظ متكلم جرى يمكن أن أنتفع به إذا ما ضاقت بى سبل العيش فى هذه المدينة ؛ ولربما استطعت بواسطته - كما رأيت الكثيرين منه - أن أحيا فى رغد من العيش أتزوج أجمل نساء العائلات الورعات ؛ وكم فى هذا الطريق من منتفعين ناعمين على موهبه عظيمة فى إخفاء شخصياتهم الأصلية الحقيقية داخل عباءة الواعظ أو خلف لحية المجذوب أو فى إيقاع من يسمى بالمفكر الاسلامى من كتاب الصحف والدوريات ..

كنت أرتب نفسى دائماً لهذه السهرة أترقبها طوال الأسبوع . الجميع أيضاً كان يحتفى بها وخاصة أبو سن ؛ فما باله الليلة يبدو متجهماً غير راغب فى السهر أصلاً، بل غير راغب فى إطالة الحديث مع أحد ، فكلمة ورد غطاها بسرعة . الأكثر إثارة للبهشتى أنه - ربما لأول مرة فى حياتى منذ عرفته - يبدو غير متحمس للعمل غير محتف بالزبائن ، بل انه سيغلق المحل قبل موعده اليومى بأكثر من ثلاث ساعات . ثم ما هذا ؟ البضاعة تضاءلت تماماً فوق الرفوف آبت إلى ما يشبه العينات فأين ذهبت أكداستها المكدسة ؟! يا الله إن العراء بعد السر والصقيع بعد الدفء أقصى مدلة !..

إلا أننى لم أسترسل فى التساؤلات المقلقة لأن ابتسامة شاحبة على وجه أبى سن كانت تكاد تغمز مصرحة بأن هذا الأمر مجرد إجراء شكلى لسبب من الأسباب المؤقتة . إكتفيت بفرحة الإنعتاق مبكراً ، وبخيبة الأمل فى سهرة مرتقبة . قبل انصرافى نادانى محمد أبو سن فرجعت من عند الباب ففتح الدرج وسحب حوالى خمس حنيهاً أراحها نحو قائلاً : خلها معك ! وهى تزيد على ما أستحقه عنده بكثير . إزداد قلقي ، خاصة حينما أضاف قائلاً : إصرف منها بحساب دقيق وانتبه لنفسك جيداً ؛ فهزرت رأسى موافقاً ومضيت أفكر فى سهرة بأرخص التكاليف . ثم خفت أن يقودنى الطيش إلى صرف مبلغ كبير فى كلام فارغ فوليت شطر الوكالة وقد أضاعت فى رأسى حجرة سنلس لعلى أصيب منها مرتعاً ..

عند باب الوكالة توقفت لبرهة وجيزة ثم رأيتني أجتأوزه متجهاً إلى دار وداد ؛
فتيقنت أنني أرتاح للسهر فى شقة وداد أكثر من حجرة سنلس ؛ فشقة وداد
حميمة، وبعيدة عن عين شوادفى الثاقبة ؛ ثم إننى قد ألفت رؤية ابتها العاجزة ولم
يعد منظرها يصيبني بالقشعريرة إلا وأنا مسطول على الأعر ، وللمحة عابرة.

العُري

إنفتح الباب . طالعنى وجه وداد ذابلاً كأنها لم تنم طول حياتها .. نظرة العينين مطفأة ؛ ورد الخدود صار ليموناً جافاً مجعداً ، البسمة آبت إلى جرادة ميتة فوق الشفتين . إنسحب من داخلنى شئ قوى كانسحاب الكهرباء من الأسلاك ؛ شعرت كأننى آخذ فى الخفوت شيئاً فشيئاً . غمزنى الظلام بالفعل لمدة توشك أن تصير دهرأ ، مع أننى جوبهت بالضوء الساطع الساذج يغمر الممر إلى الشرفة ..

عرجت نحو الردهة المربعة على اليسار ؛ إرتميت جالساً على الكنبه البلدى مسنداً ظهراى للحائط فى أعياء . فوجئت بمن يواجهنى جالساً هو الآخر نفس جلستى على كنبه طبق الأصل من كنبتى . إلخطف بصرى إليه مع خفقه من قلبى ، إنه يشبهنى تماماً ، إنه أنا إذن ؛ هى إذن مرآة كبيرة عريضة استحدثتها وداد هاهنا . جاءت وداد فجلست أمامى مباشرة ولصقتى فى نفس الوقت . منظرها كان مؤلماً حقاً ، فى جلباب بيتى أسود ؛ تظهر منه أطرافها البيضاء الشاحبة تبدو أمامى فى المرآة مثيرة جداً رغم هزلها ، باعثة على الإشفاق مع ذلك إذ لا حيوية فيها على الإطلاق . رأيت رقبتى فى المرآة تميل على صدرها :

- " مالك يا وداد ؟! "

ليس يبدو أن هذا الصوت صوتى ، هذا الذى يرن فى صدرى فيعجبنى إيقاعه لأول مرة فى حياتى كأننى أكتشفه فى هذه اللحظة فحسب ؛ فأبدأ أبدأ لم أكن أعهد فى صوتى هذه الذبذبة الدافئة المضمخة بالحنان والود الحقيقين :

- " ما فى شئ ! هل بى شئ ؟! يظهر أننى تعبت فى هذه السفيرة أكثر من اللازم ! ياه ! كانت ثقيلة ! لم ألقط نفسى بعد ! لتوى واصلة من محطة السكة الحديد ! تصور ! الآن فقط صدقت أنى وصلت إلى بيتى ! لحظة واحدة ! سأجى حالاً ! " ..

وتركت على صفحة المرآة طبعة من ابتسامتها الشاحبة ثم نهضت تحاول اشتتشاط نفسها . طقطقت عظامها كما يتفتت خبز يابس . تأوهت ؛ تمطعت مثنية جذعها إلى الخلف حتى عوت وهى تعتدل . مضت إلى الداخل . أشعلت سيجارة

وراحت أتأمل حلقات دخانها وهى تلتف حول رأسى تتسلقه كغلاف جوى يحيط
بكوكب توشك الشمس أن تقترب منه . بعد قليل سمعت صوت الدش فى الحمام
يهطل بوشيش منعش ، فانبثقت فى رأسى صورة جسدها عارياً تحت وابل المطر.
وكان الراديو الفيليس على رفه الخشبي فوق رأسى ، فقامت مستديراً إليه فضغطت
على زرره فاندفع صوته الهادر بالخرخشة والصيحات فأسرعت ببرم زر الصوت حتى
الخفض إلى درجة الهمس المسموع ثم أدت زر المخطات بسرعة تتجاوز أى كلام
فى طريقة تتلأأ عند الأنغام ، حتى زحف صوت محمد قنديل مقبلاً من جراب
الأثير يشع بالدفع الهادئ الواثق فى هدير الموسيقى بين شجو النأى وضرب
الايقاع وصهيلة الشخاليل : سماء .. اء .. اء .. ح .. يا أهل السماح لوم الهوى جارح ..
أصل السماح طبع الملاح يا بخت من ساء .. اء .. مع . وكنت أشعر أننى على وشك
أن أهكى ، إذ علقت الأنغام بمشاعرى فامتزجت فتوحدت بها . من خلف باب
الحمام جاءنى صوت وداد : " على صوته شوية صغيرين " ؛ فرفعت الصوت قليلاً ،
فجاء صوتها ثانية : " كمان شوية " . ثم جاءنى صوتها بعد برهة وجيزة صائحة
كأنها تأمر إبنها الشقى : " هات البشكير من أوضة النوم " ؛ فخفقت قلبى بسرعة
وقوة مضطردة ؛ فيما نهضت مسرعاً بخطوات شبه عسكرية متحمسة ، فاقتحمت
حجرة النوم فأدريت بصرى فيها على ضوء الممر ، متجنباً النظر فى البنت المستغرقة
فى نوم عميق ، لمحت البشكير متدلياً من مشجب فى الحائط المواجه بجوار السرير.
نزعت ، عبرت الممر ، ببساطة دفعت باب الحمام فى رفق بطى ؛ هى واقفة عارية
تتجلط فوق جسمها خيوط الماء ؛ فبدت فى هذه المساحة الضيقة جداً كنواة داخل
جسم صلب . كانت كالحورية ، محلولة الشعر ، عريضة الكتفين والصدر ، كنزة
الجدع ضيقة الخصر كأنه منحوت بفتلة ليشكل مساحة فاصلة بين حدود قارتين
منفصلتين متصلتين ، حيث تنساب السفلى من نصف دائرة عريضة متداخلة
الأفواس منشطرة الدوائر بين ساقين كأصبعين كبيرين من الموز البلدى المقشر.
كدت أفقد صوابى ؛ لكنى تذرعت بوقار مبالغ فيه كأنى بالفعل إبنها وقد استحي
من منظرها . قدمت إليها البشكير فى صمت ؛ فتناولته بابتسامة عريضة حقيقية
هذه المرة وهى ترمقنى من تحت رموشها بنظرة متحذبة متخابئة . فلما رأتنى مصراً

على افتعال الحياء سحبت البشكير وأعطتنى ظهرها : شكراً ؛ فحفظت عيني ،
واندفعت نظراتي كالجندول تدفعه الريح النشوانة فينزلني على ضفاف ظهرها
العبقري ، وموخرتها أسفل الجذع كقعدة كبيرة في نهاية حبلين فوق حاملين من
الرخام المرمرى . ظللت واقفاً في مكاني لا أريم ؛ حتى انفرد البشكير حول
جذعها وزحفت به يداها لتجفف الساقين وما بينهما ؛ ثم استدارت فجأة لتراني
مصلوباً على الباب فتنفجر في ضحكة جزلة جبورة مبهجة :

- " مالك واقفاً كاللوح ؟! "

- " حسبتك تطلين شيئاً آخر ؟! "

دفعتنى بيد ، فيما تمسك بالأخرى طرفي البشكير محكمة أخلاقه حولها .
أمسكت ذراعها البض الأبيض ، صرت أتخسسه ؛ أغراني بتقبيله ففعلت . ظللت
ممسكاً به ثم رحت أنظر في عينيها ، فإذا الشمعة الخفية قد أضيئت في أعماق النسن
الأسود ؛ وإذا الحياة قد دبت في الخدين والشفتين ؛ وإذا العنق قد استطال فوق
الكنتفين العريضين . فوجئت بأنها صارت بين ذراعي بكاملها وقد تكور البشكير
بيننا . صرت أرصفها بالقبل في كل بقعة من الكنتفين إلى العنق إلى الشفتين إلى
جدائل الشعر الأسود وما بين الثديين فالثديين . إستشعرت منها استسلاماً تاماً ؛ بل
إن التذاذها بالرغبة كان واضحاً من مذاقها في ريقها في عينيها في رعشات
جسمها لدى كل لمسة . بعد لحاث طويل سحبتها إلى الرعدة . جلسنا فوق الأرض.
كنت مشدوداً كالوتر ، محتقناً كالغاضب المكظوم ، أكاد أدك الحائط دكا . في
سرعة متوترة خلعت ملابس كلها ورميت بها كيفما اتفق ، ثم ارميت بجوارها
وبدأت حاشية التمهيد للهجوم الشرس بعد طول تحرق وحرمان والتضاع . صعد
البعير فوق الربوة حاول النفاذ من حرم الإبرة . دهورته الصدمة الأولى فاحترق دمه
ولانت عظامه فجأة صار جلدأ على جلد على رعاوة . بصير حرافى راح يفكر في
كيفية إمكانية أن يحول نفسه إلى فتلة رفيعة يلضمها في وهج الحلم الحى الذى تحول
فجأة إلى موات ؛ ولكن دون جدوى .. ثم نفق البعير ..

وهكذا مر وقت طويل جداً أمضيته متكوراً على نفسى دافناً رأسى بين ركبتي
مسنداً ظهري على الكتبة غارقاً في خجل وحسرة وتعاسة لا حدود لها . أقفت

على يد رخصة طرية تربت على ظهري في شئ كالمواساة مشوبة بقليل من حنان
الأم في صوت لاهب كالكرباح :

- " لا يهملك يا رجل ! إنها مسألة عادية ! تحدث في أحسن العائلات ! على
كل حال أنت منذ قليل كنت مائة في المائة ولا أدرى ماذا حدث لك ! لكن ! قم
نأكل لقمة ونشرب شايًا وحجرين لعل وعسى ! .."

أكلنا علبة من السلمون مع بيض مقلى وجبن قريش وخيار وجرجير ، فامتلأنا .
إنقلنا إلى الشرفة التي أسدلت عليها وداد ستارة ثقيلة . كانت النار تزغرد في المنقذ
بفعل تيار الريح ، ورائحة الشاي النفاذة تتصاعد من بزبوز البراد فوقه . إذ وضعت
كوبات الشاي أمامنا قالت وداد :

- " معك عدساية أفيون ١٩؟ .."

- " من أين يجيى لي ١٩؟ .."

تبسمت ؛ نزعنا الخاتم الذهبي من أصبعها ، سربت ظفر إبهامها في تجويف
الفص الداخلي وكحتت قشرة لابس بها ؛ قسمتها نصفين ، مدت لي أصبعها
بواحدة وشيعت الأخرى في فمها وصارت ثممص وترشف الشاي بليلة كبيرة ؛
ثم اغرطت في تنظيف الحجارة وتعسيلها وتعميرها ؛ وانهمكت أنا في تكسير النار
وتعيمها ..

لاحظت أنني أشرب بشرهة مثيرة للإنتباه . هي أيضاً كانت تشرب بنفس
الشراهة . كانت شاردة وكنت أكثر شروداً ، تعيسة وأكثر تعاسة .. كلانا لم
يستطع تبديد وحشة الآخر وإن كان قد آنسه بعض الشئ ؛ بل ربما يكون كل منا
قد عمق وحشة الآخر . هذا ما طاف بخاطري فيما تستقر عيني في بلادة على وجه
وداد وهى تنفث الدخان من منخريها وفمها بغزارة . ركنت النارجيلة جانباً تمهيداً
لتغيير مائها وتنظيف الحجارة لدور جديد ؛ ثم مددت ساقها على الأرض فاستراح
مقدم فخلها فوق قصبتى ساقى الممدتين فكأننى وضعت ساقاً على ساق . أسندت
رأسها إلى درفة باب الشرفة وأراحت ذقنها على صدرها واستغرقت في شرود
عميق عاقدة ذراعيها فوق صدرها وقد انسدت رموشها فوق عينيها وهدت تعيسة
جداً . حاولت الهروب من النظر في وجهها ؛ كذلك حاولت الهروب من النظر في

نفسى ؛ صبرت أمعن التفكير فى شىء ينتشلنا من قرار هذا البئر السحيق الكئيب ؛
لكن توترت قوياً راح يصادر كل شىء يطراً على بالى ، ويمور فى داخلى شيطان
رجيم طائش الغليان يكاد يدفعنى إلى ان أضرب قبضة يدى فى الحائط ، أن أطيح
فى معركة جماعية برؤوس مجموعة من المتفتنين ، أن أقوم لاندماج فى رقص أو
حلقة ذكر ، أن أرمى بنفسى من هذه الشرفة لأطب كالبهلوان فى فناء الوكالة ،
أن أمسك بشوادفى من عنقه فأظل أدقه فى الأرض حتى يتفتت ويتطاير مخه
شظايا ..

لحظتُ أرسل الراديو خرخرة عالية ثاقبة للأذن ثم انضبط على صوت المذيع
الذى انسحب لتنساب الموسيقى فى صفاء وانسجام إذ راحت الوتريات تُمش فى
مشاعرنا والإيقاعات تضبط أعصابنا ، ثم دخل صوت فريد الاطرش طروباً حزناً
شجياً : أحبابنا يا عين ما هم معانا .. رحنا وراحوا عنا .. ما حد منا اتنى .. عيني يا
عيني. شعرت بالدموع تنساب على خدى غزيرة قوية مندفعة . نظرت فى وجه
وداد فإذا هو مغمور كله بغزير الدمع فى خيوط عديدة تنحدر فى تدفق رهيب .
جاءت ضربة الايقاع النهائية فى الاغنية كأنها آخر نقطة فى معين الدمع فى عبارة
البكاء الذى اقتحمنا فغسلنا كأننا وقفنا تحت المطر عارين ..

إن هى إلا لحظات قليلة حتى عاد الصفاء إلى العينين فزهزت الأشياء قليلاً ،
ونهضت وداد لتغير ماء النارجيلة ، وانعطفت أنا لتنظيف الحجارة وإحياء النار
مجهّداً لطاغم جديد . حين عادت وداد من المطبخ كان وجهها ما يزال غارقاً فى
الدمع فعرفت أنها استأنفت البكاء وحلها فى المطبخ وهامى ذى تسح دون توقف .
جلست ؛ أخذت تعاوننى فى تعسيل الحجارة وتعميرها لكن خيوط الدمع كانت
تتقاطر فوق الحجارة. نحيت يديها عن الحجارة فى رفق، وبمبدلى جففت لها دمعتها:
- " نت لست طبيعية هذه الليلة يا وداد ! ماذا حدث لك فى السفر ! أين
كنت بالضبط ؟! لا تقولى أن شيئاً لم يحدث ! " ..

قالت والدمع يسح :

- " عمرى ما قرفت من الدنيا كلها كهذا اليوم ! كرهت كل شىء يجعلنا نتعلق
بها ! دنيا دنية فعلاً مثلما يقول المثل ! لو رأيت الذى رأيته أنا اليوم لعشت عمرك

لحظة بلحظة وليكن ما يكون !! كل شيء مصيره للتراب ! العمر كله ماله قيمة !
ياخسارة ! لم أعش فيه يوماً واحداً !! ضيعته مثل كل الناس فى وجع دماغ وكلام
فاضى ماله معنى !! ..

- " ماذا رأيت اليوم ؟! " ..

- " نور الصباح ! حبيبة قلبى ! أعز واحدة فى حياتى ! رحت لها لأن
المستشفى جاءت فى سكتى فقلت أحود ويا ليتنى ما حودت ! لكنه النصيب ! ربنا
هو الذى جر رجلى إلى هناك من أجلها !! " ..

وانخرطت فى البكاء الذى غلبها وأعجزها عن الكلام ، فأخذتها فى حضنى ،
نيمت رأسها على صدرى ؛ رجوتها أن تهدأ وتحكى لى ما رأته بالتفصيل . فنظرت
فى عيني بلمعة من الدهشة لاهتمامى بأمر نور الصباح التى لم أعرفها ؛ ثم تعاظمت
دهشتها فنزعت رأسها واعتدلت مستندة على ذرفة الباب ، وبدأ على وجهها أنها
أمام قصة طويلة معقدة وانها تحاول اختصارها بقدر الإمكان ..

قانون الجنون

.. " أنت تعرف نور الصباح ؟ شواذفى حكى لك عنها ؟! أكيد !! ما أعرف ما الذى فكره بها الآن ! هو الذى فكرنى من حوالى يومين بدون مناسبة أوقفنى وسألنى عن أخبار نور الصباح ! قلت له : من مدة لم أزرها ! وفى الحال اشتقت إليها وقلت يا بنت لعله الفأل الحسن ! مادامت سيرتها جاءت فلا بد أنها تطلبك ! لابد أنها محتاجة لك ! من يعرف لعلها شفيت أو تحسنت !! فى نفس الليلة جاعنى مشوار قريب من المستشفى قلت يا بنت هذا من تدبير الله أوصلك لحد عندها من غير تعب فاطلعى عليها !! " ..

" ما حالها ؟! حالها عدم ! كنت دائماً أزرها كلما توفر معى القرش !! المسكينة لم تكن تعرفنى فى كل مرة !! يجيئون بها لى فى الإستراحة ! أو تصحبنى الممرضة إلى حجرتها !! تروح تبخل فى بعيون زائفة ! تبسم فجأة ! تقول : أزيك يا أختى وازى أولادك مش بخير ؟ وأبوكى طلع من السجن ولا لسه ؟! وأمك هنا معانا فى البلد وبتسلم عليكى كتير دانا حتى لسه شايهاها دلوقت حاكم الناس هنا فى البلد دى مش طايقين بعض بياكلوا فى بعض ، أهلاً وسهلاً يا أختى عاملة آيه ؟ بقى نبقى جيران الحيط فى الحيط وما أشوفك غير مرة واحدة كل يوم ؟! " ..

" هلوسة فى هلوسة تقطع فى قلبى لمدة نصف ساعة فأترك لها طعاماً وفاكهة ونقوداً للتمورجية !! .. أرجع فأبقى أياماً طويلة أبكى كلما تذكرتها ! أنوى أن تكون آخر زيارة ! بعد شهرين أو ثلاثة يقول لى قلبى أنها تعرفنى ولا تعرفنى فى نفس الوقت !! عمرها ما نطقت اسمى ولا ذكرت أى شخص ممن تعرفهم !! قلبى يقول لى : يا بنت روحى لها إنها ستذكر اسمك هذه المرة لو نطقته تكون شفيت والباقى على الله وعلى !! " ..

" أول أمس ذهبت إليها ! وجدتها مريضة فى جسدتها !! قالوا إنها كانت هادئة ولا يتسبب عنها أى ضرر !! وكانت تمسك بطنها وتتألم ! تتألم كالعاقلة الكاملة العقل !! تتكلم عن الوجع فى بطنها !! تطلب الدواء والغذاء !! تطلب أن يراها الحكيم !! تقوم بنفسها بتنظيف المواعين وترتيب الصحون وغرف الأكل فيها !!

تسوى الفراش !! تعطف على غيرها ! تعاملهم جميعاً كأبنائها ! حتى العجائز منهم كانت تعاملهم كأطفالها !! التمورجية السستر صديقتى ! أقصد صارت صديقتى ! أهديتها قميص نوم مرة ؛ وطرحة مرة ثانية ! وعلبة روج مرة ثالثة ! غير الفلوس ! وأعطيته عنوان بيتى ! كل ذلك لكى تحس بمعزة نور الصباح عندى فتتذكرنى بهديتى وكلما تذكرتنى عاملت نور الصباح بما يرضى الله ..!! هى الأخرى صاحبت نور الصباح وأحبته وأصبحت ترعاها حتى هدايتها ونظفيتها وبقيت معها بالصبر والروح الطيبة وطولة البال تكلفها بأعمال وتخو عليها حتى أصبحت تستطيع الجلوس معها بالساعات الطويلة تأخذ وتعطى فى الكلام والحديث كأى واحدة عاقلة لكنها لا تذكر أى شئ عن اسمها عن أهلها عن بلدنا عن أى شئ من أيامها الماضية !! وحينما تقول لها السستر أنت اسمك فلانة وبلدك كذا وأهلك كذا توافق ولكنها تنسى دائماً !! ولو قالت لها السستر فى مرة ثانية اسماً ثانياً ومعلومات ثانية توافق ولا تتذكر ما سمعته من قبل حتى ولو كان بعد ساعة واحدة ..!!

" لما افافت لنفسها بقى دماغها غائباً !! طلبت الأكل فأكلت باستطعام !! ردت الروح فى وجهها ! وبعد أن كانت تمشى فى حنية المستشفى شاردة ضالة أصبحت تمشى فيها بقصد الفسحة بين الأشجار وقطف بعض الثمار والضحك على بقية زملائها حيث أصبحت تنسب لحركاتهم الغريبة وكلامهم الأغرب ..!!

" فى المستشفى لبسوا كلهم غرقى فى الجنون الشرس الشرير !! فيهم نصف العاقل ! فيهم الشديد العقل لكنه تعب فى وسط عقلاء النص نص فجاء ليجد الراحة وسط المجانين !! وفيهم مدعى الجنون هرباً من الإعدام من جريمة من ثار من أى بلاوى !! كل هؤلاء رأيتهم بعينى ومشيت فى الجنينة مع نور الصباح أيام كان الشيطان سارحاً بها وهى ذاهلة عن كل شئ حولها ..!!

" حكى لى التمورجية السستر ما يشيب الطفل : ولد ابن حرام من عمال المتعهد الذى يورد للمستشفى مأكولات وحضروات ! سرح بعقل نور الصباح !! تسلل إلى الداخل يسحبها معه حتى زلقها فى ركن بعيد بين شجرتين فى آخر النهار قبل التمام بمدة قليلة ! وفعل فيها الفعل الحرام ! مرة فمرة فمرة صارت

العملية بالنسبة لها لعبة أطفال لذيذة !! رأتهما امرأة أروية تدعى الجنون ! قالت لناس من زوارها فقالوا للإدارة فلم تصدق ونهرتهم وطردتهم وحبست الولية !!
" فلما اشتد الوجع على نور الصباح نطقتها !! جاءها عقلها فى شدة الوجع فنطقت : أنا حامل !! فهزأوا بها ومسخروها !! وكانت التمورجية السستر فى إجازة يومها ! فإلتفت النساء المجنونات كلهن ورحن يولدن نور الصباح فى الجنينة يعبثن بها حتى بهدلتها آخر بهدلة مرطنها فسقطت فادقة الوعى تنزف وهن يجرحنها كالذبيحة غارقة فى دماها !!.. لحقوا بها فى آخر لحظة ! تفلوها إلى عنبر العلاج !! وثانى يوم جاءت التمورجية السستر وتولت العناية بها!! وثالث يوم حثت أنا لأراها متمدة فوق الطاولة فى أواخر الغيبوبة !! قعدت بجوارها وقتاً طويلاً أبكى من كل عين حقان ! من حالها ومنظرها ! وأعجب كيف يجى شوادفى بسيرتها ؟ وتجيئنى أمها وأمى فى المنام ؟ وأسمع أن البورى طلع من السجن ؟ كل ذلك فى يوم بليلة لكى أجيء إلى هنا وأراها فى هذه الحالة التى لا تسر حبيباً ولا عدواً !!؟

" سبحانك يارب أنت شاهد على !! إن كنت أكذب تخرسنى ! نور الصباح فتحت عينيها فرأتنى بجوارها ! بحلقت فى وجهى مدة طويلة ! جرى الدم فى وجهها ! ظهر الفرح عليها شيئاً فشيئاً ! رفعت رأسها مقدار شبر ! ونطقتها ! أي والله العظيم نطقتها بلسانها واضحة : وداد !! بنفس صوتها القديم الذى أحفظه ! وبنفس طريقتها التى أحبها !! لم أستطع ضبط نفسى من الفرحة ! أطلقت زغرودة! ملت عليها ! أخذتها فى حضنى صرت أقبلها ودموع الفرح تغرقنى : يا حبيبتى ! عرفتيني يا حبيبتى !! أيوه أنا وداد حبيبتك الوحيدة فى الدنيا ! الحمد لله أحمدك يارب !!..

" لكن ! فرحة مائت ! إنكفأ دماغها على ذراعى ! إنتهت ! نقلب مهمما نقلب ! نجس النبض نهز الرأس لا فائدة !! راحت !! من شدة صدمتى عجزت عن الصوت !! وخذ عندك نواح القلب المشقوق !!..

" كله كوم ؟ وكونى لم أقدر على استلام حثتها لدفنها هنا بجوار أمها كوم ثانى ! هذا ما يقطع قلبى !! أنا صحيح مفلسة ونقلها مشكلة على وحدى ولكنى

الله العظيم تدمت على عدم استلامها ولا أعرف كيف تركتها وعدت !!
يا حبيبتي يا نور الصباح تكون هذه نهايتك وأمام عيني ؟ ليتني ما رحت ولا
رأيتك ! ليتني ما صبحت هذا اليوم ! كنت سأرمى نفسي من شباك القطارا
سبحان من هداني وثبت عقلى فى رأسى حتى وصلت !!.."

" نفسى مكسورة !! قلبى مشقوق ! جثة نور الصباح تتخشب فى عروقى !!
أريد أن أطلع من هدمى ! أكره الدنيا وأحبها فى لحظة واحدة !! من شدة خوفى
أريد أن أطلع من هذه الحالة بأى شكل ! بسرعة ! شئ فى صدرى يقول لى : يا
بنت عيشى ما تبقى لك من عمر ولا تفكرى فى أى شئ !!.. وشئ فى قلبى يقول
يارب ماذا تفعل المسكينة اهنتى لو أفتكرنى الله مثلما أفتكر نور الصباح وهى فى
عز شبابها ؟.. ويرد عقلى ويقول : يا شيخه فضك من هذه الوسوس وأنت لست
تفهمين أكثر من الله سبحانه وتعالى الله سيثولها ولن يطاوعه قلبه على تركها
يتيمة وحدانية !!..

" نار تأكل قلبى الآن !! كان بودى لو بقيت المرحومة بوعيتها نصف يوم !
لكى تدلنى على تحويشة عمرها وعمر أمها !! لم يكن عندهما القليل ! أمها كسبت
مكاسب الدنيا والآخرة ! ونور الصباح لم تكسب القليل ! ثلاثة أرباع ما كسبه پدر
السعيد من بيع أطيانه ومراشيه ومن لعب القمار كان يصير ذهباً فى يدى نور
الصباح وصدرها وأذنيها ! باعت منه القليل كما قالت لى ! وفى الحق ماصدقتها
فهى فيها خصلة أمها : تحب أن تخزى العين تتقى الحسد ! وتحب تخزين الذهب
ولا تنزى به إلا عند مشاوير الشغل لكى يثق الناس فيها !! نور الصباح كانت
صدىقتى الروح بالروح وكانت تكذب على الكذبة ولا تطاوعها نفسها فتقول لى
الحق ثانى يوم !! لحت لى قبل مرضها أنها تنوى شراء بيت فى بلدة بعيدة لتقبض
منه إيجاراً شهرياً تستريح على حسه بقية عمرها ! وفكرت فى فتح محل لبيع
الفواكه ! وفكرت فى فتح قهوة ! وهذه المشاريع كلها أليست تحتاج لفلوس ؟
ولا بد أن الفلوس كانت عندها تحت البلاطة !!..

" تعرف ؟ قلبى يحدثنى أن شواذنى هو الذى فاز بالعملية كلها ! هو كالطربة لا
ترد ميتاً !! حالتي وديدة كانت تثق فيه ! أقطع ذراعى إن ما كانت تثق فيه ! أقطع

فراعى إن ما كان سرح بها وعرف مكان فلوسها وذهبها !! على كل حال ما أنا متأكده منه أنه ساعد خالتي وديدة على تشغيل شئ من فلوسها عند بعض التجار بمعرفته وشاهدتها أكثر من مرة وهى تقبض الأرباح من تجار الخضار فى السوق !! وقبل مرض نور الصباح بأيام قليلة كانت تكلمنى عن نيتها فى فتح موضوع الفلوس مع شوادفى !! وهذا الملعون لم يزرها مرة واحدة فى المستشفى ولم يفتح سيرة الفلوس أمام أى أحد !!.

" هيبه !! ماذا أقول ؟! حسبى الله ونعم الوكيل !! " ..

الإياب

وأطرقت وداد في صمت لمدة طويلة ، فكأننا جالسين في سرادق العزاء . أردت أن أبعد هذا السكون المفاجئ الكئيب ، فاعتدلت أمام منقد النار صرت أنفخ في بقايا الفحم حتى شبت النار . كان ثمة حجارة لم تحترق بعد ؛ فأخذنا نشربها في تأن شديد . ثم وجدتني أقول لها :

- " قلت في أول كلامك كلمة حكمة : يجب ألا يضيع الواحد من عمره دقيقة واحدة ! فقومى إذن فاغسلى وجهك وسرحى شعرك وغيرى هذا الثوب ثم تعالى ! " .

رمقتني في تردد سامان قرفان ، وصارت تنفخ الدخان ببطء كأنها تستحسره في الهواء . عاجلتها :

- " ها أنت أضعت من عمرنا دقائق طويلة وأضفت إلى همومنا هموما جديدة!!
تعال نعيش اللحظة يعني نعيشها ! ننسى كل شيء! الحى أبقى من الميت !! " .

هزت رأسها في استسلام : ماشى . ونهضت في قليل من التكاسل . دلفت إلى الحمام فغسلت وجهها وتعطرت وتزينت بالأبيض والأحمر ، ولبست قميص نوم عارى الصدر والاكتاف يشف عن الجسد بكل تفاصيله . فما أن دخلت على هكذا حتى نهضت جيوش من النمل دفعة واحدة فغزت سائر عروفي فحفقت قلبي بشدة وظل يخفق كأنه الزناد يدق زلطة يطق منها الشرر ليشبث في دمي السخن فيشتعل جسدى بالنشاط ..

إستأنفنا الشرب من جديد وقد شعرت أنني صرت شخصا جديدا تماما ، كأن سيرة الموت قد حققتى بمصل الحياة ، كأننى أزمع أن أتحدى موتا يقف لى بالرصيد . تغيرت في نظرى جميع معالم الأشياء ، زهرت ، صرت أشعر أنني مستعد للتسامح في أشياء كثيرة ، والتغاضى عن أشياء كثيرة ، والتسليم بما قد تتمخض عنه الأمور من أحداث أو مفاجأة بنفس راضية دون أدنى اعتراض ..

جميع الحبال بداخلى تنشد تتصلب . من شدة الفوران تبخر القلق فازدادت الصلابة واحتقنت العروق ونفرت وغادرت مخادعها سعيا إلى اتصال حميم . الثلاث

الحجارة الباقية شرينها فى حوالى نصف ساعة ، خلل القبل والمرمغة والمهرس
النشوان المجنون . من ربوة عالية إلى ربوة أعلى ، ومن شعاب إلى هضاب ، ومن
مرتفعات إلى منخفضات ، ومن قمم إلى سفوح تكشف للجمل بكل وضوح ثمل
أنه بالفعل .. لا يستطيع النفاذ من سم الخياط . لم يكن الفشل ذريعا ، لكن النجاح
لم يكن كاملا . كنت فى الواقع أتجاوز ، وأحيانا أتصارع ، مع حثة نور الصباح ،
التي - رغم أنى لم أكن رأيتها رؤية العين ولا سمعتها - لم تكن لتغفر لى أو لوداد
محاولة الانتشاء فوق جثمانها وانتهاك ذكرها . كانت تتقلب بين ذراعى كالمتهنة
كالمقهورة المغلوبة على أمرها . حين قرطاس الماء الكثيف تحت الدش فى الحمام لم
يستطع نزع حثة نور الصباح من أحضانى أو محوها من دماغى ..

أوقفت الماء بعصبية وناديت :

- " وداد ! " .

فجاءت منفوشة الجسد والشعر . وجدتني أسأها :

- " لو سافرنا بعد قليل يمكن أن نلحق نور الصباح قبل أن يدفنوها ؟ " .

إتسعت عينا وداد ، صاحت :

- " الله أعلم ، ولكن ما قصدك ؟ " .

أخذت أحفف جسدى :

- " نسافر ونستلمها ! " .

- " معك فلوس ؟ " .

- " معى أجرة القطار ! أما مصاريف نقل الجثة فعندى فكرة نتصرف بها ! ما
رأيك لو سافرنا فى قطار الصحافة ؟ " .

- " ينصر دينك ! خلاص ! نسهر حتى موعد القطار ! أخرج حتى أستحم !
ولع النار وحط براد الشاى ! أنت ابن حلال ! لن أنسى لك هذا الجميل طول
عمرى ! " .

وحين ارتفعت تكبيرة الفجر كنت أمضى وبجوارى وداد ، محتشمة الثياب تحت
عباءة الفجر الرمادية ، فى طريقنا إلى محطة السكة الحديد . وكان ذهنى مشغولا

بكيفية التأثير على مجموعة من الناس لإقناعهم بنقل الجثمان من المستشفى إلى
منهول بالبحر .

لأول مرة أعرف أن مستشفى الخانكة غير مستشفى العباسية إلا أن الناس في
بلادنا يطلقون اسم الخانكة على المستشفيات معا ، بل يطلقونه على كل من يظهر
عليه شبهة اختلال ولو طفيفة في عقله ؛ بل وحتى من يتكلم في بلادنا كلاما غير
موزون يوصف في الحال بأنه : خانكة ! أى أنه مجنون يستحق الذهاب إلى الخانكة.
وحين وصلنا إلى مستشفى العباسية أخبرتنى وداد أن مستشفى الخانكة - المقامة في
بلد اسمها الخانكة على مبعدة حوالى ساعة سفر بالسيارة من القاهرة - مجعولة
للحالات الخطرة ، للمجانين الحقيقيين الذين يخشى من حالاتهم على الناس
والأطفال وكل شئ ..

رأينا على باب المستشفى كثيراً من الناس يتناحرون مع البواب إحترقنا الزحام
إليه . سالناه عن الجثة التى ماتت بالأمس واسمها نور الصباح ترك خان ؛ فقال إن
رجلا في الداخل جاء يتسلمها ويقول أنه أحد أقاربها . غمزته وداد بالقطعة
الفضية، فتنحى لنا عن الباب وأشار إلى العنبر الذى ينقل إليه الموتى حين تدبير أمر
دفنهم . على باب العنبر لفت نظرنا رجل يجلس على درجة السلم السفلية مرتكزا
بكوعيه على ركبتيه مسندا رأسه بين كفيه فى استغراق تام كأنه مات وانفصل عن
كل ما حوله . كان شكله غاية فى التعاسة والبؤس بصورة مؤلمة ، وقد صنعت برك
الدمع على صفحة وجهه قشرة شمعية لامعة ، وملامح وجهه مهانة متهدلة . شعرت
بالإنعطاف نحوه ، ملت عليه ، تأملتة ، إنه مألوف لى ، أقتربت منه ، وقفت
أرقبه . رفع رأسه ناظراً فينا . إنه البورى . شهقت وداد ضاربة صدرها وقد عقد
الدهول لسانها :

- " البورى ؟! بسم الله الرحمن الرحيم !"

تمتم وهو ينهض فى استخذاء وهزال :

- " وداد ؟! إزيك يا وداد !"

إرغمى عليها محتضنا مقبلا ، ثم انفجر فى بكاء حاد ، بكاء طفل عثر على أمه

فجأة بعد طول تشرد وضياح ..

- " طلعت لمتى يا بوري ؟! "

- " من كم يوم كده ! ليتنى ما طلعت ! يظهر أننى لابد أن أرجع إلى السجن؟! لم يعد لى أحد فى هذه الدنيا ! لا طعم للحرية ! نور الصباح مات ياوداد! جاءتها حمى النفاس كما يقولون هنا !! يا ربى ! حمى النفاس هذه لا تجى إلا لمن كانت حبلى وولدت فى ظروف سيئة فمن أين تجى لنور الصباح ؟! ألا تظنين يا وداد أنهم قتلوها ؟! إننى أسمع أنهم يقتلون المرضى هنا بحقنة وبالكهرباء ! إذا تعبوا معهم ! ولكن ياربى ! أنت كنت تزورينها يا وداد فهل كانت حالتها خطيرة ؟ هل كان يركبها الهياج ؟! أنا لا أظن أبداً !! نور الصباح لم تكن مجنونة ! كانت مصدومة ! حسبى الله نعم الوكيل !! "

وراح يواصل البكاء ومن خلفه وداد مثل الكورس كأنهما فى مسابقة نواح ملئاع . ووقفت بينهما حائراً خجلاً لا أدرى ماذا أفعل ، رحت أغالب الدمع وأوقف ارتعاش شفتى السفلى . بصعوبة بالغة ومن خلال صوت مرتعش قلت :

- " لماذا كنت تجلس هنا هكذا ؟! هل أنت الذى جاء يستلم الجثة ؟! "

شوح بذراعه ، صاح بلهجة طفل تعيس عاجز:

- " طردوني ! مارضوا بتسليمها لى ! أولاد الكلب المحرمين ! حتى الجثة لا يسلمونها لأهلها ! يخافون أن نكتشف أثر الجريمة !! "

- " كيف منعوك من استلامها ؟ ما السبب ؟! "

- " ليس معى بطاقة شخصية ! "

صاحت وداد :

- " ربى ! قطعنى ! ياما نصحونى أن أعمل لنفسى بطاقة !! "

- " أنا معى أوراق تثبت شخصيتى !! "

طلبنا مقابلة مدير المستشفى . قدمت له ما معى من أوراق تتضمن شهادة الميلاد وصحيفة الحالة الجنائية وشهادة اتمام الابتدائية وبعض أوراق خاصة بالمعهد ، واسمى مطبوعاً تحت نصف عمود من الكلام حيث كتب محررها الأستاذ الكبير أمين الخولى تعليقاً وصفنى فيه بالأديب الأستاذ . حكيت للمدير ظروف نور الصباح بكل تفاصيلها كما عرفتُها ؛ حتى بدا أنه أفتنح بتسليمها لنا ؛ فقال :

- " ولكن هل جئتم بسيارة النقل ١٢؟".

فبكينا ثلاثتنا فى الحال بشكل مشير للإشفاق فعلا ؛ أبلغناه خلل البكاء أن ظروفنا المالية لا يعلم بها إلا الله وأننا مع ذلك مضطرين للقيام بهذا العمل الإنسانى لدفن الجثة بجوار أمها . رق قلب الرجل ، وطمأن خاطرنا بأنه سيجاول استدعاء عربة الإسعاف لنقلها على حساب الحكومة . وبالفعل أمضى الرجل أكثر من ساعتين فى اتصالات تليفونية وكلام وصياح وشخط ونظر حتى جاءت السيارة بالفعل وتم تجهيز الأوراق التى وقعنا عليها ثلاثنا ، وتصريح الدفن .. وحسب بالجثة ملفوفة فى ملاءة قديمة ، متصلة كلوح من الثلج . ركبنا بجوارها ، وانطلقت السيارة . وفى طريق العودة كنت أغزهم بكاء ، بشكل أدهشنى ، ولم أجد له نظيرا فى حياتى السابقة .

- " قفرت وداد من عربة الإسعاف إلى باب الوكالة وقفز البورى ورائها وأنا من خلفهما . هب شوادفى واقفا فى مواجهتنا ينظر فىنا بتوجس مرتعب ؛

- " خير يا غجر ١٢؟".

صاحت وداد :

- " جئنا بجثة نور الصباح !".

بصوت دافى فيه تهجد وخشوع صاح شوادفى :

- " خير ما عملتم !! إن شاء الله ربنا يجازيكم خير الجزاء فى الآخرة !! يا زينهم يا عتريس !".

هكذا نادى . فخرج زينهم من حجرتة مهرولا :

- " خير يا شوادفى ١٢؟".

بنبرة استسماع ورجاء لينة :

- " جهز لنا الأوضة بتاعتك ! جثة نور الصباح وصلت ! ربنا يكرمك ويكفيك شر المرض !".

ثم امتدت أصابعه الغليظة الكبيرة فمسحت دمعة تحدرت رغما عنه على خده . وهتف الشيخ زينهم :

- " لا إله إلا الله ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! وسعوا يا أولاد ! جاهزين يا شوادفى !".

لحفلتذ كان السائق وزميليه بلباسهما الكاكي والكاسكيت الأحمر بطابعه العسكري قد أسرعاً بسحب النقالة الخشبية المسجي فوقها الجثمان : تلقاها أحدهما خارج السيارة والآخر من الطرف المقابل حتى نزل هو الآخر ، فمضيا ، الأول معطيا ظهره للنقالة والآخر ورائه ممسكا بطرفيها الآخرين . إخترقا فناء الوكالة إلى حجرة الشيخ زينهم العتريس فدخلاها . فى الحال انداح فى الأفق صوت رنان بالغ التفجع والحراة ، كان صادرا من حجرة الشيخ زينهم بصوت زوجه وابنتيه الكبيرتين ؛ على سبيل التحية الواجبة لا استقبال الميت . سرعان ما خرجت قطيطة من حجرتها مولولة ؛ تبعتها دميانة من البكية المقابلة ، ونزلت قوت القلوب العجوز جددة وداد تتدحرج على السلم نائحة بصوت هزيل مبجوح متوجع :

- " قلب أمك يا أختى ! ما كانش العشم يا حبة عيني !".

فى لحظات معدودة كان فناء الوكالة قد امتلأ بالسنة لب حارقة من الصوات الملتاع فى مظاهرة كبيرة ؛ بقدر ما أثارته من هياج وانزعاج درف النوافذ المجاورة ؛ فإن شوادفى كان يستقبله فى شئ كثير من الزهو والرضا . وحين خرج رجلا الإسعاف بالنقالة الفارغة إلى السيارة إلتقاها شوادفى فغمز كل واحد ببريزة فضية أثناء السلام عليه ، وذهب ليسلم على السائق بنفس المنحة الفضية . ثم انعطفنا جميعا إلى شغل الصوات والبكاء فلم نسمع هدير سبارة الإسعاف وهى تنصرف .

كنا فى الضحى ما نزال ؛ والبعض من سكان الوكالة لم يخرج إلى عمله بعد . ولهذا امتلأت حجرة الشيخ زينهم بعدد وفير من نساء الوكالة وحيوان الوكالة بعضهن لم تسمع أصلا بنور الصباح . كذلك امتلأت مصطبة شوادفى وباحة البوابة على اتساعها بالمتقرفصين والمتربعين لا أحد يدرى من أين جاءوا . خبط الشيخ زينهم بعكازه الأرض فى رعشة صوت رهيب :

- " يا جماعة ! الله وكيل ! البنت لم تكفن ! ولم تغسل ! وهذه الملاءة القديمة لا تصلح كفنا !!".

يكاد شال عمامته يسود من شدة الوسخ لكنه يملك صوتاً ملاحكياً جباراً ، رفيع النبرات حاد كشفرة الموس يخرط فى القلب والأعصاب خرطاً يصعد بالسامعين إلى أعلى السموات السبع ويهبط بهم إلى قاع الأرض فكانهم ريشة فى مهب رياحه العاصفة . كنا مجموعة من الرجال كعائلة واحدة تزيع على الخسيرة حول المقرئ ، نخفض الرؤوس فى خشوع ونسبس بالإستغفارات والشهادتين يعقبها تنهد عميق حار . فيما بين الربعين انفتحت صناير الكلام تحكى ذكريات نور الصباح وجمالها الفاتن وحلاوة طبعها وأدبها وأخلاقها وشبابها الذى لم تهنأ به يوماً واحداً . وبسيرة يشع فيها الصدق قال شوادفى :

- " الحمد لله أن ألهمنا القدرة على القيام بالواجب ! إنها بنت حلال والله ! عاشت عمرها فى نكد وحسرة !! وحق الواحد القهار يا جماعة أننى يتفتت قلبى عند رؤيتى لمغترّب يعود إلى وطنه ما بالك لو كان المغترّب جسداً ميتاً !؟ تذب روحى ! أبيع كل ما ورائى فى سبيل إكرامه ! إن كسفة وجه الإنسان صعبة لا يقبلها الله بالنسبة للإنسان الحى فما بالك بكسفة وجه الميت !؟" .

الشيخ زينهم العزيس تلقف منه حبل الكلام ، فاختصنا بكلمة عن معنى الوفاء عند الله ، وقيمة الجيرة ، وحفظ العشرة ، والزحام والتواد ، وكيف أن شيخه وقطبه العزيس يرحمه الله كان يقول كذا وكيت فى هذا الشأن أو ذاك . ثم إن المقرئ استأنف القراءة برع أخير ألحقه بطائفة من قصار السور ختم بعلها منادياً بالفاتحة ؛ فرفعنا الأكف جميعاً واندجنا فى قراءتها بخشوع كبير . ونهض الخانوتى ليوصل المقرئ إلى داره ؛ وذهب رمضان عريجة لينفذ أو ليخطط لجرمة جديدة ؛ ومضى شوادفى إلى ضجعته المعهودة فوق المصطبة بجوار البوابة ، ومضى الآخرون كل إلى شأنه . دعوت البورى لينام فى حجرتى حتى الصباح لكنه أصر على الإنصراف . ولم يكن يخطر ببالى أنه معزوم عند وداد إلا بعد أن خرجت فى عمق الليل ذاهباً إلى دورة المياه عبر الفناء فلمحت خيالهما معا على حافة الشرفة تلفهما ملاءة من الدخان الرمادى الخفيف .

الفجر الأسود

كانت الوحشة تغمر شارع السوسى وما حوله . هذا مابدا فى عيني لأول وهلة من لحظة أن تجاوزت مبنى المديرية . الصبح ليس ككل الأصبحة الماضية . العين لا تخطئ أن ثمة كآبة مشبعة بالرطوبة تخيم على البنية والأرصعة وأسفلت الطريق وطوائف البشر ، بل وفى ضوء الشمس الشاحب الخالى من الدفء رغم أن الشمس الهاذغة الحمراء كانت ترقد فوق مبنى المديرية مباشرة . الحركة بطيئة والناس يمشون فى سأم وقلة حماسة . حتى حمير العريجية وحيولهم كانت تدلى آذانها وتركض منكسة الرأس فى الأرض مسبلة الأحفان كأنها مساقاة إلى الذبح . الأفندية الموظفون يطوون الجرائد تحت آباطهم ، بعضهم يخطف المانشطات الكبيرة فيما هو سائر على الرصيف يتلصقا واثقا من أن غيره سيتفادى الإصطدام به . العمال والحرفيون والباعة يتجمعون أمام محلات الفول والطعمية يلوكون الساندوتشات فى غير شهية ، كل واحد يحاول الإنزواء على نفسه وتجنب فتح أى حديث مع الواقف بجواره . الطلبة الكبار يمحضون فرادى بعد أن كانوا زرافات زرافات ، فكأنهم ضربوا فى السر ضربات قاصمة فصلت بين أبناء الحى الواحد الذين تعودوا انتظار بعضهم وربما المرور على بعضهم البعض فى البيوت للنزول سويا والانضمام إلى بقية أبناء الحى لكى يتوجه ركبهم الطازج الملهل الجميل إلى مدرسة معيطى الثانوية أو مدرسة الزراعة على ترعة المحمودية أو مدرسة الصنایع أو معهد المعلمين أو معهد السكرتارية؛ هاهم يسرون فى حماسة مضطعة وانشغال مفتعل ، حتى إن لحق أحدهم بالآخر ألقى عليه صباح الخير وتلقى صباح النور ويروح أحدهما يحاول استباق الآخر فى السير ليليدو للناظرين أنه ليس معه ؛ فيبدو الجميع مسرعين لاهئين مضطربين لا علاقة لأحدهم بالآخر . أما الأطفال الصغار فإن وجوههم ليست تعمل نظرة كل يوم ، معظمهم مكشر مكبلظ الوجه كأنه مضروب ومتكد عليه قبل خروجه مباشرة .. فما الذى حدث فى المدينة يا ترى هذا اليوم ؟! من الواضح أن مصيبة عظيمة قد نزلت بالقوم فيما نحن فى الوكالة ملتئين فى دفن نور الصباح وتأبينها ؛ بل الأرجح أنها حدثت منذ قليل ..

على مقهى البسفور أكلت شريحة الخبز المحشوة بالفول مع كوب الشاي بالحليب ، ودخنت سيجارتين بلمونت من الخمسة الفرط التي اشتريتها منذ قليل . ونظرت في ساعة المقهى المعلقة على الحائط فوجدتها تقترب من التاسعة صباحا ؛ فأيقنت أن محمد أبو سن زمانه الآن قد فتح الدكان وأشعل البخور وركب الفتارين الزجاجية على صدغى الباب وجلس يتصفح جريدة الأخبار . صورته الماثلة وهو تصفح الجرنان نبهتنى إلى الجرنان ؛ إذ لابد أن يكون نبأ المصيبة التى لابد أنها حلت بالمدينة قد وصل أمرها إلى الجرائد فاشارت إليه فى ركن قصى بعيدا عن أخبار الرئيس والحكومة . كشك السجائر الملاصق للمقهى يبيع الجرائد ؛ هاهى ذى الجرائد مفرودة تتدلى من حبال مشبوكة ، بمشابك الغسيل . ما نشيت بخط كبير أحمر: حل جماعة الإخوان المسلمي ن . الصفحة كلها على طولها لا تتسع لأى خبر آخر ، كل العواميد بالنبط الأسود الكبير وتحتها خطوط ، والصفحة مزينة بصفوف من صور لوجوه ملتحية ترتدى الطرايش والعمائم والطواقى ، وزبيبة الصلاة فى جباهم مقروحة رمادية ومسحة الصلاح تطفى على مسحة التشدد والصلابة . أجملت قراءة الموضوع إلى حين الوصول للدكان لأقرأه على مهل ..

حودت على شارع السوسى . بضع المحلات ما تزال مغلقة وهذا لا يحدث فى العادة ، فأبدأ لايطئ أصحاب المحلات فى اللحاق بزبدة البكور لرش الأرض أمام محلاتهم واستجلاب الفأل السعيد بوسائل شبه سحرية بتعاويز يقرأها الواحد منهم فى سره ؛ فمن المستبعد أن تكون راحت عليهم نومة حتى العاشرة صباحا . دكان محمد أبو سن هو الآخر مغلق لأول مرة فى حياته فى غير أيام السوق . أيقنت فى الحال أن محمد أبو سن قد تم القبض عليه مساء أمس أو ربما فجر اليوم . اقشعر بدنى ، جف ريقى من شدة الخوف الداهم ؛ صرت أتلفت حوالى فى استرابة أحاول نفى صلتى بالدكان الذى أقف أمامه ، ثم ضحكت من نفسى فى نفسى غير أنها ضحكة تمحضت عن رحيق مر ؛ إذ دهمنى شعور بتوقع القبض على فى فترة لاحقة . تمثلت لى كل صور التعذيب التى أسمع عنها داخل السجون السياسية خاصة مع المتهمين ، بمحاولة قلب نظام الحكم بالحق أو بالباطل ، فمر ينهنى خاطر جارم الملامح ينذرني بضرورة الهرب فى أسرع وقت ، الاختفاء من هذه المدينة

فوراً، ولكن إلى أين ؟ لو سافرت إلى فريتى فلن أكون يبعيد عن أيدي الشرطة. ولكن ما بالى أشغل نفسي بالهرب قبل أن أتأكد من حقيقة ما جرى ؟ هنا طراً خاطر جديد أقوى : لو بدت خائفاً فسوف يتشكك في أمرك ذلك الخفى الذى يتعقبك ويعرف عنك كل شئ ؛ وجدتني استريح لهذا الخاطر على أساس أن هذا الذى لا بد أنه يتعقبني لابد أيضاً أن يكون ملماً بحقيقة أمرى ومن ثم يعرف أننى لست عضواً بالجماعة ولست أمارس أى نشاط من أنشطتها وإن كنت أجلس مع دواي من أعضائها المنظمين القائمين بأعمال فعلية في حركة الجماعة . سرعان ما اكتشفت سذاجتى ، فدفعنى الخوف إلى المشى على غير هدى .

وهكذا وجدتني أحترق وصلة محل العصير إلى شارع الصاغة الذى اعتدت أن أبتهج بفتارينه الزجاجية تبرق فيها المجوهرات والمشغولات الذهبية فى صفوف متراسة على الجانبين ، تتخللها محلات تبيع الحبوب أو الزكائب أو الخيش . وجدتني تلقائياً أخرج على دكان حمدى الزواوى . شئ عجيب ؛ كأن أيام حمدى الزواوى ساعة منضبطة تمشى بدقة مذهلة ؛ هاهو ذا يفرك أرغفة الخبر فوق صينية الفول يشرع فى تناول فطوره . ما أن رآنى أسد فتحة الباب حتى ضرب جهته بكفه كأنه يقول : " إنت ابن حلال مصفى " لكنه قال : " تجى فى وقتك دائماً " . كعادتى قفزت راكباً فوق البنك امام صينية الفول ؛ فقفز هو خارجاً ووقف بالباب صائحاً : " صينية كمان يا حندوقة " ؛ وقفز عبر البنك إلى الداخل . مزق الرغبة فاقطع لقمة صار يقلب بها الفول فى الطبق فتنصاعد الرائحة النفاذة للزيت الحار بالليمون وحلطة التوابل . قال من شدقين متكورين :

- " شفت ماجرى ؟! "

- " ماالحكاية بالضبط ؟! "

- " كان أسود فجر على البلد !! الحكومة قبضت فى الفجر على جميع أعضاء الإخوان المسلمين وعلى كل صاحب لحية كبيراً وصغيراً !! ليثها أمسكتهم فى السر والكتمان كما خيل لها أن تفعل!! إنما هى استعملت الخشونة والعنف ! فتشت البيوت شقاً شقاً ! قلبت عاليها واطيها ! بهدلت الدنيا ! تطاولت على السيدات بالبذاءة وفحش القول والضرب بالشلوت !! نساء صوتت بحرقه واستغاثة أطفال

تصرعت ومازال الخوف يسكن قلبها وحاجات مؤلمة !! قد بكيت والله حتى انفلق
دماغي لما وقع بصري منذ قليل على أطفال محمد الخوالقة وهم متوجهون إلى
المدرسة كأفراخ تمشي ذليلة مقهورة متجهمة الوجه بائسة !! هو جارنا وقد صحنوا
على الضجة عند القبض عليه وكان أطفاله وأطفال الجيران يصرحون في رعب وهم
يرون العسكر يقتحمون غرف نومهم ويهدلون أمهم ويضربون أباهم في قسوة
ويلقون به في عربة البوكس فوراً !! شف كم طفلاً من أطفال الحضانة رأى أباه
مخطوفاً وأمه تنضرب بالشلول لتكف عن الصوات ويتهم يتبعثر وكل مستورهم
ينفضح !! شئ فظيع يا جدع ! والله ما يرضى الله بهذا أبداً !! هل يتركهم الله
يفعلون بالناس هكذا !! ما أظن ! إن انتقامه سيكون شديداً !! صديقك محمد
أبوسن ! هذا الرجل السكر ! كنت تعال شف ماجرى له عند الفجر وهو قائم
يتوضأ ! لو كان من مطايد الصعيد قتال قتلى ما أمسكوه هكذا ولا ضربوه
وجرحوه على الأرض تزغده دباشك البنادق وهرات العسكر !! ما هذا الذي
يجرى للناس في عهد الثورة !! إفرض أنهم حاولوا قتل الرئيس عبد الناصر ولهم
جهاز سرى يدرب الشبان على القتال ! إفرض أنهم ينوون القيام بثورة ! وأنت
معك القوة ! يا أخى اقبض عليهم وحاكمهم باحترام في حدود القانون ! إنهم ناس
مسلمين وموحدين بالله مثلك ليسوا من اليهود ولا الإنجليز !! ثم ما الداعي للقبض
على العجائز المسنين وعلى الطلبة وتلاميذ المدارس ؟ سيد العليشي مثلاً سيضيع عليه
العام الدراسي ويعلم الله كم عاماً آخر سيضيع عليه !! ولكن ! أقول لك : مالناس
دعوة ! هى يعنى كانت بلد أبونا ؟ أنا صعبان على الأطفال ! بكره يكرهوا الدين
والقرآن والوطن وصنف الحكومة حتى كلمة الثورة نفسها سيتعقدون منها طول
حياتهم !! والله لو كنت من جمال عبد الناصر ما كان يهمنى من أى أحد ! ولماذا
تهتم يا جمال ؟ أنت عملت الثورة والناس أيدتك وأحبتك وفرحت بك فما الداعي
لأن تنكد عليهم بهذا الشكل !! أهى حرب !! كل ياعم كل خلنا نفوز باللقمة
التي فى أيدينا ! يا عالم إن كنا نلاقيها بكره أم لا !! ..

وغمرنا صمت عميق استمر طويلاً فيما نأكل بشهية فائقة ونقضم رؤوس البصل الأخضر فى قرشرة لذيدة . وفجأة طرّق حمدي الزواوى بأصبعه كأنه تذكر شيئاً خطيراً ؛ ثم هتف :

- " على فكرة ! بيت قريبك كان فيه تفتيش ! الحاج مسعود زوج ابنة عمك كان منظره يهلك من الضحك ! لم يكن حزيناً على أخذهم لولديه الكبيرين والتشليت فى كل أفراد الأسرة ! إنما كان بلطم ويشق الهدوم على برنيات السمن وبلايص المش التى انكسرت وأجولة البطاطس والعدس التى اندلقت بحثاً عن ذخيرة وأسلحة !! هذه والله حكومة عبيطة وغشيمة ! تظن أن القبض على الناس فى الفجر يعتبر سراً ! وتنسى أن الحوارى التى خرجت هى نفسها منها تلتصق فيها البيوت التصاق الناس بالناس ! وأن من يتقلب فى مرقدته فى آخر الحارة يشعر به الصاحى والنائم فى أول الحارة ! إن كل فرد فى الحارة الطويلة يعرف أن فلاناً يوجعه ضرسه وفلاناً كانت تلد وفلاناً ضرب امرأته للأسباب الفلانية !! التفتيش كان كأنه فى بيتنا !! والحكومة من عبطها تنسى أن الناس متشابكين ! فلان الفلانى من الإخوان المسلمين وأنا لست منهم بل مع الثورة لكن فلان الفلانى هذا فى النهاية قريبى ابن خالتي زوج أختى ابن عمى زميل مدرستى صديق طفولتى !! يا حكومة ياهبلاء يا بنت القحبة ألم تفكرى فى هذا ؟! إنك لا يمكن أن تنزعى الشخص من داره إلى السجن نزع الشعرة من العجين لأنه ليس شعره ، وأهله ليسوا بعجين إنما الشخص المقبوض عليه يتسلخ ويترك تسليحات فيمن حوله ! تساوى كم طلعة هؤلاء الأطفال الأبرياء هذه الطلعة الحزينة البائسة إلى مدارسهم ؟! داهية تسم بدن الذى لا يحس ولا يشعر ! على إيري هذه الثورة التى تذلل الأطفال وتكسر أنفهم !! " ..

تأثرت جداً من كلام حمدي الزواوى . كان رغم مظهره اللامبالى وملامح وجهه المنبسطة شديد الغضب مع أنه ممن يحبون ثورة يوليو وينبهرون بشخصية جمال عبد الناصر . لحيدد اندوش دماغى دوشة شديدة ، إمتلاً بطنين يعكس إحساساً بأن عشرات الناس يتعاركون بعيداً جداً بصوت مدو غير واضح ؛ وكان عقلى يحاول النفاذ من هذا الطنين ليمسك ببرق الصفاء لعله يستكشف سبباً يدعو للإطمئنان

قليلاً. جعلت أذعن بلذة شاردة وقد اسودت الدنيا فى وجهى تماماً ، وبدأ لى الرجوع إلى بلدتى أمراً بغيضاً غاية البغض لكن لا مفر منه . إن الظروف كلها تتكاتف لتدفعنى إلى البلدة دفعاً ، فعلى أسوأ الأوضاع لن يكون هناك شواذ فى يكبس على يافوخى مطالياً بالإيجار وبمعرفة كل شئ عنى وعن حياتى ؛ لكننى سرعان ما أصابنى الدوار كأن رأسى اصطدمت بمحائط صلب ، لحظة أن تبينت أننى فى هذه المدينة يمكن أن أجوع وأنعمى وأنام على الأرصفة كالقمامة دون شعور بالفضيحة أما فى بلدتى فلست أستطيع ؛ رأيت أمسى قاعدة فى فتحة باب دارنا مدارية نفسها فى درفة الباب ترقب الطريق فى انتظار قادم مجهول لا يأتى أبداً ، تضع يدها على خدها كالمحكوم عليها بالبوس الأبدى ، مرتدية جلايتها السوداء الكالحة ، متبشقة بالطرحة الجرباء ؛ وقد كبرت الملامح فى وجهها الأبيض الشاهق المستطيل كغرفة أرنب ممسوكة من أذنيها ؛ تنهد من أصماق قلبها كلما رأت أفندياً ماراً ، من معلمى المدرسة أو موظفى الوحدة الصحية أو الجمعية الزراعية . رأيتنى أهرب منها كما تعودت فأنتسلل داخلأ من باب دارنا الآخر المطل على عطفة تفصل بين دارنا ودار أبناء عمى ! فلقد عرفت من تنهياتها المستمرة فى ازدياد أن فشلى فى الدراسة هو الذى سبب لها كل هذه الحرقه ، هى التى غممت أن ترانى أفندياً بشهادة رسمية من الحكومة ؛ وكانت هذه الأمنية قاب قوسين أو أدنى من التحقيق لولا خيبة الأمل التى حلت بى . فوجعت أن الدار أضيق مما كنت أتصور ، أظلم مما كنت أتذكر ؛ الحجرة التى تنام فيها قلدره ضيقة كظيمة مظلمة رطبة سوداء الحوائط بهباب الكون ولمبة الجاز ، تفوح منها رائحة الصنان والعرق المخزون والعطن ؛ الحصر متاكل الأطراف والوسط كالمنخل كالشبكة وأعواد البردى المتصلبة من فرط القدم والوسخ تترك آثارها محفورة على جلودنا فتبقى ظاهرة على وجوهنا وأفخاذنا وضلعنا كشبهكات مطبوعة بالحفر كنقش ولدنا به ؛ المخدات صلبة مزينة ؛ البطانية مدعمة بقطع من الخيش والملاهيل القديمة ؛ القتال يبدأ فى عز الليل حينما تنوق أجسادنا المهندة لساعة نوم عميق ، حيث تتحرك جيوش حرارة من حشرات البق والقمل والبراغيث تتحرك فى أسراب ودوائر وبور ، تتخندق فى خياطة ملابسنا من الداخل وفى جميع أنحاء المخدات فيما بين الغرز ، لتغير على

أجسادنا المهزولة ، فتظل طول الليل تتقلب فوق نار من اللسع والقرص والنغز لا ينجو لها أوار ، تمتد أيادينا لتهرش فتتلامس أطراف أصابعنا مع أسرابها الآمنة متفتخة بدمائنا ملساء ناعمة ؛ ملابسنا دائماً مبرقشة ببقع من الدم الأحمر ، فأجسادنا وهى تدافع عن نفسها ضد جحافل القرص تتقلب تتحرك بالأرض بأعواد البردى فتتنفص الحشرات الشاردة فينسكب ما نهبت من دمنا ؛ الحجرة لا تدخلها الشمس أبداً ، والفرش - إن جاز تسميته كذلك - يظل فوق السطح طول النهار فتهرب منه الحشرات إلى مستقرها فى نفس المنزل حتى تتجمع وتزحف إلينا لتتوالد فوق أجسادنا كقطيع من الأغنام يرعى فى حقل بلا صاحب ؛ أبى العجوز البائس للمعلم يفهم فى السياسة مع ذلك ، يظل طول الليل ممسكاً بلمبة الجاز يشعل منها فتائل من ورق الجرائد يمرر شعلتها فى أركان الحجرة فوق المصطبة الرفيعة التى ينام فوقها ؛ تزكم أنوفنا روائح كثيرة نفاذة حارقة ؛ رائحة البودرة التى توزعها الوحدة الصحية على الناس لنرش بها الفراش والمنزل كله ، رائحة دماء البق المنفصص والمحترق وهى حريفة مقبضة زاعقة ، رائحة احتراق الورق ، رائحة فساء الإخوة الصغار المستغرقين فى النوم من فرط التعب لا يشعرون بشئ بعد أن اخشوشنت جلودهم فلم يعد يؤلمها قرص كما فرغت دماؤهم فلم يرجعها لسع ؛ أبى الذى يفهم فى السياسة والذى كان فى يوم من الأيام زعيماً وفدياً فى بلدتنا وتم عزله بعد حل كافة الأحزاب ، يقول إن مقالة بصراحة لمحمد حسنين هيكل ليست صريحة تماماً إلا فى كونها أحرقت سرباً كاملاً من البق حيث أن لهبها يرتفع سارحاً فى زاوية الركن فتتسلخ حباب البق عن طين الحائط تتساقط فى قلب اللهب فنسمع طقطقتها فيعزو أبى ذلك - فى كثير من الزهو والثقة - إلى أن صورة هيكل المنشورة على صدر المقال أوهمت البق أنه موفد من قبل جمال عبد الناصر ليقول أن الذى أمر المحتل الإنجليزي بالرحيل عن البلاد ليس بعاجز عن إجلاء وإنهاء احتلال البق والقمل والبراغيث لأجسادنا وفراشنا ودورنا ؛ وكان رجال الصحة يجيئون أحياناً إلى دورنا يحملون بخاخة كبيرة كبخاخة الماء التى كنا نسقى بها الزرع ونرش الأرض أيام عزنا قبل الثورة ، فيرشون دورنا وفراشنا ، ومن يغمزهم بقرش أو بنصف فرنك يتركون له قليلاً من السائل فى زجاجة ؛ فكان أبى حينئذ يوجه لهم

الشكر فى حماسة بما يكاد يكون خطبة سياسية يقول فيها إن حرب الإستنزاف هذه يجب أن تظل معلنة على هذا العدو المحتل حتى يدركها عبد الناصر بجيوشه الجرارة وأبطاله المغاوير من الضبط الأحرار البواسل . رأيت كنية المندرة التى تعودت أن أتسلل إليها كل ليلة هرباً من جحيم الحجرة فأظلم أثقل على خشبها العارى طول الليل يسلفنى البرد فأنكمش فى نفس قدر الطاقة . آخر ليلة نمتها فوق هذه الكنية كانت الدار كلها حزينة من أحلى ؛ أمى لا ترفع يدها عن خدها ؛ أبى يزور عنى كلما جاءت عيني فى عينه ؛ أخى الذى يتعلم صنعة التجارة يتبه على بأنه سيصبح صاحب صنعة فى اليد أماناً من الفقر بعد أن كنت أتبه عليه بالتعليم فى مدارس البندر ؛ أخى الذى يتعلم صنعة الخياطة يحاول كسب ودى لمعرفة ما ورائى من خيرة مع نسوان البندر والسينما وركوب الدراجات مما يوقنون أنه السبب فى إفسادى وإلهائى عن التعليم ، إخوانى الذين يشتغلون أنفراً فى حقول الوسية ينظرون لى بخية أمل إذ كانوا يتعجلون اليوم أتوظف فيه لأقبض راتباً شهرياً يدفعونه للبقال وللكسوة .. فى فجر تلك الليلة خرجت متسللاً حياوى الوفاض من كل ملهم ، مشيت سنة كيلومترات حتى محطة القطار فى بلدة مجاورة ، ركبت القطار مستسلماً لكل الإحتمالات ؛ كان القطار فارغاً تماماً فلم يشعر بركوبى أحد ، نجحت فى الإختباء من الكمسارى فى دورة المياه حتى محطة دسوق فنزلت وعدت ماشياً فى الإتجاه العكسى حتى انتهى الرصيف فمضيت بين الفلنكات مشواراً طويلاً وعمرجت من بين السلاك الشائكة على شارع فى وسط البلد ؛ ظلمت أتسكع فى المشوار على غير هدى ، مررت بمسجد سيدى ابراهيم الدسوقي ، شعرت أنه يتنادى ، عرجت عليه ، دخلت الميضاة فاستنجيت ثم توضأت ثم عبرت إلى المحراب فأقمت صلاة الصبح ثم تربعت بجوار المنبر شاعراً بهدوء منقطع النظر ، أمامى عشرات من طلبة المعهد الدينى يتربعون فى أركان المحراب على مسافات شاسعة مندمجين فى قراءة الكتب فوق كراسيها الخشبية كالصلبان بهلطة وبسيسة ولعاب سائل وحماسة فائقة ، بعض الأجساد تمددت فى صحن المحراب واستغرقت فى النوم بكل اطمئنان ، تلفت حوالى قليلاً ثم مددت ساقى ثم طرحت ظهرى على الأرض شابكاً ذراعى تحت رأسى متأملاً فى السقف المقبب المزركش بخطوط

زخرافية متداخلة تتضوأ بالوان زاهية حمراء وخضراء وزرقاء مبهجة ثم مالثبت حتى استغرقت فى نوم هنئى عامر بالنوس فظلت أصوات صاحبات باعة العرقسوس وشخايل باعة الحلوى ونداءات الباعة وصيحات المحاذيب وكركرة العجلات وغناء المذياح تحيط نومى العميق ببطانة من الأنس الجميل المبهج حتى رأيتنى أطفو شيئاً فشيئاً على سطح بحر النوم فأفتح عينى على يد حانية كأنها تنتشلنى من الأعماق برفق ؛ كانت صفوف المصلين قد التأمّت وارتفع اللفظ ؛ إنتفضت قائماً متجهماً إلى الميضاة ثم عدت فلدحت بصلاة الظهر جماعة ثم خرجت بين أرهاط من الخارجين ؛ إنجهت مباشرة إلى شارع مجاور لمحطة السكة الحديد ، إنعطفت منه إلى حارة جانبية، حيث يوجد فى أوله مكتب عيد العزيز الخبى المحامى ، فى شقة فى الدور الأرضى غائصة فى الأرض تسبح فى الرطوبة عبارة عن حجرة على يمين الداخل وردهة فى المواجهة تتسع لمكتب وأربع مقاعد كانت منجدة ذات يوم لكنها تهرأت وتكسرت سستها فغاصت مقعدها وأصبح الجلوس عليها لأكثر من عشر دقائق مؤلماً جداً، الحجرة مكتوب على بابها على رقعة سوداء صغيرة كلمة : المحامى ، والباب مفتوح وبالحجرة مكتب أكبر كثيراً وبضع مقاعد جلدية سليمة ونظيفة ودولاب زجاجى كبير ملئ بالكتب المجلدة، وفوق المكتب أكداش من الملفات وسماط جلدى ونشافة خشبية ودواة حبر من البللور كبيرة وخنجر ورق ومسطرة ومجموعة ريش وأقلام ، وهى حجرة خالية دائماً إلا فى لحظات من أول النهار وأول الليل حيث تمتلئ بالحجرة بالفلاحين والمشايخ من أصحاب القضايا الأزلية التى لا يتم الفصل فيها أبداً، ويعلو صوت نقاشهم واحتدادهم ؛ أما مكتب الردهة فى مواجهة باب الشارع فإليه يجلس توحيد المغربى بجسده التخين المرغد ووجهه الدائرى الأبيض المتدفق بالدماء فى ملامح مكتنزة متكورة تضيق عيناه على اتساعهما وله تحت الذقن لغد جميل وغمازة فى منتصف الذقن وغمازتان فى الخدين المتفخين قليلاً ، أقرب الناس شبيهاً بأبى فى خلفية الملامح ، سريع الضحك سريع البديهة سريع النقاط المفارقات ولوامع السخرية وغوامض الكلم ومكر الغمز فى الحديث ، يضحك بتشحيير أول الأمر ثم ما تلبث الضحكة حتى تكرر فى صدره فيحمر وجهه يحتقن ويكون قد أعطى نفسه فرصة التفكير فى إعداد الرد المناسب الذى لا يخيّب ولا يطيش ولا

يخرج عن الموضوع أو عن حدود الأدب مهما كان مضطراً لذلك ؛ هو أنيق فى
ملبسه ، على سجنة عشرة دائماً ، رباط العنق كأنه منحوت فوق صدره بالمشبك
الذهبي ، وأزرار القميص والسترة من فوقه من أعلى صوف الإنجليزي وكذلك
السروال والطربوش الأحمر القصير المعلق دائماً على مشجب خلف ظهره بجوار
السترة حيث يبقى جالساً بالقميص وحالات السروال على كتفيه كالصلبان ، فمثله
لا بد أن يتقن مظهر الأفندى بقدرسية واحكام وإخلاص حتى لا يترك لطبقة الأفندية
الأصلاء مثلباً يهاجمونه منه كدخيل عليهم . ذلك هو توحيد المغربى ابن عمتى
وزوج عائشة بنت عمى الأكبر ، وهو وكيل هذا المحامى لكنه أكثر منه وعياً ولباقة
وخبرة بالقنون ومعاملة العملاء وأنواع مشاكلهم التى يستقطب منها القضايا
يشجعهم على إقامتهما فى المحاكم التى يرسلهم إليها كجهة اختصاص ، لىظل
يستنزف أموالهم لسنوات طويلة إذ يظل يلقي الرعب فى قلوبهم بتجسيد مخاطر
القضية التى لا يتم الفصل فيها أبداً وتنفذ الأسباب لتأجيل جلساتها ؛ هو أيضاً
مثقف مع ذلك ثقافة واسعة رغم أنه لم يحصل على أية شهادات دراسية فيما عدا
التعليم الأولى ، يقرأ العقاد وطه حسين والمازنى والمنفلوطى والغزالي وخالد محمد
خالد ، يشترى جميع الصحف والمجلات على اختلاف أنواعها وألوانها فيقرأها
بسرعة ملهلة ، كما أن لديه مكتبة منزلية عامرة ومبهره يعبر منها لأبى كلما نزل
البلدة عصر الخميس من كل أسبوع ليغادرها فجر السبت ، يحتاج الخطباء
والوعاظ ويعارض المعارضين والمؤيدين على السواء يقنعهم دائماً بتسرعهم بخطل
آرائهم بغفلتهم عن الجانب القلائى والزاوية القلائية ، يخطب وده مرشحو الدائرة
والأعيان تحسباً ليوم يرشحون فيه أنفسهم لأى شئ يستلزم تأييده ومناصرته ،
يدخن فى اليوم مائة سيجارة على الأقل من النوع المبطنط ماركة كوتاريللى حيث
يرمى السيجارة بعد منتصفها بنفسين ثلاثة ليشعل غيرها فى الحال بالقداحة المعمرة
بالبنزىن ، وعلبته ممدودة على الدوام أمام الضيوف حتى غير المدخنين ، يصصر على
تقديم القهوة والشايات بغزارة من مقهى على ناصية الشارع العمومى حتى يأخذ
العملاء راحتهم فيتكلموا بوضوح وهدوء ليتمكن هو من إحكام الحصار حول
رقابهم بحيث لا يفلتوا بأى حال من الأحوال ، يقنعهم بأن هذه القضية أو تلك

براعتها ربما السجن سنوات فحسب بدلاً من الإعدام ، يقول ذلك ليس من موقف المتفاوض فى أتعاب بل من موقف الأخ الحانى الواقف فى صفهم حريصاً على مصلحتهم حتى إنه يطلق على المتهم اسم : إبننا فلان أو عمنا أو خالنا فلان ؛ لابد من توقيع العقد ودفع العربون والرسوم والدمغات ودمغات الدمغات وبرطيل الكتبة والدفترخانة وبقاشيش السعاة والفراشين ، وإن هى إلا دقائق معدودة حتى يتحول كل ذلك إلى ملف أنيق مطبوع ينتقل ليوضع فوق مكتب الأستاذ بعناية كباب رزق جديد . فى هذا المكتب زرت ابن عمى مرات معدودة بصحبة أبى ، فكان يبالغ فى الترحيب بنا ويلهب بنا إلى شقته فى حارة بعيدة شرقى المدينة حيث تنفذى وتفرح بنا بنت عمى عائشة . وقد زرتة وحدى حوالى ثلاث مرات على امتداد سنوات الدراسة فى مديرية دمنهور فلاحظت أنه لا يرحب بى كثيراً بل يهملنى طويلاً ثم يسألنى عن الجماعة وعن أحوالى بغير حماسة وفى صوته نبرة جادة متعطرسه وفى النهاية يسألنى إذا ما كنت أطلب شيئاً يمكنه القيام به ، فحين أؤكد له أن زيارتى محض زيارة فحسب يغمزنى بشلن فضى ويحملنى أمانة السلام . ولم أكن أحب زيارته أبداً إلا تحت ضغط قاهر ؛ مثلما حدث ظهر ذلك اليوم عقب تلك الليلة الليلية : دخلت عليه وكان قادماً لتوه من المحكمة فجعل يتصفح الجرائد مع فنجان من القهوة ؛ فلما شعر بظلى يقترب رفع رأسه فابتسم ببشاشة وجهه المعتادة وأوشك أن يقف ليسلم على لكنه بدا كأنه تذكر فجأة أننى ولد فاسد بلطجى ضرب معلمه وانطرد من التعليم مخيباً أمل الأسرة كلها ؛ ظهرت على وجهه كل المقابلات التى انفرد به أبى فيها يتحدث عن أمسى وما سببه له من وجع فى عموده الفقرى ؛ وهكذا سلم على بأطراف أصابعه فى غير حماسة وقد انكمشت الابتسامة على شفثيه وغاضت الدماء فى خديه تم سحب يده من يدى فأشار بها نحو الكرسي كأنه يعطينى الإذن بالجلوس ، فجلست لصق المكتب ؛ تناول صندوق السجائر وهم بتقديمه نحوى لكنه استدرك فارتد به فأخذ لنفسه واحدة أشعلها ورشف من الفنجان رشفة ثم ألقى ببصره على الجريدة المفتوحة مستأنفاً القراءة عاكداً حاجبيه فى تركيز مضيقاً جانبى عينيه خلف المنظار الطبى السميك المستدير كقعر الكوب الزجاجى . إغتنظت منه لأننى كنت بحاجة لتدخين سيجارة رغم أننى

كنت وطلت العزم على الاعتذار إذا ما عزم على زاعماً أننى لا أذخن وإن فساد أخلاقى مجرد إشاعة ظالمة ؛ أما وقد فعل ما فعل وأثبت لى أننى فى نظره فاسد فاسد مهما حاولت الإنكار أو التحلى بمحمد الخصال فأننى ما دريت إلا وأصابعى تمتد بكل حسارة فتفقد على العلبة المفتوحة فتأخذ سيجارة ثم على القداحة فتشعلها ، وبكل تبجح واستنداراً للكبرياء انجصت واضعاً ساقاً على ساق وجعلت أذخن فى شراهة لذيدة متحدية، وقد عقدت العزم على الرد عليه بأقصى ما عندى من خشونة إذا حاول جرح إحساسى بأى حركة أو كلمة أو نظرة؛ لكنه لحسن الحظ لم يفعل، بل تجاهل الأمر تماماً وظل مستمراً فى القراءة لكن صفحة وجهه تشى بأنه يكظم غيظاً وحنقاً شديدين . نويت الإنصراف فور انتهائى من تدخين السيجارة دون أن أسلم عليه أو أستأذن منه ؛ إلا أنه سرعان ما طوى الجريدة وشد حيط الابهتامة الشاحبة على شفتيه المكتنزتين مثل شفتى عمى تماماً ، ثم تنهد قائلاً فى أسى :

- " والآن ماذا ورائك أيها الشقى التعس !! " ..

- " لاشئ ! مسافر إلى دمنهور فقلت أمر عليك لأننى لم أرك منذ ما يزيد على أربع أو خمسة شهور ! " ..

تجاهل كذبتى :

- " ولكن لماذا تسافر إلى دمنهور اليوم !! " ..

- " الأستاذ طارق الشوباشى ناظر مدرسة الزراعة من بلدتنا كما تعرف ! وعدنى بأن يقدم لى التماساً بالعفو عنى وإعادتى إلى المعهد بعد أن تأدبت عاماً كاملاً وعرفت أن الله حق !! " ..

ولم يكن هذا قد دار بخلقى قبل هذه اللحظة مطلقاً ، بل لا أعرف كيف قلته ، لكن بدا على توحيد ابن عمى كأنه تنبه إلى فكرة طيبة كانت غائبة عنه ، وبدا من الواضح انه استحسناها واكتشفها :

- " والله معقول ! قل له إن توحيد ابن عمى يهديك أزكى السلام ويقول لك إنه لن ينسى هذا الجميل طول حياته وسيرده لك فى الأفراح بإذن الله !! " ..

ثم نهض واقفاً، جمع كومة الجرائد والمجلات فتأبطها ، وضع القداحة فى جيب السترة الداخلى تاركاً علبة السجائر لأن يجيبه أكثر من واحدة وفى بيته الأكثر.

مضى خارجاً من المكتب منادياً على الولد الفراش منبهاً عليه أن يفتح المكتب ويبرش أرضه في تمام الخامسة ؛ ومضى أمامي والولد الفراش في أثره ، فتلكأت قليلاً ، وبسرعة طويت علبة السجائر فوضعتها في جيبي ولحقت بهما على الباب . مشيت بجواره بقلب خافق بين الأمل والرجاء والخوف من ضلال ليل مقبل بعد قليل قبل أن أدبر له مأوى أو مئوى . قرب المحطة توقف :

- " ستركب القطار طبعاً ! لم يعد أمامك سوى ربع ساعة ! إكتب لى خطاباً فور وصولك بلغنى فيه عما تم مع الأستاذ الشوباشى ! هاك ربع جنيه صرف به نفسك ! أراك على خير ! مع السلامة ! " ..

قبضت على ربع الجنيه ، سلمت عليه بقبضة مضمومة ثم اتجهت إلى شباك التذاكر مباشرة لألحق بقطار دمنهور الذى يصلها فى مدخل المساء ...

رأيت كل هذا وأنا متربع فوق بنك حمدى الزواوى أدخن وأرشف من كوب الشاي فى حيرة وشروء . شدنى صوت حمدى مشوشاً بذراعه أمام عيني : " إيه! رحى في ؟ تلاقىك بتفكر فى السجن " ، فانبهت مرتعداً ، ولكن سرعان ما بدا لى السجن أرحم بكثير جداً أو على الأقل ليس أسوأ من العودة إلى بلدتى . لحظت منذ اعتدلت هابطاً عن البنك ، سلمت على حمدى ، ومضيت فاتحاً صدرى أبخلق بنظرات متحدية فى أى شرطى يقابلنى .

البير وغطاه

وقع الخبر على رأسى كدبشة مدببة ثقيلة نالتنى على بوزى فلوختنى . كدت أضرب صدرى كالنسون صائحاً : يالهوى ! لكننى عاجلت الصدمة باهتسامة شاحبة حاولت أن أحجب بها نيراناً إرتفع أوارها فى صدرى ؛ ثم رأيتنى أنظر لشوادفى بكل قدرتى على الاستنكار :

- " يا راجل حرام عليك ! ماهدك من هذه الإشاعة ؟! "
- كركر شوادفى بالضحكة كطفل عابت شقى :
- " سبحة الله ! رح بنفسك وشف بعينيك حتى تصدق ؟! "
- " وداد ! تزوجت البورى ؟! كيف ؟! "
- " لست أعرف ما الغريب فى الأمر ؟! "
- " لا يركبان ! غطاء صغير لأناء واسع ؟! "
- " اسم الله عليك يا أخانا ! هذا هو المطلوب ! يسقط الغطاء فى قلب الإناء ؟! "
- " هو لا يكون غطاء إذن ! هما معاً يحتاجان لغطاء ؟! "
- " دعك من هذه الخطرفة ورح خذ الخلاوة ! إنهما الليلة يحتفلان بالسبوع ! ركب الخليفة وبدأ المولد الذى لن ينفض أبداً ؟! "
- " هذا آخر ما كنت أتصوره ! ولكن كيف حدث هذا من ورائنا ؟! إنهما حويطان ؟! "

- " أنت نائم فى العسل هذه الأيام ! منذ مدة وأنت مطيور ! من ياترى أكل عقلك ؟! ورائك سر هذه الأيام ! إن قلته لى نلت خيراً وعافاك الله ! وإن كتمته جعلت من صدرك قبراً تتعفن فيه جثث الأسرار فيشمها كل من يقترب منك ؟! طهر نفسك يا أخانا على السدوم ؟! إنفض ! أرايت إلى الحمار يترك فى الأرض فجأة ويروح يتمرغ وينفض نفسه وينهق بكل قوة غيظه وألمه ؟! إنه مسكين ! لو لم يفعل هذا ما استطاع استئناف الحمل ! إنه ينفض الألم والحسرة وسوء حظه لأنه لا

يقدر أن يستدير ليقبض على زمارة رقبة راكبه فيأكلها ! شيال الجمول لابد أن يفعل هذا وإلا برك تحت الحمل فلم يقم أبداً !".

كلامه كان مقنعاً ، لكننى مع ذلك يجب أن أحذره إن الأرض التى تصلح لأن أتمرغ فوقها مثل الحمار لأنفض نفسى ليست هى صدر شوادفى بالأكيد . إلا أننى لم أجد مفرأ من البوح له بأصل المشكلة التى باتت تؤرقنى : أصدقائى كلهم تم القبض عليهم مع أنهم ليسوا جميعاً من المشتركين فى تدبير أى حوادث اغتيال . أعرف أن حلية دمنهور بالذات من أهم الخلايا وأكبرها ربما لطبيعة أهلها ، فلقد سمعت أحاديث كثيرة من بعض المهمين فى التنظيم يرجعون فيها كثرة عدد الصالحين فى هذه المديرية إلى كونهم فى معظمهم من أصل مغربى متجذر فى الأرض من أيام الفاطميين ، والمغاربة بطبيعتهم أميل إلى التصوف والمجاهدة ، لا غرو فالسيد أحمد البدوى وإبراهيم الدسوقي والشاذلى والمرسى أبو العباس والقبارى والقنائى والسيوطى والطروشى وغيرهم من أصحاب الأضرحة والمقامات كلهم من المغاربة الصوفيين الذين تجذروا فى مصر فبات لهم فى نفوس المصريين مقامات عالية ومكانات مقدسة ذات جلال . من هنا فإن إخوانية الدمنهوريين فى جميع أنحاء المديرية ربما كانت أعمق من غيرهم لأنها تتفق تماماً وطبيعتهم ، وهم تبعاً لذلك أعصاب قوية فى جسد التنظيم الأم ، فمنهم أهم كوادره ، ومنهم طائفة متميزة من عتاة المتكلمين هيهات أن يفلت المستمع من سحرهم وصدق صلاحهم وصفاء قلوبهم ومغالاتهم فى الالتزام بالقيود ومجاهدة النفس وإحماد أطماعها وتطلعاتها وقتل مصادر اللذة فيها . وإنى قد أعترف بتصلبهم الشديد فى الذى يصح والذى لا يصح من أمور الدين والعبادات إلى حد بالغ الحدة والقسوة أحياناً على من يخضع لتعاليمهم .. لكن يصعب على الإعتراف بأنهم يقومون بشغل العصابات من قتل وتخريب وتدمير ؛ ربما لأننى مازلت أعيش هاهنا بعقلية الريفى الساذج السليم النية والطوية .. فليكن أمرهم ما يكون لكننى لا أنسى أن منهم من كان يعطف على ويساعدنى على أمور المعاش دون أن يكلفنى من أمرى عسرا بل حتى دون أن يلزمنى بالإشتراك فى التنظيم ..

هكذا أنهيت كلامى لشوادفى . فحينئذ اعتدل واندمج فى تفكير عميق ؛ جعل يلف سيجارة ؛ أشعلها وسحب الأنفاس بعمق ؛ ثم شوح قائلاً بلهجة من ينبهنى إلى موضوع طال الفصل فيه مع أنه محسوم من الأساس :

- " يا أخانا إن وداد الغازية والبورى وسيد زنتى ورمضان عريجة وقطيطة وقوت القلوب الشامية ودميانة كلهم ليسوا مثلك محتاجين لمساعدة الإخوان المسلمين !! إنهم إخوان مسلمون من حالهم بغير أن يكونوا أعضاء فى جمعية الإخوان المسلمين !! ألم تأخذ فى المدرسة قرآنا يقول إن الله سبحانه وتعالى يكره الأحزاب والشيع ؟ دعك من مثل هذه الحجج التى تداوى بها كسلك !! الذين ذكرتهم لك يقلبون عيشهم بعرق الجبين ولا أحد منهم إلا ويبيت متعشياً فى أمان الله !! أنت عدم الموازنة يا أخانا تبحث عن سلاسل تكثف بها نفسك !! لم يكفك أنك جالس فى مطر حرك الضيق لا تتحرك بل تجئ بسلاسل من حديد تربطها فى عنقك !! إن التعليم لمثلك مفسدة يا أخانا !! وهما أنت ذا فسدت فى التعليم وانتهى الأمر فهل تقضى بقية عمرك تبكى على شهادة لم تنلها بسبب شراسة أخلاقك وتعديك على معلمك ؟ من قال إنك مظلوم سواك ؟ فضها سيرة واشتغل أى شغل يأتى بنقود فالشغل ليس عيباً مهما كان منظره إنما العيب أن تمد يدك لتسجد أو تسرق !! يا أخى فلتسرق ولكن بصنعة لطافة دون أن تمد يدك للنشل !! إفعل مثلما يفعل الكثيرون !! هل تظن أن كل رائج بالمال جاء به من عمل شريف ؟ بالعكس يا أخانا فكلما كثر المال فى يد الشخص كان دليلاً على قلة شرفه !! أنت تؤمن بالمثل القاتل عن بلدنا إنها بلد بتاعة شهادات وأنا أحب أن أرى من ألف هذا المثل الكاذب لأضربه جزمتين على بوزه !! نحن بلد لا قيمة للشهادات فيها حتى شهادة أن لا إله إلا الله يقولونها برو عتب !! إسمع هذه الحكاية البسيطة : فى نجع مجاور لبلدتنا فى الصعيد الجوانى كان يوجد رجل غلبان يدعى أبو رزق حاله مثل حالك مفلس على الدوام وبوزه فقر ونحس ولهذا أطلقوا عليه اسم أبو رزق! من فقره ونحسه تزوج وأحبب وهو بغير عمل ولا صنعة! فلما نبح ظهره تحت الحمل الثقيل ذهب لواحد من عائلته فى الفرع الغنى فتوسط له عند القسيس كى يعينه فراشاً فى الكنيسة ! سأله القسيس هل تجيد القراءة والكتابة ؟

قال نعم ! هل تجيد عمل كيت وكيت ؟ قال نعم ! هل تستطيع الحضور كل يوم في الساعة الفلانية وتنصرف في الساعة الفلانية ؟ قال نعم !! فأمر بتعيينه في الحال لأنه سينفع الكنيسة في أمور كثيرة ! لكن القسيس وهو يوقع قرار التعيين توقف فجأة وسأله : أظنك تحمل الشهادة الابتدائية ؟ فبوغت أبو رزق وقال : لا والله لم أحمل شهادة أبداً !! حينئذ طوى القسيس أوراقه وقال : متأسف يا ولدي فإلحاقون عندنا أن أى موظف لابد أن يكون يحمل على الأقل الشهادة الابتدائية !! فمضى أبو رزق مغتاظاً يندب حظه التعس !! كانت امرأته أشطر منه وأذكى وكانت تشتغل دلالة تشتري الأشياء بالتقسيم وتبيعها للناس في البيوت بالنقد الفوري ! أخذته ورحلت به إلى بلد أخرى لا أحد يعرفهم ! هدفها أن يتخلص زوجها من نحسه !! دربه على شغل التجارة ! أنت وغيرك من التجار الكبار بمدى ما يطلبه من بضاعة يسد ثمنها بعد أن يبيعها ! خذ وأعط يصير المال مالك هكذا آمن أبو رزق بهذا المثل فطبقه على نفسه فأصبح صاحب رسمال كبير يملكه غيره ويتنفع به هو !! بيعة في أثر بيعة إفتح دكاناً ! أصبح للدكان مخزناً ! المخزن اتسع وفاض ! صار للدكان فروعاً في كل البلاد ! بات أبو رزق من أصحاب الأموال !! ثم من أصحاب العقارات والأطيان والألقاب والمعارف من عليه القوم وحكام البلاد !! بمشى وسط حرس كبير ، وعربة تجرها الخيول المطهمة ! وأرصدة في البنوك ! أصبح يتبرع لفعل الخير ويتبنى الكنائس والمساجد يعشقه المسلمون وصار عندهم فرحة بكشك !! إستقبلته الكنيسة التي طرده من جنتها فلهب ليزورها ويتبرع لها !! إستقبلته الكنيسة باحتفال كبير ! القسيس نفسه ألقى خطبة في الإحتفال حممت الرجل بماء العطر والطهر الرباني المبارك !! وحينما ظهر للقسيس أن سعادة الباشا هذا هو نفسه أبو رزق الذى جاء ذات يوم يطلب شغلاً داعبه قائلاً : ولماذا لم تفكر في الحصول على شهادة يا سعادة الباشا وهي سهلة عليك ؟ فضحك أبو رزق وعلق على المألأ بقوله ساخرأ : لو كنت أحمل شهادة لكان زمانى الآن فراشاً فى الكنيسة !! وهكذا أمرك أنت أيضاً يا أخانا ! تريد أن تصبح فراشاً فى الكنيسة وتندم على ضياع الفرصة !! إسمع يا أخانا ! تريد من غد أن تجئ لتحاسبنى فتدفع ما عليك من شهور طويلة ويبقى معك ما تفنطر به وتنغ نفسك ؟! دعنى

أتصرف! بشرط أن تكون ليناً! تتلحح! تكبر مخك! هل البورى مفتوح أكثر منك؟ نعم! هل هو أجدع منك وأذكى؟ إنه ملحاح ولا يربط نفسه بأى أوهام مثلك! لقد تزوج وداد واعتبرها مشروع شغل!! سيشتغل مع سيد زناتى هو ووداد يصبحان من ضمن عدة الشغل عند سيد زناتى! سيكسبان الذهب!! أنت أيضاً يا أختانا تستطيع أن تكون عدة شغل عند سيد زناتى!! أنت لون من العدة يمكن أن يتفوق على جميع الألوان! سيفرح بك سيد زناتى ويعطيك عمولة كبيرة! وكلما أظهرت نشاطاً يزيد فى العمولة ويجعلك من المقربين إليه! ترجع آخر النهار من شغلك تجده جهم لك العشاء من الفراخ المحمرة واللحم المشوى وتسكر معه بالخمر التى يقطرها بنفسه لنفسه!! هيه! ماشى!؟ إتفقنا!؟ لاتنهز رأسك وتلدل أذنيك كالخمار الحرون! قل نعم أو لا!..

- " نعم! " ..

هكذا وجدتني مضطراً لنطقها بخرج وليكن ما يكون . فلأجرب هذا العمل لأعرفه على الأقل ؛ فإن الرغبة فى التجربة عندى أقوى من الرغبة فى الكسب أو العمل فى حد ذاته فى هذا المجال بالذات . ما أدهشنى حقاً هو حماسة شوادفى ، الذى ما صدق أن نطقت بنعم حتى انتفض قائماً ؛ ولأول مرة أراه يغادر المصطفة قائلاً :

- " قم بنا! " ..

ثم مضى أمامى يجر ساقيه ويتبختر كبرج حمام من الطين الأسود ، يتمايل يمنة ويسرة فى طريقه إلى حجرة سيد زناتى .

البلايص

حجرة سيد زناتى متحف صغير مبهر. هى أوسع حجرة فى الوكالة كلها ، ولا بد أنها كانت مصممة لغرض إدارى ، إذ أنها فضلاً عن اتساعها تتكون من ثلاث طوابق واطئة بعض الشيئ ؛ الطابق الأرضى للنوم وكذلك العلوى ، أما ذلك الأوسط فقد خصص لقعدة سيد زناتى وسهراته واستقبال أفراد العدة عند التحاسب. جدران الحجرة كلها مغطاة بستائر من الكتان وردية اللون مغسولة جيداً ، تتخللها شرائح من المرايا كصالون الحلاقى تعطى الحجرة عمقاً واتساعاً كبيرين ، هناك صورة لجمال عبد الناصر باللباس العسكرى أثناء توقيع اتفاقية الجلاء مبروزة بماء الذهب ومعلقة فى حائط الصدارة . فضاء الحجرة مزين بالورق الكريشة الملون فى عناقيد وافرغ وأشكال متكورة كالثرىات والفاكهة . على الأرض كلیم نظيف ، فوقه مجموعة من الشلت الصغيرة والكبيرة والمساند . الجو معبأ بروائح التبغ المحترق والحمص والكحول والسمن البلدى المقلد وح التقلية ..

كان سيد متربعاً فى الصدارة فوق شلثة ومسندين ، كل مسند عبارة عن فخذ هيفاء كالسنيرة براقة العينين ، هاتان هما زوجتها الحديتين الصغيرتين . على مقربة من الباب تزجج - متقابلتين - سنورتان سميرتان تتألق فى وجهيهما نظارة ملهشة لا تتألق إلا فىمن يعتبرن جمالهن شيئاً مميئاً يتعهدنه بالتزبية والتغذية بعيداً عن مشاكل الحياة. أعرف أن هذه القمحية اللون المكحلة العينين تحت مقصوص شعر الجبين المتسرب من تحت المنديل أبو أوية المشغول بالترتر والفل ، بوجهها المستطيل ككوز العسل ، وصدرها المشدود على وترين عريضين تحت جلباب من الشيت المشجر بالوان زاهية ؛ هى زوجة الأولى هنية ، التى تعتبر أساس شغلته وأول عدة اشتغل بها فى حياته ؛ يقال عريشية الأصل مدربة على شغل أهلها كقصاصة أثر . أما هذه الجالسة قبالتها كالفهد بوجه دائر مورد مكتنز للملامح واسعة الفم دقيقة الأسنان يلعب فى شديقتها الجميلين بريق سن ذهبى ، سائبة الشعر ينساب على كتفيها فى جدائل سوداء فكان وجهها مشكاة مضاعة مشكوكة فى خيط خفى بين سحب من الظلال السمرء ، كل تفصيل فى جسدها بض متخشخ ، يكاد يتفجر فى غير امتلاء

مع ذلك ؛ فإنها زوجه الثانية ستات ، التى أثبتت أنها العدة الحقيقية ؛ تتميز بأنها واسعة الرزق باستمرار ، تسيل لعاب العمد ومشايخ البلاد وأعيان المدن وكبار تجارها ؛ تعرف كيف تدخلهم فتضحك على ذقونهم تسقيهم الأرنطة ؛ هى التى تكفلت بتدريب الزوجتين الحديثتين وقد اختارت واحدة منهما ليتزوجها سيد زناتى أو كما يقول أهل السينما لاكتشفتها وجلبتها ، تلك هى الجالسة على يمينه الآن واسمها إكرام ، واسم الدلع كرملة . أما الثانية على يساره - وهى الرابعة - فقد اكتشفتها هنية فى سوق الحياة فاخترتها زوجاً لسيد زناتى أى ألحقها بالعمل ، واسمها جنات واسم الدلع جنونة . لا تغار إحداهن من الأخرى ؛ فالزوج بالنسبة لهن جميعاً هو مصلحة يشتركن فى بنائها مع سيد زناتى . لانهن ذكيات مفتحات دائرات بقدر ما هن فائنات موهوبات ؛ يعرفن أن العدة يجب أن يكون عائلة واحدة تحمى بعضها وتحنو على بعضها ؛ وهذه العائلة يستحسن بل يجب أن تكون بوثيقة شرعية ..

نهضوا جميعاً فى استقبالنا باهتمام شديد . سلمنا عليهم واحداً واحداً . تربع شوادفى فيما بين إكرام وستات ، فيما تربعت أنا بين هنية وجنات . ما أن جلسنا حتى لاحظت وجود وابورى غاز مشتعلين بنار هادئة أمام كل من هنية وستات ؛ على الوابور الذى أمام هنية طاسة كبيرة ملانة بالتبغ عرفت فى الحال أنه فرط أعقاب السجائر التى لا يتكيف سيد زناتى إلا بدخانها رغم وجود أكثر من علبة بلمونت كبيرة مطروحة على الأرض تدخن منها كل من جنات وإكرام . على نار هادئة راحت هنية تقلب فى التبغ بملعة لكى تحمصه فتطرد من جوفه بقايا أنفاس الآخرين ورائحة الصنان والزفارة الناتجة عن سحق بعض الأعقاب فى الأرض بالأحذية . أما الوابور الثانى أمام ستات ففوقه حلة متوسطة الحجم فيها ماء حتى الخافه ؛ فى قلب هذا الماء فى قلب هذه الحلة حلة أخرى صغيرة عائمة ملانة بالسيرتو الأحمر ؛ فوق هذه الحلة مصفاة ؛ فوق المصفاة غطاء ؛ على وهج النار الخافتة جداً يزداد غليان الماء فى قعر الحلة الكبيرة فتشتد الحرارة على الكحول الأحمر فى الحلة الصغيرة فيتحول إلى بخار يتصاعد فيلتحق ببخار الماء فيمتزج به فى طلب اللجوء إلى غطاء الحلة الأملس فيعيد غطاء الحلة تسليمه إلى موطنه من جديد

يسقطه قطرة فقطرة فى قلب الحلة الصغيرة وقد تحول إلى ما يشبه صفاء اللؤلؤ ؛ فإذا ما ارتفع صوت اصطكاك الحلة الصغيرة بالحلة الكبيرة علامة نفاذ الماء أطفئ الرابور وتركت الحلة حتى تبرد ، ثم تجمى ستات بزجاجة من زجاجات الويسكى ، وبواسطة قمع صغير تعبئ الكحول الأبيض المقطر بعناية فى الزجاجة ؛ ثم توضع مع الكفوس أمام سيد زنائى بجوار الفول السودانى المقشر والتمرس والخس والمش ؛ ليشرّب ويدخن حتى آخر الليل ، حيث تبقى من عليها الدور فى المبيت فى حضنه هذه الليلة فى حين تنصرف الأخريات كل إلى سريرها ، إذ أن هنية تحضن من اكتشفتها وكذلك تفعل ستات . هكذا يطلع النهار على سيد زنائى وهو فى مطرحه هذا كملك الملوك فى حضنه سنيورة تسقيه شهد الحبة ويروى ظمأها بالحنان والفتوة . فما تكاد الشمس تبعث رسلها إلى فناء الوكالة مارة على سيد زنائى فى قعدته هذه من خصاص الشباك المطل على الشارع ؛ حتى يكون جميع نسوانه قد صبحون واغتسلن وترين على سنجة عشرة ، تحولن إلى سيدات من أنباء البيوتات الكبيرة ، تفوح منهن روائح عطر ثمين من ماركات شهيرة غالبية الثمن كضرورة من ضرورات الشغل ؛ يلمع الذهب فى صدورهن ومعاصمهن وأصابعهن وأذانهن . بعدها بقليل يهل الرجال بقية العدة ، ما بين بك أوجه من جلالة الملك، أو أفندى من موظفى الحكومة، أو عمدة من عليه القوم أو معلم فى هيئة مقاول أو شهيندر التجار؛ كل واحد من هؤلاء سيتسلم واحدة منهن، ليسرح بها على باب الله؛ لكل ثنائى خط معلوم وهيئة مرسومة بل وحوار محفوظ بل وخريطة للحركة مخطوطة ، كل ذلك يبتكره ويخططه سيد زنائى بعقريّة فذة فيما هو جالس يسكر ويلهو ، يحسب كل خطوة من خطوات العدة بل يكاد يحدد بكل دقة كم جنيتها سيعود به هذا الثنائى أو ذاك تبعاً لطرافة فكرة كل ثنائى أو تراء موقفه وقدرته على استقطاب المشاعر والخواطر المقتعة . بمجرد اتكأهم على الله تكون الجرائد والمجلات كلها قد سربت إليه من حديد شباك الشارع ، فيضطجع على أى سرير فيقرأها كلها بحرفنة ووعى ، ثم يستغرق فى النوم العميق حتى الثالثة بعد الظهر فيصحو كالخصان ، ينزل إلى الطابق الرضى فيجد أن من كانت فى حضنه قبل ساعات قد أعدت له الطست وحلة الماء ، فيستحم ويرتدى أنظف الثياب ، ويخرج ليتسوق

الطعام من فراخ ولحوم وحضروات وفاكهة وسحائر وكحول ، ليعود فيشمر خراجه كأشطر السيدات فيندمج في تنف ريش وتخريط بصل ودعك طماطم وغسل أرز وقدح سمن ، حيث يحلو له أن يتابع نضج الطبخ على البوابير ملطفاً حرارة الجمر بكأس من الكحول الأبيض المقطر ، ويمز بقضيمات منتزعة من الحلال ، منه مز ومنه اختبار لاستواء الطبخ .

.. ما تكاد الشمس تسحب سفراها من فناء الوكالة ممهيداً لقطع العلاقات بسيادة الظلام حتى تكون العدة قد شرعت تتوافد عائدة ، ثنائى بعد الآخر ، فى مواعيد منضبطة ، لابد ان يسمع الجميع أذان المغرب فى هذه الحجرة ؛ وغير مسموح بهامش للتأخير أبعد من أذان العشاء . الثنائى العائد ما أن يصل حتى تفتح المرأة حافظه ليها فتدلق الغلة على مندبل مفرد أمام سيد زنائى ، حيث يرتبها فيما هو يجمعها فى حركة واحدة ، يعدها بسرعة هائلة ، يشرد قليلاً كأنه يراجع هذا الرقم على رقم قدره فى ذهنه للمشوار ، فى العادة إن لم يجيى الرقم كما توقع فإنه ربما زاد قليلاً أو كثيراً . يعيد عد النقود فى ترتيب آخر حيث يفصل عنها قيمة العمولة فيطويها كالسر يغمز بها الرجل قائلاً : ليلتك فل . يفصل مبلغاً آخر هو عمولة زوجه التى رافقت الرجل ، يضعها فى جيب من حافظته الجلدية الكبيرة ؛ يضع الجزء المتبقى فى جيب آخر . ما أن يكتمل جمعهم حتى تكون الطبلية الكبيرة قد امتدت بعيد من الأطباق يتصاعد منها الدخان الشهى ؛ يأكلون ، يدخنون ؛ يحتسون الشاي . ثم يبدأ الشطر الأول من السهرة ، يسميه سيد زنائى بالفرشة ، قوامه حشيش وأفيون ، هنية هى الخبيرة بأمور الرص والتوليع والتسليك والتحصية والتعسيل لأنها حشاشة قرارية ومتولبة لحسبة الحشيش فى الحياة المزاجية لسيد زنائى . غير أن القعدة ليست تحشيشاً وأفينة فحسب ؛ إنما لها قوام يصلبها ويبدأ فى العادة مع أول حجر ، حيث يجيى ورق اللعب الجديد دائماً ، عليتان مضمومتان للعبة الكونكان على مدى حوالى ثلاث أو أربع ساعات لابد وأن تنتهى وقد عادت العمولات كلها من جيوب الرجال إلى جيب سيد زنائى . غير أن سيد ولد مجدع ، لا يرضيه أن ينزلوا من عنده بلاييص لا يملكون أجرة الخنطور أو ثمن الفطور ، قرض كل واحد جنيهاً يسترده فى سهرة الغد . ثم إنهم يشرعون فى الإنصراف

مع دقة الساعة الحادية عشرة ، ليخلو سيد زناتى بنسائه الأربع فى قعدة خصوصية ، حيث يبدأ الشطر الثانى من السهرة ، قوامه الكحول الأبيض المقطر ..

من حسن حظنا ، شوافى وأنا ، أن جئنا فى بداية الشطر الثانى من السهرة .
تلوق شوافى كأساً وضعه أمامه سيد زناتى فتقلصت ملامحه من شدة حرارة الكحول الشارخ فى الخلق ، ثم قال :

- " جئتك بعدة تصلح طيلة وطاراً معا !! لك أن ترى فيه الطيلة أو الطار !
أخونا هذا ابن حلال على ضماتى ! ومفتح وداير ! يريد أن يأكل عيشاً بعرق جبينه ! عنده مخ نظيف ! كان فى المدارس وأوشك أن يصير معلماً لولا سوء الحظ ! مقصودى أنه متعلم وسوف ينفحك ! " ..

صرت هدفاً لغابة من العيون الساحرة راحت تطوف بجسدى كله متمعنة فاحصة ، يتصاعد منها الرحيب مخلوطاً بزهو وإثارة وقليل جداً من الإمتعاض . قال سيد زناتى وهو يسلط عينيه فى عيني :

- " ياترى هل يعرف شغلنا ؟! إن شغلنا صعب لا يقدر عليه أى أحد !! المسألة ليست مسألة تعليم أو مدارس !! إنها توفيق من الله !! أهم شئ فى شغلنا أن الانسان منا يكون فى وجهه القبول ! القبول اساسى فى شغلنا ! طالما فى وجهك القبول من الأساس فإن الناس يصدقونك فى كل ما تقول وتفعل حتى لو كنت كذاباً أفاقاً ! وحتى وهم يعرفون أنك تسرح بهم !! " ..

قال شوافى مشيراً بأصبعه إلى وجهى كنخاس متودك يجيد عرض بضاعته :
- " أخونا فى وجهه مائة قبول ! أنظر فى جبينه ترى شكل الهلال !! وأسناناه مفلوجة من الأمام كما ترى !! أى أنه محظوظ بإذن الله !! " ..

مرة أخرى راحت العيون تطوف بى تتفحصنى تتلکأ عند جبينى وثغرى ، فيما رحت أتبسّم فى شعور بالخرج . قال سيد زناتى :

- " أهلاً به إذا كان معذوراً فى قرشين فإن جيبى تحت أمره !! ولكن عليه أن يكون محباً لشغلنا هذه أولاً حتى يشتغلها . بمزاج رائق كهواية محبة ! فلو أحبها سيجد أفكاراً كثيرة يبيعها للناس بالنهب !! شغلنا شغلة كلام حلو منسق ! وتمثيل

أحلى ! إن كنت عدم المواجهة موهوباً فى هاتين الناحيتين فإن مستقبلك معنا عسل
وقشطة ! فما هى مواهبك ؟!.." ..

رد شوادفى بسرعة :

- " إن أحنانا عضو فى فريق التمثيل فى الحرس الوطنى ! ومغرم بتأليف
القصص والروايات ولديه كلام حلو ! والأهم من ذلك عنده رغبة فى العمل !!
حربه وأنت مغمض العينين وسوف تشكرنى بعد ذلك !!.." ..

إنبسطت ملامح سيد زناتى وشع البريق الفضولى فى عينيه الواسعتين طويلتى
الرموش :

- " دعنى إذن أفكر لك فى رسماية ! ولكن ماذا كنت تشتغل فى الأيام
الفاتية ؟!.." ..

تكفل شوادفى بالرد :

- " كان له صديق تاجر قماش من الإخوان المسلمين ! فكان يساعده فى
الدكان فيعطيه ما فيه القسمة !!.." ..

شدتنا صيحة استحسان قادمة من ناحية الباب ، فإذا هى ستات وقد كررت
صيححتها :

- " بس ! جاءت الفكرة يا سيد زناتى ! الفكرة جاءتنى ! حلو ! الإخوان
المسلمين ! الجدع ابن حلال فعلاً يا شوادفى ! أنا التى سأدره ! أتركوه لى أنا !
سأسرح معه ! سأقول لك الفكرة يا سيد وأنت تلفها وتطبخها ! أما الجدع
فسيعرف الفكرة عند التنفيذ !!.." ..

شوح شوادفى قائلاً فى تفاؤل :

- " الحمد لله ! الخير على قدوم الواردين !.." ..

وتراجع سيد زناتى بظهره إلى المسند ساحباً نفساً من السجارة :

- " خلاص ! على حيرة الله !.." ..

عدلت ستات نفسها ناظرة فى تتأملنى بدقة كأنها تقلبنى التقلبية الأخيرة قبل أن

تشترينى :

- " حبيبى ! لى طلب بسيط هل تفعله من أجل خاطرى ؟!.." ..

- " طبعاً طبعاً!!" ..

هكذا قلت مستشعراً الصدق فى لهجتى ، ثم أضفت :

- " لأمرى!!" ..

تحول وجهها إلى ابتسامة مضيقية بنور أحمر فاتن ، ثم هزت دماغها مطوحة
بخصف من شعرها إلى الوراء ، وأردفت :

- " عندك ملابس نظيفة طبعاً ومحترمة ؟" ..

- " عندى بعضها ! يمكن أن أغسلها !" ..

- " لا ! سيد زنائى يشتري لك بذلة كاملة محترمة من سوق العصر ! سوق

الكانتو فيه ملابس يبيعها البكوات والأفندية بعد لبسة واحدة ! تشتري لك منها
واحدة أو اثنتين بفيلوس قليلة ونحاسبك عليها مما سيكرمك الله به إن شاء الله !
فاهمنى يا سيد يا زنائى ؟ لا بد أن تشتري له بذلتين من سوق الكانتو ! على
مقاسه وآخر شياكة ! بقميص أفرنجى وكرافتة !! و.. ممكن تنظر لى ياجدع ؟" ..

نظرت إليها محاولاً اعتقال ضحكة ، لكننى كنت مستمتعاً جداً بهذا المشهد
الذى بدا لى طريفاً مسلياً . إستشعرت لذة فائقة من تركيز النظر فى عيني هذه البطة
الواسعتين المكحلتين ؛ مصدر اللذة فيما شعرت أن عينيها كانتا تمتصان نظرى
تنشرهان نظراتى فى استيعاب واسع الخدقي ن؛ فشعرت بلذة إضافية لمجرد تصورى
أن القدر ربما يدبر لى مع هذه المرأة الشهية الجذابة جولات مشيرة . أسبلت عينيها
قائلة فى حسم :

- " أمامك عشرة أيام لنبدأ العمل!!" ..

قال شوادفى مشوحاً :

- " عشرة أيام بحالها ؟ لماذا ؟" ..

صوبت ستات عينيها على شوادفى :

- " هذا شغلنا يا شوادفى ! العبارة ليست جهجهون ! الجدع لا بد أن يربى

لحيته!!" ..

- " يربى لحيته ؟ سيشغل فقيهاً أم طريياً ؟" ..

تجاهلته ستات ونظرت لى :

- " هذا هو طلبى عندك ! من الآن لا تخلق ذقنك ! بعد عشرة أيام تعال وأنا أنسقها لك أجعلها على شكل ذقون الإخوان المسلمين ! ويكون سيد زناتى اشترى لك البذلة ! رح معه إلى سوق الكانتو بعد يومين ثلاثة ليقيسها عليك ! " ..

قال شوادفى :

- " ما رأيك يا أبحانا ؟ " ..

- " موافق طبعاً ! " ..

فقال سيد زناتى :

- " خلاص ! قابلنى بعد غد لنشترى لك أجمل بذلة تعجبك وتعجبنى ! " ..

فانبرى شوادفى :

- " إذن أسمعونا الفاتحة ! " ..

أوشكت ضحكى على الانفجار ، لكننى اعتقلتها بشدة ، حينما رأيت الجميع - لدعشتى - قد رفعوا أكفهم نحو السماء واندجوا فى قراءة الفاتحة بورع متقن كأنهم فى المسجد إثر انتهاء الصلاة . مسح الجميع بأكفهم على وجوههم ، ثم إن شوادفى وجه الكلام لى قائلاً إن الفاتحة تقسم ظهر الخائن ، فأومأنا جميعاً بالموافقة على قوله ، وشربنا نخب الفاتحة كل واحد رشفة من كأس واحد . وكانت الحجرة قد بدأت تبدو حميمة جداً ، بدرجة سمترتى فى قعدتى كأننى لا أبغى انصرافاً ؛ لولا أن شوادفى رمانى بنظرة تحية ذات معنى فهمت منه أن الجماعة وراهم شغل فى الصباح الباكر فضلاً عن أن سيد زناتى وراهم مزاج لا بد أن يشوفه قبل انبلاج الفجر . نفضت نفسى قائماً ، سبقت شوادفى إلى الباب فالسلم فالفناء متجهاً إلى حجرتى مفعماً بمشاعر كثيرة مبهمة مشوية بنوع من القلق ؛ إلا أننى ألاحظ أنى استعذبها ولا أرحب بالتفكير فيها ؛ ربما لأننى كنت متحمساً للتنفيذ فى حقيقة الأمر . والشئ الوحيد الذى كنت واثقاً منه هو ذلك الهدير الضاحك الذى انبرى يهلر فى صدرى بضحكات صاعقة ترحنى رجاً ؛ فأيقنت أنها لا بد أن تكون ضحكات ذلك المسمى بالشيطان .

الإهاب

شكل وجهي في المرأة أزعجني وأثارني ؛ كدت أنكر أنه وجهي ، حيث كبرت لحيتي إلى حجم عقلة الأصبع فاختفت بشرتي الشقراء تحت فروة خشنة من الشعر الضارب إلى الشقرة كفروة الخروف، تبدأ بشريحتين بجوار الأذنين تتسعان على الصدغين والخددين والذقن وواجهة العنق. وكنت أجد صعوبة في احتماها وأشعر بضرورة التخلص منها وأكف عن الهرش فيها؛ لكنني سرعان ما نسيت حملها شيئاً فشيئاً حتى بدأت أعتادها..

وحتى بعد أن كبرت لحيتي لم أكن قررت بعد ما إذا كنت سأقبل الإنتماء إلى طائفة كهذه من النصايين والمحتلين هم في الأصل من السفلة الذين من المفروض أنني ذهم اجتماعياً وأخلاقياً وأديباً وما إلى ذلك من تعبيرات تفتنني! فالواقع أنني منذ مدة طويلة وأنا تراودني الرغبة في إطلاق لحيتي ولو على سبيل التجريب أو التمرد على شكل المألوف المثير للسأم ؛ ولم يكن بمنعني من هذا سوى أنني أرى كل من هب ودب يطلق لحيته لينصب بها على الآخرين أو يعلن انتماءه إلى طائفة معينة ؛ ثم إن إطلاق لحيتي سيدمغني بطابع الإخوان المسلمين فأعرض للترحي ووجع الدماغ بغير داع . إلا أنني فرحت بمنظر لحيتي الطويلة، فقد أضفى على وجهي طابع الصلاح رغم عدم وجود زيبية الصلاة في جهتي؛ كما أضفى على شخصيتي مظهر الفنانين والشعراء والأدباء والفلاسفة..

سيد زناتي إهتم بمراقبة لحيتي بانبساط وتفاؤل، وقال إن اللحية قد أكدت له - بحسن منظرها - أنني أنحدر بالفعل من سلالة طيبة إذ أن شكلي هكذا يذكره بشيوخ كثيرين من أهل الصلاح الحقيقي. إمتدت الأيام العشرة إلى شهر كامل حتى باتت لحيتي غابة كثيفة ؛ فاصطحبني إلى سوق الكانتو ، فاشترى لي بذلة كاملة لم أكن أحلم بأنافتها طول حياتي السابقة ، من تلك البذلات التي أراها على أجساد عليه القوم من البكوات ومشاهير الناس ، بتفصيلة محكمة الأناقة متنسقة على جسدي بالمليمتر . ومضينا في ممر السوق الحافل على الجانبين بشتي أنواع الملابس المعلقة على مشاجب وحالات ، قد تم تجديدها بوسائل جهنمية جعلتها تبدو

وكأنها خارجة لتوها من المصنع . طوائف من الناس يقفون فى قلب الطريق فيخلعون ملابسهم علناً ليقبسوا بعض الثياب ينخرطون فى صباح وضجيج وصخب يدخلون فى مساومات وفصال وحلف إيمان مغلفة . هاهنا يتم تغيير الأشكال ورعا تحويلها : فلاحون حشنون حفاة يتحولون إلى أفندية ذوى أناقة تجذب الإحترام ؛ وشبان واولاد بلد يتحولون إلى أبناء ذوات بقمصان نصف كم بتفصيلات أجنبية ؛ آخرون يتحولون إلى ما يشبه البلياتشو . هنا عالم العجائب ، أغرانا بشراء معطف من الجيردين لى وواحد من الجوخ لسيد ، مع قميص من اللينوه وآخر من البوبلين ، ورباط عنق ، وجوربين ، وحذاء من الشمواه ؛ كل ذلك لم يتكلف خمس جنيهات ، لدرجة أن سيد زنائى أعطانى - بالمرة - ثلاثين قرشاً ليكون حسابه عندى خمس جنيهات على القفل . خلعت ملابسى القديمة لأقيس هذه الجديدة فى قلب السوق الحافل وسط أعداد لا تحصى من البشر دوغما حرج ، حيث يتعاون جميع هؤلاء البشر على أن يتم كل هذا وسط الزحام فى سهولة ويسر عجيبين ؛ حتى وأنت تقيس الهدمة سيشارك أكثر من واحد من الزبائن الواقفين فى إبداء الرأى تطوعاً : تمام ! لائقة ! مفصلة عليك ! مثل الكعكة ! يا حلاوة ! نصيبك ! حظك . عجب ! مبروك ! .. ثم إنك إذا اختلفت مع البائع حو السعر فلا بد أن يتدخل البعض لإنهاء العراك الفصالى بكلمات ملطفة ربما حلت الإشكال بالفعل : شوية عليك وشوية عليه ! نقسم البلد بلدين ! إعطه كذا ! .. وهكذا رأيتنى فى مرآة البائع الواقفة بجواره كالإهاب المفتوح أفندياً ابن ناس . أخيراً دخلت فى الإهاب الذى طالماً وقفت أمامه صاغراً من المدرس إلى الطبيب إلى المدير إلى وكيل الوزارة إلى كل من أذاقونى وأهلى صنوف العسف والقهر والذلة . فى الحال استيقظ الغضب فى صدري دفعة واحدة كأن جميع محاسبه قد سابت بفعل تلف لا إصلاح له ؛ شعرت أن قراراً يتشكل فى رأسى بأننى لا يجب أن أخلع هذا الإهاب السلطوى المهيب ما حييت ؛ بالحق أو بالباطل ، مهما كانت الظروف والأحوال . وقال صوت فى مؤخرة رأسى إن بلادنا لا تطلب من أحد شهادة أو سنداً قانونياً أو عرفياً لأى يفعله أو هيئة يضع نفسه فيها حسب مزاجه ، إذ أن كل شئ فى بلادنا يمكن أن تشتره ! إما بالنقود وإما بالنفوذ أو بأى سلطان ، فما بالى لا أتشبث بإهاب يرضى غرورى بغض النظر

عما إذا كنت استحققه أو لا ؛ لقد رأيت ، أو لعلنى سمعت قولاً مأثوراً ، معناه : إذا كنت فى بلد لا تؤمن بالله فليس هناك تهمة بالكفر ؛ وإبنى فى الواقع لزعيم بأبنى فى بلد لا تؤمن بالشرف إلا من قبيل الدعاية والمنظرة والفسخورة الكذابة ، فليس ثمة ، بالتالى ، تهمة بالعار ..

وهكذا مضى سيد زنائى بجوارى كأنه خفيرى الخاص أو ناظر زراعتى ، يحمل ثيابى القديمة ، يتورد وجهه ببسمة كبيرة مضیعة مزهوة كأنه أنهى من رسم لوحة فنية ناجحة وهاهوذا يطلب رأى الجماهير فيها ، يكاد يوجه الشكر والتحية لكل من يرمقنى بنظرة إعجاب بأناقى . ولما رأتنى ستات على هذا المنظر لم تتمالك نفسها من الفرح فأطلقت زغرودة بغير صوت إذ اكتفت بوضع كفها كالمظلة على فمها ولعبت لسانها كالمكوك فى غبطة وسرور واضحين ؛ ثم أمرتنى بخلع هذه الملابس والإحتفاظ بكويتهما لنبدأ بها مشوارنا المنتظر ..

بعد أن شاهدت حلقة لحساب الليلة ، وجلسة القمار المعتادة ، وانصراف كل أفراد العدة ؛ بدأت سهرتنا الخاصة مع نشرة أخبار الحادية عشرة ؛ حيث عجزت عن رفض دعوة سيد زنائى على كأسين من الكحول الأبيض المقطر أو ماء جهنم كما يسميه ؛ إحتملت لهيها الشارخ لأنى تعشيت معهم عشاءاً دسماً مشبعاً . جاءت ستات بأدوات الحلاقة الخاصة بسيد زنائى فإذا هى فى غاية النزاهة ، شفرة كشفرة الحلاق نظيفة ماضية ، فرشاة ذات يد من العاج كبيرة ، أنبوبة معجون ، طاسة نحاسية ، شريحة من جلد السيور لشحذ الشفرة . للهشتى لاحظت وجود بعض أعداد من مجلة الدعوة ؛ أخذت ستات تصفحها حتى جاءت بصورة يعرض الصفحة للشيخ حسن البنا بطربوشه القصير والنظرة الحاملة الوداعة فى عينيه ؛ راحت تتأمل فى لحيته بدقة ؛ ثم ربتنى أمامها ، فردت الفوطة على صدرى ، رغمت الصابون بالفرشاة فى الطاسة ؛ رسمت بالفرشاة خطوطاً على وجهى حددت بها شكل اللقن كما تربلها ، تنظر فى الصورة ، وفى وجهى نظرة ، تمسح الصابون بإبهامها عن بعض البقع . فلما نجحت فى تحديد الخريطة التى سيتم إزالة الشعر عنها جعلت تكثف الصابون فوقها ، وبدرية هائلة راح معصمها المتخترخ المختقن بالدم والإثارة يروح ويحجى فوق خدى وأسفل عنقى وبجوار أذنى . ثم جاءت

بالمراة فصوبتها فى وجهى ، فهالنى منظرى ؛ كان صورة طبق الأصل من وجه الشيخ حسن البنا . دهشت للتطابق بين شكلى اللحيتين . لحظتها فهمت لماذا دوخنى سيد زناى فى سوق الكانتو بجنأ عن طربوش قصير. وحين جاءت به ستات ووضعتنه فوق رأسى محاولة ضبط وضعه بحيث يظهر من تحته جانب صغير من جبينى، نظر سيد زناى فى وجهى بإعجاب شديد ثم شوخ بذراعه مؤكداً أننى فى باكورة الصباح سأتكلم على الله مع ستات لنلقط رزقنا.

الكواليس

الحظة التي رسمها لنا سيد زناتي كانت واسعة الأفق ، دقيقة التفاصيل ، محكمة الأطراف ، عبقرية ، لدرجة أنه زدنا بعدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة عن علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وأبى ذر، التي يتردد ذكرها بكثرة على ألسنة المتحدثين من الإخوان المسلمين . دهشت جداً ؛ إذ كيف عرف سيد زناتي كل هذه المأثورات بل كيف تأتي له العلم بأصولها حتى أنه ينتخب منها هذه العناصر بالذات دون غيرها لكي نستخدمها كأدوات مساعدة نستند عليها وقت اللزوم. هاهو ذا يجري أمامنا ما يسمى بالبروفة أو التدريب ، بأن يتمم أدوار شخصيات قد تعترضنا أو تناقشنا أو تستدرجنا في الكلام أو تدلجلنا لمعرفة حقيقة أمرنا بالضبط؛ يبهنا إلى ما يتعين علينا قوله هنا أو فعله هاهنا ، وأى الكلمات وأى الحركات تكون طوق النجاة عند استحكام المور أو تأزم المواقف..

كانت ستات أبرع منى بكثير جداً في الردود والتعقيبات المتميزة بذكاء حارق. كنت لسذاجتى أظنها وسيد زناتي لا يقرآن ولا يكتبان ؛ فلما لاحظت بهشة بالغة صحة نطقهما للغة العربية الفصحى بتشكيلاتها الصحيحة وحروفها المفخمة خيل لى أننى أجلس مع رهط من كبار المثقفين المتشكرين . لم تطل بى الحيرة فى أمرهما ؛ فسيد زناتي قابل دهشتى الواضحة بابتسامة مشرقة قبل أن يخبرنى بأنه وسنتات من حملة الشهادة الابتدائية نظام زمان بالمصاريف حين كانت ابتدائية ذاك الزمان تتفوق على توجيهية اليوم فى مستوى العلوم والتحصيل واللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية. ثم برق فى عينه كثير من التحدى وهو يشير بأصبعه عمودياً إلى الأرض قائلاً إن الحجر السفلية فيها تلال من كتب أدبية وثقافية ومجلات ربما لم أسمع بها فى حياتى رغم أننى أعتبر نفسى من المثقفين وألبس لباس الأدباء . وقبل أن أستعد لامتحانه عاجلنى بقائمة هائلة من الكتب الثمينة التى قرأها - وبعضها بالإنجليزية - مرات عديدة، من روايات تشارلز دكنز وشيكسبير إلى مقدمة ابن خلدون والأمالى والبيان والتبيين وزعماء الإصلاح لأحمد أمين وقادة الفكر لطف حسين والعبرات والنظرات للمنفطى ؛ كما قرأ تفسير الجلالين وتفسير القرطبي ،

ودواوين أبى القاسم الشايبى والشوقيات والبارودى وحافظ، وعبقريات العقاد ،
وتاريخ ثورة ١٩١٩ ومصطفى كامل للرافعى، ولديه مجلات أبوللو والكاتب
المصرى والرسالة والثقافة ، فإنه - يقول - ابن شيخ يحمل شهادة العَلَمية من الأزهر
الشريف وما يزال على قيد الحياة فى بلدتهم كفر بولين ، وأن سيد حين رسب فى
الدراسة الثانوية عدة مرات رفض العودة إلى بلدتهم لأن المشنقة كانت فى انتظاره
ينصبها أبوه الشديد القاسى ، خاصة أن سيد أرهقه بالمصاريف من ناحية وبكثرة
شكوى الناس منه من ناحية أخرى إذ أنه كل يوم يشتبك فى خناقة أو يضبطه
البوليس باشتباه فى السرقة . ذلك أن سيدا كان يسرق بالفعل ليغضى مصاريفه ،
غير أن براعته فى السرقة كانت تنجيه من المهالك ، لكن ما كل مرة تسلم الجرة ؛
إذ وقع فى قبضة البوليس متلبساً بسرقة دكان بقالة مع اثنين من أصدقائه ، قاوموا
البوليس بشدة لكنه تغلب عليهم ؛ فكان نصيب سيد ثلاث سنوات قضاها فى
الحبس ، ليخرج منه شخصاً آخر ، نسي أنه كان يهوى الأدب والشعر على وجه
التحديد ، لكنه لم ينسى هواية القراءة فظل مواظباً عليها . وإنه ليعترف بأن القراءة
أفادته كثيراً جداً ، فيها قد شعب مداركه واستغل خياله وأصبح مدرّباً على حسن
التصرف فى الخروج من المأزق ..

سيد زنتانى إذن هو الصورة التى أرانى قريب الشبه بها إلى حد كبير جداً ؛ فهل
ترانى أسير فى نفس الخط وصائر إلى نفس المآل كنتيجة حتمية ؟ هنا قام زلزال فى
قلبي ، فصارت الأرض تميل بي يمنة ويسره ، وصرت أحاول التماسك بأى شكل .
ثم رأيتنى أسأل سيد زنتانى ولكن فى صيغة شبه تقريرية :
- " أنت طبعاً كنت تمنى أن تواصل الدراسة فتصبح شاعراً أو أديباً
مرموحاً؟! " ..

فبنقة شديدة ، وبكل بساطة :

- " فى الأول كنت كما تقول ! لكننى ما من شريد بائس قابلته فى الحياة إلا
يتضح لى أنه من هواة الأدب والشعر والزجل وأنه بسبب هذه الهواية المهيبة ركبه
لبوس فلاحصّل ولا وصل ! وفى يوم رأيت بيرم التونسي جالساً على مقهى يأكل
كسرة فول ويتخايق مع الجرسون على قرش تعريفه ! كان منظره يصعب على

الكافر ولحظتها كان صوت أم كلثوم فى راديو المقهى يصدح بأغنية الأمل صارخاً بألم : ما التقتش إليك وسيلة ! ولم يكن الجرسون يعرف بالطبع أن هذا البائس الذى يصبر على استرداد قرش تعريفة هو نفسه مؤلف هذه الأغنية الفياضة بالكرم والنور والخير ! ولو عرف لما صدق أن هذا الرجل محتاج لهذا القرش فعلاً !! لحظتها طلقت هذه الهواية بالثلاثة ! وأنا الآن كما ترى فل ! أعيش كما أهوى ! حر نفسي ! أضع رجلى فى عين التخين ! أكل أحسن أكل ألبس أفخر لبس أفعل ما يحلو !! فاسمع نصيحتى ونفض دماغك من هذه الأمنيات الطموحة المكلفة إن كنت تريد أن تعيش لك يومين فى أمان ولذة واطمئنان !! ..

نبرة الصدق كانت واضحة فى صوته. ومن الواضح أنه يريد بإخلاص أن أنجح فى مهمتى هذه تمهيداً للنجاح فى مهام أخرى كثيرة سوف تتبعها لابد . فجأة قال وهو يلكرنى بكأس صغيرة من الخمر الصحيحة من قنينة زوجته الصغيرتين : - " أسمع هذا المطلع : من غير ما تتكلم .. عرفت قصيدك ليه .. إيديه أهه ! سلم .. حتجى سرك ليه ؟ نظرة عينيك ! لمسة إيديك ! كل اللى فيك يقول وداع .. خلاص ! وداع ! .."

ونظر فى عيني منتظراً التعليق ، فقلت منبهراً إنه مطلع جميل حقاً لأغنية من الأغنيات العصرية . قال إن لديه الكثير منها ، أكمل بعضها وأهمل الآخر . أسمعنى عدة مطالع متتالية فى خيط واحد ، لا يكتبها سوى واحد متودك فى أمور الهوى والموازين الشعرية والكلمات الجارية على ألسنة الناس . كما أسمعنى بعض أغنيات كتبها لمطربى الفراح والموالد والصالات بعضها وصل بصوت مطربها إلى إذاعة الإسكندرية مثل أغنية يقول مطلعها الشبيه بالفولكلور : نحاصم شهر وصالح يوم .. يوم فى الشهر ارتاح م اللوم .. ياللى مقضى هوانا خصام .. كفاية تسعة وعشرين يوم . سألته لماذا لا يقدم لإنتاجه للإذاعة والسينما والإسطوانات ؟ فشخر من شدة سذاجتى قائلًا إن الإذاعة ليست لأمثاله ، ثم قال إنه يكتب لمزاجه ، وإن له لأصدقاء وصديقات من فنانى كباريهات مدينة الإسكندرية يزورونه أحياناً فى الوكالة ويزورهم فى الكازينو عندما ينهب للتصنيف وغالباً ما ينزل ضيفاً على أحدهم فعندها يهبط الوحى فيرسل المطالع والكوبليهات بغزارة . وقال بكل بساطة

ملهشة إنه صديق لبعض كبار الضباط فى المديرية وبعض المشاهير من رجال الحكم
المحلى ؛ فلم أشك فى كلامه ، إذ إنه بالفعل شخصية جذابة توحى بالثقة والشهامة
والإيثار والقوة والفحولة ؛ تلك فى الواقع صفات بارزة فيه . نظر فى ساعة يده
الجوفياى الصفراء ذات الجلد السوداء ، إشارة إلى أن موعد انصرافى قد حان ،
فتهيأت للإنصراف ؛ فقال كأنه يعطينى الدرس الأخير :

- "شغلتنا هذه أساسها الجرأة وجمود القلب! وعدم الخوف! إن خوفك هو
الذى يشير إليك دائماً بأصبع الاتهام! هو الذى يبلغ عنك الشرطة أما الشرطى
فغافل وليس بساحر يضرب الرمل ليعرف ما فى داخلك!! كن أمكر منه فلا تريه ما
بداخلك!! كيف ؟ برود الأعصاب ! بالموجه الكالح الثابت ! بالقلب الجامدا!
بالكلام الموزون بالجواب على قد السؤال كلمة ورد غطاها هذا أول درس تتعلمه
إذا وقعت فى تحقيق أو محضر ! لو زدت حرفاً واحداً فإن هذا الحرف ربما يكشف
المستور ! لحفظ الخطة التى وضحتها لك جيداً وكن ثابتاً أمام ستات فلا خوف
منها!!" ..

وسلم على ؛ فمضيت نشوان الرأس بخمر المغامرة المثيرة . وكانت الساعة
تقترب من الثالثة صباحاً ، ويجب أن أكون مستيقظاً فى الساعة حتى نتكل على
الله فى الثامنة . ولم يكن فى جفونى أى رغبة فى النوم ، لكننى مع ذلك أسلمت
نفسى للفراش وجعلت أستعيد شريط ماحدث وأسترجع تفاصيل الدور الذى
سأمثله فى الصبح فى هزلية غاية فى الطرافة والإحكام .

القبول

وفقاً للخطة التى رسمها لنا سيد زنائى كان هناك مراقب لاشأن له بنا ؛ تمنيت أن أكونه بدلاً من التورط فى القيام بدور فعلى قد يعرضنى للبهلة . سيركب المراقب معنا أى مواصلة نركبها كشخص لا علاقة لنا به ؛ يتابعنا خطوة بخطوة دون أن يلاحظ ذلك أحد على الإطلاق ؛ حتى إذا دخلنا فى مجال الفعل دخل وراءنا كمواطن من عموم المواطني ن؛ فإذا لاحظ أننا قد تعرضنا لمأزق أو ورطة عابرة فإنه يتدخل باعتباره من أهل الخير لمساعد فى إخراجنا من المأزق بسلام . هذا إذا كان الأمر بسيطاً ؛ لكنه موهل للتدخل على مستويات كثيرة مدهشة ، كأنه يتدخل بالعراك لصالحنا بحجة التخليص أو الوقوف بجانب المظلوم ، أو يتدخل لتعطيل الخصم عن اتخاذ موقف بشأننا حتى نتمكن من الزوغان ، أو يتدخل لتضليله . فإن وصلت ورطتنا إلى حد تقف عنده جهوده كأن يقبض علينا البوليس مثلاً فإنه يكون أسرع من البرق ، إذ يقفل عائداً إلى سيد زنائى لإخباره بأمرنا كى يسرع فى التصرف ، ويبقى هو مع ذلك يتابعنا من بعيد لبعيد . على أن من أكبر مهامه معرفة حجم التدخل الذى حققناه لينقل عنه تقريراً مفصلاً إلى سيد زنائى ..

ركبنا القطار إلى مدينة دسوق ، قاصدين مسجد سيدى ابراهيم الدسوقى على وجه التحديد . كان اليوم جمعة ، والحظوة أن نحضر صلاة الجمعة فى مسجد الدسوقى من أولها ، بحيث ألحق بمكان قريب جداً من قاعدة الإمام قبل صعوده إلى المنبر: فالمفروض أننى مدرس لغة عربية فى إحدى المدارس الثانوية فى الفيوم مثلاً ، جئت إلى هذه البلدة أنا وزوجى - هذه - لكى نزور الدسوقى وبعض أقارب لنا ؛ فاحتك بى نشال صفته كذا وكذا - حسب مواصفات بعض مشاهير النشالين فى هذه البلدة - إحتال علينا متكرراً فى هيئة شيال سيوصلنا إلى عنوان أقاربنا ، لكنه فى منتصف الطريق اختفى بحقائقنا التى تحوى هدمونا ومتاعنا ، وبعد اختفائه ظهر لى أنه قد هلف المحفظة من جيب السترة الداخلى حينما رفعت ذراعى لمساعدته فى الشيل حيث انفرجت فتحة السترة فبرز طرف المحفظة فنشلها بخفة يد لم أشعر بها فيها نقودى وبطاقتى الشخصية ؛ وقد ذهبنا إلى البندر فحررنا له محضراً بالواقعة

وهذا رقمه وتاريخه - (وهو بالمناسبة محضر حقيقي أجريناه بالفعل فى قسم الشرطة ونحن فى الطريق إلى المسجد) - وكان الفصل السخيف أننا حين وصلنا إلى أقاربى وجدنا رب البيت بعيداً عن السامعين فى محنة ربنا يفك ضيقته - (مشيراً من طرف خفى ذكى إلى أنه مقبوض عليه ضمن حركة اعتقالات الإخوان المسلمين التى لاتزال طازجة) - والمشكلة الآن أننى وزوجى نبغى السفر إلى محل إقامة أهلنا فى الصعيد الأقصى ، وليس معنا من النقود لا أبيض ولا أسود ..

كانت زوجتى - ستات - ترتدى ثوباً غاية فى الحشمة والوقار يليق بزوجة أفندى من كبار موظفى الدولة ، تغطى وجهها ورأسها كله بطرحة بيضاء لا تفصح عن ملامح وجهها وإن أبرزت شبحها بحسداً. وكنت قد أعدت فى رأسى الديباجة الموضوعية سلفاً لإتقان، والتى تتألف من بضع آيات معينة وجزء من حديث نبوى شريف وبعض كلمات شهيرة من شعارات الإخوان العميقة المؤثرة، معجونة فى بعضها بلباقة فى اطار معنى مستهدف : أن يتأثر الإمام بموقفى ومازقى المادى من الوجهة الإنسانية المحضة ، وأن يعتبر بهذه الأوامر الإلهية والأسانيد الدينية والأخلاقية التى تضع أى متدين حقيقى أمام ضميره ؛ وأن أعزم فى الحديث غمزات مواربة دون تصريح كامل ، بحيث يفهم الإمام من طرف خفى أننى فى حقيقة أمرى عضو كبير وضالع فى جماعة الإخوان المسلمين وأننى هارب من أمام عين الحكومة بحثاً عن مأوى وأننى أطلب هذه المساعدة لتمكننى من الهرب إلى مكان أبعد حتى تنجلي الغمة عن سماء البلاد . كان لابد أن ألجج فى أداء هذا الدور المركب حتى أستفيد قدر الإمكان من حالة التعاطف القوية بين عامة الناس وجماعة الإخوان المسلمين من أبنائهم وأهلهم ، إلى جانب أن الكثيرين سيتعاطفون معنا ليس حباً فى الإخوان بل كرهاً فى هذه الثورة التى أشبعتهم إرهاباً وأوامر عسكرية ..

حضر الإمام فوجدنى فى انتظاره لصق المنبر مندجاً فى قراءة خافتة ، فى حالة متقنة من التهجد والتبتل العميقين ؛ ثم قمت فأديت بعض الركعات ، ثم زحفت نحو الإمام فسلمت عليه والتحمت به . يبدو أن جوهر الأحاديث التى طالما سمعتها بشغف من أصدقائى المقبوض عليهم جميعاً قد حضرت كلها ، فصار لسانى يسبح بمهارة فى بحر من العبارات السخنة البراقة ، تركزت فى جانب كبير منها على

طلب السر من الله فيما نحن مقبلون عليه من ظروف وأحوال وأحداث ، وحول مظاهر الضلال والفساد ، والضعف البشرى فى عصر المادة ، والخوف من الطغيان ومن بطش الطاغوت الذى حل بصدور القوم لينزع مكانة الله . لفرحتى الشديدة لاحظت أن الإمام يتجاوب معى فى انفراده ، إذ يتابع كلماتى فيؤيدها بالدعاء بطلب الرحمة والهداية والرجاء فى أن ربنا يولى من يصلح . حينئذ طرقت الحديد وهو ساخن :

- ".. تصور يا مولانا أنه قد حدث لنا اليوم كذا وكيت فى بلدتكم المباركة؟!"..

فلما انتبه وبان عليه الإهتمام عاجله : أعلم يا مولانا أن اسمى كذا وكذا ، وأصلى وفصلى كيت وكيت ، وحكايتى ربنا ما يوريك . ثم أشرت إلى زوجتى الزائفة التى كانت منزوية إلى بعيد وسط موجة خفية لكنها ملحوظة من نظرات التساؤل والاستنكار والسخرية . فبدت على وجه الإمام أسارات الأسف والتأثر الشديدين ؛ ثم شيع لزوجتى نظرة مستطلعة تفيض بالحرج والأسف . هى الأخرى كانت جاهزة ؛ فما أن تلقت نظرة الإمام حتى نكست رأسها فى الأرض وصار جسدها يهتز بعنف علامة على أنها مندجعة فى بكاء حاد خشية الفضيحة مما يدل على أنها لم تتعرض لمثل هذا المأزق السخيف من قبل . قال الإمام بصوت متهدج :

- " دعها تنتقل إلى زاوية النساء هاهنا !! كل ظالم منه الله !! لا تحمل هماً على كل حال فأهل الخير كثيرون والحمد لله ! وبإذن الله كله يهون ! " ..

قمت متجهاً إلى سنات ، فأنخيت عليها وربت على ظهرها برفق هامساً فى أذنها بعض همسات . فسربت يدها بمنديل حريرى من تحت الطرحة ومسحت عينيها من دموع زائفة ؛ ثم استندت على يدى قائمة ، منكسة رأسها ، إذ أن معظم الصفوف قد جعلت تنظر إلينا فى استطلاع ، تركز البصر على لحيتى وطرحتها البيضاء ، وطرבוشى القصير المطابق لطرבוوش حسن البنا حتى فى ضجعته قليلاً إلى الوراء ، والعطر السخى الوقور المنبعث منا كريح المسك الرصين النفاذ . إتجهت هى حيث أشرت لها على زاوية النساء ، فيما عدت أنا فتربعت فى مكانى بجوار الإمام ، مستغرفاً فى حالة الحرج والأسف التى رسمتها بلقمة مستفادة من التلويحات الطويلة

فى الفريق المسرحى للحرس الوطنى التابع لشعبة الإخوان المسلمين ومقره نادى الموظفين يدمهور الحبيبة . طاف بى خاطر عبقرى أوحى لى بأن هذه فرصة يجب أن أحتر فيها قدرتى على التمثيل ، فبالغت فى الإندماج ، صرت أستهدف عواطفى بمشاهد مؤثرة وكلمات ومواويل وأغنيات باكية ، حتى ارتعشت عضلات وجهى بالفعل فضغطت بأسناني على شفتى السفلى ، وأطبقت جفنى كأننى أعصر ليمونة جافة لم يتساقط منها سوى قطرات هزيلة من دمع شحيح . لم أكن فى الواقع محتاجاً لأكثر من هذا ، إذ ماكدت أخرج المنديل لأجفف به عينى حتى جاءنى صوت الإمام كأنه صوت الخلاص والإطمئنان :

- " وحد الله يا رجل! كل شئ سيهون بإذن الله! ربنا يفك ضيقك وضيقنا جميعاً ويرد غريبتنا!! إن أهل الصلاح والتقوى لا يهانون! وإن شاء الله ستجد أولاد الحلال دائماً فى سكتك! ولكننى أنبهك إلى أن نواحيننا كلها ملغومة بالشرطة وأخشى أن تكون فى رحلتك هذه كالمستجير من الرمضاء بالنار!! إن هندواى دوير من بلدة تجاورنا وهو من هو فى الجهاز السرى ولهذا فالمنطقة كلها مقلوبة!! إن كنت واحداً منهم فإن الله معك ولن يتخلى عنك!!" ..

فكانه ضغط على زر كهربى فانهمرت دموعى فى الحال غزيرة ساخنة حقيقية ، حتى صرت لا أستطيع إيقافها ؛ وفى أعماقى فرح طفولى غامر لنجاحى المبهر فى الإختبار ..

حين صعد الإمام على المنبر خطب خطبة فى منتهى الذكاء واللباقة، شرح فيها ما يطرأ على المجتمع والناس من قلة تراحم ومن تحاف ، نتيجة الخوف من غير الله ؛ وصب جام غضبه على الأيام السوداء والزمن الوغد الذى أسلمنا للإستعمار الكافر بالله ليسومنا سوء العذاب ، ويوصل الشر فى نفوسنا حتى بعد رحيله ؛ ودعا الله أن يحمى الثورة المباركة لأنها خلصتنا منه بأعجوبة كما أزال الت رمز الطغيان دون إراقة قطرة دم واحدة وهذا كرم من الله للشعب المصرى لأن الدماء دائماً أبداً هى دماء الشعب عندما تسيل على الأرض ؛ والتمس للثورة العذر فى تأخير مواسم الحصاد والرخاء ؛ وحث الناس على العودة إلى مبادئ التراحم والتقوى كشاطى أمان وحيدىن أمامهم ؛ إذ أننا فى مثل هذا الزمن الوغد إن لم نترحم ففسادنا بعضنا

بعضاً والملائك يكب على الفارغ فلن يرحمنا الله سبحانه وتعالى بل سيسلط علينا من أنفسنا من يفسق فينا ويسفك الدماء .. اللهم لا تواخذنا بما فعله السفهاء منا .. آمين .. اللهم ولّ أمورنا خيارنا ولا تولي أمورنا شرارنا .. آمين .. اللهم كن لنا ولا تكن علينا .. آمين .. اللهم لا تواخذنا إن نسينا أو أخطأنا .. آمين .. آمين .. آمين !! كانت آمين هذه الأخيرة ترج أرجاء المسجد كأنها صادرة عن كائن خرافي يملأ أحشاء الكون كله ؛ وصحن الجامع الحافل الواسع اللامع بالثريات والرخام وألوان السقف الزخرفية البديعة يردد أصداء الآمين .. آمين .. آمين في مساحات عريضة متكاثرة كمواكب صوتية تسعى إلى معانقة السماء ..

بعد الصلاة في التسليمة الثانية كان خفقان قلبي قلم تزايد بصورة مقلقة ؛ لولا أنني لاحظت أن الإمام يسرع في ختام الصلاة كمن وراءه مهمة كبيرة يود إنجازها قبل إنصراف المصلين . وفعلاً ، ماكاد بعض المصلين يتأهبون للإنصراف حتى انتفض الإمام واقفاً :

- " لحظة من فضلكم يا عباد الله ! " ..

فتوقف الجميع ، وعادت الأحذية إلى أماكنها ، واستقر بعضها في أيدي أصحابها . رفع الإمام ذراعه في تأثر وانفعال :

- " يا إخواننا من عباد الله ! ربنا لا يوقعنا جميعاً في أى ضيقة! وهذا أخ مسلم تعرض لظرف سخيف هو وأولاده في بلدتنا فوق أن ظروفه في الأصل صعبة من حالها! فالمؤمن مصاب كما تعرفون ! وهو الآن لا يطلب من الله أكثر من المساعدة ولو بأجرة السكة الحديد ليعود إلى أهله آمناً مكرماً ! إن الله يحب الذين آمنوا والذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ! والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ! " ..

في الحال أسرع واحد ففرد منديلاً على الأرض ورمى فوقه ثلاثة برايز فضية ذات رنين حلو صاف . تبعه غيره فوضع ربع جنيه ؛ ثم انتهالت الشلنات والبرايز وأنصاف الفرنكات الفضية والقروش كالمطر . صار قلبي يتراقص طرباً على أنغام الفضة وهي تشغلل هائلة مصافحة وفودها المتواصل ، فيما نكست رأسي متمتما بالدعوات كالأغنية تحت موسيقى الفضة . كومة النقود ترتفع وتتسع ، والقروش

البرونزية الحمراء المشرشرة الثقيلة تندحرج ساحة معها أنصاف الفرنكات الخفيفة إلى بعيد فسرعان ما تشكل حاشية سرعان ما تتحول إلى كومة مجاورة . كنت حائراً فى كيفية التصرف لولا أن جاءنى صوت صاحب المنديل يوجه النصيحة فى صيغة غير مباشرة :

- "لم فلوسك يا حاج ! أنت مكسوف ولا ايه ؟ حظ فى جييك واستنى لسه الخير كثير حاي !!".

رفعت رأسى ناظراً تجاهه فإذا هو المراقب المكلف .متابعنى ، وقد تقمص دور واحد من المصلين المتبرعين . صرت أكبش وأضع فى جيوبى بسرعة وأتزان ؛ والقادمون من آخر المسجد يرون كومة النقود صغيرة فيزيدون الهبة أضعاف ما اتنوه . قبل خروج آخر مصل فوجئنا ببعض الرجال الملتحين ذوى الجلابيب القصيرة والدلات والقفاطين يقبلون نخوتنا حاملين بعض اللقائف يقدمونها إلى :

- " لقمة صغيرة !".

حدست أنها تحوى خبزاً وكباباً مشوياً . شكرتهم ودعوت لهم بالستر . ثم حملت الهبة ونهضت واقفاً أتلفت بحثاً عن ستات ، التى رأيتها تقبل نخوي كالأوزة الوقورة تتعثر فى حجل متقن الصنع . فلما رأت المراقب واقفاً قبالتى ظهر عليها كأنها لا تعرفه ولا شأن لها به . رأيت من الدوق - وحسن الصنعة أيضاً - أن أسلم عليه شاكراً فضله وفضل بلدياته على إكرامهم لنا هذا الكرم الوفير ؛ فأرعى جفنيه على عينيه وهو يسلم على ويغمزنى بقبضته قائلاً بلهجة ذات معنى :

- " إتكولوا على الله ! طريق السلامة ! خلى بالك من نفسك ! ربنا معك !".

مددت ذراعى لستات فتأبطته فعبرنا عتبة المسجد إلى الشارع ؛ فمضينا بخطوات بطيئة وقورة فى اتجاه السكة الحديد . مررت بمحلات حلويات الصردى فاستيقظت طفولتى المحرومة من حلوى الصردى المشهورة فى قرينتنا ، كدت أعرج عليها لشراء بعضها لكنى رسمت الجهامة على وجهى ومضيت نحو شباك التذاكر فقطعت تذكرتين إلى دمنهور ..

ولم تكن الشمس قد لمت كل غسيلها بعد من فناء الوكالة حينما دخلناها مندحين فى الدور بتصلب يصعب تفتيته، حيث كانت ستات مازال تتأبط ذراعى،

ومشيتنا ما تزال وقورة بطيئة غير أنها تكاد ترقص طرباً. كانت رائحة الدجاج الحمر تستقبلنا مغطية على صبيحات شوادفى الصاخبة بالغبطة والمزاح والسخرية :

- " ياترى على النفخة الكدابة دى سبع ولا ضبع ١٩" ..

فرمت إليه ستات بنظرة متعالية من فوق كتفها واستأنفت السير بجوارى بحركة مسرحية راقصة . وكان سيد زناتى قد سمع زفة شوادفى فخرج لاستقبالنا فى فتحة الباب حيث أحمر وجهه من شدة الإنبساط والتفاؤل . فما كادت نظراتنا تتلاقى حتى اتسعت البسمات وتلاّأت على الوجوه . سلمنا على سيد بحرارة أغمته بالأمل الكبير ..

جلسنا نعد النقود . كانت أكثر من مائة وخمسين جنيهاً ، ثروة كبيرة جداً بالطبع . وزعها سيد ، فنفحنى أربعين ، وأربعين لستات ، وثلاثين للمراقب ، وبضع برايز زائدة أرسلها لشوادفى تحية له على اكتشافه لى كعدة جيدة ، وتقديراً لنجاحى أعفانى سيد من دفع الجنيهاات الخمس التى كسانى بها . وبعد أن أنهى قسمته العادلة أشعل سيجارة محمصة واستند بظهره على المسند :

- " هذا هو الشعب المصرى ! كل قرش دفعه كان يتمنى فى الواقع لو كان سهماً فى قلب العدو ! إنه يكيد به للحكومة ! ويشترى الواحد لنفسه جميلاً مشابهاً إذا ما وقع ذات يوم فى مأزق مماثل ! الحمد لله أن وفقك فى مهنتك ! أنا كنت متأكداً من هذا ! وهذا هو المبلغ الذى كنت أتوقعه !! الآن عليك أن تستعد يوم الجمعة القادمة لتكرار نفس العملية فى بلدة ثانية فى مسجد كبير مشهور ! ولكن بتمثيلية جديدة سيوفقنى الله فى اختراعها حينما تسخن دماغى !" ..

قرب انتهاء السهرة كانت دماغ سيد زناتى قد سخنت بالفعل ، وتخفضت عن تمثيليات كثيرة . ورغم أننى لم أكن على شئ من الحماس لتكرار العملية ربما بدافع الحرج وربما الخوف ؛ فإننى انصرفت على وعد بالهجوم فى باكورة الصبح لأسرح مع ستات سرحة سريعة . ما كدت أرمى نفسى على الفراش حتى فاحت فى خياشيمى رائحة عطر ستات فاستحضرت جسدها كله ووضعتة فى حضنى طوال الليل .

الليلة الكبيرة

كانت ستات تنسق لى لحيتى استعدادا للقيام بنفس التمثيلية غداً الجمعة فى مسجد الأحمدي بطنطا . عندما صافحت أنفاسها العطرة وجهى وهى تقترب بفمها المطبق على عقدة الفتلة التى تنتف بها الشعيرات الهشة حول أذنى وأنفى ، تذكرت لحظتها أننا وحدنا فى الحجرة بطوابقها الثلاث ، وأنسى جالس على نفس الشلثة التى يجلس عليها سيد زنتانى . خفق قلبى بشدة وتسارعت أنفاسى كأننى اكتشفت نفسى عارياً فجأة فى قلب الشارع ، أو كأننى لقيت فى الطريق لقيه ثمينه وأخشى أن يشاركنى فيها من رآنى أو ينتزعها منى ..

كان سيد زنتانى قد سافر فجر اليوم إلى القاهرة لحضور الليلة الكبيرة لمولد الحسين ابن على عليهما السلام . تلك هى عادته السنوية : حضور الليالى الكبيرة لموالد المشاهير من الأقطاب الدسوقي والأحمدي والحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والنبوية والقنائى وحتى ذلك المسمى بأبى سريع المدفون فى مكان بعيد فى أقصى الصحراء القاحلة والطريق إليه شديد الوعورة ، ومع ذلك يحرص على الذهاب إليه أكثر من حرصه على أى شئ آخر ، لأن سره باتع ، يكفى أن هذا العدد الغفير من الناس من جميع أنحاء البلاد يسافرون إليه دونما أى شعور بالمشقة ؛ أغلب الظن لقضاء أسبوع كامل فى هو وصخب لا تحلها حدود ، حيث يفجر الناس ويفسقون عياناً بياناً دونما رقيب أو حسيب . الموالد بالنسبة لسيد زنتانى - كما فهمت من شواهد كثيرة - تعتبر سوقاً واسعاً لمشروعاته العديدة فى التغرير بالسذج والإستيلاء على ما معهم من نقود ، حيث يبيع لهم الأروهام والضلالات . على أن أهم ما يجذبه إلى الموالد هو الالتقاء بأمرأة تصلح أن يضمها إلى عده أو برجل يصلح للقيام بإحدى المهمات . أما مولد الحسين بالذات فلن سيد زنتانى يذهب إليه بدافع التقوى فحسب ، وبحكم حبه الحقيقى لآل البيت كلهم . زيارته السنوية للحسين والسيدة والنبوية هى نذر لا بد أن يقى به مهما كانت مشاغله كثيرة . فى العادة يأخذ نساءه الأربع ، لكنه اليوم صعب عليه أن يضطلع على ستات وعلى نفسه فرصة مكسب كبير ربما أكبر مما حصلناه من مساجد أخرى ومحطات

سكك حديدية ، فأكد لنا أننا سنعود من طنطا آخر النهار بمحورين بإذن الله وعلينا أن نفسخ أنفسنا في طنطا ونتعشى بأى مبلغ يرضينا ..

صارت يد ستات تدعك خدى برفق ونعومة بحشاً عن أى شعرة متخفية لكى تنزعها بالفتلة . جعل صدرها يلامس كنفى ويتهدل فوقه . سخنت الدماء فى عروقى ، إنتفض بداخلي شعور بالرغبة العارمة التى لا تقاوم . أمسكت بيدي ستات ، دعكت شفتي فيهما على سبيل الإمتنان لعنايتها بى . كان سيد زناتى قد ترك لى ربع زحاجة كونيكا أعدل بها مزاجى هذه الليلة حتى أنام بعمق استعدادا لمشوار الغد . قلت لستات إننا يجب أن نراجع تفاصيل التمثيلية التى سنلعبها غداً ، فقامت وجاعت بالزحاجة ، وأعدت بعض المزة الشهية، وأعدت النار وحجارة الجوزة لنشرب حجرين يعدلان مزاجها الميال للحشيش أكثر من الخمر التى تعتبرها رجساً من عمل الشيطان ..

إشتعل مزاجنا واشتط إلى بعيد ؛ فسرح بنا زورق الحديث فى مسالك ودروب وشعاب غريبة وبعيدة : حدثتها عن الكثير من وقائع حياتى ، عن قريتى ، عن أهلى، عن البنت التى كنت أحبها فى البلدة ، عن ابنة عمى والجفاء القائم بينها وبيننا ، بل حدثتها عن حبى لهدرية بحرارة أوشكت أن تقودنى إلى الإعتراف بما حدث بينى وبينها ؛ كما حدثتها عن مشاكل النفسية مع زملاء المعهد من أبناء الأسر المستريحة وتحيز الأساتذة لهم والنظر إلى أمثالنا باحتقار وتأفف ؛ وعن المشاكل القضائية التى قامت بين أبى وأبناء إخوته حول ميراث قطعة أرض ملحة بيعت فى النهاية لنسدد بئمنها الضئيل أتعب المحامين ورسوم المحكمة التى استندناها عند رفع الدعوى . وكنت لاحظ أنها تستمع لى بشغف واهتمام ، ونظراتها تشع بالتعاطف الممزوج بالإستلطاف والإعجاب ، بل صرحت بأنها تستطيع قلبى . هى الأخرى حدثتني عن نفسها : إن أمها من بلدة كوم حمادة وأبوها من بلدة الطود ؛ كان جاورشاً فى الجيش ومات فى حصار الفالوجا فى حرب فلسطين فى أواخر الأربعينيات . تزوجت أمها من شيخ خفراء البلد السابق ، زواجاً عرفياً بدون ورقة رسمية إذ أن أمها كانت تريد أن تحافظ على المعاش الذى تنقضاه من الحكومة كل شهر وفى نفس الوقت تنعم بزواج ينفق عليها ويرضى شهوتها . وكانت ستات فى

السادسة عشرة من عمرها حين استملحها زوج أمها فبات يغازلها غزلاً صريحاً مكشوفاً ، وينتزه الفرص للإفتراد بها وتفتيح وعيها على ما لم تكن تعرفه من أمور النساء . وقد حاولت هي أن تهرب منه لكنه حاصرها بقوة ، غرر بها ، سلبها عفافها ذات يوم فى عشة الدجاج فوق سطح المنزل مثل فيلم كمال الشناوى وشادية . وأحسست هي باللذة فاستمرت اللعبة أصبحت تستجيب له كلما دعاها بل أصبحت تنتظره كل ليلة . وكان قد هددها بالقتل إن هي أخبرت أمها بذلك أو جاءت بسيرة ما حدث أمام أى أحد . إلى أن ظهر المستور بانتفاخ بطنها ، فتم عزلها فى المنزل خشية الفضيحة . إرتاعت أمها طالبت زوجها بالتحقيق فى الأمر لمعرفة اسم المعتدى كى يدفع ثمن غلطته . المولم أن زوج أمها عقد لها بالفعل محاكمة ليلية قاسية محاولاً إجبارها على ذكر اسم الفاعل ، أى فاعل ، يذكر لها أسماء معينة يشك فيها لكى تختار واحداً تتهمه . عقدت الدهشة لسانها ، لم تعرف كيف ترد ، لا تجذ غير البكاء والتهديد بحرق نفسها . فى لحظة يأس صرحت لأنها أن الفاعل هو زوجها لا أحد غيره . واجهته الأم ، وواجهته ستات ؛ فما كان منه إلا أن انهال عليهما ضرباً بالمسوقة ، وعير الأم بابتتها ، زعم أنهما جلبتا له الفضيحة والعار ، رفع صوته بالغضب والهيأج قبل أن تحاصره الشائعات فى الكتمان : خذوهم بالصوت لئلا يغلبوكم . الفضيحة أصبحت حاضرة فى كل مكان فى البلدة تفضى بها شواشى النخيل للريح فتلقح بها شبابيك البيوت وأسطح المنازل وموردة الغسيل على شاطئ المصرف ووابور الطحين . الأم المسكينة الغلبانة لم تجذ مهرباً من الهرب ، فكرت فى الموت لكنها كانت مؤمنة ؛ غمّت أن لو كان للبنت أختاً أو ابن عم أو ابن خال إذن لأراحها من عار البنت . فى فجر يوم مسود الوجه سحبتها الأم وخرجت متوكلة على الله إلى أى مكان لا يعرفها فيه أحد . أدركتها الشمس المسودة الوجه كجمرة غطسانة فى غبار الفحم الملهيب نارها . تحت ظل صفصافة بعيدة فى زمام بلدة بعيدة أجلستها الأم فى دورة حوض ساقية مهجورة ؛ فشختها ، سطختها على ظهرها ، جاءت بعود أخضر من جذر الملوخية أو البطاطا لا تذكر ، أدخلته فيها عن آخره ، فكان سيخاً من الحديد الحمى بالنار . قد اندب فى أحشائها فثقبها . صرخت من نخاع قلبها ، فكتمت أمها أنفاسها

بطرف شاشها فصارت تعض الشاش تزوم تزار ، والدماء تنهمر زاحفة يبطء فى حوض الساقية تتخلله كتلة صغيرة . إنزلقت منها كتلة كبيرة لزجة عرفت من قلبها أنها الجنين ، فراحت تغالب الألم والعذاب تتمنى أن تأخذها غيبوبة لا تفيق منها أبداً. مع ذلك رأت أمها وهى تسرع بتجفيف دمها وغسلها ، تفتح بالحفان من بحر الساقية وتغسل ، تضع فيها بعض أشياء مصنوعة من بعض أصناف العطاره داخل حفاض ، حتى أوقفت سيل الدماء . حملت نصفها الأعلى بكل ما تبقى فيها من قوة بائدة ؛ مضت تخرج نصفها الأسفل على الأرض وجدائل شعرها متدلّية تكنس الأرض كجدائل الصفصاف . وسط أشجار التيل نبتتها ممددة على ظهرها ، خلعت اللبس الأسود المكشكش الأضلاع ، فردته فوق شواشى أشجار التيل ، فصنع مستطيلاً من الظل حبس تحته الهواء غربله حوله إلى نسيم طرى فى قيط الضحى فى عز زمة النيل فى بؤنة . جلست بجوارها تبكى بحرقة يئنفض جسدها فتصدر الأرض من تحتها ونيناً كاللوى المكتوم الذى يحدث عند اقتراب القطار من بعيد:

- "بقى كده ياستات ؟ إحص عليكى يا أختى ! طب قوللى من الأول قبل ما تقع الفاس فى الراس ! فطينى ! لكن الكلب المسعور ! ربنا ينتقم منه ! أشوف فيه يوم ! أشوفه متقطع حتت تحت عجل القطر ! أشوف الكلاب بتاكله ! أنا أستاهل يتعمل فى كده ؟ ! له يارب ؟ ! دانا مومنة ومصلية ! دانا غلبانة وحدانية !! ! يمكن أذنبت وأنا ما اعرفش ! ! أنت وحدك اللى تعرف والعبد ما يعرف ! ! أنت اللى عالم بحالى ! أروح فىن بيها دلوقت ؟ ! ! ساحنى يارب ! النبى حبيبك تساعنى ! سايقة عليك الإمام والسيدة زينب والسيدة نفيسة وسيدنا الحسين ! ! خذ بيدى ونجنى من دي البلوى ! ! نذر على إن نجيتنى من الفضيحة وسرت عرضى أن أعمل ختمة وليلة لأهل الله ! ! .."

كانت ستات تعرف أن أمها لن تغلب إذا ما استراب فيها أحد من السائرين . خلل الغيبة المتقطعة شعرت ستات بأمها وهى ترك القفة بجوارها وتقوم فتجمع أعواد الحطب والقش وفروع الأشجار اليابسة ؛ جاءت ببعض قوالب من الطوب ، نزعته من عشة متهاكة بجوار الساقية ، صنعت منها كائناً ، كومت فيه الحطب ،

أشعلت فيه النار ، أخرجت من القفة حلة فيها دجاجة مسلوقة بالأسس ، وضعتها فوق النار ، صارت تنفخ وتمروح بذبل جلبابها ؛ حتى سخن المرق ؛ فأنزلت الحلة ووضعت مكانها حلة صغيرة مليئة بالمغات المخلوط بالسمسم والسمن البلدى . ثم انقطعت الصلة بين ستات وبين كل شئ حولها لمدة طويلة كأنها الدهر ؛ إلى أن شعرت بيد تلكزها برفق تحت ذقنها ، ثم يبدین ترفعان رأسها عن الأرض ، فاعتدلت قاعدة شاعرة ببطن أمها يلتصق بظهرها . بيسراها أحاطت كتفها الأيسر؛ بينما صارت تغرف بالمغرفة من السلطانية وتقربها من شفتى ستات هامسة بصوت يشبه مواء القطط : " إشرى يا احتى ! كلى ! " ، فتشرب ، وتقصص لحم الدجاجة إلى شرائح تسربها فى فم ستات . ثم قالت الأم وهى تعيدها برفق إلى وضعها متمددة على ظهرها :

- " فيه كمان فرختين طايين ! أول ما تجوعى اطلبى وأنا أسخن وأديكى ! " ..
ونفضت إلى الكانون فافرغت شراب المغات المحلى بالسكر فى كوب كبير، وعادت فأنهضتها من حديد وسقتها كوب المغات ثم نيمتها . وكانت الشمس قد بدأت تميل إلى الإحمرار حينما اقترب منهما رجلان أحدهما عجوز والآخر شاب فتى . تقدم العجوز فسأل الأم عما تفعله فى أرضه ؟ فانهمرت باكية ، حكّت له كيف أن زوجها فلان الفلانى من البلدة الفلانية قد أغضبها فسحبت ابنتها هذه قاصدة أهلها فى كوم حمادة لكن البنت كانت حاملاً فتعبت فى الطريق فسقطت وهى الآن لا تعرف ما الذى ستقوله لزوجها الغائب فى ترحيلة شغل . فتقرصص العجوز بجوارها ، وأرسل أبنة الشاب إلى البلدة فجاء بحصير وبطاطين ومخدة وداية وعشاء وسكر وشاى . قلبت فيها الداية فاطمأنت على سلامتها ، سقتها شيئاً ثم فرشت الحصير والمخدة ونقلتها إلى نومة مريحة بغطاء ؛ وجلست مع الأم فاندجبتا فى همهمة وحديث غير مفهوم لها . تناولن العشاء أرزاً محمراً باللحم البتلو والحمام . وهبط الليل فاشتعل منقد النار ، وجاء كل أصدقاء العجوز وأولاده فسهروا معه فى سفح الساقية تحت شجرة الصفصاف حتى الصباح ؛ فانصرفوا ؛ وجاءت زوجته وبنااته يحملن الفطير الذرة واللبن الرائب والقشدة والرقاق الناعم والبيض المقلّى فى السمن . أكلن ، وبقين فى كلام وحديث حتى أذان المغرب فانصرفن ماعدا الداية .

وبعد العشاء جاء العجوز بصحابه فسهروا ثانية . وكانت ستات قد شعرت بأنها استردت بعض وعيها ، فصحصحت ، شبعت من الطعام ، شعرت أنها فى الصباح يمكن أن تستأنف السير مع أمها إلى أى مكان تريد . الرجل العجوز إتضح أنه شيخ عرب ؛ لم يقبل ترك الأم وابنتها وحيدتين فى الطريق فى هذه الظروف ، فأمر ابنه أن يوصلهما بالركائب حتى يسلمهما لأهلهما فى كوم حمادة ؛ مما اضطر الأم إلى قبول الذهاب لأهلها رغماً عنها . هناك لم يجد الشاب أحداً يستقبله ليعمل معه الواجب ، تركهما عند باب الدار وقفل عائداً . الأم نفسها لم تجد من ييش فى وجهها لأن الخير المشعوم سبقها واستقر ؛ فأمضيتها ليلة فى غاية من السوء فى دار أهلها ، حيث لم يبق من أهلها على قيد الحياة سوى خالة رجلها والقبر ، وابن عم عجوز شغلته ثمل فى بقايا بيوت الوسية لا يمكن فى البلدة أبداً . فى الصباح خرجت الأم وابنتها من جديد . إلى بلاد الله خلق الله ، بلد تشيلهما وبلد تحطها حتى وصلتا إلى دمنهور المدينة الواسعة التى يتوه فيها الناس وتنسّر الخطايا . باعت الأم عقدا وقرطا ذهبيين كانا كل حيلتها ، إشتريت عدة شاي بنصيحة أهل الخير ، إستقرت على الرصيف أمام محلج بركات تقدم الشاي والقهوة والقرفة والبنسون لعمل المحلج والدكاكين المجاورة ، وتطبخ العلس والفسول النبات لإفطارهم ، هى تصنع ذلك وستات تحمل الطلبات على الصينية توصلها هنا وهناك . بحثتا عن مأوى للنوم ، دلهما أولاد الحلال على وكالة عطية . فى نفس ليلة وصولهما كان سيد زناتى خارجاً لتوه من السجن وجاء يسكن الوكالة ؛ وطد علاقته بشوادفى حتى أدخله له هذه الحجرة . كانت الأم وابنتها فى الحجرة السفلية فصار سيد زناتى يشاغب ستات يطارحها الغرام وهى تصده بقوة وعقدة نفسية من الرجال . إلى أن لمست حبه لها واستعداده للتضحية من أجلها ، فرضيت به زوجاً على سنة الله ورسوله . ما كادت الأم تطمئن إلى أن ابنتها أصبحت مسئولة من رجل شديد البأس حتى ودعت الحياة فى هدوء ، وبدون مرض ، نامت فى الليل كالعادة ، وفى الصباح لم تستيقظ ؛ فأقام لها سيد زناتى جنازاً لائقاً ، ودفنها فى مقابر الصدقة ، ومنع ستات من شغلة الشاي هذه ؛ أخذ يدربها على شغله الذى أحبه بقدر ما أحبت شخصية سيد ، فهو ما يزال يحبها أكثر من بقية زوجاته وإن كانت عافيته

باتت تنهب كلها للصغيرين ، وما يزال يجد متعة في أن يقرأ لها في آخر الليل ما يعجبه من صفحات كتبه ومجلاته التي باتت هي تنسّقها وتحافظ له عليها ، باتت تحبها هي الأخرى ، لأنها علمتها أشياء لم تكن تخطر لها على بال ..

كانت سحب الدخان تملأ فراغ الحجرة وكنا كسمكتين في بحر من الدخان الأزرق الرمادي ، والجو ساحر ، وسمات كالبطية الكبيرة تترجرج بالحيوية منفعة بالحكي تضحك تارة تعبس أخرى لكن في إطار من المرح الجميل. كانت وهي تحكي تسقيني وتلاسنني وتحاضنني بكل بساطة وأريحية وثقة بالنفس قوية، كصديق يتصف بالجدعة والصفاء ، فلم يطراً على ذهني أنها امرأة وأنشئ كالبطة فيما أنا شاب مهروس بشوق الرغبة المكبوتة من زمن طويل . مع ذلك كنت أشعر بلذة شديدة العذوبة ..

وفيما تغمرنا هذه اللحظة البديعة ، تصاعد عند البوابة لغط فيه خشونة وشسخط وأمر ونهى . همست ستات بشئ من الإضطراب :

- " الحكومة وصلت ! منذ مدة لم نر وجهها ! على كل حال هم لن يفعلوا بنا شيئاً لكنهم مزعجون لا نأخذ منهم غير النكد والسفالة وقلة الأدب ! أنا الأخرى أعطيهم على دماغهم لا أفوت لهم فائدة ! لكنني لن أقدر الليلة أن أمسهم بسوء لأن سيد غير موجود وهم من النوع الذى يخاف ولا يخشى ! أقل شئ سيأخذوني إلى البندر لأنام فى التخشبية مع المومسات والسناكيح ! ولهذا سأفعل هكذا ولن أفتح الباب حتى لو كسروه !! " ..

ثم رفعت جلدعها الممتلئ ، ومدت ذراعها البضة نحو أعلى الحائط بجوار الباب ، فضغطت على زر النور فانطلقاً ، سقط فوقنا الظلام الدامس . بدرية أزاحت منقذ النار وكراكيب العدة إلى جنب ، وزحفت بإليتيها على الأرض فحاذتني . إصطدم وجهها بوجهي وامتزجت أنفاسنا فطوقت عنقها فهبطننا سوية على الأرض متمددين؛ فإذا بى أغيب فى حضنها الثرى السخى ، فأختفى تماماً فى بطانة من القطيفة الناعمة الحارة المثملة . ميزنا فى اللغط صوت شوافى :

- " ياب.. ياب.. يه سعادتك بتشرفنا هنا باستمرار !! أنت سعادتك تعرف أن وكالتى لا يسكنها أحد من الإخوان المسلمين!! لا يسكنها سوى الإخوان الكفرة!!

سوى الغلابة المقاطيع ! فلماذا تشك فى كلامى ؟! أنا من نفسى سأبلغكم فى الحال
إذا اشتبهت فى أى واحد ! ألا تذكر سعادتك أننى جئت من نفسى لحد مكتبك
وسلمتك أوراق الولد الذى كان عندى وقبضتم عليه ؟! أنا لست منتظراً تشريفكم
للتفتيش كل يوم والثانى ! لا يرضينى تعبك فخل عنكم التعب !!..

ميزنا صوت الضابط يرد عليه فى غطرسة وجفاء وسوقية :

- " يا ابن القحبة أقول لك إن واحداً من كبار الإخوان يسكن هنا مع زوجته!
هى بالأمارة سمينة مرربة ! بيضاء موردة الخدين ! وهو مدرس لغة عربية فى الفيوم
يعنى هارب ! تابعهما المرشدون حتى رأوهم يدخلان هنا فلا يخرجان ! رأوهم
أكثر من مرة ! فهل نكذب مرشدينا ونصدق حولاً مثلك ؟!.."

- " يا سعادة البيه الخول ليس أنا فأنا مثل أبليك ولا يصح أن تغلط فى بدون
سبب ! وأنا صاحب وجع لو ضربتنى كفا وقعت ميتاً ! ربنا يحملك لشبابك فأنت
مثل إبني وأولادى كبار مثلك ولهم فى مراكزهم شنة ورنه !!.."

همست ستات وهى تحتوينى بعمق:

- " كذاب ! ما أحد يعرف له أهلاً ولا بلداً !!.."

وهمست أنا :

- " يا ابن الكا.. .. لب ! سلمت الأوراق ولم تعطها لى كما اتفقنا ! يالك
من جبان للقيم !.."

اللفظ يقترب ، يزداد خشونة . صوت زغد واحتجاج وزمقة . صوت شواذ فى
يعدد :

- " هذه الحجرة يسكنها ولد طالب بمعهد المعلمين أغلب من الغلب وفى حاله
وسبق أن عرضت عليك أوراقه ! هو الآن مسافر إلى بلدتهم وسيعود غداً صباحاً !!
وهذه حجرة دميانة وهما أنتم تسمعون صوت عذاب القرد العجوز يبحث عن
خلاصه أنظر من هذا الخرم الواسع ترى كل شئ !! وهذه حجرة المواوى مفتوحة
وهاهو ذا متلح كالبهيمة أمامكم !! فتشوه فرما يجبى فى جيبه شيخاً من الإخوان
المسلمين !! وهذه حجرة المداح وزوجته وطفليه مفتوحة هى الأخرى على وسعها
فتشوا أجسامهم لو أردتم !! وهذه حجرة رمضان عريجة الذى يشغل معكم مرشداً

وأنتم أدرى بتحركاته الآن مني !! وهذه حجرة زينهم العتريس وأولاده ادخل
نشرب الشاي معهم مساء الخير يا زينهم !! وهذه حجرة الولية بتاعة البخت
والودع وهى سهرانة الآن عند صاحبها وداد !! وهذه حجرة الولية بتاعة الدق
سالم الخير يا حلبية !! لو أحبيت أن تدق لك اسمك على سمانة ذراعك تكون عملت
بطاقة شخصية أحسن من بطاقتكم لا تضيع ولا تلتف !! هذه حجرة قطيطة بتاعة
الحلاوة سالم الخير يا قطيطة سلمى على البيه ! على فكرة عندها فراخ بلدى محترمة لما
تحب سعادتك تأكل ظفر !! وهذه حجرة سيد زنتى صاحبكم حبيكم وأنتم
تعرفون عنه كل شئ .. و.. تاهت ولقيناها ! سيد يقول لكم على كل شئ دائماً
وأنتم تثقون فيه فاسألوه عن حقيقة الأمر !! من حسن الحظ أنه سافر اليوم هو
وعدته كلها إلى مصر لمولد الحسين شئ لله يا أم هاشم ! هاهى كل الحجرات
أمامك يا بيه مفتوحة فادخلها كيف تشاء لكن لا شأن لنا بالمغلقة لأنها أمانة فى
عهدتى طالما أصحابها غائبين ! إن كنت تظن أن أحداً يختبئ فى هاتين الحجرتين
المفلقتين فهات لى إذنا من النيابة وتعال نكسرها على عهدة النيابة لأكون أنا فى
السليم ! أنت رجل بتاع قانون وتعرف مسئوليتى !!"

سمعنا صوتاً جديداً لعله صوت ضابط آخر يقول فى نبرة وعيد وتهديد :

- " على كل حال ! الوكالة ليست بعيدة عن أعيننا ! سنترقب هذا الرجل فى
كل وقت ! فإن ظهر خارجاً من هنا فإننا سنذكر هذا العمود كله فى طيزك ! لن
نرحمك ! ستكون متسترأ على مجرم وستدخل السجن ! نهايتك على يدى بإذن الله
يا شوادفى الكلب ! هيا بنا !!"

وصار اللغظ يتباعد . ولست أدرى أمن الخوف واليأس أم من الرغبة الحارقة
والثحام الجمرة بالريح حدث رغم أنه لم يكن وارداً فى الحسبان . ذلك أن اللغظ ما
كاد يختفى نهائياً حتى كنا ؛ سنات وأنا ، قد تحولنا إلى حسد واحد ينتفض بعنف
اللذة النشوانة المجنونة العفوية وعمق سحرها واشتداد حرارتها يكاد يفنت نفسه
يذبيها فى لهب صبى مشتعل الأوار ؛ نشوة بدت بلا بداية ولا نهاية وإن تخللتها
محطات عابرة لالتقاط الأنفاس . ومع ضوء الصباح نزلنا إلى الحجرة السفلية
فاغتسلنا وتناولنا فطوراً شهياً ، فى صمت عميق . وبدون أى كلمة ، وبكل تفاهم

صامت شفيف تريعت أمام ستات ، التي أمسكت بموس الحلاقة وراحت تزيل لحيتي بهدوء ومزاج رائق . فلما نظرت في المرأة رأيتني وجهاً جديداً تماماً كامل النضارة والتألق برائحة الكولونيا . ثم قمت فارتديت ملابسى كاملة ، وقامت ستات فواربت الباب برفق ، فدخل ضوء الصباح مرطباً رمادياً أليفاً حميماً ، وفتحت شراعة الشباك ، فسالت حيوط الشمس كالعسل تفرش نفسها على الأرض . وجاءت بعدة الشاى واشتعل الوابور . وفوجئنا بالجراند كلها طازجة تنسرب من شراعة الشباك تسقطها يد خفية تعودت أن تفعل هذا كل يوم . رحت أتصفحها بشغف ، وعلى إيقاع وش الوابور الأليف الونيس رحت أقرأ بصوت عال لكى تسمع ستات ، فيما راحت هى تنصت بشغف وتهز يدها باليراد فوق اللهب . ورحنا نرقب وصول سيد زنائى لنتندر أمامه بما حدث ، ليفكر لنا فى تمثيلية جديدة بعد أن انكشفت الفولة القديمة .

الليلاء

صار من الواضح أن شيئاً غير طبيعي لابد قد حدث لسيد زناتى وجماعته فى مولد الحسين . فمنذ مجيئه وهو مكفهر بصورة ظاهرة للعيان مع أنه يجتهد فى إرخاء عضلات وجهه وشدها على قالب الإبتسامة العريضة ليبدو طبيعياً . ولكن من الذى يصدقه ؟ إنه ينسى من حوله نسياناً تاماً لفترات طويلة يعضيها فى شرود مع الشرب بتركيز عميق ؛ وكالمجنوب الدرويش يقطع لحظات شروده بشهقة أو أهة أو زومة ذات معنى لا تصدر إلا كرد فعل لاكتشاف حديد ؛ مما يشير إلى أنه فى حوار عميق مع نفسه تظهر آثاره على صفحة وجهه بوضوح فى بسمة عابرة أو غضبة مفاجئة بلا سبب واضح . ثم إن الأشياء تقع من يديه بسهولة لاختلال فى أعصابه أو لعدم الإحساس بالأشياء فى بعض اللحظات . ولأول مرة فى حياته يغلّب فى لعب القمار وكان من الواضح أنه يلعب لمجرد استبقاء الرجال حواليه أطول فترة ممكنة ثم اضطر إلى الموافقة على انصرفهم ، حتى خبر مجئ البوليس إلى الوكالة وتربصه بنا لم يترك عليه أى أثر يذكر حتى لكأنه لم يسمعه أصلاً تقول الكتابيات المطبوعة على ورق لفها إنها من شارع المديرية فى دمنهور وليست من سيدنا الحسين كما وعد قبل سفره ، هاهى ذى ملقاة بجوارنا على الأرض فى إهمال كجثة القتيل . أخيراً طلب العشاء فانفكت اللفائف وطرحت محتوياتها من كباب وكفتة وكبدة ومنخ وسلطات أكلنا بتركيز برعوس منكسة لا ينبس أحداً بحرف . من لحظتها كف سيد عن فتح فمه ، وكالأخرس جعل يطلب الأشياء بالإشارة الحاسمة التى لا تحتمل التأويل أو التأجيل . وأخيراً زهقنا أنا وستات :

- " حصل ليه يا فلانة ؟! "

- " مفيش ! " ..

- " حصل ليه يا علانة ؟! "

- " مفيش ! " ..

- " طب قولى أنت يا فلانة ؟! "

- " أنا شخصياً ما اعرفش ! " ..

- " طب وانت يا علانة ؟! "
- " علمى علمكم ؟! "
- " طب مالك يا بوعرب ؟! "
- " شوية كده فيه مسألة شاغلانى ! "
- " نسيك تنام ؟! "
- " لا ! سأروق حالاً ! "

وفعلًا بدأ يعتدل مزاجه قليلاً بعد الكأس العاشرة وحرق حوالى ربع أوقية الحشيش الأخضر الفواح ذى النفس الكثيف الدخان . إلا أن ضحكاته كانت صافية، ونظراته تائهة ، ونكاته سمجة قديمة تافهة لا تبعث على الضحك بقى تبعث على الرثاء خاصة أنه يفترض أنها ستطربنا بطرافتها وعمق دلالتها ، بضحك عالٍ أحوف ، ففضحك على ضحكه حتى صرنا كالجنازين المستغرقين ضحك هستيرى بلاسبب واضح . إلا أننى وستات التقطنا خبطا تلافيت نظراتنا بسرعة خاطفة لكنها كافية للتلاقى : لقد ضبطنا سيد زناتى أكثر من وهو يسرب إلى جنونه نظرات قلقة يائسة فيها إشفاق وأسى ؛ فأدركنا أن السبب يكمن فى شئى خاص بها ..

ثم إن الخيط بدأ ينجلي شيئاً فشيئاً وببطء شديد ، فقال المرسل الخفى يزين وعينى ستات أننا قد التهينا فى حالة سيد زناتى وأهملنا حالة جنونة مع أنهم الأليق بالحداد . كانت فى حالة يرثى لها حقاً ، شاحبة الوجه تبذل جهداً . كى تبدو متماسكة طبيعية . كانت تقريباً شبه ذاهلة كأم فقدت جميع أبنائها واحدة فى زلزال كونى ، ومن حين لآخر تضع يدها على بطنها متألمة فيها ت من بطنها أصوات زغولة وكركة . ولو تمعننا فيها من لحظة وصولهم فى الضحى لعرفنا أن حالة سيد كانت فى الواقع رد فعل لحالة جنونة غير الطبيعى إضافة إلى أن عودتهم فى الضحى تعنى أنهم لم يحضروا الليلة الكبيرة ..

وكان الليل قد بدأ يسعى حثيثاً نحو المنتصف حينما هداً اللفظ فى فناء الم بين طوائف النائمين فى العراء خاصة أولئك التجار المتنقلين والباعة الس استعداداً للتبكير بالفرش فى سوق إحدى القرى المجاورة . صارت أصداً

تؤوب إلى هسهسات ووشوشات ، ليطفو على سطحها صوت دندنة جذابة جداً .
على أثر زحفها كفت الأصوات كلها كأنها تدعو صاحب الدندنة إلى رفع صوته .
كانت مجرد ياليل فى دائرة نغمية بهلوانية بين صعود وهبوط كأنها تنطق الآه
بعشرات الأحساسيس نياية عن آلاف المستمعين بالنيرة التى تطن فى صدورهم
بجميع درجات الإنفعال . ماكاد يهتمها بوقفة حاسمة كالنقطة فى نهاية الجملة حتى
ارتفع هدير جارف كرعء السماء صائحاً: " الل.. الل.. الله ! تانى والنبي
ياجدع ! الله يفتح عليك ! إيه الحلاوة دى ؟ كروان ؟! " فى الحال تحول الجميع
الذين هم كل واحد من بلد ، إلى مستمع واحد . سمعنا أصوات أبواب حجرات
الوكالة تفتتح لكى تشارك فى الإستماع وتشارك بالحضور فى مضاعفة التشجيع .
حتى شوادفى هو الآخر صاح من فوق مصطبه :

- " أنت ليلتك فل من زمن طويل لم تعرج ! بشرة خير إذن ! فهذه الوكالة
منحوسة بالدم ! آن الألوان لفرحة نشاق إليها ! فغن ! غنى فيها يا جدع كيفما
يخلو لك ! نريد الليلة أن تضربها صرمة هذه الدنيا الوسخة !! " ..

فى الحال تقلبت صفحات جميع الألوان على وجهى سيد زناتى وجنونة . بدأت
جنونة تفقد السيطرة على نفسها ، ركبها الهم ، تقلصت ملاعها تقبضت عقدت ما
بين حاجبيها ظهر عليها رعب حقيقى غير مفهوم . جمدت ملامح سيد جمود
الموت، تحجرت الابتسامة على شفتيه صارت كفتحة فم الجمجمة . تلملت جنونة
فى جلستها غيرت من وضعها عدة مرات صارت من فرط القلق تجرب وضع رأسها
على كفها فى الدقيقة الواحدة أكثر من مرة . أخيراً نظرت إلى سيد فى ضراعة
حقيقية ، شدت صوتها بصعوبة فائقة من قاع بعيد :

- " عن إذنك يا سيد أنزل امدد شوية تحت ! أنا تعبانة ! دماغى حينفلق
نصين!! " ..

فتحركت الابتسامة على شفتيه كسمكة ميتة تتهدل بين فكيه ؛ هز رأسه
بالموافقة فيما تزوم عيناه بنظرة كدنا نسمعها تقول : الأمر هكذا إذا ؟ لا بأس لا
بأس!! لكن سيد لم ينطق مع ذلك بحرف ، بل نظر إلى الصغيرة الثانية على يمينه
وأذن لها بحركة من ذقنه أن تصعد هى الأخرى لتستريح إن كانت مرهقة من السفر.

قلبت أمره فى الحال كأنها كانت تنتظره ، وكانت أسرع من جنونة من النهوض ، بل إنها مدت يدها لجنونة فتعلقت هذه بها ونهضت واقفة تكاد تترنح. عبر فتحة الباب الداخلى فى المواجهة كان السلم الحلزونى الضيق ذى الدرابزين الحديدى المصدئ يئن فى يدي امرأتين إحداهما تهبط إلى أسفل والأخرى تصعد إلى أعلى، فكنا نشاهد ظهراً بموخرة مديبة يلقي ظله على وجه بصدور مدبب ينسلخ كل منهما عن الآخر . فتح سيد علبته الصفيح وعبأها بسجارة محمصة التبغ يحتفظ بها فى كيس كبي ر؛ ثم أشعل سيجارة نفت دخانها بعمق ؛ ثم هب واقفاً ، عبر فراغ الحجرة إلى الباب المطل على الفناء ؛ فلبس شبشبته ونزل إلى الفناء قائلاً إنه سيعود بعد قليل ليكلمنى فى موضوع ..

بقيت وحدى مع ستات والعرايشية .. ما كادت خطوات سيد تلتحق بأرض الفناء حتى مالت كل من العرايشية وستات نحو بعضهما فى الجذاب مغناطيسى يعكس شوقاً حاراً للودودة والنم ، ثم دار الهمس بفحيح يتلون بإيقاعات رهيبة ، حتى اضطرت لثني جذعى وإماله رأسى نحوهما لكى أتمكن من الاستماع ، لكن صوت المغنى كان قد الجلى وتوهج ولعلع ينضح بالحرقة ونار الجوى والعذاب والحيرة والالم والتفجع :

- " أنا لو شكيت ربع مايبى للحجر ليدوب.

الأولة للنبي .. والثانية لأيوب

والثالثة غريتى .. والرابعة المكتوب

والخامسة كنت غالب .. صبحت أنا المغلوب

والأولة للنبي ...

- " يا.. ا.. ا.. ه.. كمان والنبي ! الله يفتح عليك ! " ..

- " سجان بقتل الغرام مأمور ومتوصى

عايش على عثروم الباب كل من بص

شعلل قليب السجين بالنار وبالبحس

أنا قلت يا سجان ببحج لى أشوف على

قال لى عشانك ياواد مأمور ومتوصى

قاضى الغرام بربرى واللى حكم تركى
صفيت لمن يازمن لما حتصفى لى
دا الغالى بعته رخيصى وترخص الغالى

كان فى صوته حرقه ولوعة ، وبجة نواح رنانة كصيليل أجراس الكنائس . ورغم
الضجة الصخبة التى هبت فجأة بصيحة استحسان ملوية تكاد تفتت أصحابها فى
سبيل أن يستمر هذا المغنى فى إرسال نواحي الشجى الأسيان الملهب اللآهب ؛
رغم ذلك فإن بكاء جنونه العنيف المنتحب قد صعد إلينا من الحجر السفلية بكل
وضوح يكاد يفتت أكبادنا ؛ بكاء إنسانة معذبة لا تملك من أمر نفسها شيئاً لعلها
هى ذلك السجين الذى إأمر عليه مأمور بتوصية خاصة ؛ لعل بكاءها نعيًا لحاله ،
لعله إشفافاً وتأثراً على ذلك لو شكى ربع ما به للحجر لذاب من شدة التأثر..

صار من السهل اكتشاف الروابط بين هذا المغنى بكلماته وأنغامه وبين ما يحدث
الآن لكل من جنونة وسيد زناتى . هذا المغنى ليس مجرد مغن ؛ إنما هو بالإضافة إلى
ذلك عاشق حقيقى ومكتو بنار أحرقت قلبه لاشك . وهذا المعشوق باعث هذه
النار فى قلب هذا المغنى إما أن يكون على وجه التحديد جنونة أو تكون هى فى
موقف مشابه . هذا الغناء إذن هو إذاعة موجهة إلى السجين والسجان بعرضحال
يطلب الإنصاف والتعاطف..

بعد أن شبت ستات والعرايشية من الودودة المقطومة الحروف الخارجة من
الأنف أحياناً ، صحت فيهما بعصية أن يطلعانى على حلية الخير قبل أن يصيبنى
الجنون . جعلت ستات تطوح كفيها فى ولولة واستهوال تخبط صدرها بيها .
مالت العرايشية نحوى بابتسامة ذابلة بجفاف الحلق من الخوف والتوجس ، قالت إن
سيد زناتى كان نازلاً بهن على سرادق الطريقة الشاذلية كالعادة كل عام . إحتفل
الرجال بهم قدموا لهم ثريد العشاء بهير اللحم . أثناء العشاء لاحظ سيد أن رجالاً
من المتحلقين طبق الثريد المجاور كانوا يركزون البصر على جنونة كالمذهولين .
ولاحظت العرايشية أن سيد قد اتبسط فى أول الأمر إذ أنه تعود على مغازلة الناس
لجنونه وانبهارهم بجمالها الفلاحى الرحشى الذى يفلت عيارهم غصباً عنهم ؛ لكن
العرايشية بدأت هى الأخرى تهتم بالأمر بعد أن رأت أن دم سيد قد بدأ يتعكر على

وجهه المكفهر ؛ إذ أن الذين ينظرون إلى جنونة صاروا يميلون على بعضهم بعضاً
يتهامسون يعبئون النظر ثم يتهامسون ويتناحرون فتتفقت أصواتهم فنسمع بعضهم
يقول في ثقة :

"هى ! نعم هى ! أقطع ذراعى إن ماكانت هى بعينها ! لو علم الناس أنها هى
وموجودة هنا تكون فرجة خطيرة ! تكون أسود ليلة ! هل الجماعة هنا ؟ أنا شفت
فلان نفسه هنا ! وفلان أيضاً ! ياللمصيبة ! الغريم وغريمه وغريم الغريم كلهم معنا
هنا ؟ أليكون مقسوماً لنا أن نرى كارثة ؟ ربنا يستر ولا يحدث التلاقي !! الواجب
أن نبلفهم ! الواجب ألا نبلفهم !! لا ! نبلغ اللحم على الأقل لكى يلم لحمه !!
فضوها سيرة يا إخواننا واحزوا الشيطان ! ليتنا ماجئنا هنا ! ليتنا ما شفنا ! خلاص !
لا شفنا ولا رأينا !! وهل نستطيع ؟.. العرايشية تأكدت أن سيد قد أنصت لهذه
الدمدمة الكلامية كلها . أما جنونة والمضروبة الأخرى فلم يلحظا شيئاً ساعتها.
أحست العرايشية أن سيد زنائى انقلب حاله إعتراه القلق منذ أن تابع حيران الثريد
وهم يغسلون أيديهم ويتسللون واحداً وراء الآخر خارجين من السراشق مع أنهم
من المفروض أن يبقوا للمشاركة فى الذكر وفى خدمة غيرهم من القادمين الجدد.
ظهر على سيد أنه متوحش من حدوث شئ، لكنه أمسك نفسه وظل مبتسماً يسلم
على الناس ويرد تحيتهم . وكان قد جلس مع نسوانه الثلاث فى الصف الأيمن
القريب من الطريق العام ، على يمينه جنونة ، وعلى يساره المضروبة الأخرى ،
وبجوارها العرايشية ، عينها سائحة على الطريق تتسلل بين قامات الرجال باحثة عن
مقدم خطر توقعت حدوثه . وقد حدث ، لم يمض أكثر من ربع ساعة حتى رأوا
بجموعة من رجال شبان يزحفون نحو السراشق فى تهيب وحذر منبهرين بالأضواء
والصخب ، ظهر من بينهم بعض الذين كانوا يأكلون بجوارهم ، وقد جعلوا يغمزون
القادمين الجدد فيما يشيرون إلى جنونة ، فما يكاد الواحد منهم ينظر إليها حتى
يفتح فمه فى زهول ، وتفلت منه صيحة ترفة : "هى طبعاً ! يا بنت الفرطوس !"
وكان البعض منهم ينصرف مسرعاً بعد نظرة التأكد ، والبعض الآخر يبقى واقفاً فى
مكانه لا يريم ولا يجول بصره عن جنونة ..

المصيبة أن جنونة هى التى فضحت نفسها بنفسها دون أن تدري ، سقطت من
فمها شهقات عديدة لدى وقع بصرها المفاجئ على أكثر من شخص ، مع كل
شهقة كان سيد زناتى ينظر إليها وإلى الشخص فتعاطف دهشته . وكان الصبييت قد
انجلي ولعل صوته فى الميكروفون ، تطرحت على وحداته وأنغامه أجساد الذاكرين
فاشتعل السرادق بالسهلة وبالصلاة على النبى مدوية فى كل الأرجاء فى كل حي.
إلا أن وفود الغرباء الناظرين إلى وجه جنونة لم يتوقف سبله كل دقائق بوجوه
جديدة ترشقهم بالنظرات المنهلة تتسلق جسد جنونة كله بأسف أو حسرة أو
تشف أو احتقار أو إشفاق . إلى أن دخل وفد مكون من خمسة شبان أنقاء يجذبون
شاباً أبيض الثياب جميل الصورة كسيدنا يوسف الصديق ، لكنه مهزول ضعيف
البنيان كالناقة لتوه من مرض طويل قاس . وقف فى مواجهتهم كطفل منبهز بالعثور
على لعبته الحبيبة التى كانت ضاعت وفقد الأمل فى لقائها ؛ كاد يصيح من شدة
الفرح باسمها ؛ لكنه كان خجلاً حياً ، أطبق فمه لحظة أن شرع يهتف ؛ ثم
انهمرت الدموع من عينيه بغزارة ، فصار يمسحها بكفه الواسع لتعود فتنهمر من
جديد ؛ وإذا به ينهار قاعداً فى مواجهتها . أما هى ، فياحسرة عليها ، راحت لوناً
وجاءت لوناً ، لم تمالك نفسها من لطم نخلها بكفها فى حرقة ولوم وتأنيب ،
نكست رأسها فى الأرض لتتكون فى حجرها بحيرة من الدموع حسرة على سيد
زناتى وما جرى له ساعتها من حرقة وحيرة ، كمن غطسوه فى قازان مياه مغلقة .
ماذروا إلا وهذا الشاب النحيل قد نهض متسللاً نحو الميكروفون ، منتهزاً فرصة انتهاء
الصبييت من وصلته التى اختتم بها طبقة ذكر وصار للذاكرين أن يجلسوا لالتقاط
أنفاسهم استعداداً لطبقة آخرة . أمسك الشاب بالميكروفون ، وتسلفت الآه من
صدره ربانية ندية مبللة بعرق من حرارة الشوق ؛ ياليل ياعين وحلها ملت عليهم
جمهور بقية السرادقات المجاورة والمارين فى الطرقات . دخل الشاب بموال حكى فيه
قصته منذ اختفت حبة قلبه حتى اليوم ، وتفاصيل ماجرى للأهل والخلان. صار
جسد جنونة يهتز بعنف البكاء مثلماً يحدث الآن . شعر سيد أنهم صاروا فرجة
الناس كلها ؛ مال على أذن العرايشية ورسم لها أن تصطحب جنونة وتتسلل بها
خارج السرادق توهم الناظرين أنها ذاهبة بها إلى دورة المياه عند الباب الأخضر ؛

على أن تنتظر بها هناك . وبعد برهة مال على المضروبة الأخرى ورسم لها أن تلحق بهما في هدوء . وبعد وقت قليل تسرب هو خارجاً وراجهن متحسناً الطهنجة فى جيب الصديري والمطواة قرن الغزال متخفية فى أسورة الفانلة الحابكة . ماكاد يلحق بهن حتى استولاهن بذراعيه فرمى بهن فى أول عربة أحرة صادفته ، صائحاً بالسائق : باب الحديد بسرعة يا اسطى . فلحقوا بأول قطار أقلهم إلى دمنهور فى مطلع الضحى . وآخر ما كانت تتصوره العرايشية أن الشاب المغنى يعرف خط سيرهم فيلحق بهم إلى الوكالة وهو وبعض صحابه الذين كانوا معه ؛ وهاهو ذا يطارد جنونة بغنائها ، هو ذا الآن يرفع عليهم صوته بقضية يطلب الحكم فيها بقضاة عدول ومحلفين منصفين ..

رأيتنى أهب واقفاً ، وأنزل مدفوعاً برغبة جامحة فى رؤية هذا الشاب والإستماع إلى شكواه بدقة وإمعان لعلنى أقف على كل تفصيلة فيه .. هالنى منظر الجموع المتراصة فى كل فناء الوكالة لا أحد يشعر بهم ؛ وقد بدا أنهم جميعاً قد عثروا صدفه على ليلة فرح بحانية آمنة من المكيدة والغدر فآثروا قضاءها حتى النخاع طرباً وانهبساطاً . بحثت عن بقعة أجلس فيها قرب المغنى ، الذى وقف فى المنتصف تقريباً ، وأحاط به جمع من رفاقه بمثابة بطانة تردد خلفه بعض الترحيمات الموجهة . كان يلف حول نفسه من حين ليواحه كل مجموعة لبعض الوقت ، شأن المغنين المحترفين المدربين على معاملة الجمهور ..

سمعت صوت سيد زنائى ينادينى . تلفت حوالى ، فإذا هو جالس على مصطبة شوادفى يجرع كفوس الكحول المقطر ويدخن سجائر الخشيش .. خرمت إليه بين أحساد متكورة وأخرى متربة أو متفرصة أو راكسة ، وكل الأعناق مشرربة شاخصة إلى المغنى . كانت المصطبة مزدحمة ، يجلس عليها وحوها إلى جانب شوادفى سيد زنائى وزينهم العزيس ورمضان عريجة والبورى والحانوتى ومتعهد أطفال الشحاذة والمداح والمواوى وبعض ناس من حيران الوكالة ..

كان المغنى قد تعب من الشكوى ، وطال انتظاره لطلعة وجه محبوبه . وبعد أن كان يدور حول نفسه أثناء الغناء مجاملة للجمهور صار يتلفت بحثاً عن وجه محبوبه ليس بين الجالسين فحسب بل وخلف الأبواب والشبابيك ؛ فلما يئس من ظهوره

أطلق الموال يناديه بصريح العبارة وضراعة النغم ؛ يسوق عليه الأولياء والأقطاب أن يتعطف عليه فيريه وجهه ولو للمحة عابرة ، أن يرحم ، أن يقدر هذه الرحلة الشاقة التي قطعها وراء طيره كى يراه ويتأكد أنه ما يزال على قيد الحياة ؛ ناهيك عن غربته السابقة وماحدث له فيها من عذاب أليم بسببه ..

هنا قال سيد زناتى فى حرارة كأنما يحدث نفسه :

- " الولد قطع قلبى يا جدهان ! ماعدت قادراً على احتمال المزيد ! أنا من دم ولحم فلا بد أن يكون فى قلبى رحمة ! قسماً بالله لأطيق قلبك وأداوى جرحك ربنا يداوى لنا جروحنا جميعاً !! سأفعل ما يفعله الرجال الذين لم تكن تحلم برؤيتهم !! سأشترك بفعل خير منقطع المثل ! تظننى قاطع طريق ابن ليل تأويه وكالة عطية ؟ لا يا حبة عيني وحق أمك التي لم أتشرف بمعرفتها بعد ! أنا سيد زناتى والأجر على الله !! سأحكم بالعدل وأنا راسخ صامد ! ليس من قضاة تحكم بالعدل فينا فلاحرب أنا الليلة مقعد القاضى !! إذا كان الحكم سيوجع قلبى وهو عدل فإذن الحكم بغير العدل سيقطع قلبك !! " ..

تبيقت لحظتك أننى أشهد شخصاً آخر تماماً . وتبادل الجالسون نظرات عابرة ظنا منهم أن فرط الشرب قد أدخل سيد زناتى إلى مرحلة الشعور بالعظمة والهيذيان ؛ فيما عدا شوادفى بالطبع ، الذى يفهم شخصية سيد زناتى على حقيقتها بكل دقة ، وإلا ما تجنبه وسلم بوجوده كنجم من نجوم الوكالة ليس من الذكاء كسب عداوته إذ أنه - كما حكى لى شوادفى مراراً - بقدر أن شرسته وعنفه ينطوى على جدعنة وطيبة قلب لا مثيل لهما . وكنت أظن أن شوادفى يقول ذلك على سبيل تبرير مبالغته فى تقدير سيد زناتى تقديراً ربما وصل إلى حد الخضوع لإرادته فى بعض الأحيان . وضع الآن أن سيد قد حكى له الحكاية ليكون سنداً له إذا ما تفاقم الأمر . هاهو ذا يوجه إلى شوادفى نظرة ذات معنى ؛ فهمها شوادفى فى الحال ؛ فأوماً للشيخ زينهم العترىس ؛ ف قرب هذا رأسه من رأس شوادفى ، الذى مال على أذنه فهمس بشئ تلقاه زينهم العترىس بهزة من رأسه ؛ ثم نهض متجهاً إلى المغنى ملوحاً بعصاه فى الهواء علامة على طلب الصمت بلهجة من يقول : سمع هو .. و .. و .. . فصمت الجميع ، وانتظر المغنى باسمّاً . فاتكأ زينهم العترىس على عصاه وصاح :

- " أنتم ليلتكم قل بالصلاة على الحبيب ! ذى ليلة من ليالى العمر ! شرفنا المغنى وصحبته الله يعمر بيتهم ! ربنا يمتنعهم جميعاً بزيارة النبی مثلما أمتعنونا !!
 أسمعوني الصلاة على النبی ! زيدوه صلاة ! الأمر وما فيه أن الجدد المغنى ينتع من أول الليل حتى أول نهايته ونحن نسمع ونقول الله الله دون أن نضع فى أعيننا حصوة ملح ! إن المغنى من لحم ودم مثلنا ! زمانه الآن يموت من الجوع وهو غريب عن بلدنا والغريب مكروم لأجل النبی ! أسمعوني الصلاة عليه ! زيدوه صلاة ! يكفيكم هذا الليلة أم أنكم نسيتم قيامكم فى طلعة الضوء لتفرشوا فى السوق وبينكم وبين بلدة السوق مشوار سخن ١٩ ! أما الجدد المغنى فوراءه هو الآخر سوق أنقح وأشد !! هو بصراحة معزوم عندنا الليلة ! فهات صحبتك وتعال يامن وهبك الله موهبة الكروان !! .."

دبت الحركة والحياة فى الجموع تحت الأضواء الكابية كموجات بحر يمحور قاعه بالإضطراب فصارت تتلاطم كمياه عكرة مسودة مزرققة ؛ كل واحد راح يحامى على موقعه يتمدد محددأ بجسده حدوده الآمنة ؛ فى تناحر ولكز ولطم ولكم وجذب ودفع وهمس وصيحات مكتومة وتهديد تتلوه صفعات وركلات وبصفات تقابلها شلالات ؛ فيما وقف المغنى وبطانته فى بقعة محايدة فى الوسط ينتظرون بتوحس سيادة الهدوء حتى ينفذوا إلى طريق نحو مكان العزومة . هى زومة واحدة بعثها شوافى من فوق المصطبة كزارة السبع الذى يظهر فى مقدمة بعض الأفلام الأجنبية: فتح فمه وأغلقه فحسب ، فكأن بوابة ضخمة زيقنت بخشونة فيما تجر ثقلها . فى الحال كفت الحركة تماماً كأن شوافى بهذه الزارة قد طرح فوقهم غطاء الصمت والسكون .. فصار الفناء كأرض ترتص فوقها كتبان وأكوام من الرديم الأسود ..

شرع المغنى وبطانته يتحركون خلف الشيخ زينهم العتريس فى اتجاه البوابة عبر برزخ رفيع بين الكتبان وبعضها مشعرا ذيل جلبابه . إلا أن سيد زناتى نهض مقبلاً مشيراً بلدراعه للشيخ زينهم أن يرتد عائداً بهم إلى حجرته . فمضى بهم ؛ فيما سحبنى سيد من يدى ومضى بى نحو البوابة دون أن يفتح فمه . وخرجنا ، جعل يمشى فى سرعة وحماسة بخطوات متسقة رشيقة وأثقة ، وثوبه الحريري السكروتة ذى

اللون السمئى ، بنصف ياقة وبكمين يضيقان عند الرسغين بلا أسورة تشطرها من الداخل كسرة المكواة الحادة ، يهفهف مع الخطوات مزغرداً بالريح . ذقنه فى مستوى صدره ونظره ممتد إلى بعيد تركيز غريب . وكنت ألث بأقصى طاقتى لكى أحاذيه فى السير فلم أجد فرصة لأى أسئلة ؛ لكننى توجست من هيئته البجادة بوجهه المكفهر المهموم ، وحدثت أن يكون ذاهباً لاستدعاء الشرطة للقبض على المغنى وصحبته ملفقاً لهم تهمة مطاردته حتى مسكنه للإعتداء عليه بنية خطف زوجه . منظره يقول هذا . وكم كانت دهشتى عظيمة حين رأيته يخرم فى الشوارع الأمامية النظيفة الغالية الأسعار فى كل شئ مبتعداً عن منطقة البندر بشرطته ؛ وإذا هو يتوقف أمام محل ختن الكبابجى ، أشهر وأكبر مطعم فى المدينة لا يرتاده سوى عليه القوم الذين يفهمون فى أصناف اللحوم وطراحتها ونفسها الشهى . تقدم من الكيس فطلب ثلاثة أرطال من الكباب والكفتة وستة أزواج من الحمام ؛ دفع مبلغاً مدهشاً دون أن يطرف له جفن ؛ دفع بقشيشاً براحة اليد للرجل الموضب وظل يراقبه حتى انتقى له أطايب القطع . حملنا اللفة الكبيرة الفخيمة وخرجنا إلى السوق ، فاستبضع أكياساً من الفاكهة مع زجاجة كونياك وتشكيلة من الأجبان والمخللات . حملنا كل ذلك وعدنا بنفس السرعة دون أن ينبس أحداً بحرف . إلا أنه عند اقترابنا من بوابة الوكالة نظر فى دهشتى مبتسماً لأول مرة منذ عودته من المولد ، وفى غبشة البدر النائمى أضاعت البسمة وجهه فغيرت معالمة تماماً ، فبدأ الجانب المتأخم لى جھيلاً وقوراً ذا هيبة تليق بكبار المفكرين والأدباء المستغرقين على الدوام فى النظر والتحليل . لوى رقبته ناظراً فى وجهى :

- " طبعاً تستكثر المبلغ الذى صرفته الآن مع أننى قادم من سفيرة مكلفة ؟! الفلوس فى النهاية هى أتفه ما فى الأمر كله ! ليتها فى داهية فلوس !! إن الجدعنة غالية الثمن يا صاحبى وليس كل جدع يقدر على دفعه مع أنه جدع !! أما الفلوس فأمرها سهل فمثلما تجى تذهب ومثلما تذهب تجى !! أما ثمن الجدعنة فلا ينهب هدرأ أبداً !! هذه أغلى نصيحة تأخذها من أخيك سيد !! ما تعرف ديتة إقتله !! ومالا تعرف ديتة سايسه !! والباب الذى يجيئك منه الريح سده واسترح ! وإن واثاك خير يكلفك شراً فاستغن عنه يكون أكسب لك !! تلك هى معتقداتى فى

الحياة ومع ذلك لا يستطيع العمل بها معظم الوقت ! فإنها تحتاج لتدريب قوى منذ الصغر ولهذا فأنا أقولها لك حتى تضعها مسماراً في رأسك !! أنت إن عرفت أشياء كهذه ولم تعمل بها تتعذب في حياتك كلما فعلت عكسها !! وعلى فكرة ! إن كل ما أفعله في حياتي هو عكس ما أتمنى وما أرضى ولست أعرف حتى الآن لماذا أفعل ما أفعل وإن عرفت فربما أقلعت لكنني أعرف في قرارة نفسي أنني لا بد أن أعرف ذات يوم ولا بد أن يعتدل ميزاني وأعيش كخلق الله ولو ليوم واحد !! أنا الليلة سأعوض كل ما فاتني من سلوك حسن !!".

ثم دلف من خلل الباب بجانبه ؛ فتبعته ، فشيئاً فشيئاً صوت شواذ في بالهواء والشفاء ، ملوحاً إلى أنه قد يلحق بعد قليل .

المرسال

لا بد أن بالحجرة سحر جعلها كالمطاط تتسع للكثيرين رغم الظن بضيقها .
العرايشية متربعة على جانب من فتحة الباب ؛ وستات فى مواجهتها على الجانب الآخر . الشيخ زينهم العزيس فى الصدارة ؛ بجواره المغنى ، وثلاثة شبان يقاربونه فى العمر وفى اللون والوسامة وخفة الظل والعمامة الصعيدية المتأنقة فى لفة الشال وطرفه المتدلى على جانب الرقبة ، والثوب النظيف ذى الأكمام الواسعة والأكتف التعريض . أبدا لا يظهر عليهم أنهم أهل بلطجة أو صياغة أو حربشة ، إنما يشملهم سميت وقور ، أقرب إلى حياء الفنانين وتواضعهم ..

رمينا السلام وأزلنا اللقائف . فتناولت كل من العرايشية وستات بعضها . قامتا فى الحال فنزلتا إلى الحجرة السفلية . نهض الجالسون فى استقبلنا ، فسلمنا عليهم بحرارة شديدة ، ثم اتخذ سيد زناتى مجلسه المعتاد ، وأشار لى فجلست قبالة بجوار الشيخ زينهم فى مواجهة المغنى واثنين من صحبه ، وبجوارى الثالث يفصل بينى وبينه الشيخ زينهم ، وأفصل بدورى بينه وبين ستات . قال سيد زناتى وهو يلدور برأسه نحوهم فى ترحيب وأريحية :

- " أنتم شرفتم ! أهلاً وسهلاً ! " ..

- " الله يشرف مقدارك يا راجل يا أمير الأمرا ! " ..

هكذا نطقوا فى نفس واحد . كان المغنى قد تربع فى ثقة واطمئنان كأنه وثق تماماً من وصوله أخيراً إلى شاطئ الأمان وهامى ذى مراكه الحائرة التائهة ترسو على البر بعد طول شتات رهيب وسط عواصف وأنواء . وضع كفه على صدره علامة الإمتنان ، ومشيراً إلى ذاته : محسوبكم بديع عبد المولى ؛ ثم أشار إلى من يجاوره : وهادى أبو الحسن ؛ وإلى المجاور له : جلال الحمدي ؛ ثم إلى المجاور لى فى مواجهته : وحجاج أبو سماعين ! أصحاب الروح بالروح مولودين مع بعض متربيين مع بعض ما تفرق عن بعض ما نتخير عن بعض ولا عن السامعين ! ..

قلنا جميعاً فى نبرة استحسان :

- " أهلاً وسهلاً بكم ! شرفتم ! أحسن ناس ! " ..

أضاف المغنى كأنه نسى معلومة مهمة فى شهادة ميلاده :

- " مركز جرجا ! " ..

- " أحسن ناس ! " ..

زادت همهمة الرد فى وقع الشبشب الحريمى المطرق بحدة على درجات السلم . كانت العرايشية مقبلة بالصينية ، عليها الأكواب والزجاجتين والأجبان والمخللات . انحنيت فسحبت الطبلية العجيبة التى صممها سيد بحيث يمكن تطبيقها كالحقيبة وركننها بجوار الحائط كمسند للمرفق . فردتها ، بمساعدة الشيخ زينهم وضعت عليها ما معها ؛ ثم أقعت ؛ صارت توزع الأكواب أمام الجالسين ؛ فتحت زجاجة إذ قبضت بطرف أسنانها الجميلة على قطعة الفلين فشدها ؛ صبت فى كل الأكواب ؛ إعتدلت فى قعدتها بجوار الباب . ثم دخلت ستات بصينية كبيرة ؛ فرفعنا الأكواب فى أيدينا ، فصارت تنقل من الصينية إلى الطبلية أطباق الكباب والكفتة والحمام والخبز والفاكهة ؛ ووقفت فى انتظار الأوامر ، فشيح لها سيد زناتى نظرة ارتفعت لأعلى قليلا ثم هبطت إلى أسفل ، فاستدارت ستات نحو السلم فصعدت درجتين ونادت ؛ ثم هبطت أربع درجات ونادت ؛ نفس النداء : فلانة ! ففى الحال سمعنا خطوات النازلة ورأينا شيخ رأس الصاعدة . دخلتا تربعن أربعتهن فى بقعة صغيرة متاخمة للباب حيث قربت هن العرايشية طبقاً متخماً بالكباب ..

شمر الشيخ زينهم ذراعه صائحاً : باسم الله ، وشرع يأكل ؛ فانقبضنا جميعاً على الأكل والشرب حتى أتينا على كل ما أمامنا فى لحظات معدودة . وكانت شهية الحريم أقل ، فبقى فى طبقتهن بعض قطع ثملاً رغيفين ، وقدراً لا بأس به من الأجبان . وإذا بنا نسمع لفظاً عند البوابة يطول أمره ويتردد فيه اسم الحاج سيد زناتى ، مما جعل سيد زناتى ينتبه مبتهماً فى إصغاء ويقول فى نبرة تهاول : بشرة خير ! لقد حججنى بالجان ! .. بعد قليل سمعنا صوت خطوات قادمة ؛ فى أثرها ظهر شوافى داخلاً بانحناءة كبيرة كى لا يصطدم رأسه بحلق الباب . سلام عليكم وعليكم السلام ؛ ثم تفرص أمام بقايا الطعام فسحب رغيفاً حشاه بعض قطع منتقاه من اللحم ثم طواه كالقرطاس وجعل يقضم ويتكلم معاً :

- " هناك مجنوب يسأل عنك يا أبا عرب ! يقول إنه مرسال خصوصى قادم لك برسالة من سيدى القنائى !! " ..

صاح الشيخ زينهم العترى قبل الصعايدة :

- " شئ لله يا سيدى عبد الرحيم ! " ..

وشوح سيد زنائى بذراعه علامة على أنه يرغب فى زحلته ؛ ثم أشار إلى رأسه بحركة من يقول : أنا فايق للمجاذيب الساعة دى ؟ فقال شوادفى بكل جدية :

- " لا ! إنه ليس من المجاذيب الذين هم فى بالك ! ليس معتوهاً ! بل إنه فى منتهى الإتران والعقل ! شكله ومظهره لا يقل عن شيخ طريقة محترم ! إصح للون ! أنا أيضاً فكرت أن أزحلته وحاولت لكنه مصمم على مقابلتك شخصياً لأن الرسالة أمانة والأمانة كما يقول لابد أن تسلم لصاحبها يدأ بيد !! كان سيدى عبد الرحيم القنائى ما يزال على قيد الحياة يبعث بالمراسيل !! إنما الرجل فى عينيه عقل لا يتزعزع ! قصدى أن تقابله على الأقل لتعرف من هو وما خيره ! بسرعة وتنتهى منه لأنه مصمم على الجلوس بجوارى حتى يراك !! ظنى أنه يحتال ليقضى الليلة عندى بالجمان لكن مظهره يشى بالفلوس وبأنه متعود على العز والسيادة !! " ..

تفكر سيد زنائى قليلاً فى انشغال بال ، فهتف زينهم :

- " وما المانع يا مولانا ؟ ليس كثيراً على سيدى عبد الرحيم أن يبعث المراسيل وهو نائم فى ضريحه !! إن سره باتع ما فى ذلك شك ! ومن يدربنا ؟! لعلها رسالة مهمة فلا داعى لأن نستهزئ بالرجل والإفاننا نستهزئ بسيدى عبد الرحيم شخصياً إذ أن كرامة المرسال يا مولانا من كرامة سيده ! أخذت لى بالك يا مولانا ؟ صرت أشعرت الآن يا مولانا أننا لو كسفنا هذه الرجل فلن يوفقنا الله فيما نود فعله !! " ..

شوح شوادفى وهو يطرح بأخر قضة فى فمه الشبيه بشاروقة القرن :

- " الرجل يا أختانا قال شيئاً غريباً ! قال إنه خرج من حضرة سيدى عبد الرحيم بعد صلاة العشاء فقطع الطريق من قنا إلى هنا ماشياً !! وقد تأخر كل هذا الوقت لأنه حود فصلى ركعتين فى مسجد سيدى جلال بأسىوط ! وحود فصلى ركعتين فى السيدة زينب ! ومثلهما فى مسجد الإمام ومسجد السيدة عائشة

والسيدة نفيسة ! ووجد نفسه قريباً منا فانتهاز الفرصة فضلى ركعتين فى رحاب شيخ العرب وركعتين فى رحاب أبى العينين ! وفى دمنهور صلى ركعتين فى جامع التوبة قبل أن يجرى إلى الوكالة !! ظننته يهذى لكنه قال أمانة بطحت دماغى يا أختانا! قال إن سيدى عبد الرحيم القناوى كان يعرف أن سيد زنتانى سيقضى الليلة الكبيرة كلها فى مولد الحسين ولهذا أرسل رساله إليه فى الشادر الذى كان فيه فلما ذهب إليه رأى سيد زنتانى يركب الأوتوموبيل مع حريمه عائداً إلى هنا فتركه مدركاً أن سيدى عبد الرحيم هو الذى أوعز إليه بالرحيل لأن الله يحب أن يستره وسيدى عبد الرحيم لا يفعل هذا إلا مع من يتوقع أن يكون من بين مريديه المهمين الذين يعطيهم سره !!..

حينئذ هتف الشيخ زينهم العترى فى وجد ملتهب وصادق الحرارة :
- "الله أكبر ! الله أكبر ! اللهم صلى على كامل النور ! أبعث يا عم ! بالجمود قلبك ياذا الرجل ! تسمع كل هذا ولا تأتى به فى الحال ؟! أعف عنه يا سيدى عبد الرحيم ! حلفتك بحق سيدى العترى !!.."

إشعر بدنى وسمعت طقطقة شعيرات فى رأسى فهرشت مكانها ، وانعكست أنوار اللبنة النيون المدورة الملتصقة بالسقف ، على الوجوه ، فبدت الوجوه كلها ذات لون فزدقى شاحب . وقال سيد زنتانى وقد ضوغت حيرته :
- " حاجة ما كانت على البال ! فلا حول ولا قوة إلا بالله ! يا قاعدين يكفيكم الله شر الداخلين !!.."

وقالت العرايشية بصوت متهدج بحرارة الإكتشاف وفطنة أهلها سكان المعيمات من البدو الرحل :
- " قلبى يحدثنى أن الرسالة التى يتكلم عنها هذا المرسال تتعلق بما نحن فيه الآن !!.."

- " الخبز على قدوم الواردين ! يعلم الله أنى ما قصدت إلا خيراً ! على كل حال هاته يا شوافى !!.."

بخطوتين اثنتين صار شوافدى فى قلب القناء صائحاً :

- " تفضل يا شيخ العرب ! الدار أمان !.."

فسمعنا صوت حوقة وبسلة وهمهمة مبهمة مع خطوات تقترب . ثم أطل علينا سميت عملاق مهيب ملء هدومه . فقمنا جميعاً واقفين لنسلم عليه فى احترام وتبجيل . كان أبيض الوجه دقيق الملامح وسيماً ، بلحية طويلة كثيفة نظيفة لكنها تتخللها شعيرات بيضاء مهيبة إلى حد الإيحاء بالرهبة ؛ يخفى فمه تحت جسور من الشوارب الملتحمة بشعر الخدين ؛ يلبس جلباباً من الصوف الفرسكا ذا لون رصاصى تطل من فتحة صدره خطوط القطنية الشاهى تحتها ، تلمع فى ثناياها نقط صغيرة هى الأزرار الصدفية للصدري تحت القطنية الشاهى ؛ يتعمم بشال حريرى كبير فوق زعبوط مغربى مدبب كالمهرم أحمر اللون ؛ يضع على كتفيه عباءة من الجوخ الأسود، ينتعل حذاء برقبة وأستك ؛ ويده عصا رفيعة من الشوم الملهذب ؛ لكأنه عمدة بلدة كبيرة ، إلا أن عينيه المكحولتين فيهما شرود أشبه باللهول ، لا تستقر نظراتهما على شئ بل هى أصلاً غير مصوبة إلى شئ ولو بشكل عابر . إن لمعة الجنون بارقة فيهما بصورة غامضة لكنها مؤكدة على نحو ما . قال بصوت غنائى رصين رحيم فصيح النطق لبق العبارة منغوم كالفقير إذ يتلو القرآن المرتل :

- " السلام على من اتبع الهدى من أبناء حواء وآدم ! " ..

- " عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! " ..

سلمنا عليه واحداً واحداً فكان يجارينا فى كبرياء وغطرسة كمن يريد الإنهاء من مهمة ثقيلة محجوجة ، إذ يكتفى بلمس أطراف أصابعنا فى سرعة . وسعنا له مكاناً بجوار سيد مباشرة ، واختصه سيد بشلطة سمينة ، لكنه رفضها بلطف مفضلاً الجلوس على الأرض مزبجاً بحذائه كيفما اتفق . ما كاد يستقر فى قعدته حتى أخذت جنونة تعيد تنسيق ما تبقى من طعام داخل الطبق وتقدمه له فأزاحه بلطف أيضاً ، وفى صمت ، أخرج من حبيه الجانبى ثمرة شقها نصفين فوضع النصف فى فيه ودس الآخر فى سيالته ..

- " تشرب شاي يا شيخ العرب ؟ " ..

- " تشكر تشكر يا ولدى ! لكن أزيجوا من أمامى هذه الزجاجات الكريهة !

أنت يا ابن الزناتى لا تعرف قيمة نفسك ! وسيدى القناوى يعرفها ! " ..

إمتدت يد العرايشية فجمعت الأكواب ؛ فمد ذراعه فى لطف وغمغم بما يعنى أنه رجع فى كلامه ثقة منه فى حسن نيتهم وأنه لا يجب أن يقطع مرحهم وصفو مزاجهم . فأعادت العرايشية الأشياء كما كانت ؛ ثم ترددت قليلاً ، ثم صبت الخمر فى كل الأكواب . هنا التفت الرجل إلى سيد زناتى :

- " هيه ! أنت الحاج سيد زناتى طبعاً ! صورتك معى من لحظة خروجى ! زودنى بها سيدى عبد الرحيم ! أما الرسالة فإنها بسيطة لكنها مهمة : يقول لك سيدى عبد الرحيم القناوى رضى الله عنه وأرضاه : الأمانة التى لقيتها ذات يوم فى عرض الطريق لا تفرط فيها حتى تردها لأصحابها كاملة غير منقوصة ليجازيك الله خير الجزاء !! " ..

ثم صمت . فحط علينا صمت مطبق ، وأتجهت أبصارنا كلنا إلى سيد زناتى ؛ الذى اندمج فى شroud عميق حشظت له عيناه ، فراح يفكر فى انشغال مهموم :

- " أمانة ماذا ؟ أنا لم ألق أى شئ فى الطريق طول عمرى ! ياما حلمت فى طفولتى بحفظة ألقاها فى الطريق أو كنز فى حفرة لكن شيئاً من هذا وذاك لم يحدث أبداً !! يعلم الله أنى ما أذكر شيئاً ! فإن كان سيدى عبد الرحيم متذكراً فساكون مسروراً لو فكرنى !! " ..

شوح الرجل قائلاً فى فروغ بال :

- " هذا ما قاله لى شيوخى ومولاى ! وما على الرسول إلا البلاغ ! اللهم إنى قد بلغت ! اللهم فاشهد !! " ..

فبدأ الإنشغال فى أعيننا جميعاً ؛ وظهر التوجس واضحاً فى عيون الصعايدة . قال الرجل كأنه يشفق علينا :

- " على كل حال أنا قاعد فى رحابكم لبعض الوقت فربما تتذكر ! سيدى عبد الرحيم لا يكذب ولا يخترع ! كل ما فى الأمر أن الحياة هو ولعب وزينة والإنسان فيها نساى بطبعه ! عودوا إلى ما كنتم فيه فاشربوا وفرشوا ! لا يخدعنكم وجود جسدى أمامكم ! فسأخطف رجلى للصلاة فى مسجد سيدى أبو المكارم بجواركم !! إتركوا جسدى فى حاله حتى أعود إليه فأحمله فأمضى به إلى شيوخى ومولاى كى أبلغه رد الرسالة !! " ..

ثم تملأ في جلسته ، صار يعدل نفسه وسمته في عدة اتجاهات حتى تمكن من تحديد جهة القبلة ، فولى وجهه تجاهها ، فصار وجهه قبالة السلم الداخلى بالخرافة يسيرة ، وظهره في مواجهتها بانعطافة حادة ؛ مما جعل الحريم ينزوين عن الساحة الفراغية أمامه كأنهن يخشين من قطع الطريق أمامه إلى السماء . اندمج في صلاة حقيقية قطعت صلته بالجالسين تماماً . إعتدل سيد زناى مفتعلاً ابتسامته قائلاً :

- " يرجع مرجوعنا لموضوعنا ! ما حكايته بالضبط ياسى بديع ؟! لا تخشى شيئاً فنحن إخوة ! قل لنا الحكاية من طق طق لسلامو عليكم ! " ..

فاعتدل بديع متنفساً الهواء بعمق ، كأنه أنقذ من الغرق .

بديع

.. "حكايتي بعد الصلاة على الحبيب عجب في عجب ! لو كتبت بسن الإبر
على مآقي البصر لكانت عبرة لمن اعتبر !! ظلمنى الصديق والحبيب والزمن !!
" كان ياما كان شاب اسمه بديع ! شغلته فكهاني ! ربنا فاتح عليه ! لديه محل
فى سوق البلد ورسمال وفير والأشيا معدن ! قلبه مجروح بسهم الفن ! وجرح الفن
دواؤه الحب !! ..

" كان يحب الله فى خلقته ! فى برتقاله وعنبه وعنابه وعجوه ورمانه وبلحه
وكمثره والمأنجو والجوافه والتفاح والتين ! عشق بستان الله تبارك صنعه : إذا
كانت هذه فاكهة الدنيا المباحة حتى للفاسقين فما بالك بجنة الآخرة المدخرة للأبرار
والصالحين والمطهرين ؟!! ..

" أصبح يغنى للفاكهة كأنه يغنى للحب نفسه ! ويغنى للحب كأنه يغنى
للفاكهة بأنواعها : يافكه وبديع ياتين ياللى حلف ربنا باسمك ياتين !! بلادك بعيدة
ياعنب والغربة خطفت لونك !! يا صوايع الحبيب ياموز !! ياورد الخلود ياتفاح !!
ياخوخ نحانونا الحبايب واحنا لم نحنا !! ..

" فكهاني فكيه ! قلبه نزيه ! يغنى فى الأفراح بالبحان !! كل الصبايا فواكه !
وكل عروس فكيهة !! موال الفكهاني لا يتبدل أبداً وإن تجدد دائماً !! لو نساء
يذكره به العشاق فى الأفراح !! ..

وصل الكلام فى الغنا لفكيهة ! أخت صاحبه العزيز ! لا عمره شافها ولا كان
يحلم أن يشوفها ! لكنها أخذت مواله رسالة شخصية لها !! أحبت الفكهاني وقعت
فى غرامه وهو لا يدري !! ..

" الحب كالعطر لا يتخفى أبداً ! وصل الخبر بالشوق للفكهاني ! حرك شعوره
شعلل فؤاده ملاء بالشوق بالخيال بالأمان أصبح يغنى للحبيب بالعنية ! أصبح يغنى
لحبيب معين مقصود لذاته !! أصبح موال فكيهة قاصداً شخصية فكيهة وحدها بعد
أن يقصد الفاكهة فى أصل وجوده !! ..

" سخن قلب الكلام فأضاء النغم والجلنى الصوت صاعداً من قلب موجوع
لسعته نار الحب بحق وحقيق !! بعد أن كان الغناء خيلاً حلوّاً أصبح تجربة حية
تخلب لب السامعين تصل إلى قلوبهم بسرعة النار فى حطب حاف!!..

" فى البلدة مائة فكيةه بالاسم ! لكن موال الفاكهة هو الذى أصاب بغير
تصويب فرشج بدلاً من الفاكهة فكيةه أخت صاحب الفكهانى المغنى !!..
" قال الفكهانى المغنى : يا دار ما دخلك شر ! فأنا فكهانى ميسور الحال تتمناه
أى فكيةه فى البلد ! وحببية القلب هى أخت صاحبى فما الذى يمنعنى من
خطوبتها على سنة الله ورسوله والمؤمنين !!؟..

" جمع الفكهانى وجوه قومه وراحوا يخطبون فكيةه للفكهانى ! المغنى صاحب
أخيها الروح بالروح !! لكن الزمن طبيعته الغدر بسبب وبلاسبب !! قوبل
الفكهانى بما لا يستحقه من الجحود والنكران !! رأى الفكهانى غدر الزمن فى عينى
صديقه العزيز فركبه الهم والألم !!.."

" صاح الفكهانى من فجيعته : ما الذى غيرك يا عبد المولى وأنت صديقى
الصدوق !!؟ لا أنت صديقى ولا أعرفك وليس لك عندى أى طلب ولا أى
حاجة !!.. لماذا يا عبد المولى كفى الله الشر !!؟ ليس صديقاً من تغزل فى أخت
صديقه علناً وفضحها فى نفي الأفراس ! ألك عين بعد هذا كى تجى وتطلب يدها !!؟
أتريد أن تكمل الفضيحة !!؟ أجمعلهم يقولون كان بينه وبينها أمر الله !!؟ أتظن أن
جميعك خاطباً يعفيك من ذنب الخيانة والبدء بالعيب يا بديع !!؟ من الذى أطلعك يا
بديع على الأماكن التى وصفتها فى موالك من حسنها !!؟ لقد أبدعت فى وصفها
يا بديع فأين رأيتها وكيف تملت من صورتها لتعرف لون عينيها وطول رموشها
وجذائل شعرها ونحول خصرها ورماد صدرها وخوخ خلودها وتفاح كعبها !!؟
أرأيت كل ذلك بعينيك يا بديع !!؟..

" قال الفكهانى لصديقه القديم الحميم : يا عبد المولى إنه موال قديم قلم
الفاكهة والجنائنية ألفه غيري عن الفاكهة الفكيةه ولم أضف إليه إلا صوتى الذى
يشيل مشاعرى فوق حسى !!..

" قال عبد المولى : ولكننا لو زوجناك أختى فكيفه تثبت للناس أن الفضيحة كانت على أساس فلا دخان بغير نار !! وسيصدق الناس أنك بحكم صحوبيتك لى اتصلت بأختى من وراء ظهرى وهذا تطير دونه الرقاب ..!!

" يهديك يرضيك يا عبد المولى ! لا فائدة !! يا عبد المولى أنا واقع فى حب البنية من أظافر قدمى إلى شعر رأسى !! لا فائدة !! يا عبد المولى والبنيت تحبنى وترحب بالزواج منى ! ركه العفريت : بنيت من هذه التى تحبك : أتقولها فى وجهى يا بديع ! أأست أملاً عينيك إذن ؟ أعدنا بنات تعرف هذا الكلام ؟ الحسب ليس وقته الآن يا بديع وأنت من الآن لم تعد صاحبى ولم أعد أعرفك ..!!

خرج الفكهائى غارقاً فى دموعه ووجعه ! شعر أنه ربما يكون أخطأ فى حق البنية ! صمم أن ينقلها من الفضيحة بأى ثمن لأن الشبان سيتراجعون عن التقدم لخطبتها ولسوف يكون مصيرها واحداً من اثنين : إما أن يلتزم أحد شبان عائلتها بالزواج منها وإما أن يقتلها عبد المولى يعنى هى فى الحالين مقتولة مقتولة ..!!

"- راح الفكهائى يبعث المراسيل كل يوم بغير جدوى ! عبد المولى يرفض كل محاولة للكلام فى الموضوع من أساسه ، لم يكرم وفادة الكبراء الذين توسطوا لديه !! البنيت راشدة والفكهائى كامل الرحولة فلماذا لا يتم الزواج بإرادتهما ؟ إشتكى الفكهائى للعمدة ! العمدة سأل البنيت هل ترغبين فى الزواج من بديع يا فكيفه قالت نعم ولا زوج غيره مدى الحياة !! فلما سمع عبد المولى قولها هذا قصرت رقبتة أمام الرجال فبيت النية على قتلها فى أواخر الليل ..!!

" تأكدت البنيت من غدر أخيها ! فحين أصبح الصباح لم يجدوها فى الدار ولا فى البلدة كلها !! قامت المناحة ! أصبح الفكهائى أكثر انشغالاً بالبحث عنها من أخيها !! داخ وراءها فى كل البلاد ! صبر رسماله فى السفر ! أغلق دكانه ! ساءت حاله ! أصابه الهزال ! جاعوا بينات الدنيا فلم يقبل بغيرها بديلاً ..!!

" صار الغناء فى الأفراح والموالد سلوته الوحيدة يطفى فيه ناره ! صار يغنى كما يقرأ الساحر تعاويذه وتعازيمه لعل ضراسته تصل إليها حيثما تكون فيرق قلبها فنعود إليه !! والزمن الغدار النذل يمضى ببطء فلا يأتى اليريد بأى أخبار !! نسيها الناس باتت مجرد خبر قديم لا يصح تذكره !! أصبح انسان فقط فى هذه الدنيا

ينتظران فكيفة : بديع ليتزوجها ويبدأ حياته وجنته ! وعبد المولى ليقتلها ويغسل عاره ..

" وبالأمس بينما كان المغنى يتحول فى شوارع مولد الحسين جاءه نفر من صحابه بالبشارة : طائرک الثائى منك ظهر الليلة فى قفص مع سجان فى الشادر الفلانى !! الروح ردت فى الفكهانى ! إندفع يجرى ! لم تسعه الدنيا من الفرح لما رأى طيره يجلس أمامه وجها لوجه ! كاد يرغمى فى حضنها ويكى ويشتكى لها لوعة الفراق وفرحة اللقاء غير المنتظر ! لكنه لم يستطع لأن طيره كان فى يد غيره!! كاد يسقط مغشياً عليه من القهر لولا أن أهمه الله برؤية النفير لحظة انتهاء الصييت! أمسك بالنفير وراح يبيته ذات نفسه ! فى غمضة عين وانتباهتها لم يجد طيره !! أكان حلماً كاذباً لمدة وجيزة ؟! ..

" نزل يجرى متعبطاً فى الشوارع ! رأى السجان يضع طائره فى سيارة ! والسيارة تنطلق ! صاح كالكلبى يستنجد بالناس لإيقاف سيارة حطفت قلبه ! من حسن حظه شاهده واحد من الشادر يعرف السجان معرفة شخصية ! أعطاه اسمه وعنوانه ! رمى الفكهانى بنفسه فى سيارة وأوصاها بأن تلاحق السيارة الحاملة لطيره ! لحق بها ! ركب نفس القطار ! جاء إلى هنا !! ..

" أما الفكهانى المغنى فإنه أعوذ بالله من قولة أنا !! وأما فكيفة فإنها هذه التى تجلس بجوار الباب وقد تغير شكلها أصبحت من المصاوم تكشف وجهها وذراعيها ولا بد أنها أطلقت على نفسها اسماً آخر غير اسمها الحقيقى !! " ..

وفكيةه

.. "نعم أنا أحببته ! أحببت بديع الفكهانى من قبل أن يضعنى بدلاً من الفاكهة فى الموال !! كونه صاحب أخى من صغرهما لا دخل له فى الموضوع !! يعنى لو ما كان صاحباً لأخى عبد المولى كنت سأحبه سأحبه ..!

" هو كان يدخل دارنا مع عبد المولى كثيراً لكن عمرى ما ثلمت منه ولا شفت شكله كله ! إنما شفت حسه عندما يغنى فى الأفراح ! لا فرح بغير صوت بديع الفكهانى يغنى فيه !! ولا فرح إلا وأنا جالسة على سطح الدار ومن حولى كل الصبايا تتفرج على بديع الفكهانى ! حسه الخلو يسعى فوق الأسطح يأسرنا فنبكى من الفرح ونفرح من البكاء لا نريده ينتهى أبداً من الغناء !! كل الصبايا كن يحبينه ! لأنه هو الفرح ! حتى اسمه ! حين يذكر أمام أى صبية أو أمام أمها فإنها فى الحال تبسط كفيها نحو السماء تهتف : إتشاء الله يارب بشرة خير!!..

" سيرة بديع الفكهانى إذا جاءت فى أى كلام فإنها بشرى بالفرح الذى لابد سيقام ليغنى فيه ويشعلل خيال الرجال وقلوب الفتيات وصدور النساء !! وكل صبية تسمع غناء بديع الفكهانى يجيئها هاتف يقول لها إن بديع يقصدها هى بالذات ويغنى لها !! تشعر بنفسها فى الحال ! تزداد النصف حلاوة ورواقه !! لما يغنى بديع الفكهانى ينسحر الرجال ينسون همومهم يتصالح المتخاصمون ليجلسوا معاً صاف يالبن حتى يسمعوا بمزاج دون تنغيض ! الفرح يعم ويشمل ! الكل يصير عريس يعود إلى داره رائق المزاج على البال يقيم عرساً فى داره !! شوارع البلدة تراً كلها تسهر الدكاكين فى الخوارى تبيع وتشترى والحركة لا تكف !! طوائف جاءت من البلاد القريبة لتسهر فى الفرح ! والكل فى حركة وبهجة وزغارير وأعيرة نار لكن صوت بديع الفكهانى هو الذى يغطى على كل شئ ! يندلق النفير موجاته فيحضنهن الهواء يوزعها بالعدل على كل أذن فى كل دار ! ويكون أوضح وأصفى للساهرين فى الغيطان!!..

" يوم المنى ليلة أن شعرت أنني فككيةه الموال وأنسى العنب والخوخ والرمان والتفاح والمشمش والمالجو والكمثرى !! فى مواله القديم كان يشبه الناس بالفاكهة

فليلتذاك سمعته يشبه الفاكهة بى ! فالعنب فيه عنافيد صدرى ! والخوخ سرق حمار
حدى ! والتفاح يتساقط من كعبي!!..

" من القلب للقلب رسول هكذا يقول المثل ! وقلبي دائماً أصدق من عقلى!
سمعت الطرق على بابه فانتفضت تلقيت المرسال الذى نبه قلبى إلى أن الموال جواب
مبعوث لى أنا وحدى ومكتوب عليه اسمى وعنوانى وأوصافى !! صورتى كانت فيه:
العين الواسعة طويلة الأهداب ! والرقبة الطويلة العريضة النحر !! مرة فى إثر مرة !
ليلة تعقب ليلة ! شعرت أنه يتعذب يصرح طالباً أن أحسن عليه أن أرد ولو بكلمة
بلمحة بإشارة يد تخبره أن الرسالة وصلت وأنى على العهد باقية حتى يحين أوان
اللقاء !!..

" أقول الصراحة : بعثت إليه ! هل أنكر !؟ هل أقدر على الإنكار !؟ هل
يستطيع الزمار تغطية ذقنه أثناء النفخ فى المزمار !؟ ولماذا أنكر !؟ هل فعلت
حراماً !؟ وقعت فى المخطور !؟ ارتكبت جريمة بشعة !؟ بعد الشر عنى فأنا تربيت
على الغالى ! لست أفعل جريمة إذا بعثت لصاحب أخى بالسلام مع أخته ! مجرد
السلام ! بعدها دخل سلامى فى الموال ! وجاء فى الموال جواب يرد على السلام
بألف سلام وتحية ! طلب الدخول من الباب الشرعى ! رحبت طبعاً ورقص قلبى
من الفرح ! لن أجد عريساً أحسن من بديع ولكن كيف أقول هذا وبلدتنا تحرم
كلمة الحب إذا طلعت من فم الصبية أو صرح بها الصبى !؟ هل البنت فى بلدتنا لها
رأى !؟ الحب موضوع للغناء فحسب !! خفت أن أبعث له بالسلام ثانية ! سكت
وأنا على جمر النار !!..

" وفى ليلة دخلوا على القاعة ! قالوا إن بديع الفكهاني فى المندرة مع عبد المولى
جاء يخطبنى وعبد المولى يعاركه يحبس دمه فى كل كلمة ! ما أعرف لماذا كبرت فى
دماغ عبد المولى ؟ جاء الجذع يخطبنى وهو الذى تتمناه أى فتاة من أكابر العائلات!
ووضع نفسه تحت أمر عبد المولى يطلب منه يشاء ليتم الفرح !! هب فيه عبد المولى!
خلق له خصومة غير مفهومة !!..

" عبد المولى مخه ناشف ! ونشفاً مخه خرب بيتنا أكثر من مرة ! حكم على
بالإعدام ! شردنى ! حرمنى من حبيب قلبى الذى تمنيتهُ وتمنى هو رضائى !!..

" كرهت عبد المولى لأنه يحدد مستقبلى فى سجن لا نهاية لمدته !! من الغيظ تحديته ! قلت للعمدة بالفم المليان وبصريح العبارة إني أحب بديع الفكهاني ولن أتزوج بغيره !! غلى الدم فى عروق عبد المولى ! إستعد لقتلى فى نفس الليلة ! قتلى للمرة الثانية !! لم يهمنى القتل بالسكين بعد أن ذبح قلبى وصفى دمه بغير سبب سوى الغرور وحب النفس !!..

" أنا لم أهرب من القتل ! إنما هربت انتقاماً لنفسى من عبد المولى !! رحبت بالموت لكننى لو تركته يقتلنى شفيت غليله ورفعت رأسه فى البلد على حساب ظلمى وحسرتى !! قلت لنفسى : أأناية بأناية ! سوف أهرب لأجعل عبد المولى يعيش بقية عمره غارقاً فى العار حتى أذنيه !!..

" وأنا لم أكن عاراً عليه لكنه هو الذى خلق العار لنفسه ولى ! فليشرب هو الآخر من كأس الحسرة التى سقانيها !!..

" كنت أعرف أن من خرج من داره قلّ مقداره ! وأن الغربة ذل وبهذلة ! لكنها أهون ! الغربة نصف الموت الذى كنت سألقاه بسكين عبد المولى ! إنما ريك كريم ! تركت بر الصعيد كله ركبت القطار إلى طنطا شئ لله يا شيخ العرب ! هو الذى نادانى ! هاتف قال لى يا بنت اركبى هذا القطار الذى يزدحم عليه الناس بكثرة ! قلت للناس أمام شباك التذاكر لماذا هذه الزحمة على هذا القطار ؟ قالوا نحن ذاهبون إلى مولد البدوى قلت شئ لله يا شيخ العرب وركبت معهم ! دخلت مقام الشيخ أقرأ له الفاتحة وأطلب منه أن يكون معى فى غربتى ويوقف لى أولاد الحلال فى سكتى بكراماته عند الله !! بعدها بقليل رأيت العرايشية هذه تتكلم معى ثم تعزمنى على الغداء ! كلمة منى كلمة منها حكيت لها ظروفى كلها !! قالت ! يهملك من شئ طول ما أنت معنا !!..

" نمت معهم ! بعد انتهاء المولد أتوا بى إلى هذه الدار فبدأ الفأر يلعب فى عبي لكن الحق لله فاجأنى سيدي زناتى هذا بأن عرض على الزواج حتى أطمئن وأعيش معهم فى سلام ! قلت : وزوجاتك هؤلاء ؟ قلن قبله : الشرع حلل له أربعاً والمهم موافقتك أنت !! حسبتهما فى دماغى : ليس لى مكان ولا أقارب وإن عشت مع

سيد زناتي وزوجاته فلن أسلم من الشيطان ولا من لسان الناس فخير لي أن أتزوجه
على سنة الله ورسوله وأستريح !!..
"من حسن حظي أن سيد زناتي لا يحب خلفة الأولاد ووجع دماغها !! ومن
يعيش بين قوم لا بد أن يتطبع بطباعهم ! فكل النساء هنا يعرين أذرعهن وشعورهن !
لكنني بفضل الله لم أتجاوز الحلال خطوة واحدة !".

الفاجرة

إعتدل الرجل المجذوب فواجه الجالسين ، وطوى المسبحة الطويلة فقدمها فى جيبه ووضع يديه مطبقتين فى حجرة ؛ ثم قال كأنه لم يعترف بكل مادار من حوله :
- "والآن ماذا أقول لسيدى عبد الرحيم ؟ هل تذكرت ذلك الشئ الذى لقيته فى الطريق فحملته إلى هنا لتنتفع به أو تدخره ؟!" ..

فنهز سيد زناتى بعصبية لم يستطع السيطرة عليها :

- " إنتظر يا عم حتى نحل هذه المشكلة العويصة ! " ..

ثم انتبه إلى أنه شوح فى وجه الرجل بغلظة على أثر نظرة عتاب قاسية وجهت إليه من عين الشيخ زينهم العتريس ؛ فيما يشبه الاعتذار أعاد قوله بهدوء :
- " علم المواخذة نحن الآن فى شدة ! أنت طبعاً غير دار بشئ مما يجرى حولك ! فحللك فى صلاتك وأورادك حتى نحل هذه المشكلة التى لم تكن تتوقعها !
أدع لنا فى صلاتك أن يوفقنا الله إلى الحل الصحيح ! " ..

بدا على وجه الرجل المجذوب أنه لم يفهم شيئاً مما قيل بل لعله لم يسمعه أصلاً ، إذ قال كأنه يبلغ الرسالة لأول مرة :

- " يقول لك سيدى عبد الرحيم إحتفظ بالأمانة حتى تردها لأصحابها-
الأصليين ! هذا كل مافى الأمر ! " ..

- " ديك الأمانة على ديك أصحابها ! أقول لك إننا فى مأزق حرج فلا تخرج منه وتشتت مخنا ! " ..

- " وأنا أقول لك قولة سيدى عبد الرحيم : إحتفظ بهذه الأمانة حتى تردها لأصحابها ! " ..

- " حاضر ! حاضر ! سماعاً وطاعة ! فهمنا ! حين أكتشف هذه الأمانة سأذهب بها بنفسى إلى سيدى عبد الرحيم شخصياً ! " ..

- " وإذن فلا تتأخر لأن قطارنا يتأهب للحركة ! يادوب تقوم فتلبس هدومك ! " ..

ثم نكس رأسه وأخذ يتمتم ببسبسات غامضة . ونهض سيد واقفاً ، قفز إلى الباب المطل على الفناء ، نادى شوادفى بأن يجئ حالاً . فكح شوادفى وسلك صوته بصعوبة من قلاقل النوم ، وقال بصوت متحشرج إنه قادم ..

وكان ضوء الصبح قد صبغ الدنيا بلون الإردواز ، وبدأ يحتاط بضوء اللمبة النيون المدورة ويخنقه . ثم دخل شوادفى يدعك في عينيه مبهدياً دهشته من عمق نومه لدرجة أن الجميع النائمين في الفناء قد انصرفوا دون أن يشعر بهم ؛ وتساءل إن كان ما حدث بالأمس من فرح حقيقى حافل قد حدث حقاً أم أنه كان يحلم بذلك فوق المصطبة ؟ فقال سيد زتاتى إنه حدث والدليل على ذلك أن المغنى لم ينصرف بعد ؛ ثم أضاف أن الفرح الذى بحق وحقيق هو ما سيحدث بعد قليل . وكان قد انتعش فجأة بمجرد وصوله إلى الباب وعودته ؛ ثم أيقظ انتعاشه بكأسين متتالين من الكحول الأبيض المقطر ؛ ووزع دوراً من السجائر وحبات الفاكهة على الجالسين ؛ ثم قال بلهجة حكيم نطاسى فهم الدهر والأعيبه وأخذ من متع الحياة كفايته ؛

- " شف يا أخ العرب ! أنت قطعت قلبي ! وأنا لا يطاوعنى قلبي أن يكون حقك حلمك عندى وأحرمك منه ! يكفى أننى تمتعت به وقتاً طويلاً من الزمن اختصر من زمن متعتكم معاً !! كل شئ قسمة ونصيب !! فهذه هى حبيبتك فكيفة ! سأطلقها الآن ! ولتعقد قرانك عليها فى أى وقت تشاء ! ولك أن تتسلمها الآن معززة مكرمة ! إن فكيفة جوهرة ثمينة وبنت حلال عفيفة نظيفة الذيل هذه شهادتى أمام الله ! أنت حدير بها وهى حديرة بك ! لها مبلغ فى دفتر التوفير يمكن أن ينفعكما ! والآن شف شغللك يا شوادفى !! " ..

ترجع شوادفى موجهاً الحديث إلى :

- " هات ورقة وقلماً يا أختانا وأنا أملئ عليك ! " ..

بدت فى عيون الرجال نظرة استفهام غامضة ، تلقفها سيد زتاتى ، فشرح لهم فيما يشير إلى شوادفى بكل جدية :

- " هذا هو مأذون الوكالة ! وهو الذى عقد قرانى على زوجاتى وكل من تزوج فى الوكالة !! " ..

ثم سحب أجندة من قعر طاقة مجاورة لكتفه ؛ نزع منها ورقة سلمها لى مع الأجندة لأسند عليها . فلمع فى عيني شواذفى ذكاء جهنمى ، قال :
- " لقد تزوجتها باسم جنات عبد الخالق أبو عيش !! فهل تطلقها الآن باسمها الحقيقى ؟! " ..

طق الشرار فى عيني سيد زناتى كأنه انتبه لهذا المأزق على حين غرة ، لكنه هتف :

- " معك حق ! ولكن لا ! لو طلقناها باسمها الجديد وهو الصحيح نكون طلقنا امرأة أخرى ! طلقها باسمها المكتوب فى عقد القران : جنات عبد الخالق ! وأضف لى اسمها عبارة : التى أتضح الآن فقط أن اسمها فكيه كذا !! " ..
قال شواذفى كأنه يدعو لنفسه بإعلان مجانى :

- " أرايت ؟! هذه ميزة أن تعقد قرانك عندى ! عند غبرى كان لابد أن تحدث الآن مشكلة تعطل الطلاق ! هى نفس المشكلة التى كانت تعطل الزواج ! هيا يا أبحانا فاكتب ما أمليه عليك من صورتين لكى يأخذ كل من الطرفين صورة من عقد الطلاق !! " ..

وجعل يملى على صبيغة الطلاق ، والرجال يتبادلون النظر ويكتمون الضحك والدهشة والمزوجة بحب المغامرة لطرافتها ، كأننا جميعاً أطفال نمارس لعب مشروعة . حتى إذا ما انتهى من الإملاء نقلت من العريضة صورة ثانية ؛ ثم قدمتهم لسيد زناتى فوقع عليهما بإمضائه ، ولجنونة فبصمت ، ولنفسى فوقعت بشهادتى والشيخ زينهم العترىس فوقع بشهادته ولشواذفى فوقع أيضاً . سلمت لكل من الطرفين صورة ، أطبقها ووضعها فى جيبه . ثم حانت منى لفئة عفوية إذ سقطت عيني فى عيني الرجل المجدوب ، فاصطدمت ببركان من النار المتأججة تعمل على إحماها قوة خرافية ..

تأهب الرجال للقيام ، فيما راحت سنات تبكى فى صمت ، تجاوبها العرايشية بدمع قليلة . أما "المضروبة" الأخرى - والتى هى من اكتشاف سنات - فقد حط عليها فحول تجمد فى عينيها فاستسلمت لشروود مذعور ؛ ربما لأنها بدأت تتذكر مصيراً مشابهاً قد يحيق بها ذات لحظة قادمة ..

وقف الرجال بالفعل ؛ فاضطرب الرجل المجنوب فجأة وظهر عليه التوتر وهاج
البركان المشتعل فى عينيه ، لحظتها فحسب ، شعرت أن عينيه ليستا يعينى ناسك
مجنوب بالعشق الإلهى ولا يمكن أن تكونا كذلك . فانتابنى كثير من القلق
والتوجس . راحت جنونة تعانق النساء وتبكي بكاء الفرح العميق كأنها تقول لمن
بشفرة يفهمنها جيداً : العقبى لكن ياخذ الله تتحررون من هذه الوهدة فى الغربة
الذليلة فتعدن إلى وطن الحلم القديم الأصيل .. وسلم الرجال على سيد زناتى
واندجوا فى شكر وترحيب ودعوة لزيارة الصعيد . ثم تسلفت جنونة فأنت بيقجة
ثيابها التى وضح أنها أعدتها من قبل ، وحين سلمت على سيد لفت يدها بطرف
شالها، فقال لها :

- " إختبرنى أتحا لك ولبيدع ! لن أنساك أبداً يا فكيهة ! أقصد يا جنونة ! " ..
إنسلت بديع بلهفة فدفع جنونة أمامه محضناً عليها ، ومن خلفه صحابه ،
فالمجنوب فسيد زناتى فزينهم العتريس فأنا تفرع خطواتنا على السلم فى حلبة
كبيرة ..

صرنا فى قلب الفناء . وهنا انفجر البركان الذى فى عيني الرجل المجنوب . لم
يستطع السيطرة على نفسه ؛ إنفرط الهيكل الذى كان يضع نفسه فيه، فصار يشوح
بحركات سوقية ويكاد يشخر ويسب الدين . لعله فعل ذلك بصورة أو بأخرى قبل
أن يتكلم ؛ لكنه سرعان ما عاد فتشبت بالشخصية التى جاء بها ، فصاح :

- " قف مكانك أنت وهو ! " ..

كان الصوت مختلفاً تماماً ، ليس ذلك الصوت الناعم الذى ينم عن سداجة
وصفاء ، بل كانت صبيحة ابن ليل حشنة قاسية . مع ذلك استرد هدوءه موجهاً
الكلام لسيد زناتى فيما تسمر الجميع فى أماكنهم متوحشين منهولين :

- " خنت الأمانة يا زناتى ! لم تسمع نصيحة سيدى عبد الرحيم ! كان يجب
أن تسلم الأمانة إلى أهلها ! " ..

- " أى أمانة يارجل يا طيب ! الأمانة هناك فى السجن ! " ..
- " هذه الأمانة التى لم تفهمها أيها الغبى رغم أنك رجل دابر ومفتح ! " ..
وأشار إلى جنونة ، ثم كرر :

- " هذه هي الأمانة ! لا بد أن تسلمها لأهلها !! " ..

- " وأين هم أهلها ؟! " ..

- " أنا أهلها ! ولا بد أن تسلمها لى غضباً عنك وعن أى مخلوق !! " ..

صاروا ينظرون فيه بتوجس وذهول كبيرين . وقالت جنونة فى اضطراب واضح:

- " أنا ياعم لا أعرفك ! فمن أين طلعت لى ؟! " ..

بسرعة هائلة امتدت يده فخلعت اللحية المستعارة ، ورفعت العمامة ، وصاح بلهجة تتضح بالغدر والندالة :

- " أنا أخوك عبد المولى يا فاجرة ! حتروحى منى فىن ؟! " ..

صرخت جنونة وتهاوت ، فتلقفها بديع وأسندها مغشياً عليها من هول المفاجأة، حملها كلبشة القصب على كتفه وانطلق يهرول نحو البوابة . لكن يد عبد المولى كانت أسرع من البرق ، شدد الطبنجة من تحت إبطه ، فى لمح البصر دوى الرصاص منطلقاً متلاحقاً فى دربة ومهارة . سقط بديع بحمله على الأرض ، فلاحق بهما وأفرغ فى رأسيهما رصاصات ؛ وأسرع يغير مشط الرصاص بمشط جديد ، لكن سيد زناتى كالفهد انقض عليه من الخلف فطوقه بذراعين كالحديد ، فسقطت الطبنجة من يده فالتقطها واحد من صحاب بديع ثم تذكر فتركها تسقط من يده إثر صرخة من شوادفى تحذره من البصمات وتغيير المكان . ثم تقدم فكتف عبد المولى بجبل من مسد .

الحنين

طال بى السأم والقرف والفلس ، ودوشة الدماغ . كل يوم والثانى فى تحقيقى ، من المباحث إلى النياحة إلى المحكمة . من حسن الحظ أن مصاريفى فى الأيام الأخيرة كانت قليلة ، والعمل كان نادراً . مزاج سيد زناتى بات متوعكاً مختلاً ، لا يجيد رسم الخطوط التى تدر دخلاً كبيراً . ضولت المشاوير التى أقوم بها مع ستات ، دارت فى فلك تقليدى قليل الخبرة وإن كان يأتى برزق المصاريف اليومية : الإدعاء بأننا غرباء تعرضنا للسرقة ونطلب من الله ولا يكفر على الله أجرة القطار ، فلا يجتمع فى المنديل إلا ما يزيد عن أجرة القطار فعلاً بما يكفى عشوة ليلة أو ليلتين ..

كانت ستات قد استجابت لنصائحى السرية فنفرت من المشاوير السخيفة التى لم تكن تحبها فى الأصل لولا ضغوط سيد وظروف أكل العيش ؛ من قبيل النصب على بعض العمد ومشايخ البلاد وذوى الأملاك المتصايين ؛ إقامة علاقة وهمية معهم تستنزف فيها مواردهم المادية دون أن تنيل الواحد منهم من جسدنا شيئاً إلا اختلاس قلبه أو خطف حضن عابر ، لزم سبك الشغل ..

وبدأ سيد يحن لشیطان التأليف وكتابة الأغنيات التى ينوى هذه المرة أن يأخذها مأخذ الجد فيسعى بها إلى الإذاعة والمطربين والأفلام ، فكان يسمعى كل ليلة أغنية كاملة جديدة تعكس أخلاقيات الشارع والحارة بالفاظ سوقية لكنها طريفة ومبسوكة فى أشكال موسيقية لها جمالها الخاص مع ذلك ، من قبيل : خذ من قلبى وصبر .. ياللى ساقينى الشقا والمر ؛ وياواد ياحموه سامعنى ولا لاه ؛ والغاوى ينقط بطاقيته .. إلخ إلخ . وكنت أقول له رأيى بصراحة ، فيظهر علم الإهتمام به ، ويقول إننى مغرم بالأغنيات اللواتى الخرعة المايعة وإن المستقبل كله لهذا اللون من الأغنيات التى تشعّر وتغنج وتشم وتسب الديك مثلما يفعل الناس فى الشارع ؛ إذ أن مثله الأعلى محمود شكوكو يعتبر أشهر من غنى فى العالم العربى كله . العجيب أن الرسائل التى بدأ يبعث بها إلى الإذاعة والمطربين والملحنين على عناوينهم التى أخذها من مجلات الكواكب وآخر ساعة كان يتلقى عليها ردوداً ترحب بأغنياته فى إعجاب شديد وتبلغه بأنها رهن التنفيذ ..

ولم يكن هذا ليضيرني في شيء ، خاصة أنني طوال قعدتي معه أكل شاراب مدخن محشش دون أن أدفع شيئاً ، سواء سرحت في مشاوير أو لم أسرح . على أنه كان ينجح في الإنتفاع بي ، فبصنعة لطافة جعل مني سكرتيراً خاصاً له ، يملئني الأغنيات كي أكتبها فيما هو مندمج في لعب القمار ، يرسلني لشراء الفراخ والطعام الذي - كما ينبهني دائماً كمبرر لمشواري - سأكل منه ؛ أساعده في الطهي والتنظيف ؛ أذهب لاستطلاع بعض الأماكن التي قد ينوي القيام فيها بإحدى عملياته ثم أعود فأقدم له تقريراً شفويّاً . شهور طويلة تعقبها شهور أطول ، في آخرها شهور أكثر طولاً ومللاً والضنك يتزايد ، وسيد زناتي يفقد شيئاً فشيئاً تمام السيطرة على زوجاته الثلاث ، فأصبح يتحمل شخطنه ونظرهن ، ويمضغ بعض الغمزات القاسية التي يوجهنها إليه ، ويتلع أله إذا عادت إحداهن متأخرة في عمق الليل . لكنه كل حين كان يفقد صبره ، فيطيح فيهن جميعاً بضرب مريح يكاد يكون شروعا في قتل ، بقضيب من الحديد والكرياج وأحيانا بالرأس والبونية والشلايت ؛ وفي مرات عديدة حلف على الواحدة منهن ألا تنام في بيته ما دامت تأخرت ، فتحلس المسكينة ساعات طويلة على عتبة الباب فأفتح لها باب حجرتي لتنام فيها فيما أقفل عائداً إلى سيد فأبقى معه حتى الصباح ؛ وذلك أنه كان قد بدأ يطيل قعدة القمار حتى ضحى اليوم التالي ، سئمت تماماً ، تبقت أن حياتي فقدت كل معنى ، صرت أحن إلى أماكني القديمة التي انقطعت عنها ؛ فأهرب من مغناطيسية زناتي لأيام طويلة ، أتسكع فيها طول النهار ، أحوم الأماكن التي كان لي فيها أصدقاء وزملاء وذكريات ؛ أصطدم بالوحشة والكآبة والملل ، فتلاثة أرباع أصدقائي مقبوض عليهم ، إما لأنهم من الإخوان المسلمين ، أو من الشيوعيين ، أو من أنصار العهد البائد ، إن بالحق أو بالباطل . إشتقت للإفطار مع حمدي الزواوي في دكانه ، لكنني فوجئت بالدكان مغلقاً لعدة أيام ؛ فلما اضطرت للسؤال علمت أنه تم القبض عليه هو الآخر منذ وقت بعيد فأودع سجننا مجهولاً بتهمة غامضة مجهولة ..

لكنني أدمنت حارة بنت عمي لسبب لا أحريه ، صرت أمر بها كل يوم تقريباً في أوقات متغيرة ، حيث أحترقها من أول شارع الصاغة أو من آخره ؛ فأراني

مرغما على الإلتفات والنظر مرتين ، من منزل بنت عمى ؛ كأننى أبحث فى هذين المكانين عن شئ حميم ضائع لا أفقد الأمل فى العثور عليه ..

إلى أن فوجئت بها ذات يوم خارجة من الحارة ، وحلها ، تاركة منزلهم فى وسط الحارة محودة على الرصيف إلى الشارع العمومى ماضية فى اتجاه مبنى المديرية المتاخمة لمحطة السكة الحديد ، دققت فيها النظر جيداً ؛ توقفت عند شفتيها بالذات كعلامة تميزها . كانت هى بعينها ، بدرية ، لكنها تلتف بمعطف من الفرو الأسود كالقوائم الكبار ، وجورب أسود على حذاء أسود ، وتبششق بطرحة سوداء . إنتقلت إلى الرصيف الآخر كى أواجهها . واجهتنى بابتسامة شجعتنى . إندفعت نحوها ، كدت أخلها بالحضن لكننى وضعت كل حرارة الفرح فى يدى إذ ضغطت بهما على ينها الرخصة البضة :

- " إزيك يا بدرية ! والله زمان ! " ..

- " فين أراضيك ؟ ما شغلتك هذه الأيام ؟ " ..

- " لم ألتحق بعد بعمل ثابت لكنها مستورة والحمد لله ! " ..

- " الحمد لله ! " ..

- " أين تلهين الآن ؟ " ..

- " لست ذاهبا إلى أى مكان ! يمكن أن أوصلك ! " ..

- " يا مرحبا ! " ..

مضيت بجوارها صامتا ، متحرجا بعض الشئ ، حتى وصلنا إلى ميدان الساعة . فتوقفت ، جعلت تشير لى على بيتها الكائن ضمن عمارة مميزة الطراز ولونها مرما فى آخر هذا الشارع الفرعى ، فى الدور الرابع . بيت - تقول - مريح وجميل لا يعيبه سوى أنه قطار الدلتا يمر بجذائه فكأنه يخترق قلب العمارة يشطرها ويكمل الكارثة بصغيره الحاد كصوات المرأة الثكلى . قالت أيضاً أنها تفضل عدم اللهاب إلى بيتها الآن لأنها فى ظروف سيئة والبيت فى ظروف أسوأ ؛ وأنها توجهل دعوتى إلى بيتها لوقت آخر ؛ لكن لا مانع لديها الآن من أن ترافقنى فى الطريق أو تجلس معى فى أى مكان لبعض الوقت . أشرت لها على قهوة الطلبة القريبة ذات الجدران الزجاجية . قالت : ليكن ؛ ومضت بجوارى فدخلنا المقهى . قلت فيما أقلب الشاى:

- " من فرحتى برؤيتك نسيت أسالك عن لبس الأسود فى أسود ! ما الحكاية ؟! " ..

نظرت فى وجهى باستنكار شديد ممزوج بالدهشة مع قليل من الاستخفاف :
- " أنت إذن غائب عن الوعى ! لا تعيش فى الدنيا ! ألم تقرأ الجرائد أو تسمع الراديو أو الناس ؟! أمرك عجيب والله يا جدع !! " ..
- " كفى الله الشر ! ماذا حدث يا بدرية ؟! " ..

حاولت أن تتكلم ، وبدا أنها تبحث عن صوتها ، عن قدرتها على تحريك شفתיها . أحمر وجهها صار فى لون اللهب ، تقلصت شفتها السفلى وانثنت تحت فكها العلوى ؛ وهطلت الدموع من عينيها . سرت عدوى البكاء فى بدنى ، فرحت أقاوم رعشة قوية تشملنى من رأسى إلى قدمى ؛ وبين حين وآخر أتمالك نفسى وأجفف دمعى صائحا بها : مالك يا بدرية ؟! فتشرع فى الكلام فيغلبها الدمع فيتشرج صوتها ويضمحل قبل أن تتمكن من إتمام لفظة واحدة . وهكذا لمدة تزيد على الساعة ، وجهى فى وجهها نرتفق المنضدة يكاد رأسى يقرع رأسها نحاول أن نبعد الأنظار عنا بقدر ما نستطيع ، والجرسون يتابعنا من تحت لتحت بأسى شديد تتضح نظراته الخاطفة بالعزاء والمواساة . أخيرا اقتحم علينا المنضدة ببسمة عذبة كأنه يحس بها على رأسينا : " وحدوا الله بقى حرام اللى بتعملوه فى نفسكم ده ! " ، ورفع الصينية بالشاى فاتجه إلى النصة الرحامية المستطيلة المتكررة فى مرايا الجدران ؛ ترك الشاى وجاء بغيره ساخنا طازجا ، فوضعه أمامنا . صرنا نشرب الشاى ، وكان صوتها قد بدأ ينسكب فى أذنى .

القارورة

.. " لقد شنقوا زوجي ! قالوا إنه من مؤسسى الجهاز السرى ! إختاروا له العمل المناسب ! قالوا إنه كان المختص بشراء الأسلحة وتخزينها بحكم خبرته العسكرية إذ أنه كان ضابطا سابقا فى الجيش !..

- " زوجي كان طيب القلب يعلم الله !! بيتنا ليس فيه سوى مسدسه المرحص والله كان يخاف منه خوف الطفل من لمس اللهب !! لا يخرج من درج مكتبه أبدا!!..

- " ألم تسمع محاكمته فى الراديو ؟ كانت تجي كل يوم فى الجرنان !!.. " - " ضربه حتى كسروا عظامه !! كان سيموت وحده بغير إعدام لو تركوه أسبوعا واحدا !! الطبيب الشرعى قال لنا إنه مات قبل شد الجبل !!.. " - " يا للفظاعة ! عمرى ما رأيت حكومة بهذه القسوة !! هه !! يقولون إن الإحتلال رحل عن البلاد !! والله إنه لم يرحل ! هذه حكومة أرسخ من الإحتلال!!.. "

- " جاعونى ذات ليلة ! صحنونى من النوم ! شحنونى مغماة العينين كالبقرة المربوطة فى الساقية فى عربة زرقاء !! فلما فتحت عيني وجدت زوجي أمامي فى غرفة مكتب فيها أفندى مهيب وضباط وعسكر ! قال الأفندى لرجل ضخم الجثة كالحلوف : إخلع ملابسها وملابسك وهيا أرنا رجولتك وغنجها !!.. "

- " ضربنى بالسكين فى قلبى إبن المفضوحة ! تصورت أننى فى مستشفى الجنائين ! وقفت مذهولة ! كل شئ فى جسدى ينتفض ويرتج .. "

- " إبن المفضوحة الآخر خلع ملابس به بالفعل ! بقى بالسروال الداخلى فحسب !! صار يقترب منى كالوحش فاشغأ حنكه !! صوت صرحت تراجعت للخلف ممسكة بطفاية سجائر ثقيلة من البللور متحفزة لشق رأسه بها لو أقترب ثانية!!.. "

- " إبن المفضوحة الأفندى رفع ذراعه يعنى انتظر !! أدار وجهه نحو زوجى قال: تعترف أم نتركه يأكلها أمامك ؟! زوجى قال بكل ثبات : أولا أنا ليس عندى شى أعترف به وثانيا إن كان عبدك هذا رجلا حقا فليرينى كيف يأكلها !! " ..

- " شعرت كأنه نفخ فى جسدى روح القوة ! نظرت الأفندى للرجل الوحش قال: شف شغلك يا محظوظ فإنها جميلة رغم شفيتها الغليظتين !! صار الوحش يخطو نحوى ببطء فاشمخا حنكه ! الأسنان الصفراء الكبيرة " ..

- " صرت أصرخ وأترجع أمامه حتى مسحت حيطان الحجرة بجميع أركانها!! توقف لحظة ثم انقض على مرة واحدة !! زغت من تحت ذراعيه ! ترنحت نشنت بالطفاية على صدره فتلقاها بساعديه فرماها فاندفع بقوة شريرة لا مزاح فيها هذه المرة ! كاد يفلح فى تطويقتى وهو يلهث !! " ..

- " زوجى الضابط السابق كان يلعب الرياضة باستمرار وكان قوى الجسد كجلدع السنط ! فى لمح البصر سحب كرسيه ثقيل كالداهية ! ويديه الإثنتين هوى به فوق رأس الرجل الوحش فانطرح على الأرض جثة هامدة تندلق الدماء من أذنيه وفمه !! " ..

- " هجموا جميعا على زوجى ضربا بالشلاليت والبونيات حتى خلصه الأفندى منهم تجنبنا للوقوع فى مسئولية موته من الضرب !! " ..

- " قلبوا فى الرجل الوحش فلم يحط منطلقا ! ظل منكفئا على وجهه يسبح فى بركة من الدماء !! أشار لهم ابن المفضوحة الأفندى فسحبونى فوضعوا العصبة على عيني ثم شحنونى فى السيارة الزرقاء فتركونى فى قلب البيت وانصرفوا .. " ..

- " بقى صوتهم فى ردة بيتى زمنا طويلا يحلدرنى من فتح فمى بحرف عما حدث وإلا فالمرت فى انتظارى وعائلتى كلها !! " ..

- " لم أقل لك إن أخى الكبير والذى يليه فى السجن حتى الآن بغير محاكمة !! مرة يقولون لإنهما من الجهاز السرى ! ومرة يقولون مجرد اشتباه لعلاقتهم العائلية بالعظمة الكبيرة !! منهم لله ! منهم لله !! " ..

- " أحببت زوجى المرحوم حبا كبيرا " ..

- " ما كان قادرا على الانحجاب نتيجة إصابة في حسده أثرت على أعصابه نالها في حصار الفالوجا في حرب ثمانية وأربعين !! يا ماحدثنى عن هذا الحصار وكيف أنهم رأوا الموت بأعينهم في اليوم الواحد أربعاً وعشرين مرة ! قال إن عبد الناصر كان معهم ! قال أيضا إن عبد الناصر كان معهم فى الإخوان المسلمين ! لكنه لم يقل لى ما سر هذا الثأر البات بين الثورة والإخوان المسلمين ؟ ولم يقل لى ما السر فى الإخوان المسلمين إذا كنا كلنا مسلمين وأقارب ؟ لما كنت أسأله كان يضحك ويأخذنى فى حضنه ويحكى لى عن شهيدات الإسلام حتى أنام .."

- " الله يرحمه كان يحبنى ! كان دائما حزينا من أجل لى لأنه السبب فى حرمانى من الخلفة مع أنه لا يقصر أبدا فى واجباته كرجل ! طلبت منه أن أذهب إلى الدكتور فرما يكون العيب منى ! فمتعنى وقال إنه يعرف أن العيب فيه هو ! وأنه متأكد من ذلك من زمان !!"

- " لكى يرضينى ويضمن حبنى له كتب باسمى كل ممتلكاته : الشقة وفدان الأرض فى بلدته وبعض المواشى فى حوزة بعض أقاربه ! وأوصى أقاربه عندما زاروه فى السجن ! أخبرهم بكل شى حتى لا يضايقونى إذا تعرض هو للإعدام .."

- " الله يرحمه كان يعرف أن مصيره الإعدام ! وكان دائما يتصرف على هذا الأساس !! وندم فى حياته مرة واحدة : عندما عرض عليه أصدقاؤه من المملكة السعودية أن يعيش عندهم كبعض زملائه معززا مكروما فى نفس وظيفته بالمرتبة الذى يطلبه لكنه اعتذر وقال أن مهمته فى مصر وليست فى السعودية وليس من الرجولة ولا من الاسلام أن يهرب من مهمته حتى لو كان يعرف أنه معرض للموت فى سبيلها !!"

- "أنا أقول إن عدم إنجابها وتأكده من عدم الإنجاب جعله زاهدا فى الدنيا وفى الفلوس !! كان كل همه وكل فرحه أن يرى المساجد ممتلئة بالمصلين كأنهم يصلون له هو !! سعادة الدنيا كلها تحط عليه حين ينجح فى تخليص مسلم حقيقى من ورطة أو سداد دين ! مع ذلك لا يفرط فى حق له عند أحد !! لابد أن يأخذه على دابر المليم ! وربما أنفق على نفس الشخص فى ظروف أخرى ضعف ما كان عليه له .."

- "أقاربه الآن يحبوننى ! لم يظهر منهم أى شىء يقلقنى ، ذهب أبى وسجل كل شىء ! واليوم كنت فى بلدته لتصفية بعض الحسابات مع أقاربه ! أكرمونى كرما شديدا ! حملونى بالفطير المشلتت والقرص والجبن والسمن وعسل النحل ! رأسهم وألف سيف أن أقبل هديتهم .."

- "على فكرة ! يمكن أن تخلصنى من الفطير بدلا من تركه للفساد ! أنا لا ثقل لى عليه ! تعال نلذه ! سأنزله لك بالسلة والحبل !!"

- "إعذرنى لعدم دعوتى لك بالصعود إلى الشقة فكل شىء بأوان !! لست أحب أن أريك منظر الشقة وهى فى حالة حداد على صاحبها !! كما أنى أحب أن أحترم ذكره لوقت طويل !!"

- "ما تقول ؟ مشروعك القديم ؟ زواجنا يعنى ؟ فكرة أن تتزوجنى ؟ أنا موافقة ولكن الموضوع يحتاج لتعب كبير ! لن يوافقنى عليه أحد ! وربما يحاربنا أقاربه ! تكون فضيحة بجلاجل وأنا لست حملها بعد ما حدث لى !! على كل حال هذا الكلام سابق لأوانه ! نضعه الآن على الرف حتى يورن الأوان وأعدك أنى إن فكرت فى الزواج فلن أتزوج من أحد سواك إذا شاء الله لنا زواجا !!"

مسك الختام

بعد حوالى عشر دقائق من وقوفى تحت شرفة الطابق الرابع ، هبطت السلة الكبيرة بالحبل . كانت ثقيلة تكاد تهوى إلى الأرض . ينحشر فيها كيس من الدبلان ملآن عن آخره بلفائف الفطير المشلتت والقرص الناعمة الشهية الرائحة وبرطمان العسل النحل وعلبة الجبن . صاحت بدوية من فوق إفريز الشرفة تنبه على بأن أفك عقدة الحبل وأخذ السلة كلها بما فيها . ثم بأطراف أصابعها سحبت من شفتيها قبلة ورمتنى بها . لوحت لها ييدى وقد شعرت كأن القبلة الطائرة قد هبطت على شفتى بالفعل فسال لعابى متحسناً مذاقها ..

علقت السلة فى ذراعى ومضيت من فورى إلى الوكالة شاعراً بالفرح والحماسة لأننى أخيراً سأتمكن من عمل واجب مع سيد زاتنى ورجاله ..

دخلت بالسلة إلى حجرتى فوضعتها وقصدت حجرة سيد زاتنى . كان الرجال لحسن الحظ كلهم هناك . لم يكن سيد زاتنى قد أعد لهم أكلاً كالعادة لأن السوق نائم والدخل معدوم . أدركتهم وهم يتبادلون المقترحات حول عبلة السلمون والجبن القديم بالأروطة والخيار . قلت بفخر خفى :

- " لا داعى للمقترحات ! عشائكم عندى ! فأنا قادم لتوى من البلد ! " ..

قال سيد وهو يشد الهواء بأنفه :

- " أشم رائحة فطير مشلتت ! " ..

- " مضبوط ! غارق فى السمن طازج ! " ..

- " بنا إذن إلى حجرتك ! أنت عزمتنا فلتكن العزومة فى حجرتك ! نغير الجو

والمكان لعل ربنا يفيكها ! " ..

ثم نهض ؛ فنهضوا جميعاً . نزلنا فى موكب لطيف إلى حجرتى ، حوالى ست رجال وثلاث نساء . حملنا معنا بعض الشلت والمساند . جلسنا جميعاً على الأرض ، فردنا الفطير والجبن والعسل فإذا به كمية كبيرة ، حتى اضطررنا لإرسال فطيرة كاملة لشوادفى ، وأنصاف فطائر لمن وجدناهم فى الوكالة ساعتها . أكلنا حتى امتلأنا وفاض الكثير . قررنا أن نكمل السهرة عندى ، فجئى بكل المعدات من

جوزة وحجارة وزجاجات كحول وحشيش ، وورق اللعب . وبدأت لعبة القمار ساخنة حامية .. وشبه عاريات جلس النساء الثلاث فى وسطنا يقمن فى مرج بخدمتنا وإلهاء المغلوب حتى ينسى ليزداد غلبه . والليل يمضى بنفس الحماسة دون أن ندرى ؛ حتى سمعنا لغطاً شديداً عند البوابة ، وصوت صفعة مدوية قالت إنها على وجه شوافى ، كما قالت الأصوات المتعجرفة - دون أن تقول - إن الطاقم الذى يعرف شوافى قد تغير كله ..

ما كدنا ننصت حتى انفتح الباب ؛ وطب فوق رؤوسنا وفد كبير من الحكومة باللباس الرسمى والمدنى . أوقفونا ، فتشونا ، أمعنوا فى التفتيش حتى بين أوراق الكتب . حملونا جميعاً ومعنا ورق اللعب والنقود وزجاجة الكحول والمخدرات والجوزة والحجارة ، عبأونا فى عربة الشرطة إلى مبنى المديرية . سين وحيم : من صاحب الحجرة ؟ قلت إنه أنا ! قالوا لى : مبروك عليك ! قضية لابسة لانقض فيها ولا إبرام !! إدارة المسكن للعب القمار ! وشرب المخدرات والخمر ! وتسهيل الدعارة !! ..

زجوا بى فى التخشبية وحدى . أما الجميع فقد خرج بعضهم بكفالة والبعض الآخر بضمان معرفة سكنهم . ظللت أتمرد فى التخشبية وحدى كفأر مقهور فى مصيدة لا سبيل إلى الخروج منها ؛ لا أحد يسمع خطبى أو رزعى أو صراخى ؛ حتى هدنى التعب والقهر واليأس فأقعيت على الأرض . ثم تكورت على نفسى ، دافنا رأسى بين ركبتى المنتصبين . إمتلأت خياشيمى برائحة عطر نفاذ أرسنقراطى جذاب . رفعت رأسى مستطعاً كأننى فى حلم . لم أر أحداً فى الظلام سوى كتل الظلام المترصة فى التخشبية ، لا حس لا حركة لا صوت . تكورت من جديد فى جلستى المقعبة ، دفنت رأسى ، تسلل العطر من جديد إلى خياشيمى قوياً مبهجاً مثيراً للكآبة معاً ، ذلك أننى تبينت أن يدى قد تركت فى صدرى ووجهى بقايا عطر بدرية الذى تركته فى راحة يدى عند السلام مرتين . وفى الظلام الدامس رأيت قمراً شاحباً مخنوقاً يتمرد على جحافل السحب ليلقى على الأرض نظرة : كانت بدرية تمضى أمامى فى خط مستقيم تتأبط قرطاساً من زهر البنفسج ، فلا

أرى سوى ظهر شبحها الملتف بالسواد يمضي نحو شاهد قبر بدا في رمشة القمر
كقالب من الرماد الأبيض فوق فيل خرافي بارك على الأرض .

(تمت)



عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043



« المرأة الشعنونة تطلع مع الأفندي ذى الشكل المحترم فتسافر به إلى الأسكندرية لتمكث هناك أياماً طويلة حتى تغربلها وتهز هزها ! يعنى لا تترك فيها حياً إلا وسلبت منه أشياء ! تختار عربات الأتوبيس السائرة على الخطوط الطوال ! تختار أشد العربات ازدحاماً ! تركب ومن ورائها الأفندي ! ينحشران زحفاً داخل العربة !! عطر المرأة وجسدها مهرجان كبير . الجميع يحضنون عليها وهى تنزلق من بينهم فى سهولة ! بخبرتها تتوسم خيراً فى أحد الركاب فتقف أمامه مباشرة فيلتصق هو بها فى الحال سعيداً غائباً عن الوعي فيلتصق به الأفندي من الخلف ! صاحبنا يندلق على المرأة والأفندي فى لمح البصر ينتهى من تقليبه وسلب محفظته وكل ما معه بخفة يد لا ترى بالغين المجردة !! حين تشعر هى أن صاحبنا المندلق على مؤخرتها قد اكمل اندلاقه تعرف أن أفنديها قد أكمل استلابه ! فتكثر من حركات التآلم ثم تستدير ناظرة إلى صاحبنا فى تأنيب واحتقار فيلتقطها أحد المتابعين فيدعوها فى الحال للوقوف مكانه موسعاً لها فى الأول حتى يبدأ الإلتصاق بها شيئاً فشيئاً معتمداً على أنها سترد له جميله بالسكوت عنه ! وهى تسكت عنه بالفعل حتى ينتهى الأفندي من تخليص مهمته ! قبل نهاية الخط بقليل يهبطان فلا يبقيا فى الشارع برهة واحدة ! لابد من الاختفاء فى حارات ملتوية أو فى تاكسى أو مترو ! المهم أن من يسعى وراءهما لا يمكن له اللحاق بهما أبداً ! فلا تنس أن الذين عملوها على أنفسهم فى الأتوبيس لن يجروا واحد منهم على إعلان فضيحتهم إذا أكتشف غفلته فى وقت مبكر !! » .

خبرى شلى . أصدق من استطاع وصف السلوك الشعبى معايشة داخل مكانه وليس من وراء المكاتب المكيفة . قلعه المتمرس عرف كيف يطوع الحرف الصامت ليغازل المعنى المطمور داخل اللوحة الغامضة . فلا تلك أمام براعته فى هذا إلا أن تزفها . الحرف والمعنى والصورة . لنفسك راضيا مستبشرا .

لو لم يكتب الروائي خبرى شلى صاحب « الوند » و « الأوباش » و « السنيورة » و « بورترية » و « رحلات الطرشجى الحلوجى » . . . سوى « وكالة عطية » لكفاة .

رواية تختصر لك الحياة فى مكان واحد هو الوكالة . وتختصر لك البشر فى شخص واحد هو «شوادق» .



دار الإجماع للنشر